الحياة اليومية فى مصر الرومانية

تأليف: نافتال لويس

ترجمة وتعليق: آمال محمد الروبى

مراجعة: محمد إبراهيم بكر

المشروع القومى للترجمة

814

المشروع القومى للترجمة

الحياة اليومية في مصر الرومانية

تأليف : نافتال لويس

ترجمة وتعليق : آمال الروبى

مراجعة : محمد إبراهيم بكر

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٨١٤
- الحياة اليومية فى مصر الرومانية
- نافتال لويس
- آمال الروبى
- محمد إبراهيم بكر
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

Life in Egypt Under

Roman Rule

by : Naphtali Lewis

Oxford University Press

© Naphtali Lewis 1983

"Life in Egypt Under Roman Rule was originally published in English in 1983 ... This Translation is published by arrangement with Oxford University Press."

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House. El Gezira. Cairo.

Tel. : 7352396 Fax : 7358084 .

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم المختلفة ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة المترجمة 7
مقدمة المؤلف 11
الفصل الأول : وصول الرومان 21
الفصل الثانى : الطبقات والسكان ، أو تحديد الوضع الطبقى 37
الفصل الثالث : مدن الأقاليم ، أو "مقابلة صغار الأعيان" 65
الفصل الرابع : فلاحو القرى (القرويون)
"قانعون بالقليل ونغنى من السعادة " 105
الفصل الخامس : "المعتقدات والخرافات ووسائل اللهو"
" أعمال الآلهة والشياطين وأيامهم " 133
الفصل السادس : الإنتاج الغذائى ، أو تموين الغلال 167
الفصل السابع : التجارة والحرف ، إنتاج البضائع والخدمات 207
الفصل الثامن : التعداد، والضرائب، والخدمات الإلزامية، أو "هدايا قيصر" 239
الفصل التاسع : "الجهل بالقانون" ، أو "إدارة التشريع" 279
الفصل العاشر : "الثورة والتغيير" ، أو "فوهات براكين السلام الرومانى" 295
الملاحق 313
أسعار البضائع والخدمات 315
الكشاف 317
الوثائق البردية 321
النقوش 322
الخريطة 323

مقدمة المترجمة

يقدم هذا الكتاب صفحة من صفحات نشاط الشعب المصرى، لا تزال الإنسانية تكتشف كثيراً من جوانبها وتستكملها من خلال ما يتم العثور عليه من أوراق البردى اليونانية واللاتينية ، فالإطار الزمنى الذى تتحرك فيه الصورة يبلغ مداه ثلاثمائة عام : من ٣٠ ق .م حتى ٢٨٤ م ، أى منذ أنهى السم حياة الملكة البطلمية كليوباترا السابعة آخر نسل ملوك الأسرة البطلمية التى كانت تحكم مصر منذ فتح الإسكندر الأكبر لها ، وحتى نهاية عصر المواطن الأول ، ثم نتائج هذا التحول وانعكاساته على جميع جوانب الشعب المصرى وآثارها على معيشته اليومية .

يعتمد المؤلف فى المقام الأول فى هذه الدراسة على سيل من أوراق البردى اليونانية، وهى المحررات الشخصية للسكان ، مما جعله على صلة مباشرة بالمكان والزمان ، ووضع يده على نبض السكان ، فهو لم يقابلهم من خلال كتاب أو مسرحية أو كتابات رسمية شاعت أن تصورهم بشخصية معينة ، حقيقية كانت أو خيالا ، أو تمزج بين الاثنين، ولكنه قابلهم بطريقتهم الخاصة التى يرون هم أنفسهم أن يظهروا بها وجها لوجه، أفراداً وجماعات؛ لأن هذه الأوراق التى اعتمد عليها المؤلف لم يقصد كتّابها أن تصل إلينا. إننا سوف نستحضر أحاديثهم ونشاركم عملهم اليومى فى الحقل والحانوت والمصنع والسوق ، وندخل طرفا فى خصوماتهم ومنازعاتهم ، ونضع أيدينا فى أيدى أطفالهم ونصاحبهم فى رحلة التعليم، وسوف نحضر مع بعضهم حفلات تخرجهم إلى جانب مشاركتهم فى احتفالاتهم الأخرى ، كما نشاطرهم أحزانهم ، ونسمع أصوات كهنتهم فى معابدهم وهم يؤدون تراتيلهم ، ونحس بشكواهم وأنينهم من ثقل أعباء الحياة وقسوة الغزاة ومدى احتقارهم لهم، وهم الذين كانوا ملء بكل المقاييس الزمان والمكان ، ولم يتخيل كتاب هذه الأوراق البردية أنها سوف تكون المعين الذى لا ينضب لتتبع خطواتهم وهم يسعون هنا وهناك لعرض قضاياهم أمام المحاكم المختصة ، وذلك قبل أن يعرف العالم للرومان تاريخًا يذكر بآلاف السنين .

إن أوراق البردى تجسد بتلقائية شديدة، ودون تزييف ، أحوال الشعب المصرى فى ذلك العصر ، وهو أمر لم يتوافر لتاريخ وحضارة شعب آخر ، ولا عجب فى ذلك : فمصر كانت موطن زراعة البردى الوحيدة فى العالم القديم وتصدير أوراق الكتابة إليه فى تلك الحقبة . وعلى ذلك فإن هذا الكتاب لا يستعرض تاريخ مصر السياسى وأحداث العصر الملتهبة ، ولكنه يستعرض مختلف الجوانب الحضارية لهذه الحقبة .

لقد عالج الباحث - وهو من كبار المتخصصين فى الدراسات البردية فى العصر الرومانى - هذه الدراسة بدقة شديدة وعلم وهدوء وسلاسة ، لذلك جاء هذا الكتاب نتيجة لتراكم خبرة السنين ، وحصادها ، وعصارة فكره ، ووضعه بين يدى القارئ ليكون شهادة للتاريخ قدمها بصدق وموضوعية لتكون دليلاً على أصالة هذا الشعب وامتداد جذوره الحضارية فى عمق الزمان ، ودافع عنه ضد الأفكار المغرضة التى سادت العصر وانتشرت وترعرعت منذ أن بدأ أوكتافيوس حملته الدعائية ضد كليوباترا وحتى عصرنا الحديث . لكل ما تقدم شدنى الكتاب لترجمته لكى تستفيد منه المكتبة العربية .

ويلاحظ القارئ الكريم أننى أجريت تعديل شكليا طفيفًا على إخراج هذا الكتاب ، فقد قمت بإلحاق كل فصل بقائمة الحواشى الخاصة به ليسهل عليه استخدامها بدلاً من تجميع حواشى الفصول فى نهاية الكتاب. إضافة إلى ذلك وضعت التعليق الخاص بى فى نهاية الصفحة التى احتاجت إلى تعليق أو إضافة مزيد من المعلومات حتى تتكامل المعلومة لديه . ثم قمت فى خاتمة المطاف بإضافة ملحق خاص بجميع مجموعات البردى والأوستراكا العالمية حتى يستفيد منها الطالب والمتخصص .

ولا يسعنى فى نهاية هذا العمل إلا أن أتقدم بالشكر لأستاذتى وصديقتى الدكتورة دورثى تومسون Dorothy Thomposon الزميلة والأستاذة بجامعة كمبردج البريطانية؛ لما قدمته لى من عون عند مناقشة بعض الوثائق ، كذلك فإننى أتقدم بالامتنان والشكر لجميع زميلاتى من عضوات هيئة التدريس بقسم التاريخ كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز لتشجيعهن الدائم لإتمام العمل ، وفى مقدمتهم الدكتورة فايزة أكبر والدكتورة موضى بنت منصور بن عبد العزيز ، والدكتورة ناجية الخريجى ، فلهن منى جميعا جزيل الشكر .

وفى الختام فإننى لا أجد الكلمات المناسبة لشكر كل من أستاذى الدكتور محمد حمدى إبراهيم نائب رئيس جامعة القاهرة الأسبق وأستاذ الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب لما قدمه لى من مساعدات فى إخراج هذا الكتاب بصورته الحالية . له منى الشكر والعرفان بالجميل .

والسعادة الأستاذ الدكتور/ محمد براهيم بكر أستاذ التاريخ القديم وعميد كلية الآداب جامعة الزقازيق ورئيس هيئة الآثار الأسبق لمراجعته الدقيقة لهذه الترجمة مما يجعل لسانى عاجز عن تقديم واجب الشكر والعرفان بالفضل الذى يليق بسعادته .

وعلى الله قصد السبيل

القاهرة ٢٣ يونيو ٢٠٠٥

مقدمة المؤلف

هناك قول مأثور وحقيقة مسلم بها وهى: "إن التاريخ يكافئ دائماً المنتصرين". إن تاريخ روما وتكوينها لإمبراطوريتها سجل متصل للنجاح العسكرى ونجاح نظامها الإدارى ، أما الخاضعون لها فنادرا ما نسمع صوتهم ، فنحن نسمع عادة صوت مؤيديها الذى وصل إلينا من خلال الكتّاب والمؤرخين الرومان ، أو أولئك التابعين لها من أمثال المؤرخ الإغريقي بوليبيوس Polybius ، والمؤرخ اليهودى يوسف Josephus .
ولكن هناك استثناءين من هذه القاعدة : يتمثل الأول فى الإغريق الذين نعرف عنهم ونُعْجب بهم اليوم كثيراً بسبب مواصلة الإبداع الأدبى والفلسفى لقرون طويلة فى أثناء خضوعهم للحكم الرومانى ، والثانى عن سكان وادى النيل القدماء الذى لا يُعرف عنهم اليوم سوى مجموعة محددة من المعلومات ، ولم تأت المعرفة من خلال إنتاجهم الأدبى – الذى كان قليلاً وكان يمكن أن يرسم صورة ويقدمها عنهم – ولكن من خلال مئات الآلاف من أوراق البردى وقطع الفخار (الأوستراكا ostraca) التى ترجع للعصر الرومانى، وكُشف النقاب عن كم منها يقدر بمئات الآلاف، تم استخراجها من أطلال المدن والقرى القديمة فى السنوات القليلة الماضية هناك . إن هذه الوثائق التى تم الكشف عنها وصلتنا بحالتها الأصلية التى كتبت بها، غير مزيفة ، ولم يقم أحد من الكتاب القدامى بترجمتها. إن هذا السجل الحافل الذى تقدمه هذه الأوراق لم يتوفر لأى ولاية رومانية أخرى ، وترتب على ذلك قيام الصلة الحميمة والمباشرة بيننا وبين سكان وادى النيل: فى حياتهم الخاصة، وفى الطريقة التى يفكرون بها، وفى ممارستهم لأعمالهم ، وفى علاقتهم بإدارة بلادهم. وعلى الرغم من استفادة مصر وتاريخها من هذا المصدر الفريد من المصادر المادية ، فإن كتابة تاريخ مصر مازالت تدور فى إطار القالب التقليدى من خلال دراسة نظم الحكم الرومانية . ولذلك فإن هذا الكتاب يتناول

الموضوع بطريقة مختلفة ، من حيث اعتماده فى المقام الأول على المصادر المادية الملموسة . وهو يُعنى بأفراد الشعب فى المقام الأول ، أولئك الذين كتبوا تلك الأوراق الخاصة أو الرسمية ، والذين تظهر شخصياتهم من خلالها . ومن أجل ذلك فإننا نحاول أن نجيب فى هذا المؤلف عن السؤال التالى :

ما نوع الحياة التى كان يعيشها سكان مصر خلال العصر الرومانى ؟

إن مثل هذه النظرة إلى الطبقات الشعبية لا يمكن أن تقدم لنا من أى مكان آخر فى دوائر العالم اليونانى والرومانى . حقيقة ، إن مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين تقدم لنا قاعدة عريضة من المعلومات الفكرية المادية لذلك العصر ، وقدمت النصوص اليونانية واللاتينية – التى بدأ يُكشف عنها منذ عصر النهضة وحتى الآن – فيضاً من المعلومات التى يمكن للدارسين من خلالها معرفة أشياء تتجاوز مؤلفات الكتاب الكلاسيكيين : إذ استطعنا أن نتتبع مصادرهم وقضاياهم ، ونعرف جوانب القوة والضعف فى مؤلفاتهم، ونشرح أهدافهم ونميز أغراضهم ، إلا أنه بالإضافة إلى كل ما تقدم تجمعت لدينا مصادر أخرى تضم معلومات هائلة عن آلاف النقوش الحجرية – بعضها دُوِّن على ألواح برونزية – التى دونت باليونانية واللاتينية تم العثور عليها فى أنحاء متفرقة من الإمبراطورية الرومانية ، وتبدأ أهميتها من شواهد قبور متواضعة ، وأختام طينية ، لتصل إلى القرارات الرسمية والإمبراطورية ، ولكنها لم تلق سوى اهتمامًا متواضعًا من الدارسين الكلاسيكين ، الذين كانوا يركزون على دراسة أعمال المؤلفين القدماء ، ونتيجة لعمل مضنى منذ أوائل القرن التاسع عشر ظهر علم "قراءة ودراسة النقوش" وارتفع إلى مستوى مصدر ضخم لا يمكن تعويضه من مصادر دراسة التاريخ والحضارة الإغريقية والرومانية .

وتتميز مصر بكونها فريدة بين دول البحر المتوسط التى قدمت لنا مصادر هائلة من المعلومات التى دونت على أوراق البردى التى كان يتم تصنيعها فى مصر ويستخدمها العالم القديم. وقد اختفت هذه الأوراق التى استخدمها العالم القديم – فيما عدا مصر –

إذ حللتها رطوبة التربة ، أما مصر فقد حفظت رمال صحرائها الجافة هذه الأوراق بين خرائبها الأثرية حين قام الحفارون وعلماء الآثار بكشف عشرات الآلاف منها ، والآلاف من قطع الأوستراكا ، وهى تلك الشقافات الفخارية التى سجلت رسائل عليها . وهى تغطى الفترة الزمنية من بداية الألف الثالثة قبل الميلاد حتى نهاية الألف الأولى الميلادية . حقيقةً عثر على أوراق متفرقة من أوراق البردى فى أنحاء العالم خارج مصر كانت لها ظروف مناخية مشابهة لمصر ، مثل تلك الوثائق التى عثر عليها فى صحراء الأردن ، وصحراء النقب فى إسرائيل ، وهى ترجع إلى العصر الرومانى والعصر البيزنطى المتأخر، كما عثر على ملف من البردى يتضمن تعليقًا على أشعار للرثاء فى أحدى مقابر مقدونيا يرجع تاريخها إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، بالإضافة إلى عدد من كتب مكتبة هيركولانيوم Herculaneum التى تفحمت وتحجرت بفعل ثورة بركان فيزوف الشهير الذى يقع بالقرب منها عام ٧٩ م . وفى ربيع عام ١٩٨١ أوردت الأنباء نبأ الكشف عن ملف صغير من أوراق البردى عثر عليه فى إحدى مقابر أثينا يرجع تاريخه إلى عام ٤٥٠ / ٤٠٠ ق . م . ونظرا لحالة الملف السيئة فلم نستطع أن نعرف عنه شيئًا حتى الآن ، وتأتى أهميته من كونه يعد أقدم نص عن الكتابة الإغريقية القديمة . وهكذا تظل مصر فريدة فى عدد ما عثر عليه فيها من أوراق البردى ، بالإضافة إلى العدد الهائل من سلسلة الحوليات البردية التى عثر عليها هناك .

بدأ الرحالة والضباط الأوروبيون منذ عام ١٧٧٠ يحملون معهم عند عودتهم إلى بلادهم من مصر نماذج من أوراق البردى القديمة ، بل لقد حمل بعضهم معه ملفات منها مكتوبة بالهيروغليفية واليونانية . ومع نهاية عام ١٨٧٠ بدأ عصر الكشف المكثف عن أوراق البردى ، وقد ظهر كنز منها فى سوق العاديات فى القاهرة لأول مرة عندما عثر فلاحو الفيوم على آلاف من تلك الأوراق المسجلة باليونانية واللاتينية والقبطية والعبرية والسريانية والفارسية والعربية عند قيامهم بالبحث فى أكوام السماد فى خرائب القرى القديمة ، ووصل الجزء الأكبر من هذا الكنز إلى المتاحف الأوروبية عندما قام قناصل دول إنجلترا وفرنسا وألمانيا باغتنام الفرصة لشرائها . أما نصيب

الأسد منها فقد حصلت عليه النمسا الذى بلغ مجموع الأوراق البردية فى مكتبة متحفها القومى - مكتبة المتحف الإمبراطورى سابقًا - حوالى ١٠٠٠٠٠ ورقة بردية. كتب حوالى ٧٠٪ من هذه الأوراق باللغة اليونانية .

وفى عام ١٨٨٢ أسست فى إنجلترا لأول مرة لجنة لتمويل الكشف عن الآثار فى مصر Egypt Exploration Fund - وتسمى الآن Egypt Exploration Society - وأصبحت مسئولة منذ ذلك التاريخ عن إجراء الحفائر فيها . وبدأت عملها منذ عام ١٨٩٥ لعدة مواسم متصلة ، حيث قامت بإجراء الحفائر فى الخرائب التى ترجع للعصر الهللينستى والرومانى، ونشطت هذه اللجنة فى عملها عندما أشرف عليها اثنان من الشباب المتخصص فى الدراسات الكلاسيكية فى كلية الملكة Queens College فى جامعة أكسفورد وهما : جرنفل B.P. Grenfell ، وهنت A.S. Hunt ، اللذان قاما بتطوير أدواتهما بنفسيهما ، واستعانا بعلم الموازين والمقاييس الطبيعية والوسائل العلمية - المتاحة فى ذلك الوقت - وكشفت حفائرهما عن الكثير مما يستحق المشاهدة، من بينها الأوراق البردية التى تمكنا من نقل الآلاف منها إلى جامعة أكسفورد .

كانت منطقة البهنسا التى تبعد حوالى مائتى كليو متر صعودا على مجرى النهر (جنوبى) القاهرة ، هى أكثر المناطق ثراء فيما كشفت عنه حفائر جرنفل وهنت ، لقد تمكنا منذ بداية موسم حفائرهما الأول من العثور على مصادر أثرية مهمة عندما قاما بإجراء الحفائر الأثرية فى عاصمة إقليم البهنسا Oxyrhnchite nome وبدأ عملهما بالحفر فى جبانة الإقليم ، ولما كانت حفائرهما فيها مخيبة للآمال فقد انتقلا منها إلى عاصمة الإقليم . وعلى الرغم من تقارير جرنفل المتزنة التى كان يقوم بإرسالها إلى اللجنة فى إنجلترا فإننا يمكننا أن نحس بمشاعر الإثارة التى كانت تتملكه فى أثناء فترة الكشوف حيث يقول :

"عندما قمنا بالتحرك شمالاً إلى مناطق أخرى ، أصبح نهر البردى جارفًا ، حتى أصبح من الصعوبة بمكان مجاراته .... لذا استأجرنا رجلين لصناعة صناديق من القصدير لحفظ الأوراق فيها ، وتمكنا خلال الأسابيع العشرة التالية من الانتهاء منها

بصعوبة ، ولم يكن أمراً نادراً العثور على أعداد كبيرة من البردى متجمعة معا خصوصاً فى ثلاثة أكوام من التراب ، كانت الأعداد هائلة مما دفعنا إلى الاعتقاد بأنها تمثل جزءاً من دار الوثائق العامة المحلية التى استخدمت لحقب زمنية متتالية. وكان أضخم ما تم العثور عليه فى الفترة من ١٨ إلى ١٩ مارس فى ثالث هذه الأكوام ، أوراق أرشيف يرجع للعصر البيزنطى ؛ ففى يوم ١٨ مارس وصلنا فى الحفر إلى طبقة سميكة تضمنت أغلب الملفات ، وكان يعمل فى المستودع اثنا عشر رجلاً وصبيا لحفظ ما تم استخراجه ، وأصبح من الصعوبة بمكان أن نحصل على السلال الكافية لوضع الأوراق فيها ، وفى نهاية اليوم استطعنا الحصول من البهنسا على ٣٦ سلة من الحجم المطلوب . وبعض الأوراق التى عثر عليها كانت محفوظة بطريقة جيدة ، وتراوح طول بعضها بين ثلاثة وعشرة أقدام ، وهى تمثل أطول اللفافات التى وقعت عيناى عليها، ولما كنا فى حاجة شديدة إلى السلال لكى نضع فيها إنتاج اليوم التالى من الحفائر فقد قمت أنا وهنت بوضع البردى فى الحقائب الفارغة التى كانت تحت أيدينا بعد تناول طعام العشاء الساعة التاسعة ، واستغرق العمل حتى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى . ثم قمنا فى مساء اليوم التالى بإعـــادة العمل وذلك بإفراغها فى ٢٥ سلة أخرى" (١) .

وإلى جانب البردى الذى عثر عليه فى أماكن عديدة – فى مصر العليا بصفة عامة وفى الأماكن الفقيرة منها بصفة خاصة – تم العثور على كميات كبيرة من الأوستراكا المدونة بنوع الحبر القديم نفسه المصنوع من السنّاج ، الذى كان يستخدم فى الكتابة على أوراق البردى .

ويلاحظ على الكتابة المدونة على الأوستراكا أنها كانت قصيرة تتضمن قوائم بأسماء ، وخطابات ، وواجبات مدرسية ، بالإضافة إلى إيصالات خاصة بالضرائب ، وإذا قمنا بتجميع المعلومات التى تضمنتها ، فيمكن أن تضيف قيمتها إلى ما تقدمه أوراق البردى . وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن استخدام هذه الأجزاء الصغيرة من الشقافات ، لم يكن الهدف منه حفظها لمدة طويلة ، ولكنها استخدمت نظراً لرخص

(١) Egypt Exploration Fund Archelogical Report, 1896 -1897, pp. 5.9.

تكاليفها . حقيقة، يبدو أن البردى لم يكن مرتفع الثمن فى بلد صناعته وإنتــاجه ، وكان يمكن شراؤه والحصول عليه بسهولة، ولكن هذه الشقافات كان يمكن الحصول عليها من أى منطقة من المناطق التى تلقى فيها المخلفات ، وبالتالى لم تكن تكلف المرء شيئًا .

وتعد أكوام المخلفات أكثر المناطق ثراء للحصول على البردى القديم ، فهى عبارة عن مستودعات لكل أنواع مخلفات الورق ، وصولاً إلى الملاحظات الشخصية على الوثائق الرسمية والكتب . وبالإضافة إلى ما تقدم ، تم العثور على أعداد كبيرة منها بين أطلال المنازل والمبانى المنهارة .

أما البردى الذى عثر عليه فى الجبانات فقد استخدم فى المقام الأول بصفته عادة من عادات الدفن التى كانت شائعة لعدة قرون ، خصوصًا فى إقليم الفيوم ، حيث كان يستخدم فى تغليف مومياوات التماسيح (*) والأفراد كطبقة من الكرتون المصنوع من البردى بدلاً من تغليفها بطبقة من نسيج الكتان كما جرت عليه العادة ، وفى بعض الأحيان غلفت المومياوات بطبقة واحدة من ذلك الكرتون ، وفى أغلب الأحيان غلفت بعدة طبقات ملتصقة لضمان مزيد من الصيانة والحفظ لها وكذلك لتغطية سطحها بالرسوم، واستخدمت الآن الطرق الكيميائية لفصل هذه الطبقات عن بعضها البعض دون أن يؤثر ذلك فى الكتابة المدونة عليها . واتضح من النصوص المدونة على تلك الأوراق أنه لم تستخدم فيها الأوراق التى لم تكن هناك حاجة إليها فحسب ، بل صفحات من كتب تم فصلها واستخدامها ، والملاحظ أن أوراق مثل هذه الكتب كانت فى حالة جيدة ، ولذلك يبدو أنها كانت نوعًا من أنواع الهدايا الجنائزية (؟) وشاع استخدام أوراق البردى فى عملية التحنيط فى العصر البطلمى ، ولكنها لم تستمر لفترة طويلة فى العصر الرومانى، ولا نعرف السبب وراء ذلك (**) .

وقد نتج عن الحفائر الأثرية التى قامت بها بعثات كثير من الدول ، وأيضًا عن طريق شراء أوراق البردى من أسواق العاديات أن تجمعت أعداد طائلة منها : كبيرة وصغيرة، وكذلك من قطع الفخار (الأوستراكا) فى المتاحف العامة والجامعات (وبعضها

(*) كانت عبادة التمساح ضمن العبادات الرئيسية فى الفيوم . (المترجمة)

(**) ربما لتغير عادات الدفن نظرًا لبدء انتشار الديانة المسيحية فى مصر منذ مطلع القرن الأول الميلادى. (المترجمة)

فى المكتبات الخاصة) لكل من دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بالإضافة إلى مصر نفسها . وكما ذكر "جرنفل "فإن هذا البردى الذى تم العثور عليه يتراواح فى حجمه من شذرات صغيرة جدا إلى ملفات كاملة ، ويمثل النوع الأخير ملف كامل عثر عليه فى قرية كرانيس ومحفوظ الآن فى جامعة ميتشيجان، ويتكون من ٦٠٠٠ سطر(*). وعدد قليل من هذه الأوراق مكتوب باللغة اللاتينية، وهى عبارة عن سجلات للجيش الرومانى المحتل ، وعثر على عدد قليل منها مكتوبًا باللغة المصرية بالخط الديموطيقى ، وهو الشكل المتأخر المبسط للكتابة المصرية القديمة . أما بقية وثائق العصر الرومانى فهى مسجلة باللغة اليونانية التى أضحت اللغة الشائعة Lingua Franca فى شرقى البحر المتوسط منذ حملة الإسكندر المقدونى على الشرق ، وكان الإسكندر قد خلف بعد موته فى الحكم ابنه من الناحية الاسمية ، ولكن الحكم آل فى حقيقة الأمر إلى اثنين من كبار قادته العسكريين حيث أسس بطلميوس الحكم البطلمى فى مصر ، وآل الحكم فى سوريا إلى الأسرة السليوقية .

وفوجئ الرومان عندما قاموا باحتلال المنطقة واحدة وراء الأخرى بمدى تقدمها ورقيها الحضارى ، ومن ثم لم يجدوا حاجة إلى التدخل فيها وإثارة مشاعر سكانها بالقيام بتغيير عاداتهم ، ومارسوا فيها سياسة – متعقلة ، متسامحة غير مبالين بمصالحهم الخاصة كما يرى البعض – يمكن اعتبارها السبب الرئيسى فى استمرارية حكمهم الطويل لها .

وبعد أن سلطت الأضواء على هذا الكم الهائل من أوراق البردى وقطع الفخار (الأوستراكا) أصبح أمام المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية نوعا من أنواع التحدى الرائع ، وعاد العلماء بدراستهم لأنواع الخطوط Palaeography لألف عام إلى

(*) نشر هذا الملف فى مجموعة بردى ميتشيجان فى المجلد رقم (٤) وقامت المترجمة بدراسته دراسة تفصيلية حيث تمكنت من حل مشكلة العملة التى كانت تحصل بها ضريبة الرأس Laographie فى قرية كرانيس Karanis فى إقليم الفيوم، وقد نشرت ذلك فى رسالة الدكتوراه الخاصة بها التى تحمل عنوان : "كرانيس فى العصر الرومانى دراسة اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق البردية ٣٠ ق.م ٢٨٤م" . والتى حصلت بها على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٦ . (المترجمة)

الوراء من تاريخ المخطوطات المعروفة فى العصور الوسطى . إن هذه المخطوطات التى وضعت تحت الأضواء تبدأ من الكتب المدونة بالخط المنمق المتناسق ، إلى ما دونه الكتاب المهرة بالخط الدارج المبسط Cursive ، وتلك الخطوط التى دونها أنصاف المتعلمين لتصل إلى الكتابات التى دونت بطريقة المخربشات والتى يصعب فهم محتواها ، وهكذا تضاعف عبء العمل فى نشر البردى المسجل باللغة العامية التى كتبها غير المتعلمين : من ناحية الترجمة لامتلائها بالأخطاء الإملائية والنحوية ، مما أدى إلى نمو فرع آخر من الدراسات الكلاسيكية . وفى السنوات الأولى منذ بداية عملية الحفر والتنقيب بدأ "جرنفل" و"هنت" فى نشر النصوص التى بين أيديهما من الوثائق الأدبية والرسمية بطريقة محمومة ولكنها ماهرة ، حتى أنه كان من الصعوبة بمكان مناظرتها ، فهما يعتبران مع كل من "كينون " F.G. Keynon من المتحف البريطانى ، و"فيلكن" U. Wilcken ومساعديه فى برلين الرواد الأوائل الذين وضعوا أسس علم جديد فى الدراسات الكلاسيكية ، ألا وهو علم دراسة أوراق البردى . وفى أثناء قيامى بكتابة هذا المؤلَّف فى أكتوبر عام ١٩٨١ كان قد تم نشر ٣٤٣٠ ملفًا ووثيقة بردية نشرت فى ٤٨ مجلدا من مجموعة بردى البهنسا The Oxyrhynchus Papyri التى تعد من أضخم المجموعات ، ولا يزال نشرها يتوالى تباعا ، كذلك تم نشر ٢٥٠٠٠ وثيقة بردية من العصر الرومانى فى مجموعات متفرقة ، ويبدو أنه لا يزال هناك ضعف هذا العدد الذى لم يتم نشره حتى الآن (*) .

وفى الجانب الآخر فإن الوثائق الرسمية أو تلك التى لها صفة تعاقدية جرت العادة على أن يتم تأريخها، ولكن فى حالة وصول هذه الوثائق غير كاملة فإن التاريخ يفقد منها. كذلك كان يمكن أن تصل إلينا الوثيقة كاملة ، ولكنها غير مؤرخة وذلك فى حال كونها مسودة أولية أو نسخة من وثيقة ، ويتم تأريخ الوثيقة بذكر سنة حكم الإمبراطور الرومانى ، ثم ذكر الشهر واليوم ، ويتم حساب السنة الأولى من حكم الأباطرة منذ

(*) ومن عام ١٩٨١ وحتى عام ١٩٩٧ تم نشر حوالى خمسة آلاف بردية، طبقًا لما ورد ذكره فى الكتاب الجامع لأوراق البردى S.B. = sammelbuch . (المترجمة)

اليوم الذى يبدأ فيه الإمبراطور تولى مهام منصبه - مما يعنى أن تاريخ يوم تولى الإمبراطور لعرش الإمبراطورية كان معروفًا فى مصر، أما من الناحية العملية فكان يتم هذا بعد مضى فترة تتراوح من شهر إلى أربعة أشهر من توليه السلطة - إلى نهاية السنة الجارية طبقًا للتقويم المصرى ، أما السنة الثانية من تولى الإمبراطور السلطة والسنين التى تليها فكانت تبدأ من اليوم الأول من السنة المصرية الجديدة وهو اليوم الأول من شهر توت ، الموافق ٢٩ أغسطس من السنة الرومانية ، وهذا يعنى أن التواريخ المذكورة فى هذا الكتاب تتفق مع تقويمنا المذكور أو الذى أضيف إليها .

ويمكننا أن نلخص ما تقدم بأن نقول : إن أوراق البردى اليونانية واللاتينية والأوستراكا قدمت وما زالت تقدم لنا معلومات لا مثيل لها عن الحضارة القديمة ، وأضافت إلى الكتب الكلاسيكية المعروفة منذ عصر النهضة عدة كتب أخرى كانت مفقودة ، وقليل من هذه الكتب وصل إلينا كاملاً ، ويتمثل أغلبها فى عدة شذرات ، كذلك تم إضافة بعض الشذرات إلى الأعمال المعروفة والتى تسبق زمنيا بألف عام مخطوطات العصور الوسطى الموجودة . أما الغالبية العظمى من أوراق البردى فهى أوراق غير أدبية ووثائق ، وقليل منها مثل النقوش حفظت سجلات شعبية ومراسيم ، وتشريعات ، وسجلات رسمية من مختلف الأنواع ، وبقية الأوراق تتضمن الكتابات التى تدور فى الحياة اليومية كتلك الكتابات التى مازال يكتبها اليوم الناس العاديون على الأوراق مثل: الحسابات، والعقود، والخطابات، والملحوظات، والمذكرات اليومية ، والتدريبات ، والمخربشات ، وهذه المصادر تقدم لنا نظرة قريبة عن "الأغلبية الصامتة" من الرجال والنساء والأطفال فى المنطقة الوسطى والدنيا للمجتمع فى حياتهم اليومية . إننا نرى المحكومين فى المصادر الأدبية من خلال عينى المؤلف ، وفى الثوب الذى يعرضه لهم ، أو الشرح الذى يقدمه عنهم ، ونقرأ فى النقوش ما تريد الحكومة أو الأفراد أن يحفظوه للمستقبل ، كما كان الأثر يُشَيَّد برؤية على المستقبل مثلما هى على الحاضر ، أما البردى فهو المصدر الدنيوى الوحيد والباقى الذى حفظ رسالته كما هى فى الظروف الخاصة التى أحاطت بها ، ويمكننا أن نطلق عليه ما تسميه فرجينيا وولف Virginia Woolf " لحظة الوجود " ، فنحن يمكننا فقط من خلال هذه

الأوراق الإمساك بهذه اللحظة الحيوية في شئون الحياة ، ونكون على صلة مباشرة بالظروف وبالناس ، فنحن نقابلهم ليس كشخصيات كتاب أو فى مسرحية ، ولكن من خلال شروطهم هم وجها لوجه ، أفراداً وجماعات .

إن الفصول التى يتضمنها هذا الكتاب تدور فى إطار زمنى يبلغ مداه حوالى ثلاثمائة عام : من عام ٣٠ ق.م وحتى عام ٢٨٥ م ، أى منذ فتح "أوكتاڤيوس " لمصر وحتى نهاية عصر نظام المواطن الأول Principate ، الذى أسسه بعد أن منح لقب أغسطس ، أما الفترة الزمنية التى أعقبت عام ٢٨٥ م التى يطلق عليها : عصر الحكم الفردى Dominate والتى كان الحكم فيها بيد أباطرة رومان ، فحدثت فيها تغييرات دستورية أسرعت بها فى اتجاه العصر البيزنطى ، وتلك قصة أخرى .

الفصل الأول

وصول الرومان

الأسرة البطلمية

بزغ فجر منتصف أغسطس لعام ٣٠ ق.م. كأى يوم آخر فى صيف مصر الحار، ولكن فى هذا اليوم نفسه بدأ الرومان يحولون أنظارهم نحو ملكتهم عندما استطاعت إحدى وصيفاتها المخلصات أن تهرب لها وسيلة الانتحار وهى حية سامة من نوع الكوبرا التى كانت تصور على غطاء الرأس الملكى المصرى ، وإذا جاز لنا أن نصدق الشعراء الرومان أمثال "فيرجيل" Virgil و"هوراس" Horace و "بروبرتيوس" Propertius فإن وصيفة الملكة كليوباترا هربت إليها زوجا من الحيات السامة قامتا بلدغها فى ذراعها الأيسر ، ويصر فريق آخر على أنها لدغتها فى ذلك الجزء العارى من الجانب الأيسر من الصدر ، وهكذا فإن هناك كثيراً من التفاصيل الجانبية مازالت تدور حولها الخلافات ، أما الحقيقة الواضحة فتقول : إن السم قد أنهى حياة كليوباترا(*) السابعة التى لقبت بـ "ثيافيلوباتور" Thea Philopator (أى الإلهة المقربة إلى أبيها) ، والتى تعد آخر سلالة البطالمة ، تلك الأسرة المقدونية الأصل التى حكمت مصر قرابة ثلاثة قرون منذ هزيمتها على يد الإسكندر المقدونى[١] . أما "أوكتافيوس" أغسطس الفاتح الجديد ، الذى كان قد اعتزم أن يعرض الملكة فى موكب نصره triumphus(**) عند دخوله روما، فقد تفرس بسرعة فى جسدها المسجى أمامه، الذى كان يسخر من نصره، وابتلع

(*) يعنى اسم كليوباترا Cleopatra : ربة التاريخ المحببة إلى أبيها . (المترجمة)

(**) يكافأ القائد الرومانى الذى يحقق النصر العسكرى بامتيازين مهمين: يتمثل الأول فى الحصول على لقب إمبراطور Imperator، والثانى فى الاحتفال بانتصاره ودخول روما فى موكب نصر كبير Triumphus، وقد نظم القانون والعرف كلا الامتيازين ، أما الامتياز الأول وأعنى لقب إمبراطور فهو لقب شائع يطلقه الجنود على قائدهم ومعناه "القائد الأعلى" المظفر ، ولم يكن فى استطاعة القنصل =

مرارة خيبة أمله ، وشرع ينظم شئون الحكومة ، وقبل نهاية شهر أغسطس كانت مصر "قد أضيفت رسميا إلى إمبراطورية الشعب الروماني" ، بهذا الإعلان الموجز والذكى الذى لم يتجاوز كلمات خمس: Aegyptum imperio populi Romani adieci سجلها بنفسه فى نقشه الذى دونه فى أواخر حياته والمعروف باسم أثر أنقرة (*) . إن أوكتافيان الذى أصبح منذ الآن يلقب بأغسطس Augustus يشير إلى الأسباب

= استخدامه كجزء من ألقابه الرسمية إلا إذا تمكن من إحراز نصر عسكرى كبير على الأعداء ، ووضعت عدة شروط لكي يتمكن القائد من احتفاله بانتصاره في موكب نصر كبير داخل مدينة روما Triumphus منها أنه لابد من عودة الجيوش المنتصرة مع قائدها ، ولقد منع هذا الشرط كثيراً من القادة المظفرين من الاحتفال بنصرهم والزهو به داخل مدينة روما ، حيث أرغمتهم الدواعى العسكرية على تسليم قواتهم إلى خلفائهم فى المنصب بعد انتهاء مدى حكمهم ، ولحل هذه المشكلة كان يستبدل بموكب النصر الكبير موكب أخر صغير Ovatio، ومن شروط الاحتفال بموكب النصر الكبير ألا يكون هذا الانتصار مجرد سحق لتمرد المواطنين أو العبيد لأن مثل هذه الانتصارات كانت تعطى حق الاحتفال بموكب نصر صغير، بل لابد من أن يكون انتصاراً كبيراً على الأعداء وأن يكون قد قتل منهم ما لا يقل عن خمسة آلاف . واختار بعض القناصل الاحتفال بموكب نصرهم فوق جبل ألبا، وفضل آخرون الاحتفال به فوق تل الكابتول ، لكى يزهو كل واحد منهم بسلطته العسكرية فى داخل المدينة In Domi. وفى هذه الحالة كان لابد من موافقة السناتو والشعب على منح القنصل حق ممارسة سلطة الأمير يوم العسكرى على قواته العسكرية لمدة يوم واحد داخل المدينة ، وفى الواقع كان فى إمكان مجلس السناتو أن يرفض إعطاء القنصل – صاحب الموكب – المال اللازم للإنفاق على الاحتفال العسكرى الكبير ، وفى ختام الاحتفال بموكب النصر يتم تنفيذ حكم الإعدام فى كبار أسرى الحرب من الزعماء والقادة وسط تهليل الشعب الرومانى المحتشد لمشاهدة الاحتفال ، وبعد أن يكونوا قد ساروا فى موكب النصر مكبلين بالأغلال مهلهلى الثياب حفاة الأقدام وهذا ما كانت تخشاه كليوباترا وفضلت عليه الانتحار بكبرياء الملوك . (المترجمة)

(*) سجلت هذه العبارة فى أعمال المؤله "أغسطس" "Res Gestae Divi Augusti" المشهور باسم أثر أنقرة Monumentum Ancyranum والتى أتم أوكتافيوس كتابتها قبيل وفاته عام ١٤ م ، بشهور قليلة ويصف العلامة "مومسن" هذا النقش بأنه غرة النقوش اللاتينية -Titules Inter Lations Primari us وذلك لأهميته فى تاريخ الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية أو فترة الانتقال من الجمهورية إلى الإمبراطورية (٤٤ – ٢٧ ق.م) وعصر أغسطس من ٢٧ ق.م ١٤ م ، ويتضمن النقش سجلاً بألقاب أغسطس وسلطاته ومناصبه التى قبلها والتى رفضها ، وسياسته المالية والعمرانية ، وسياسته العسكرية وفتوحاته ، وكان أغسطس قد أمر بتدوينه على عمودين مستطيلين مغطى كل منهما بلوحات من البرنز وإقامتهما أمام ضريحه فى ساحة الإله مارس Compus Martius خارج حدود مدينة روما -Pomeri um فقد النقش الأصلى وعثر على صورة منه عام ١٥٥٥ فى أنقرة مكتوب من صورتين ، واحدة باللاتينية والأخرى باليونانية ، واكتشفت نسخة أخرى يونانية غير كاملة فى بلدة أبوللونيا بيسيديا بآسيا الصغرى، وأخيراً اكتشفت نسخة ثالثة فى شكل شذرات باللاتينية فى أنطاكيا Antiocheea ، وعن =

الحقيقية للحرب الأهلية التى شنها ضد "أنطونيوس " والتى قادت استيلاء روما على مصر ، إن هذا التعبير الموجز يقدم لنا لمحة عن حقيقة أن العلاقات المصرية الرومانية كان لها تاريخ طويل سابق(*) .

بعد وفاة الإسكندر الأكبر وتقسيم إمبراطوريته ، كانت مصر من نصيب بطلومايوس Ptolemaios – أو بطليموس كما يكتب فى اللغة الإنجليزية – الذى نجح فى تحويلها من ولاية خاضعة لمقدونيا إلى مملكة اعتلى عرشها ، وتمكن من إضافة عدة أقاليم أخرى إلى ملكه، وبدأت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وروما منذ عام ٢٧٣ق.م. أى قبل عامين من هزيمة الملك "بيروهس" ملك إبيروس Epirus ، صاحب الانتصار المعروف ، على يد الرومان وإرغامه على إنهاء غزوه لإيطاليا . ويبدو أن هذه الأنباء هى التى دفعت بطليموس الثانى الملقب بـ"فيلادلفوس" Philadelphus (المحب لأخته والتى تزوجها) أن يقوم بإرسال سفارة إلى روما لتبادل علاقات الود والصداقة معها . أما الممالك الهللينستية الأخرى فقد كانت سعيدة بتجاهل تلك الأحداث التى كانت تدور فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، لقد تنبأ "فيلادلفوس" بأن روما سوف تصبح فى خلال الأجيال الثلاثة القادمة سيدة العالم المعروف فى ذلك الوقت . واستفاد البطالمة

= ترجمة الوثيقة نفسها والتعليق عليها راجع :- CIL., III,2 (1873, PP796799; E.G. Hardy, The monumentum Ancyranum,Oxforf 1923 ; F.W. Shipley, Velleius Pateoculus Res Gestae Divi Augusti (1924); Sandy, Latin Epigraphy, 2nd edit. Rev, by S.F Campbell, Cambridage 1927, pp. 258 276 ; R. H. Barrow, A Selection of latin Inscriptions, Oxford 1934; J.D. Bewly , Numismatic Commentary on the Res Gestae of Augustus, USA. 1938 .

أما أوفى الكتب فهى :

J, Gage, Res Gestate Divi Rugusti, Pub. Fac. Univ. Strassburg. Textes 5J 2eme ed Paris 1950; N. Lewis and Reinhold, Roman Civilization, Vol. III , New York 1955.

(*) عن تطور العلاقة بين مصر والجمهورية الرومانية منذ القرن الثالث قبل الميلاد وحتى فتح أغسطس لها راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق البردية ، الطبعة الثانية جدة ١٩٨٣ ص ١١ – ص ٣٢ وما يليها ، وراجع أيضاً عن الدراسة الحديثة التى قام بوضعها أحد كبار المتخصصين فى العصر وهو الأستاذ فرانك ولبانك الذى تشرفت بالتلمذة على يده لفترة عندما كنت أدرس لمرحلة الدكتوراه فى جامعة كمبريدج Cambridge البريطانية وهى : F. W. Wallbank, The Hellenistic World, Cambridge 1980, pp. 100 (المترجمة) .

الأواخر من بعد نظره ، وثاقب فكره ، إذ أخذت روما تنشر نفوذها فى الشرق منذ القرن الثانى قبل الميلاد ودخلت فى صراع مع الممالك الهللينستية الواحدة وراء الأخرى. أما مصر التى احتفظت منذ فترة طويلة بصداقة الرومان ، والتى لم تقف قط إلى جانب أعدائها ، فقد قامت روما بمساعدتها ومد يد العون لها عند الحاجة ، هذا العون الذى أخذ يتطور ليأخذ شكل الحماية بالتدريج ، فقبل أن تعتلى "كليوباترا" عرش أسلافها ، كانت مصر لا تزال دولة مستقلة من الناحية الشكلية ، ولكنها كانت تدور فى فلك روما من الناحية الفعلية .

إن الإشارات الطفيفة التى تشير إليها المصادر تمكننا من تتبع المراحل التى مرت بها مصر : من دولة هللينستية قوية إلى ولاية تابعة لروما ، فعندما كان الإنتاج الزراعى الإيطالى يعانى من الخراب الذى ألحقه به "هانيبال" عند غزوه لإيطاليا كان الرومان يمكنهم الحصول على مساعدة مصر من الغلال .

وعندما اعتلى عرشَ مصر "بطليموس" الخامس – الملقب بالإله الظاهر إبيفانيس Epiphanes – بعد خمس سنوات من التاريخ المشار إليه ، وكان صبيا فى الخامسة من عمره ، حدثت اضطرابات فى الإسكندرية بسبب المكائد والدسائس أدت إلى وقوع الصراع الدموى فى شوارع المدينة ، وإذا اتجهنا بأنظارنا نحو المملكة السلوقية فى سوريا نرى ملكها "أنطيوخوس" الثالث Antiochos وجد فى ظروف مصر وأحوالها فرصة أرسلتها له السماء لتمكنه من تمزيق إمبراطورية البطالمة ، فقام بحصار فينيقيا واستولى عليها، ثم واصل الجيش السورى زحفه حتى وصل إلى بوابة مصر الشرقية ، وكانت روما قد انتهت لتوها من حربها ضد "هانيبال " ، لذلك أسرعت بالتدخل وأصدرت أوامرها "لأنطيوخوس" بأن يرفع يده عن مملكة تقع فى دائرة وصايتها طبقًا لآخر وصية أوصى بها والد الملك بطليموس الخامس للرومان (٢) ، لقد انحنى "أنطيوخوس" الداهية أمام إنذار الرومان الأخير ultimatum ، وحافظ على انتصاراته خارج مصر ، واختتم الوضع الراهن status quo بأن زوج ابنته للملك "بطليموس" الخامس .

وبعد مضى جيل آخر اعتلى العرش البطلمى صبى صغير آخر هو "بطلميوس" السادس فيلوماتور Philomator (حبيب أمه) ، ولما كانت روما مشغولة فى ذلك الوقت بحربها ضد الملك "برسيوس" Perseus المقدوني ، أقدم "أنطيوخوس" الرابع على غزو مصر وأسر ملكها ، وأعلن نفسه ملكًا على كل أراضى النيل ، وعندما كان يقيم فى معسكره الذى أقامه على مقربة من الإسكندرية عام ١٦٨ م ، وصلت إليه أنباء انتصار الرومان وسحقهم برسيوس فى معركة بدنا Pydna. هنا ظهر "جايوس بوبيليوس لايناس" Gaius Popillius Laenas على المسرح مدعومًا بقرار من مجلس السناتو الرومانى ، ثم تتابعت فصول المسرحية الدرامية كما صورها لنا المؤرخ الإغريقى المعاصر "بوليبيوس " Polybius قائلاً (*) :

«سلم لايناس "أنطيوخوس" قرار السناتو الذى يأمره فيه بإنهاء حربه فوراً ضد "بطلميوس" ويسحب جيشه فى مدة محددة إلى سوريا ، فلما قرأ الملك الرسالة طلب مهلة للتشاور مع أصدقائه بخصوص التطورات الأخيرة ، هنا قام "بوبيليوس" بفعل حازم اتسم بالعجرفة الزائدة والكبرياء أمام كل الحاضرين ، فرسم بعصا كان يحملها فى يده ، وكانت مقطوعة من كرمة زيتون ، دائرة حول "أنطيوخوس" وأمره أن يجيب على رسالة السناتو قبل أن يغادر الدائرة . حينئذ تراجع الملك إلى الوراء من عنف هذا التصرف ، وبعد تردد قصير أذعن بأنه سيفعل كل ما يطلبه الرومان منه» (٣) .

وصلنا الآن إلى نقطة فاصلة فى تاريخ العالم الهللينستى السياسى ، ولكى نستوعب ذلك لسنا فى حاجة إلى فطنة أو ذكاء أو نظرة شمولية ، كما أنه لم يكن هناك سر خفى على المعاصرين المتميزين إذ ذكره المؤرخ "بوليبيوس" فى كلمات عديدة فى فصله الافتتاحى لمؤلفه التاريخى الكبير . ومنذ الآن فصاعدا أصبح البحر المتوسط بحيرة رومانية ، وأصبح من يعيشون حوله ينظرون إلى روما على أنها المتحكمة فى مصائرهم .

(*) من أهم الدراسات التى كتبت عن بوليبيوس تلك التى قام بها الأستاذ فرانك وولبانك وهى على النحو التالى :
F. Wallbonk, Polybius, vol. I Cambridge 1973, vol., S Cambridge 1990 . (المترجمة)

بعد طرد "أنطيوخوس" من مصر قامت المنازعات بين "بطلميوس" السادس وأخيه الصغير ، وأنهى مجلس السناتو الرومانى تلك المشكلة بالإبقاء على الأخ الأكبر على عرش مصر بعد أن فصلوا عنها قورينة Cyrenaica (برقة ، ليبيا الآن) (*) ، وجعلوها مملكة مستقلة ليحكمها أخوه الصغير ، وبعد مضى سنوات قليلة ادعى ملك قورينة أن أخاه دبر مؤامرة لاغتياله لكى يحكم مملكته ، ولكنه تمكن من القضاء عليها بمهارة - إذا كان هناك ثمة مؤامرة حقيقية - وقام بكتابة وصية أوصى فيها بملكه للرومان. وعثر على هذه الوصية مدونة على أحد نقوش قورينة ، ولكن هذه الوصية لم توضع موضع التنفيذ لأن كاتبها آل إليه حكم مصر بعد موت أخيه وتولى عرشها تحت اسم "بطليموس" الثامن يورجيتيس الثانى Eurgetes - أى الخيِّر - وحمل أيضًا لقب فيسكون Physkon (أى صاحب البطن الضخم potbelly) ، ويعد عهده من أطول عهود البطالمة إذ حكم نحو ٥٤ عامًا .

ونتج عن ازدهار مدينة الإسكندرية الاقتصادى أن استقر بها كثير من التجار والبحارة الرومان ، كما قام كثير من رجال الدولة الرومانية برحلات سياسية لزيارة معالمها الأثرية . وعثر على بردية ترجع إلى عام ١١٢ ق.م. فى خرائب إحدى القرى التى تبعد حوالى مائة كيلو متر عن موقع تمثال أبى الهول والأهرامات الكبرى تتضمن التعليمات التالية التى أصدرها أحد كبار الموظفين فى الإسكندرية حيث يقول :

«سوف يقوم لوكيوس مميوس Lucius Memmius عضو مجلس السناتو الرومانى ، والذى يشغل مركزًا رفيعًا ، برحلة من الإسكندرية إلى إقليم الفيوم Arsinoite nome لمشاهدة المنطقة ، لذلك يجب استقباله استقبالاً حارا ، كما يجب أن تعد دور الضيافة فى الأماكن المناسبة ، وأن تكون المراسى البحرية المؤدية إليها منتظمة فى عملها، كذلك ينبغى إعداد الهدايا المذكورة فى القائمة لكى تقدم له فى كل مرسى ، وأن يكون أثاث كل دار من دور الضيافة معدا لاستقباله ، وينبغى إعداد طعام جيد "لبيتوسوخوس" Petosouchos (إله التمساح) والتماسيح الأخرى - التى على قيد الحياة - والقيام بعمل الترتيبات الضرورية لكى يشاهد قصر التيه Labytrinth وإعداد القرابين

(*) برقة فى شرق ليبيا الآن ، فهى إحدى ولاياتها وليس كل ليبيا كما يقول المؤلف . (المترجمة)

والأضاحى . باختصار ينبغى القيام بعمل اللازم لتحقيق الراحة الكاملة له واستقباله استقبالاً حارا .....» ، فقدت بقية أجزاء البردية (٤) .

أصبح واضحًا الآن مدى ازدياد اهتمام الرومان بمصر من الناحيتين التجارية والسياسية ، ولكن حركة روما قُيدت لبعض الوقت نتيجة لاستمرار مشكلتى النزاع الداخلى على السلطة فى روما وحروبها الخارجية . وتمكنت مصر خلال هذه المرحلة من أن تدير شئونها الداخلية دون التدخل من جانب الرومان لمدة بلغت ثلاثين عامًا . ثم سرعان ما التقى المسار السياسى لكل من مصر وروما مرة أخرى عام ٨٠ ق.م. فعندما كان القائد "سلا" Sulla يحارب بقواته فى الشرق ، أخذت روما تزيد من سيطرتها على مصر ، وفى العام نفسه ؛ عام ٨٠ ق.م توفى الملك "بطلميوس التاسع " سوتير Soter الثانى دون أن يخلف وراءه ذرية من الذكور ، لذلك قام "سلا" بملء الفجوة واختار أحد أمراء الأسرة البطلمية ونصبه على العرش ، وهكذا أصبح هذا الملك تحت حمايته.

وأصبح هناك منذ الآن فصاعدا ظلٌ دائم للتدخل الرومانى فى شئون مصر التى غدت ألعوبة فى يد الساسة الرومان . ففى عام ٥٨ ق.م. لجأ "بطلميوس" الحادى عشر الملقب بـ أوليتيس Auletes (الزمار) – لمهارته فى العزف على المزمار – إلى زيارة روما، تمكن فيها من الحصول على تأييد القائد "بومبى" الذى أشار عليه بالاستعانة بصديقه "جابنيوس" فى غزو مصر وأعاد الزمار على عرشها عام ٥٤ ق.م. ثم قام "بطلميوس" بتعيين جايوس رابيريوس بوستوموس Gaius Rabirius Postumus وزيراً لمالية مصر – وهو أحد الذين اقترض منهم الملك البطلمى الأموال فى أثناء فترة وجوده فى روما – ولتبرير ذلك ادعى بطلميوس أنه لم يكن قادراً على إدارة شئون مصر المالية، كما قام الملك بدفع رشوة مالية كبيرة لجابنيوس (بلغت ١٠٠٠٠ تالنت) كان الملك قد وعده بها إذا قام بمساعدته فى العودة إلى عرش مصر . ولكن الملك البطلمى عجز عن أن يسدد الديون الأخرى التى سبق أن اقترضها من الدائنين الرومان .

ولا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد من الذى استفاد من تعيين رابيريوس وزيراً لمالية مصر ، ولكننا نعرف من خطب شيشرون Cicero (*) التى ألقى فيها التهم

(*) رئيس الجمهورية الرومانية عام ٦٣ ق.م ، والخطيب الرومانى المفوّه والأديب والمحامى ، بلغ النثر اللاتينى العصر الذهبى فى عصره . (المترجمة)

على كل من جابنيوس ورابيريوس ، أن الأول عاد إلى روما حيث حوكم وتمت إدانته بتهمة الرشوة وحكم عليه بالنفى ، أما الثانى فقد برئ من التهمة نفسها .

عندما توفى بطلميوس الزمار فى عام ١٥ ق.م. تولى عرش مصر طبقًا لوصيته كل من ابنته الكبرى كليوباترا السابعة ، وكانت فى الثامنة عشرة من عمرها ، ومعها أخوها بطليموس وكان فى حوالى التاسعة أو العاشرة من العمر ، وجعل بطلميوس الزمار الرومان أوصياء على تنفيذ وصيته . واشتعلت الحرب بعد سنتين ، ليس فقط بين "قيصر" Caeser و"بومبى" Pompy ولكن أيضًا بين الحزبين الملكيين المتنازعين فى مصر. ومات "بومبى" فى العالم التالى عام ٤٨ ق.م ، أما قيصر الذى كان يتعقبه فقد وصل مصر . ومات بطيلموس الثانى عشر عندما هزمت قواته أمام قوات قيصر ، وحل محله أخوه الأكبر بطلميوس الثالث عشر ، ليكون شريكًا فى الحكم مع أخته كليوباترا السابعة ، وكان مجرد طفل صغير. بعد تلك الفترة المشحونة بالأحداث ، أمضى قيصر مدة شهرين فى مصر ؛ أمضاها فى حضور الاحتفالات والاستمتاع ، حيث حمل الصندلُ الملكى كلا من قيصر وكليوباترا فى رحلة غرام نيلية شاعرية وسط عجائب سياح مصر (*) .

عندما غادر قيصر مصر كانت كليوباترا تحمل ابن قيصر ، وفى عام ٤٦ ق.م وصلت روما مع زوجها الملك البطلمى الصبى ، وطفلها الذى أطلق عليه اسم "بطليموس" ولكنها كانت تفضل – كما نفضل نحن – أن تطلق عليه اسم قيصرون Caesarion أى ابن قيصر . وأقامت الأسرة الملكية فى ضيعة قيصر على تل جانيكولان Janiculan عبر نهر التيبر وسط روما . هناك اختلطت مشاعر المجتمع وتضاربت تجاهها لتصبح مزيجا من الاحتقار والمتعة وبعد مضى شهر من اغتيال قيصر رأت كليوباترا أنه من الحكمة أن تغادر روما لتعود مع أسرتها إلى مصر .

وكان غرام أنطونيو وكليوباترا قد استمر نحو عشر سنوات (٣٠-٤٠ ق.م) وعناصر تلك القصة الرومانسية التى خلدتها الأغانى والقصص لا حاجة لتناولها هنا .

(*) لمزيد من التفصيلات عن الصراع السياسى فى روما ، والصراع على العرش فى مصر ، راجع : مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٩ – ٣٢ . (المترجمة)

ولكن ما هو ليس معروفًا على الملأ أن كليوباترا حملت ولدين توأمين وبنتا من أنطونيو من خلال زواج موثق ... وكان كل من أوكتافيان وأنطونيو يتنافسان على السيطرة على روما ، ولذا فإن اختيار أنطونيو لمصر ومصادر الشرق (بالإضافة) إلى زوجة مصرية (كليوباترا) كان يجعل منه مسيطرًا عى نصف العالم الرومانى الغنى بالرجال والكنوز .

قبل حوالى عشر سنوات مما حدث كتب الشاعر الرومانى الكبير فيرجيل Virgil أنشودة فى مجموعة قصائده الرعوية العاشرة Ecloge يقول فيها "لقد هزم الحب الجميع"، على أن سهام كيوبيد أثبتت أنها أضعف فى المباراة أمام قوات قيصر أوكتافيان العسكرية(٥) . فقد هزمت كليوباترا وأنطونيوس فى سبتمبر من عام ٣١ ق.م. فى معركة أكتيوم البحرية غربى بلاد الإغريق ؛ بسبب الخلاف الذى حدث على وضع خطتهم العسكرية . وفر الاثنان عائدين إلى مصر ، وقام أوكتافيان بتعقبهما ، لذلك فضلا الانتحار على الوقوع فى يد المنتصر : أنطونيوس أولا ثم كليوباترا بعد ذلك . وأبقى المنتصر على حياة أبنائهما الثلاثة ، وقامت أوكتافيا شقيقة أوكتافيان – وزوجة أنطونيوس السابقة – بالإشراف على تربيتهم. أما قيصرون فتخلص أوكتافيان منه، حيث ذكَّره أحد فلاسفة الإسكندرية – إذا كان فى حاجة إلى ثمة تذكير – بأن وجود ابن القيصر يمثل خطورة كبيرة عليه .

هكذا أصبحت مصر فى عام ٣٠ ق.م فى يد الفاتح الرومانى دون وجود أى مطالب بعرش البطالمة ، وقام "أوكتافيوس" بوضع الترتيبات التى كان لابد من اتخاذها فى مصر من حيث : تعيين حاكم رومانى عليها ، وتنظيم جهازها الإدارى ، إلى جانب وضع جيش لاحتلالها وضبط الأمن فيها .

مصر فى العصر الرومانى

ومنذ عام ٢٧ ق.م أخذ الحاكم الرومانى يسير بخطى حذرة لوضع مظلة على اسم "أوكتافيان" وإبراز لقب "أغسطس" ، الذى احتل المرتبة الأولى فى سلسلة الذين نطلق عليهم اسم الأباطرة الرومان . هذا على الرغم من اختيار أغسطس لقب المواطن

الأول princeps له وخلفائه من بعده. وحكم أغسطس ٤٤ عاما، قام فيها بإجراء العديد من الإصلاحات الدستورية والاجتماعية فى المجتمع الرومانى، وأعاد تنظيم هيئة النبلاء بعد النكسة الكبيرة التى أصيبت بها. ولا تزال الطريقة التى أدار بها مصر تثير جدلاً كبيرًا بين الباحثين ، ولكن هناك ثمة أمور معينة متفق عليها على النحو التالى :

ظلت القاعدة العريضة من جماهير الفلاحين من الشعب المصرى تمارس حياتها فى قراها دون حدوث تغييرات جوهرية، فيما عدا الإحساس بوطأة الضرائب؛ لأن الرومان كانوا أكثر كفاءة فى تحصيلها من الحكومة البطلمية الضعيفة . وفيما عدا ذلك واصلت الحياة فى القرى المصرية سيرها بالطرق التقليدية ، واصل نهر النيل فيضانه السنوى ، بمنسوبه المرتفع فى بعض الأحيان ، والمنخفض فى أحيان أخرى ، كما أنه كان يتناسب مع حاجة المحاصيل للرى فى أحيان ثالثة . وأدرك المصريون أن الحاكم الجديد - الذى يقيم بعيداً - لن يتدخل فى تغيير نمط حياتهم ، وأنه مثله فى ذلك مثل الحكام البطالمة ، بل أيضًا ملوك الفرس قبلهم؛ لذلك اعتبروا حكم أغسطس بداية لحقبة جديدة من الفراعنة الأجانب . وواصلوا بناء معابدهم وزخرفتها على طرازهم المصرى طوال حقبة المواطن الأول التى بلغت ثلاثة قرون من الزمان . وظهر الأباطرة على رسوم جدران المعابد مكان فراعنتهم وبأوضاعهم التقليدية وفى الخراطيش الملكية ، حيث كانوا يرتدون الزى الفرعونى ، ويضعون التاج المصرى على رءوسهم ، ووضعوا إلى جانب كل منهم اسمه فى خرطوشه ، وتردد النقوش الهيروغليفية المسجلة لهم ألقاب التشريف التى اعتاد المصريون إطلاقها على فراعنتهم مثل "ابن رع" ، و"المقرب إلى بتاح وإيزيس " ... إلخ.

وجعل النظام الإدارى وإدارته المحلية والمركزية من مصر منذ عصر أغسطس ولاية رومانية ، وتمثل واجب مصر الأول فى نطاق الإمبراطورية الرومانية فى تغطية ثلث احتياجات الشعب الرومانى السنوية من الغلال لإطعام مدينة روما . وحتى يضمن أغسطس عدم حدوث اضطراب لهذا المورد المهم جعل مصر فى وضع أصبحت تبدو فيه كأنها تابعة للخزانة الإمبرطورية . وعلى عكس الولايات الرومانية الأخرى التى كان يحكمها طبقة الحكام وصلوا إلى مرتبة نائب القنصل Proconsul ، أسندت مصر إلى حاكم أقل أهمية لقِّب بالوالى Prefect، يقوم الإمبراطور بتعيينه لكيون نائبًا له . وينتمى

هذا الوالى إلى طبقة الفرسان الرومانية (*) ، وهى الطبقة التى ينتمى إليها "أغسطس" فى الأصل ، والتى أصبحت منذ بداية توليه الحكم بمثابة العمود الفقرى والمعقل القوى الذى يؤيده . وحرم أغسطس على أعضاء السناتو الرومانى والفرسان اللامعين زيارة مصر إلا بإذن من الإمبراطور . ربما يظن البعض أن السبب الذى دفع أغسطس لاتخاذ هذه الإجراءات يرجع إلى أن الزيارات المتكررة لمصر من أصحاب المناصب الرفيعة فى روما، والذى يشغل واليها درجة أدنى منهم تقلل من مكانته فى نظر من يقوم بحكمهم، ولكن الدافع الأول وراء وضع القيود السابقة إنما يرجع فى حقيقة الأمر إلى منع ذوى الطموح السياسى من المعارضين لأغسطس من أن يفكروا فى إمكانية اتخاذ مصر قاعدة لمعارضتهم السياسية والعسكرية كما فعل أنطونيوس من قبل . واحتل والى مصر مكانة رفيعة بين المصريين، ونظروا إليه على أنه كان نائباً عن ملوكهم الفراعنة الذين كانوا يقيمون بعيداً فى روما .

أبقى أغسطس على أقسام مصر الإدارية وأقاليمها الثلاثين **Nomes**، التى يحكم كلا منها مدير **Strategos** . وبدلاً من أن يغير أغسطس فى شكل مدير الإقليم غير فى مضمون سلطته .

كان المديرون يجمعون فى العصر البطلمى بين السلطتين الإدارية والعسكرية ، لذلك قام أغسطس بسلبهم الجانب العسكرى من اختصاصهم ، وأبقى على الجانب المدنى منه ، أما السلطة العسكرية فجعلها من اختصاص القوات الرومانية فقط . إن هذه القوات التى كانت تنتشر انتشاراً إستراتيجيا فى الولاية لم يكن جنودها من طراز جنود البطالمة ، الذين كانوا فى الأصل جنوداً ومزارعين فى آن واحد ، يعيشون مع عائلاتهم فى أراضيهم الزراعية التى وزعها عليهم الملك البطلمى (**) ، أما الجنود الرومان فكانوا يعيشون فى معسكرات حصينة ، وقلما كانوا يغادرونها ، إذ وضع

(*) Ordo Equester وهى الطبقة الاجتماعية الثانية بعد طبقة النبلاء فى المجتمع الرومانى ، وكان يشترط للانتماء إليها نصاباً ماليا محدداً منذ سنة ١٢٢ ق.م وهى تمثل طبقة رجال المال والأعمال . (المترجمة)

(**) عن الجيش فى العصر البطلمى راجع : إبراهيم نصحى ، مصر فى عصر البطالمة ، القاهرة ١٩٨٠ الطبعة الخامسة ، جـ ١ ، ص ٣٨٥ – ٤١ . (المترجمة)

أغسطس فرقة عسكرية بالقرب من الإسكندرية ، والثانية وضعها فى بابليون (فى مصر القديمة حاليًا) عبر النيل قرب منف ، ثم قام بتوزيع وحدات أخرى على الأماكن المهمة مثل الحدود ، والمناجم ، والمحاجر ، والطرق الرئيسية ، ومستودعات الغلال .

إن الحكومة المدنية التى أسسها أغسطس ، وطورها خلفاؤه من بعده كانت رومانية الملامح ، شغلت وظائفها - ما عدا العليا منها - الطبقات المحلية ، وكانت اليونانية وليست اللاتينية هى لغتها المحلية . وكان يوجد فى الإسكندرية من بين موظفى الوالى بعض الضباط والكتبة يتحدثون اللغتين معًا bilingual وهؤلاء هم الذين كانوا يقومون بعملية ترجمة الأصول والمراسلات التى يصدرها الأباطرة والولاة من اللاتينية إلى اليونانية ليتم نشرها فى الولاية . كذلك استمرت بعض الألقاب البطلمية فى العصر الرومانى ، ولكن أدخل عليها بعض التعديلات مثلها فى ذلك مثل مناصب مديرى الأقاليم ، أما فيما عدا ذلك فنشأت بعض المناصب الجديدة ، واستحدثت ألقاب جديدة طبقًا للحاجة إليها ، ووضعت بعض تنظيمات جديدة لمعالجة بعض النواحى الاقتصادية والاجتماعية والدينية المهمة .

وبعد أن استغرقنا فى رسم حدود الصورة وإطارها ، وحتى لا نستطرد إلى مزيد من التفصيلات ينبغى الآن أن نوجه اهتمامنا لشعب ولاية مصر الرومانية لنتتبع أحوال معيشته .

الهوامش

(١) أثبت سكيت T. C. Skeat في مقاله الذي نشره في The Journal of Roman Studies , 43 (1953) , pp. 98 - 100 أن أقرب الاحتمالات لذلك اليوم الذي انتحرت فيه كليوباترا ، هو الموافق للعاشر من شهر أغسطس ؛ ولما كان التقويم الروماني قد سقط منه في تلك الفترة يومان فإن هذا يعني أنه يوافق يوم ١٢ أغسطس طبقًا لتقويمنا الحالي، ويستشهد على ذلك بأقوال الشعراء الرومان من أمثال: Virgil , Aeneid, Book 8, verse 697' Horace , Odes, Book I , no. 37; Propertius, Odes, Book 3 no. 11.

وتم الاستشهاد هنا من الفقرة ٢٧ من وثيقة أغسطس والتي اقتبس اسمها من كلماتها الافتتاحية على أنها " أعمال المؤله أغسطس " Res Gestae Divi Augusti ونقش نصها على أعمدة باب ضريح أغسطس في روما ، وتم نقش نسخ منها أرسلت لكل عواصم الولايات الرومانية . ولم يعثر على نقش روما ، ولكن عثر على نقش كامل تقريبًا في أنقرة Ankara في تركيا . (كانت أنقرة عاصمة ولاية جلاتيا الرومانية Galatia)، بالإضافة إلى عدة شذرات منها وجدت في بعض عواصم الولايات الشرقية.

(٢) Justinus , Roman History, Book 34 Sect. 2. وهو كاتب من القرن الثاني الميلادي .

(٣) Polybius, Histories, Book 29, ch .27 وثبت حديثًا من نشر إحدى البرديات أن " أنطيوخوس" كان يزمع القيام بغزو كامل لمصر . ومن الواضح أن ذلك كان يسبب مشاكل للرومان أكثر من الغزو المؤقت .. R.S. Bagnal , Classical. World, 76 (1982 3), 14

(٤) P. Teb. 33 = W. chr. 3 = select Papyri, 416

(٥) هذا الاقتباس من فرجيل . Aenid, Book 8, Verses 687 - 88 .

الفصل الثانى

الطبقات والسكان ، أو تحديد الوضع الطبقى

فى روما عام ١٠٠ م كتب "بلينى" Pliny الصغير – ذلك الرومانى النبيل المثقف ، وأحد رجال الدولة المرموقين – إلى الإمبراطور الرومانى تراجان Trajan قائلاً :

« إننى أتقدم لك يا سيدى بجزيل الشكر لمنحك كاتبى "هاربوقراط" الجنسية الرومانية ، وقد ذكَّرنى بعض الأفراد من الذين لهم دراية أكثر بالمجال القانونى ، بأنه كان يجب على أن أحصل لهاربوقراط على الجنسية السكندرية أولاً لأنه مصرى الأصل .. لذلك فأرجوكم منحه الجنسية السكندرية حتى يمكنه الاستفادة من منحتكم من الناحية القانونية » .

ورد عليه الإمبراطور قائلاً :

«حيث إننى أتتبع سياسة الأباطرة السابقين ، فإن سياستى تقتضى بعدم التهاون فى منح الجنسية السكندرية ، ولكن حيث إنك حصلت بالفعل على الجنسية الرومانية لكاتبك "هاربوقراط" ، لذا ينبغى عليك أن تخبرنى عن الإقليم التابع له حتى يمكننى أن أكتب إلى صديقى "بومبيوس بلانتا" Pompius Planta والى مصر بخصوص هذا الأمر»(١) .

من هذين الخطابين المتبادلين يتضح لنا شكل البناء الاجتماعى لمصر فى العصر الرومانى ، لقد أخذت الهندسة الاجتماعية شكلاً هرميا ، حصلت فيه طبقة القمة على أكثر الامتيازات ، وتكونت هذه الطبقة من قليل من الرومان الذين كانوا يقيمون فى مصر . ويلى هذه الطبقة ، طبقة أخرى أكثر عدداً ولكنها أقل امتيازاً ويشكلها الإغريق ساكنو المدن واليهود قبل أن تسقط عنهم امتيازاتهم. وارتكزت هاتان الطبقتان اللتان احتلتا القمة على قاعدة عريضة وعميقة من بقية السكان : تضم الفلاحين ، والصناع ، وملاك الأراضى، والتجار. وقليل منهم من كان يتمتع بالثراء ، ولكن أكثرهم كانوا فقراء حيث كان الوضع يسمح لسكان المدن بالحصول على بعض الامتيازات ، أما القرويون

فلم يكن لهم حق التمتع بأى ميزة ، وباختصار فإن تلك القاعدة الشعبية العريضة التى كانت الحكومة الرومانية تنظر إليها بازدراء وبدون تمييز كانت تطلق على أصحابها اسم : المصريين .

وكان من الصعب اجتياز العوائق التى وضعت لمنع التحرك من طبقة إلى أخرى إلا باستثناء من الإمبراطور . أما طبقة السكندريين تلك الطبقة الثرية المشهورة فقد كوفئ أهلها بتمييزهم فى جنسيتهم مثل الرومان . وعلى أى حال كانت هناك ثمة قرابة بين مواطنى العاصمتين العالميتين ، وجرت العادة على أن الطبقة الثرية فى جميع ولايات الإمبراطورية الرومانية كانت تؤيد الرومان . أما الحكام، الذين كان هدفهم الرئيسى المحافظة على استقرار الأوضاع الاجتماعية ، فلم يكن لديهم ما يدفعهم إلى تشجيع المصريين على التحرك من وضعهم الذى حدد لهم فى إطار الصورة .

وفى عام ٢١٢ م قام الإمبراطور "كاراكالا" بمنح الجنسية الرومانية لكل المقيمين بين حدود الإمبراطورية الرومانية بجرة قلم . أما قبل ذلك فلم يكن لمصرى أن يحصل على الجنسية السكندرية أو الرومانية دون استثناء من الإمبراطور(*) .

الرومان

حمل حاكم الولاية لقب والى مصر : **Praefectus Aegypti** وكان بمثابة نائب عن الإمبراطور الذى يرسله من روما ؛ لذلك كان يعمل بالطبع على إرضائه ، وتراوحت مدة شغله لمنصبه بين سنة وثلاث سنوات ، وقلما بلغت أربع أو خمس سنوات . وكان الوالى والموظفون الرومان يقيمون فى الإسكندرية ، ويقوم الوالى بمغادرتها مرة كل عام فى رحلة لمدة أربعة أو خمسة أشهر، يصطحب فيها موظفًا أو أكثر من مرءوسيه الرومان لزيارة مدينتين : إحداهما فى الدلتا والثانية فى مصرالعليا ؛ حيث يعقد المحاكمات الجنائية الكبرى ، ويتسلم الالتماسات التى يقدمها له السكان المتضررون

(*) بخصوص استفادة المصريين من هذه المنحة الإمبراطورية من عدمه راجع : مصر فى عصر الرومان للمترجمة ، ص ١٣٠ و ص ٢٣٦ . (المترجمة)

ويفحص حسابات موظفى الإدارة المحلية وإجراءاتهم . وتعتبر هذه الزيارة التشريفية من وجهة نظر شعب الولاية بمثابة حضور رمزى للحكومة التى تقيم عادة بعيداً فى العاصمة ولا يشاهدونها .

وتمثلت رموز الحكم الرومانى التى كان يشاهدها السكان بصفة دائمة فى الجنود الرومان الذين يعسكرون فى الولاية ، وتكون جيش الاحتلال فى أغلب فترات الحكم الرومانى من فرقتين legiones من المواطنين الرومان ، بالإضافة إلى عدد من القوات المساعدة àuxilia تتكون من سكان الولايات – مع قليل من الرومان – تحت قيادة ضباط رومان . وتراوح العدد الإجمالى لتلك القوات العسكرية بين سبعة عشر ألفًا ، وثمانية عشر ألفًا . أما القوات المساعدة فكانت تضم مشاة وفرسانا وقوات بحرية تمركزت فى الإسكندرية للقيام بعملية الإشراف البحرى والنهرى . ونستطيع أن نستخلص من أوراق البردى عدداً آخر من أفراد الوحدات الذين تمركزوا فى الأماكن الإستراتيجية على طول البلاد ، وكانوا يقيمون فى بعض الأحيان فى معسكراتهم ، وفى أحيان أخرى كان يسند إلى فرد أو مجموعة منهم القيام بعمل معين . ويمثل هذه الفرق المساعدة تلك التى تمركزت لأول مرة عبر النهر فى إقليم أبوللونوبوليس Apollinopolis فى مصر العليا عام ١٣١ م . وقد رأيناها بعد خمسة وعشرين عاماً من ذلك التاريخ ما زالت فى معسكرها هناك . وكانت تتكون من ٥٠٥ جنود ، منهم ست وحدات مئوية centuria، وثلاث وحدات عشرية ، و٣٦٣ جنديا من قوة المشاة ، و١١٤ فارسًا ، و١٨ جملاً (٢) .

لم يكن يسمح لغير الرومان بالخدمة فى الفرق الرومانية التى بلغت مدتها خمسة وعشرين عامًا ، أما القوات المساعدة التى كان يكافأ المسرحون منها تسريحًا مشرّفًا بالحصول على الجنسية الرومانية ؛ فبلغت مدة الخدمة فيها سبعة وعشرين عامًا . وعلى أى حال فإن جميع الطرق المؤدية إلى الحصول على الوضع المميز ، بما فى ذلك طريق الخدمة العسكرية الطويل ، كان موصداً أمام جماهير الشعب المصرى ، واستمر هذا الوضع حتى نهاية القرن الثانى عندما وجدنا عدداً من أفراد القوات المساعدة ينتمون إلى عواصم الأقاليم المصرية (الفصل الثالث) ، وترجع جذور هذه الفئة إلى طبقة الإغريق الذين استوطنوا مصر فى أثناء العصر البطلمى .

أما من ناحية الجانب الاجتماعى المواجه لجموع الجنود فنجد أن عدداً من أثرياء الرومان كانوا يقومون بزيارة مصر - كما فعل كثير من الأوروبيين فى العصر الحديث - ليتمتعوا بمناخ الجاف للاستشفاء من بعض الأمراض، سواء أكان ذلك حقيقة أم وهما.

وفى النهاية أخذت أعداد الرومان الذين استقروا فى مصر بصفة دائمة فى تزايد، وحصل بعض أفراد من العائلات السكندرية على الجنسية الرومانية ، وكان أغلبهم من الجنود المسرَّحين من الخدمة العسكرية . واتبع الأباطرة الرومان على مدى قرن ونصف قرن من الزمان سياسة تجنيد جنود من سكان الولايات ووضعهم فى وحدات عسكرية متمركزة فى ولايات ومناطق أخرى غير مواطنهم . وترتب على ذلك أن جنوداً من الذين يرجعون لأصول أجنبية وخدموا فى مصر فى أثناء فترة شبابهم ، كانوا يستقرون فيها بعد تسريحهم ، لأنهم شعروا بأنها موطنهم ، كما كانوا قد تزوجوا وأنجبوا أطفالاً حتى قبل ثلاثة قرون من الاعتراف بزواج الجنود فى أثناء مدة خدمتهم ، هؤلاء الأطفال وتلك الزوجة كان يتم الاعتراف بهم بعد تسريح الجنود تسريحًا مشرِّفًا من الخدمة العسكرية . أما التغيير الذى تم فى عهد الإمبراطور هادريان ١١٧ - ١٣٨ م ، والذى يتمثل فى سياسة التجنيد المحلى للجنود ، فقد ترتب عليه أن أصبح الجنود المسرحون المقيمون فى مصر ترجع جذورهم منذ منتصف القرن الثانى إلى طبقة سكان المدن الذين اتخذوا طريقهم خلال تطوعهم وتأدية الخدمة العسكرية ما يؤهلهم للدخول إلى العالم الرومانى (*) .

وكان يمكن للجندى المقتصد غير المسرف أو المغامر أن يقوم بعد تسريحه بعمل مشروع اقتصادى ويصبح من أصحاب الثروة ؛ لأنه لم يكن يحصل على مكافأة

(*) يمنح الجنود المسرحون من القوات المساعدة أو الأسطول عند تسريحهم تسريحًا مشرفًا بعد خدمة ٢٥ عاما فى القوات المساعدة ، والمسرحون من الأسطول classes بعد ٢٦ عامًا (ثم ارتفعت الخدمة منذ منتصف القرن الثانى إلى ٢٦ عامًا فى القوات المساعدة ، و٢٧ عامًا فى الأسطول) حق الجنسية الرومانية Civitas لهم ولأبنائهم وأحفادهم السابقين واللاحقين ، ومنح هذا الحق لهم ولأبنائهم اللاحقين فقط منذ حوالى سنة ١٤٤ م . فضلاً عن حق الزواج الكامل الأهلية conubium . والمعروف أن الزواج كان محرما فى الأصل على الجنود طوال مدة الخدمة العسكرية حتى رفع هذا الحظر عام ١٩٣ م، وبمقتضى حصول الجندى على حق الزواج يصبح أبناؤه الذين أنجبهم وينجبهم من امرأة غير رومانية رومانيي الجنسية مثل أبيهم .
=

التسريح فحسب (التى كانت تبلغ ١٢٠٠٠ دراخمة للجندى المسرَّح فى الفرقة ، وأقل من ذلك بالنسبة إلى الجندى المسرح من القوات المساعدة والأسطول) بل يبدو أنه خلال فترة خدمة الجندى العسكرية التى كانت تصل لربع قرن من الزمان كان يفرض عليه أن يدخر جزءاً من راتبه .

وفى أثناء خدمة الجندى العسكرية والبوليسية والأعمال الأخرى المرتبطة بها كان يمكن للرجل الذى يدخر مبلغًا نقديا أن يجد فرصًا عديدة لاستثمار أمواله فى استثمارات قصيرة أو طويلة الأجل ، وأن يحصل على عائد سريع منها ، ومن بين هذه الاستثمارات شراء العبيد وبيعهم ، والحصول على فوائد فى أعمال متعددة يأتى فى مقدمتها القروض المالية ، التى كان عائدها الشهرى يبلغ ١٪ مما يؤدى إلى الزيادة السريعة فى رأسمالها . وسجل أحد الجنود أنه قام بشراء نول للنسيج يبلغ ثمنه ١٣٠٠٠ دراخمة، وهو مبلغ كبير حتى فى أوقات التضخم الاقتصادى، كما امتلك قائد مائة Centurion مركبًا نهريا صغيراً تزن حمولته ٥٠٠ أردب غلال (حوالى ١٢ طنًا ونصف) واستأجر له أحد البحارة ليقوم بتشغيله . ولدينا وصية لقائد مائة Centurion آخر من سلاح الفرسان يذكر فى قائمة ممتلكاته قوائم بأملاك عسكرية وشخصية .

= والبراءة العسكرية diplomata Militarie التى كان يحصل عليها الجندى المسرح هى صورة من شهادات كانت تصدر فى روما بمقتضى مراسيم إمبراطورية Constitutiones، وهى عبارة عن لوحين مستطيلين من البرونز (٥×٦ بوصة) موصول أحدهما بالآخر diptycha بسلك مضفور يمرر بين ثقبين (أو أكثر) بحافة اللوحين ، وثقبين آخرين فى الوسط ، وكانت الشهادة تحرر من صورتين إحداهما على الوجه الداخلى «Scriptura Interior والأخرى على الوجه الخارجى Scriptura Exterior ثم يطوى اللوحان ويضع سبعة من الشهود أختامهم على أحد الوجهين الخارجيين عند السلك المار بثقبى الوسط، ويوقع كل منهم باسمه أمام ختمه ، وكان القصد من ذلك حفظ النص الداخلى سليماً والرجوع إليه فى حالة الطعن بأن النص الخارجى قد تناولته يد بالتحريف أو التزييف ، ويبلغ عدد ما عثر عليه من براءات عسكرية حوالى ١٦٠ براءة من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية . وقام بجمعها الأستاذ "نسلهاوف" وعلق عليها فى مجلد واحد هو المجلد السادس عشر من مجموعة النقوش اللاتينية عام ١٩٣٦ ونشر لها ملحقًا فى عام ١٩٥٣ .
H. Nesselhauf Diplomata militaria, CIL, XVI, 1936; Supplementum to CIL, xvo, 1955
وعن الموضوع ذاته راجع : عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١١٩ – ١٧٧ . (المترجمة)

عديدة ، إضافة إلى مبلغ نقدى يقدر بثمانى قطع من العملة الذهبية ومائة وتسع وتسعين تالنت ونصف من الفضة (وهذا المبلغ يساوى أكثر من مليون دراخمة، والمعروف أنه فى أثناء فترات التضخم المالى كان يتم حساب الدراخمات بالألف وبعشرة الآلاف) ، واحتفظ بجزء قليل من هذه الأموال النقدية فى صندوق متين ، والجزء الأكبر منها فَرَّقه بين خمسة عشر قرضاً .

وحتى يفكر الجندى - عند التقاعد - فى التخطيط لمستقبله كان أول ما يحرص عليه أن تكون أوراقه سليمة . ولدينا على سبيل المثال وثيقة من مدينة قيصرية بفلسطين مؤرخة فى ٢٢ يناير عام ١٥٠ م عثر عليها فى الفيوم ، حملها إليها أحد الأطراف أصحاب الشأن ، تشهد الوثيقة بأن الجنود الاثنين والعشرين المذكورة أسماؤهم فيها قد سرِّحوا من الفرقة تسريحاً مشرفاً وليس من وحدة من الوحدات المساعدة .

ولدينا بردية أخرى ضمن مجموعة بردى أوسلو Oslo نشرت فى عام ١٩٨٧ مؤرخة بيوم ١٠ ديسمبر عام ١٤٩م ، وهى من نوع الوثائق نفسها الخاصة بامتيازات الجنود المسرحين ، والوثيقة عبارة عن خطاب أرسله أحد الموظفين الرومان يأمر فيها كاتب الإقليم بأن يعطى شهادة لجندى أتم خدمته العسكرية ، ويؤكد له فيها إعفاءه من دفع ضريبة الرأس Laographia [٢] .

أما الخطوة التالية التى يقوم بها الجندى المسرح عندما يضمن سلامة أوراقه بالإضافة إلى تمتعه بالثروة فتمثلت فى السعى للحصول على المشروع المناسب ، وهنا كانت الأفضلية للمشروع الذى يجمع بين المنطقة التى سيقيم فيها الجندى وتلك التى يستثمر فيها أمواله . وتوضح الأوراق التى بين أيدينا اتجاه الجنود إلى التركيز على القرى الكبيرة المزدهرة ؛ ففى قرية فيلادلفيا بالفيوم Philadelphia بلغ عدد الجنود خُمس الملاك فيها فى أوائل القرن الثالث، وعلى النقيض من ذلك تأتى قرية سكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos التى تبعد عن الأولى نحو خمسين كيلو متراً من جانبها الغربى (فى اتجاه الشمال) والواقعة فى الإقليم نفسه ، فلم نجد فيها أراضى من تلك التى هى موضوع حديثنا ، كذلك لم تشر وثائقنا أو تلك المتعلقة بها إلى وجود مالك رومانى واحد بين ملاك أراضيها الزراعية .

ويرجع ذلك إلى وقوع هذه القرية فى المنطقة الخلفية للإقليم ، على حافة الصحراء خارج إطار وسائل الرى (٤) .

وكما توقعنا ، بدأ بعض الجنود يبحثون عن المنطقة التى سوف يقيمون فيها قبل أن يتم تسريحهم بعام أو عامين . ونرى ذلك بوضوح فى خطاب مؤرخ من عام ١٣٦ م وفيه كتب جندى يتوقع تسريحه بعد مضى سنة أخرى إلى أخيه الذى سرح قبله من الخدمة العسكرية وعاد إلى موطنه فى قرية كرانيس Karanis فى إقليم الفيوم قائلاً:

« أبعث إليك مع تحياتى توصيتى "لترنتيانوس" Terentianus حامل هذه الرسالة والمسرَّح تسريحا مشرفًا من الخدمة العسكرية . وأرجو أن تعرفه على أهل القرية حتى لا يعتدوا عليه ، فهو يملك مالاً ويرغب فى الإقامة هناك وعرضت عليه أن يستأجر منزلى لمدة سنتين ، هذا العام والعام الذى يليه نظير مبلغ ستين دراخمة ، وأن يستأجر حقلى نظير ستين دراخمة أخرى ، وأرجو أن تشترى بهذا المبلغ ؛ مبلغ ١٢٠ دراخمة كتانا من أصدقائنا تجار الكتان فى المعبد ....» وبقية الوثيقة تذكر تفصيلات أخرى غير مرتبطة بموضوعنا (٥) .

نحن لا نعرف شيئًا عن حياة "ترنتيانوس" بعد ذلك أكثر من كونه أنه لابد أن يكون قد استقر فى كرانيس . وعندما قامت بعثة أثرية من جامعة ميتشجان بالحفر فى كرانيس فى الفترة بين ١٩٢٤ و١٩٣٤ عثرت على مجموعة من خطاباته فى أحد المنازل نعرف منها أن ترنتيانوس كان نفسه ابنا لجندى مسرح وإنه خدم فى الأسطول الذى كان يتمركز فى الإسكندرية .

وعندما نقرأ بين سطور الخطاب السابق نتبين أن القرويين لم يكونوا دائمًا يرحبون بالجندى ، ولم يعتبروا وجوده بينهم نعمة . وكان ذلك يتوقف على شخصية الجندى وسلوكه ، ولذلك حرص كاتب هذا الخطاب على التأكيد عليه بوضوح ، حتى يمكنه بمساعدة أخيه أن يضع قدميه على الطريق الصحيح . ويمكننا أن نتفهم الأسباب وراء عدم ترحيب القرويين بالجنود سواء العاملين فى الجيش أو المسرحين منه؛ لأن العادة جرت عند انتشار الوحدات العسكرية فى الأقاليم ونزولهم إلى القرى

أن يقوموا بإلزام الأهالى بتقديم أشياء معينة لهم مثل الإيواء والسكن والطعام والضرائب وهكذا ، ومع أن مثل هذه المطالب كان مصرحًا بها من قبل الإدارة إلا أن الجنود كانوا يبالغون فيها حرصًا على مصالحهم الخاصة، وكان هؤلاء الفلاحون المروعون بلا حول ولا قوة لوضع حد لابتزاز الجنود لهم (انظر الفصل الثامن) . وعندما يسرح الجندى كان يقرر أن يعيش بينهم جارًا مسالمًا ، بل ربما يصبح رجلاً من رجال البر والإحسان . أما إذا كان على عكس ذلك ففى هذه الحالة يصبح عبئًا على المجتمع الذى يعيش فيه ، فعلى سبيل المثال فإن إعفاءه من العديد من الضرائب والخدمات التى كانت تفرض على غير الرومان كانت تثير امتعاضهم دون شك ، ليس فقط بسبب وضعه الطبقى المميز الذى منح له ، ولكن أيضًا لأن هذا الوضع سيزيد نسبيا من تلك الأعباء الملقاة على جيرانه الذين لا يتمتعون بأية امتيازات ، وأثبتت التجارب أكثر من ذلك ، إذ أن هؤلاء القادمين الجدد كانوا يصرون على ممارسة امتيازاتهم إلى النهاية ، وكانوا يتعالون على المصريين والإغريق المصريين الذين يعيشون بينهم . إن الطريقة التى كان يتصرف بها الجنود المسرحون وضعت حواجز نفسية واجتماعية بينهم وبين جيرانهم من ذوى الأصول المتواضعة. ولدينا بردية ترجع إلى عام ١٦٢م وهى عبارة عن شكوى تقدم بها جندى مسرح وهو "جايوس يوليوس نيجر" Niger ، وحقيقة أن فحوى الرسالة مفقود بسبب ضياع مقدمتها ، ولكننا نقرأ فى الجزء المتبقى منها والذى حفظ حفظًا جيدًا نيجر وهو يقول : " إن الإصابات التى أصابتنى واضحة ، وحيث إننى رجل رومانى يعانى من هذه الإهانة التى لحقت به على يد المصريين ، فإننى أطالب ... " ، وقد اكتشفت واقعة مماثلة لهذه منذ عدة سنوات سابقة ، إذ لدينا قَسَم وقعه مقدموه أقسموا فيه بحياة جلالة الإمبراطور قيصر "تيتوس أيليوس هادريانوس أنطونينوس بيوس " Titus Aelius Hadrianus Antoninus Pius أنهم سوف يقدمون الشهادة الصحيحة التالية : إنه فى أثناء وجودنا فى قرية فيلادلفيا Philadelphia فى الفيوم التابعة لقسم هيراكليدس Herakliedes ، وعند معبد القياصرة شاهدنا إجراءات القبض على "جايوس مايفيوس أبلليس" Gaius Maevius Apelles وهو جندى مسرَّح من قسم أبيان Appian حيث قام اثنان من قوات الحرس بضربه وجلده بالحبال

والسياط بأمر من "هييراكس" Hierax مدير الإقليم ، ونحن نشهد على جلده فى قرية فيلادلفيا ١١ فبراير ١٥٢ م . ثم توقيع سبعة من الشهود الرومان .

إن هذه القضية تعد أكثر من أى قضية أخرى إثارة لمشاعر الرومان ، وذلك فى ضوء الاعتزاز التقليدى بأن أول قانون صدر عقب تأسيس الجمهورية الرومانية عام ٥١٠ ق . م. كان ذلك الخاص بمنع "أى حاكم رومانى magistratus (*) من إصدار حكم الإعدام أو الجلد على المواطن الرومانى دون إعطائه فرصة الاستئناف" ، نحن هنا نجد مجرد موظف فى ولاية يعتدى على مواطن رومانى بطريقة حُرمت على كبار حكام روما: إلى أين إذن كان يتجه العالم (٦) ؟

احتل بعض الجنود مكانة مرموقة فى مجتمعاتهم الجديدة التى اختاروها لإقامتهم ، ليس فقط بسبب تمتعهم بالجنسية الرومانية ، ولكن بسبب ثروتهم التى امتلكوها أيضاً. وكانوا أثرياء قياساً على مستوى القرى منذ اللحظة الأولى لوصولهم إليها . فمنذ اللحظة الأولى لظهورهم على مسرحها شرعوا فى الحصول على أراض ، واستثمرها أغلبهم فى الزراعة والمشروعات المرتبطة بها ، ولدينا تفاصيل عن مثل هؤلاء الأثرياء ، منها مجموعة كبيرة من أوراق لوكيوس بيللينوس جمللوس Lucius Bellenus Gemellus الذى أقام فى الفيوم بعد تسريحه عام ٨٠ م ، وعند وفاته بعد ثلاثين عاماً من وصوله كان يبلغ حوالى السابعة والسبعين أو أكثر وكان يمتلك أراضى فى قرى عديدة يقع بعضها بالقرب من قرية يوهيميريا Euhemeria ، وأخرى فى قرية ديونيسياس Dionysias ، بالإضافة إلى أراض تقع فى ثلاث قرى أخرى على الأقل ، وكان يساعده وكلاء فى إدارة أملاكه حيث ابتعدت إحداها عن محل إقامته فى كرانيس بخمسين كيلو متراً ، وتناول إشرافه على أملاكه أدق التفاصيل ، وقام باستئجار سبعة وعشرين عاملاً للعمل فى أحدى مزارعه فى أثناء موسم الحصاد ، وكان يمتلك معصرة

(*) عن القانون والحكم الرومانى راجع : أمال الروبى نظم الحكم عند الرومان ، جدة ١٩٨٧ ، ص ١٥-٧٤ . (المترجمة)

لعصر الزيتون أيضًا ، وقام بإرسال عشر دجاجات لتقديمها فى احتفالات أعياد ساتورناليا Saturnalia وقدم عجلاً للتضحية به فى أحد الأعياد ، مما يدل على مدى ثرائه، وتكونت أسرته من ابنة وثلاثة من الأبناء الذكور ، ومثل هذه الأسرة كانت تعد دعامة أساسية فى المجتمع المحلى .

لدينا نموذج آخر كالذى سبق أن قدمناه خاص بشخص يدعى "جايوس يوليوس نيجر " Niger الذى أقام عند تسريحه عام ١٥٤م من قوات الفرسان فى كرانيس ، وكان يبلغ فى ذلك الوقت السابعة والأربعين من العمر، واشترى فيها منزلاً له فناء ين بمبلغ ٨٠٠ دراخمة . وإذا قمنا بمقارنة ثمنه بالأسعار المناظرة فى ذلك الوقت نرى أنه كان يدل على ثراء صاحبه . وعاش "نيجر" فى هذا المنزل حتى وصل سن الواحد والثمانين ، وعاصر وباء الطاعون الذى انتشر فى جزء كبير من الإمبراطورية الرومانية عام ١٧٠م ، ومن بينها مصر . وخلال فترة إقامته فى كرانيس استطاع أن يضيف إلى أملاكه أملاكًا أخرى لها قيمتها من بينها أراض زراعية فى عدة قرى . وآلت هذه التركة بعد وفاته إلى ابنْيه ، وبعد موت ابنْيه آلت الثروة إلى أرملة أحد أبنائه حيث يبدو أن الابن الثانى لم يكن له زوجة أو أبناء .

إغريق المدن واليهود

ضمت مصر التى ألحقها أوكتافيان بالإمبراطورية الرومانية بين حدودها ثلاث مدن (Polis) إغريقية الطابع ، تمتعت بحكم ذاتى مستقل وعدة امتيازات أخرى ، وتبدأ سلسلة هذه المدن بمدينة "نقراطيس" Naucratis الواقعة فى غربى دلتا النيل ، التى أسسها أحد فراعنة القرن السادس قبل الميلاد؛ اعترافًا منه بفضل التجار والجنود المرتزقة الإغريق ، ثم الإسكندرية ذات الميناء البحرى العظيم ، التى أسسها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق.م . وتأتى بعد ذلك مدينة بطلمية Ptolemais التى أسست بعد جيل من تأسيس الإسكندرية وتقع على بعد ١٢٠ كيلو مترًا شمالى غربى مدينة طيبة عاصمة الفراعنة ، وقد حملت اسم بطلميوس مؤسسها وأول حكام العصر الهللينستى الجديد .

ثم قام الإمبراطور هادريان فى عام ١٣٠ م بتأسيس مدينة أنتينوبوليس Antinopolis فى مصر الوسطى تخليداً لذكرى صديقه أنطونيوس Antonius ذلك الشاب الوسيم الذى كان يصاحب الإمبراطور بصفة دائمة ، والذى غرق فى مكان بالمدينة فى أثناء قيام الإمبراطور برحلة نيلية ، أسس الإمبراطور هذه المدينة بالطريقة التقليدية للمدن الإغريقية ، فكانت لها حكومتها التقليدية ، إضافة إلى بعض من نظم البلديات الرومانية ، ومنح سكانها عدة امتيازات تتناسب مع وضعهم ، وكان من بين مؤسسيها من السكان بعض مواطنى مدينة بطلمية الذين لا نعرف على وجه التحديد سبب وجودهم هناك : هل يرجع ذلك إلى أنه تم إغراؤهم بامتيازات المدينة أم أنه تم اختيارهم وإرسالهم إلى هناك ؟

أما ملكة مدن شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وعاصمة الثقافة فى العالم الهللينستى، وملتقى طرق التجارة بين العالم الإغريقى الرومانى وبلاد الشرق والجنوب، التى تردد عليها العرب والأحباش والهنود، والتى استضافت أفراداً من جميع الجنسيات : المتواضعين منهم والمشاهير ، فهى مدينة الإسكندرية التى كثيراً ما برزت صورتها فى الأدبين الإغريقى واللاتينى ، هذا على الرغم من أنه لم يتبق من مصادرها التاريخية المعاصرة غير عدد قليل من النقوش . أما وثائقها البردية فقد فقدت نتيجة لرطوبة تربتها الواقعة فى منطقة الدلتا ، وعلى الرغم من ذلك فلدينا عدد قليل من وثائقها تم حفظها بسبب تفحمها بطريق الصدفة البحتة (*) ، وفيما عدا العدد القليل من مخلفاتها الأثرية فإن بقية آثارها التى صنعت من مواد متينة اختفت لتعاقب الأجيال فى سكناها . ونعرف من تخطيطها الطوبجرافى جزيرة فاروس Pharos وفنارتها التى كانت إحدى عجائب الدنيا السبع ، ولدينا أيضاً بعض المعلومات عن حدودها ، إضافة إلى معرفتنا بحقائق عن ميناءيها ، ويبلغ عرض الطريق الرئيسى فيها ثلاثين متراً بالإضافة إلى رصيف من الجانبين تراوح عرضه بين ستة وسبعة أمتار تم رصفه

(*) هناك بعض أوراق البردى من مدينة الإسكندرية وهى التى كانت ترسل إلى الأقاليم وحفظت هناك بسبب جفاف التربة ولكن عددها قليل . (المترجمة)

بالأحجار. وطبقًا لما ذكره ديودور فقد بلغ عدد سكانها من الأحرار فى عصر أغسطس ٣٠٠,٠٠٠ شخص ، وعلى هذا يمكننا أن نقول إن المجموع الكلى للسكان بلغ حوالى نصف مليون فى ذلك الوقت .

ومعلوماتنا عن مدينتى نقراطيس وبطلمية خلال عصر المواطن الأول ضئيلة ، أما مدينة "أنتينوبوليس" فهى على العكس من ذلك ، وقدم لنا البردى الذى تم كشفه خلال مائة السنة الأخيرة كمًّا كبيرًا من المعلومات وخصوصًا عن بنائها السياسى وامتيازات مواطنيها .

يتمثل العنصر الرئيسى الذى اشتركت فيه المدن الإغريقية الأربعة فى تسجيل مواطنيها فى قبائل وأحياء – وهى الرابطة التى تمثل حلقة الاتصال بينها وبين المدن الإغريقية القديمة من الناحية الدستورية – وجاء معهد التربية (الجمنازيوم) ليمثل الخاصية الثانية المميزة لها ، والذى وضح بجلاء فى منظماتها دليلا على استمرار وجود تقاليد المدينة الدولة Polis الإغريقية . وترتب على استمرار هذا التقليد القديم توالى سكان المدن الإغريقية المصرية فى شغل منصب مديرى معهد التربية (الذى يشرف على إمداد المعهد بالزيت لاستخدامه فى الإضاءة والتدليك) ومنصب الرقباء Kosmetai (الذى يشرف على تسجيل الشبيبة Ephebes أى الشباب كما كان يطلق عليهم) . على أى حال لقد بدأت الرياضة الشعبية تتركز الآن فى المدرجات الرومانية Amphitheares التى انتشرت فى كل أنحاء الجانب الشرقى للبحر المتوسط . وتُركت رياضات المصارعة والملاكمة والجرى والأنواع التقليدية للألعاب الإغريقية الأخرى لأبطال الرياضة Atheletes ، وقلما اشترك المواطن العادى فى الألعاب ، ولكنه تحول بالتدريج إلى متفرج على الطريقة الرومانية .

قام مواطنو المدن الإغريقية بانتخاب أعضاء مجلس الشورى Boule – الذى يعد العنصر التقليدى للحكومة المحلية فى المدن الإغريقية – من بينهم ، وقاست الإسكندرية لأكثر من قرنين خلال الحكم الرومانى من عدم السماح لها بوجود مجلس للشورى ، ولقد سن "أوكتافيان" كما قيل لنا هذه السياسة نوعًا من عقاب مواطنيها لموقفهم

العدائى من قيصر أولاً ثم منه بعد ذلك . وهناك إشارة فى إحدى البرديات يمكن أن تدل على أن كلا من مدينتى "نقراطيس" وبالمثل "بطلمية" احتفظتا بمجلسى شوراهما(٧).
ومنحت مدينة أنتينوبوليس مؤسسة الاستقلال الذاتى – مجلس الشورى – منذ بداية تأسيسها ، وأخيراً حصلت الإسكندرية على مجلسها عام ٢٠٠ م ، عندما قام الإمبراطور "سيبتيموس سيفروس"Septimus Severus بمنحها – وجميع عواصم الأقاليم – حق إقامة مجلس للشورى فيها ، ورغم ابتهاج السكندريين بهذه المنحة فإن الغصة سرعان ما أصابتهم عندما رأوا مدينتهم المجيدة توضع على قدم المساواة مع بقية المدن الإقليمية الأخرى .

تمتع سكان المدن الإغريقية الأربعة بامتيازات كبيرة من الناحية الاقتصادية ، وتمتع غير المواطنين بالامتيازات التجارية التى وفرتها مدينة الإسكندرية لهم . أما الإعفاء من ضريبة الرأس فيها فلم يتمتع به غير مواطنيها مثلهم فى ذلك مثل الرومان . ومن المعروف أن هذه الضريبة كانت تمثل عبئا ماليا باهظًا بالنسبة إلى باقى سكان الولاية ، إلى جانب كونها رمزًا للخضوع . وبالإضافة إلى ما تقدم ، يبدو أنه كان يسمح خلال القرن الأول من العصر الرومانى لمواطنى المدن الإغريقية الأربعة دون المصريين بشراء أراضى الدولة عند بيعها ، وليس لدينا أدنى شك فى أن عدداً من مواطنى الإسكندرية وأنتينوبوليس (وربما نقراطيس وبطلمية أيضًا) امتلكوا مساحات من هذه الأراضى ، بل تمكن بعضهم من تكوين ضياع واسعة انتشرت فى أنحاء متفرقة من القطر وعلى بعد مئات الكيلو مترات من المدن التى يعيشون فيها (*) . وتمتعت الأراضى التى كانت تقع فى إطار مدينة الإسكندرية بإعفاء ضريبى ، وحينما كانوا يمتلكون هم وأفراد أسرهم ممتلكات كان يتم إعفاؤهم من الخدمات الإلزامية Liturgies بمختلف أنواعها ، بينما كان الأهالى المحليون يرغمون على أدائها .

(*) لمزيد من التفصيلات عن هذا النوع راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ١٦١ – ١٦٦ . (المترجمة)

وأخيرًا وليس بآخر سُمح لمواطني المدن الإغريقية بالخــدمة فى الفرق الرومانية ، و كانوا يتحولون إلى مواطنين رومان بمجرد تسجيل أسمائهم فيها . فى حين لم يكن يسمح لسكان مصر - كما سبق أن ذكرنا - إلا بتسجيل أسمائهم فى القوات المساعدة والأسطول ، وكان يسمح لهم بالحصول على الجنسية الرومانية بعد مضى أكثر من ربع قرن من الخدمة العسكرية فيها .

وفي الواقع فإن مجرد الإقامة فى المدينة لم تكن تجعل من سكانها مواطنين بصفة تلقائية ، حيث إن فرص العمل التى قدمتها أغرت السكان المحليين والأجانب على القدوم إليها ، وزاد من عدد سكانها وجود العبيد والعمال والمصريين من الشرائح كافة ، وهم الذين قاموا بتغطية احتياجات مواطنيها من الخدمات ، وإلى جانب ذلك لوحظ وجود مجموعة أخرى من السكان فى مدينة الإسكندرية أكثر من غيرها ، وأعنى بذلك اليهود الذين سوف نتحدث عنهم فى المرحلة التالية .

بعد سِفر خروج اليهود هناك الآن ما يدل على وجود اليهود فى مصر منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، ولدينا مئات من أوراق البردى وقطع الفخار التى دونت باللغة الآرامية من القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد تشير إلى استقرار اليهود فى منطقة الشلال الأول من نهر النيل ، حيث كانوا يقومون بحراسة حدود مصر الجنوبية لحكامها الفرس فى ذلك الوقت ، ونقرأ فى هذه الوثائق الآرامية عن زواجهم وطلاقهم ، واقتنائهم العبيد وتحريرهم لهم (وكان بعضهم يحمل أسماء مصرية ، وآخرون يحملون أسماء سامية)، وعن قيامهم بمد قوات حرس الحدود بما تحتاجه من طعام، كما نتقابل مع تفصيلات أخرى لحياتهم اليومية، مثل إقامة الدعاوى فى قضايا مختلفة، ونقل ملكية المنازل والأراضى إما عن طريق الهبة أو بالبيع ، وقروضهم المالية النقدية (التى بلغ عائدها السنوى ٦٠٪) والعينية التى لدينا نموذج منها حيث كانت تتضاعف فى خلال عشرين يومًا ، ولا يثير دهشتنا أننا نعرف أنه كان لديهم معبد أقاموه لعبادة يهوه على جزيرة الفنتين ، أما الأمر المثير لبعض الدهشة فيتمثل فى أنهم عبدوا فى هــذا المعبد آلهة أخرى إلى جانب إلههم يهوه ، وفى هذا إشارة مبكرة

فيما يبدو ودلالة على استعدادهم للتوفيق بينهما ، هـذا التوفيق الذى وضح بجلاء خلال العصرين الهللينستى والرومانى .

انتشرت بعد ذلك مجتمعات اليهود وازدهرت فى مصر ، وسمح لهم البطالمة بأن يعيشوا وفقًا لتعاليم ديانتهم ، ورغم أنهم كانوا يمارسـون حياتهـم بالطـريقة التقليدية ، فإنهم لم يكونوا متزمتين خصوصًا فى حياة مدينة مثل الإسكندرية حيث تأثروا بالثقافة الإغريقية ، كما أن القصة التقليدية للترجمة السبعينية للتوراة فى مدينة الإسكندرية فى القـرن الثـالث أصـبحت مـقـبولة بصـفـة عـامـة على الرغم من شك بعض الدارسين المعاصرين فيها . وفى خلال الحقبة الأولى من القرن الأول قبل الميلاد استغرق "فيلون" Philo وهو أحد أثرياء يهود الإسكندرية فى دراسة الفلسفة ، وأنتج عملاً ضخمًا قدمه باللغة اليونانية مازلنا نقرأه إلى اليوم . وشرح فى هذا المؤلف الضخم للقراء من غير اليهود كتب التوراة بأسلوب وعرض يتفقان مع العقلية الهللينية .

ذكر "فيلون" فى أحد كتبه أنه كان يعيش فى مدينة الإسكندرية فى عصره مليون من اليهود ، ومما لا شك فيه أن هذا الرقم كان مبالغًا فيه ، وربما هو من قبل المبالغة اللغوية ؛ حيث نعلم أن سكان المدينة كان يبلغ عددهم حوالى نصف هذا الرقم (راجع ص ٤٨ من الكتاب) . وكانت الإسكندرية مقسمة إلى خمسة أحياء احتل اليهود حيا كاملاً منها (*) . وأبقى "أغسطس " لليهود جميع امتيازاتهم التى تمتعوا بها فى العصر البطلمى تقديرًا منه لمساعدتهم له ، وكان من بينها مجلس شيوخهم Gerousia، فى الوقت الذى حَرم فيه السكندريين من مجلس شورى المدينة Boule ، ولذلك لا يثير دهشتنا أن يشعر اليهود نتيجة لهذه الظروف السابقة بأنهم أصبحوا سكندريين لهم حق المساواة مع الإغريق ، منها حقهم – على سبيل المثال – فى دخول الجمنازيوم الذى يعد المركز الجوهرى للسياسات الإغريقية . وواجه السكندريون موقف

(*) كان كل حى من أحياء الإسكندرية يحمل حرفًا من الحروف الأبجدية اليونانية ألفا ، بيتا ، جاما ، ثيتا ، دلتا ، والحى الأخير هو حى اليهود . (المترجمة)

اليهود بعداء سافر ، وأدى هذا الحقد الدفين إلى إشعال الثورة (*) وقيام مذبحة فى عام ٣٨ م . وعقب أحداث هذا الشغب الدامى رأينا وفود كلٍ من الإغريق واليهود المتنافسين يلجأون إلى الإمبراطور "كاليجولا" فى روما لعرض قضيتهم ، وقام الوفدان بزيارة الإمبراطور "كلوديوس" Claudius خلال الشهر الأول من توليه المنصب عام ٤١م وأجابهما بوضع قاعدة شهيرة (محفوظة فى وثيقة بردية حصل عليها المتحف البريطانى عام ١٩٢١) حيث أمر فيها كلا الجانبين بالاكتفاء بالوضع الراهن كما هو Status Que وأن يعيشا فى سلام ، وورد خطاب خاص بأحد السكندريين فى وقت سابق من السنة نفسها فى معرض الحديث عن سلسلة من التعليمات خاصة بشئون العمل ملحوظة على النحو التالى :

" أنه ينبغى أن يكون على حذر من اليهود مثل كل فرد آخر " (٨) .

لقد بترت امتيازات اليهود بحدة بعد ثوراتهم فى القرنين الأول والثانى ، ففى عصر الثورة الأولى عندما قام اليهود الفارين من فلسطين بمحاولة إثارة المقاومة فى كل مكان عقب سقوط "أورشليم" وتدمير المعبد اليهودى عام ٧٠م ، ظل يهود مصر على ولائهم للرومان، على الرغم من سلب كنوز معبدهم الرئيسى فى "لينتوبوليس" Leontopolis بالقرب من "ممفيس" وتدميره، وخشيت السلطات الرومانية من أن يحل هذا المعبد محل معبد "أورشليم" ويصبح مركزاً لإثارة السخط ضد الرومان ، وفرض الرومان ضريبة على اليهود لإصلاح ما تم تدميره ، وهى ضريبة نصف شاقل shekel (تساوى دراخمتين) وكانت تخصص فى الأصل لمعبد أورشليم ، ويتم فرضها سنويا على الذكور البالغين . ولكن الرومان ضاعفوا هذه الضريبة أربع مرات وأصبحت تفرض على جميع أفراد الأسرة (بما فيهم العبيد) منذ أن يبلغ الطفل سن الثالثة ، وخصص دخلها لإصلاح معبد جوبتير كبير آلهة الرومان ، الذى كان قد تم تدميره فى أورشليم نتيجة لأحداث ثورة اليهود . وجاءت هذه الضريبة نوعًا من العقاب أكثر من كونها ضريبة تعويضية، والدليل على ذلك استمرار تحصيلها فى القرن الثانى بعد فترة زمنية طويلة من

(*) عن الصراع الدامى بين السكندريين واليهود فى العصر الرومانى ، راجع كتاب المترجمة ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٧٢ وما يليها . (المترجمة)

فرضها ، بعد أن تم بناء معبد جوبتير الذى خصصت الضريبة فى الأصل من أجله . على أى حال فإن الظروف السابق عرضها لم تقلل من حق اليهود فى " أن يعيشوا وفقا لنظم أسلافهم " .

وعلى العكس من ثورة اليهود الأولى التى اندلعت فى فلسطين وانعكست آثارها على يهود مصر بعد ذلك ، كانت مصر هى موطن ثورة اليهود الثانية ضد الرومان . وترجع جذور اندلاعها إلى العداء المستمر والأعصاب المتوترة والمناوشات المستمرة بين الإغريق واليهود فى الإسكندرية ، وربما يرجع السبب المباشر لاشتعالها إلى انتهاز اليهود فرصة انسحاب بعض وحدات من قوات الرومان العسكرية من مصر لحاجة الإمبراطور "تراجان" إليها فى حربه ضد الفرس . وانفجرت الثورة فى عام ١١٥ م فى كل من مصر وقورينة ، ثم سرعان ما امتدت إلى قبرص وفلسطين وبلاد ما بين النهرين . ويبدو أنه تم القضاء عليها فى الإسكندرية على وجه السرعة ، أما خارجها فلم تطفأ نيرانها إلا بعد فترة قصيرة من اعتلاء الإمبراطور تراجان عرش الإمبراطورية عام ١١٧ م. وقامت قوات المخربين من اليهود بنشر الخراب والدمار لمدة بلغت ثلاث سنوات فى أنحاء مصر : من الدلتا إلى "طيبة" . وتشهد مجموعة من أوراق البردى التى عثر عليها فى أماكن متفرقة من مصر على ضراوة الصدام ، وعلى أعداد القتلى ، وهؤلاء الذين أرغموا على ترك ديارهم ، وذلك الخراب الذى لحق بالأراضى الزراعية والمنشآت والمبانى نتيجة لهياج اليهود . وتدل النقوش التى عثر عليها فى قورينة على الطرق التى قطعت ، والمنشآت التى أحرقت . ولدينا خطاب شائق كتبه أحد مديرى الأقاليم المصرية إلى والى مصر فى ٢٨ نوفمبر ١١٧ م يطلب فيه إجازة لمدة ستين يومًا حتى يستطيع أن يضع الأمور فى نصابها .. "ليس فقط بسبب الإهمال الذى أصاب مصالحى ، ولكن لأننى فقدت كل ما أملك فى قرى إقليم هرموبوليس **Hermopolis Magna** ، ولذلك يجب أن أقوم بنفسى بإعادة الأمور إلى نصابها ، وفى حالة قبولكم لطلبى سوف يمكننى عند العودة لعملى أن أقوم بتأديته بروح معنوية مرتفعة" .

وبعد حوالى مائة عام من نهاية هذه الثورة كانت مدينة البهنسا **Oxyhnchus** لا تزال تحتفل بذكرى الانتصار عليها وذلك "للحماس والإخلاص والصداقة التى أبداها شعبنا للرومان فى حربهم جنبًا إلى جنب ضد اليهود ، من أجل ذلك لا نزال نحتفل حتى اليوم كل عام بذكرى الانتصار عليهم" (٩) .

وفى عام ١١٧ م انتهت مقاومة اليهود نهائيا فى مصر ، ولكنهم ثاروا مرة أخرى فى فلسطين وطنهم القومى بعد سبعة عشر عاماً (*) ثم كانت آخر محاولة عنيفة أبداها اليهود لسبر غور الرومان تلك التى قادها المصلح الاجتماعى "باركوشبا" (أى ابن النجم) Barkochba ، وبالرغم من النغمة الماسونية المبالغ فيها لهذه الحركة التى تم القضاء عليها بعد ذلك ، فلم يعد لليهود أية مقاومة ضد الرومان خلال الفترة الباقية لوجودهم فى مصر .

المصريون

إذا كنت أحد سكان مصر ، ولم تكن رومانيا ، فسواء كنت أحد مواطنى المدن الإغريقية الأربعة أو يهوديا ، فأنت فى نظر الحكومة الرومانية مصرى . ليس من المهم أن تكون منحدرا من سلالة الذين خدموا فى الجيش لستة أو سبعة أجيال ، تلك الطبقة التى كانت لها حقوق توارثتها ، وكانت تقيم فى مصر منذ العصر البطلمى ، وذهب الآن امتيازهم الطبقى . إن أولئك الذين كانوا ينحدرون من سلالة مميزة ، وكانوا يشيرون باعتزاز إليها فى بياناتهم لتدل على أصولهم الإغريقية المقدونية ، كأن يكون الفرد منهم من "كوس" Coas أو من "كريت" أو تسثالى الأصل . أصبح الجميع فى سجلات الحكومة الآن مصريين ليس أكثر من ذلك ، ولدينا قرينة معاصرة لاشك فيها تؤكد هذه الحقيقة ، حيث لاحظ المؤرخ "ليفيوس" T. Livius الذى كان يكتب تاريخه فى أثناء حكم أغسطس " أن المقدونيين انحدروا إلى مستوى المصريين " (١٠) .

وعندما يجتمع السكان غير المتجانسين فى أصولهم فإنهم سرعان ما يتجمعون معاً، ويكون لهم وضع سياسى وقضائى محدد ، كما أنهم سرعان ما ينشئون طبقة اجتماعية تضمهم فى إطار المجموع الكلى للسكان . وفى عصرنا الحديث عندما يوجد

(*) إن فلسطين هى وطن أهلها من المسلمين والمسيحيين واليهود وليست وطنا قوميا لليهود فقط . (المترجمة)

مثل هذا التمييز فإنه يعتمد على قاعدة من اختلاف اللون والبشرة كما هو الحال فى منطقة الكاريبى . أما بالنسبة إلى جماهير المصريين فى أثناء الحكم الرومانى فكانت الهللينية هى حجر الزاوية . وشاع الزواج بين المصريين والذين انحدروا من أصل الإغريق خصوصًا فى الريف ، هنا كان الأبناء يحملون أسماء من كلا الطرفين (وسوف نجد نماذج على ذلك فى هذا الكتاب) . وإذا سجل الفرد باسم مصرى ، وأراد أن يقوم بتغييره إلى اسم إغريقى كان لابد من الحصول على إذن من السلطات الرومانية المختصة . ففى ٢٧ أغسطس عام ١٩٤ م قدم الطلب الآتى :

« إلى سعادة كلوديوس أبوللونيوس Cleaudius Apollonius مدير الحساب الخاص ، من يودايمون بن باؤيس وتياتريس Eudaimon son of Paois and Tiathres من قرية ... الواقعة فى إقليم نيسيت Nesyt أتقدم برجاء الموافقة على تغيير اسمى إلى يودايمون بن هيرون ودديمى Eudaimon son of Heron and Didyme بدلاً من اسمى الذى أحمله كابن لباؤيس وتياتيريس . ولن يترتب على هذا التغيير أى ضرر بالمصالح العامة أو الخاصة ، كما أننى سوف أستفيد من ذلك . مع خالص تحياتى . قام يودايمون بتسليم الطلب [ثم التاريخ] » .

كتب فى أسفل الطلب : " يسمح له بذلك حيث إنه لن تترتب عليه أى أضرار بالمصالح العامة أو الخاصة" (١١) .

أصبحت جميع الأمور الخاصة بالوضع الطبقى والعلاقات بين الطبقات تدخل فى نطاق اختصاص مدير حساب الإمبراطور الخاص . ورأينا هذا الموظف (الرومانى الذى كان يعينه الإمبراطور) يقوم بتنفيذ مجموعة من القواعد العديدة والمحددة ، ويجمع الغرامات والمخالفات المالية . وقد نُشر ملف من أوراق البردى كان يوجد فى المتحف المصرى فى برلين الشرقية عقب الحرب العالمية الأولى ويتضمن مئات من هذه القواعد ، وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه القواعد نرى أنها لا تترك مجالاً لأدنى شك فى أن القاعدة الأولى التى وضعها "أغسطس" ثم حافظ عليها خلفاؤه من بعده لمدة مائتى عام تتلخص فى الإبقاء على التمييز الطبقى بين السكان ومنع الاندماج

فيما بينهم لأطول مدة ممكنة ، أى أنه اتبع سياسة فرق تسد Divide et Impera . إن اختيار عدة فقرات من هذه الوثيقة الطويلة لهو كفيل بتوضيح ذلك .

نسخة من قانون التنظيمات التى وضعها المؤله "أغسطس" لإدارة الحساب الخاص، مع الإضافات التى أضيفت إليها من حين إلى آخر من قبل الأباطرة ومجلس الشيوخ الرومانى والولاة ومديرى الحساب الخاص :

٨ - إذا أضيفت العبارة التالية إلى وصية مواطن رومانى "يجب الاعتراف بأى تعديل أكتبه باليونانية على الوصية " ، هذه العبارة تعد لا قيمة لها لأنه مُحرم على المواطن الرومانى أن يكتب الوصية باللغة اليونانية .

١٨ - يتم مصادرة الإرث الذى يتركه الإغريق للرومان ، أو يترك من قبل الرومان للإغريق ، بأمر من فسباسيان المؤله ، ويحصل الذين كشفوا عن هذه الحالة على نصف المبلغ المصادر .

٣٨ - يعد الأبناء الذين تم إنجابهم من أم إغريقية وزوج مصرى مصريين ويسمح لهم بالحصول على ميراث والديهم .

٣٩ - إذا تزوج رومانى - رجلا كان أو امرأة - بإغريقية أو إغريقى، أو مصرية أو مصرى، يحصل أبناؤهما على الوضع القانونى الأدنى .

٤٢ - يعاقب من يطلق على نفسه ألقاب غير صحيحة بمصادرة ربع أملاكه ويعاقب بالمثل من يتستر عليه (*) .

٤٣ - إذا سجل مصرى والده المتوفى بالسجلات على أنه رومانى يعاقب بمصادرة ربع أملاكه .

٤٤ - إذا قام مصرى بتسجيل ابنه بين فئة الشبيبة Ephebe فى المدينة يصادر سدس ممتلكاته .

(*) يبدو أننا اليوم فى أمس الحاجة لمثل هذا القانون . (المترجمة)

٤٥ – إذا تزوج إغريقى من مصرية وتوفى دون ذرية ، تؤول جميع أملاكه إلى الخزانة ، ويصادر ثلثا أملاكه إذا كان لديه أبناء ، أما إذا كان لديه ثلاثة أبناء أو أكثر من زوجة إغريقية فتؤول كل أملاكه إليهم . أما إذا كان لديه اثنان فقط فيحصل كل واحد منهما على ربع أو خمس أملاكه ، ويصادر نصف أملاكه إذا ترك ابنا واحداً .

٤٩ – يحرم على العبد الذى حرره رجل سكندرى الزواج من سيدة مصرية .

٥١ – إذا تزوج رجل منحدر من أب سورى وأم إغريقية من امرأة مصرية يحكم عليه بغرامة مالية .

٥٣ – تعاقب السيدات المصريات المتزوجات من جنود مسرحين من الخدمة العسكرية واللاتى يدعين أنهن رومانيات بعقوبة انتهاك الوضع القانونى .

٥٤ – يصادر ربع ممتلكات الجنود الذين يدعون أنهم رومان قبل الحصول على التسريح القانونى (١٢) .

يختلف المؤرخون اختلافا كبيراً فى تفسير إجراءات أوكتافيان أغسطس السياسية، ولكن أكثر المعجبين به فى هذا القرن يتفقون على أن مجموعة قواعد وقوانين مدير الحساب الخاص Idios Logos يجب أن تعد "أداة للتعسف الضريبى" ، حقيقة إن المطحونين والفقراء فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية لم يكونوا فى وضع يحسدون عليه .. أليس كذلك ؟ ولكن من الواضح أن الشعب المصرى كان الاستثناء الوحيد من بينهم الذى عومل بهذه المعاملة القاسية ، إن سياسة الرومان تجاههم كانت تحاول كبح جماحهم لمنعهم من الثورة . إن محاولة فهم الدافع الذى دفع أغسطس إلى وضع هذه القواعد تحتاج إلى التأمل والتفكير العميق ، ولكى نؤكد ذلك ينبغى أن يكون فى ضوء الأدلة التى يمكن أن نتلمسها . منذ بدأ الرومان إحراز انتصاراتهم البحرية فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد بدأ تأثرهم بالحضارات الأجنبية (والإغريقية على وجه الخصوص) ، هكذا بدأ الرومان يصابون بعقدة كراهية الأجانب xenophobia ، تلك العقدة التى انعكست على النواحى السياسية والاقتصادية . لقد

كان كاتو Cato الرقيب هو صاحب العبارة المشهورة التى تنادى "بتدمير قرطاجة" ، وهو المحرك الأول لسياسة كراهية الأجانب ، بالإضافة إلى أنهم نظروا إلى الحضارة الشرقية بازدراء خاص ، وبمرور الوقت ظهر "أوكتافيان" على المسرح ، وبعد مائة عام من عصر "كاتو" كانت الصورة التى طبعت فى أذهان الرومان عن مصر أنها الأرض التى ينمو فيها الفسق والفجور نموا خرافيا، الأرض التى يحكمها ملوك بدناء أشرار ، واصلوا فجورهم بزواج الأخت بأخيها ، إضافة إلى ذلك فإن قصة غرام أنطونيوس وكليوباترا – وعلى العكس من ذلك تم التغاضى والصفح عن قيصر – سلمت لأوكتافيان سلاحا دعائيا جاهزًا استطاع أن يستخدمه بمهارة بالغة . أما إيطاليا فقد كانت تخشى قرنا آخر من الحرب الأهلية المتكررة ، لذلك قام "أوكتافيان" مناديا – ذلك النداء الهزلى – إن هذه الحرب لن تكون حربًا أهلية أخرى (ضد أنطونيوس) ولكنها جهاد ضد الخطر الأجنبى الذى يهدد كل ما هو رومانى .... وزادت دعاية "أوكتافيان" التى فاقت كل مقاييس الذوق واللياقة من حجم كليوباترا ، وعندما طلق أنطونيوس زوجته "أوكتافيا" Octavia شقيقة أوكتافيان بتحد، أصبح لا يوجد حدود للقذف وانتشار الشائعات . حتى "هوراس" Horace (*) ذلك الشاعر العاطفى لحق هو الآخر بموكب الجنون ووضع أغنية عن "الملكة المجنونة ، تلك الشبح المميت ، التى تقود بفجور غير عادى عصابة من الأغنياء لتدمير الكابيتول والإمبراطورية". وبالرغم من كل الاعتبارات التى تداخلت فى تنظيم أغسطس ووضعه لقواعد الحكم الرومانى فى مصر، فإن القواعد التى وضعها لكبح جماح الشعب المصرى فى نُظم مدير الحساب الخاص تعد متطابقة تمامًا مع سياسة التفرقة العنصرية للعالم القديم ، وتعكس موقف الشعب الرومانى العدائى تجاه مصر التى وصلت إلى قمتها فى إعداد حملاته العسكرية والدعائية ضد كليوباترا (١٢) .

وفى عام ٢١٢ م أصدر الإمبراطور كاراكالا Caracala منشوره الشهير الذى منح بمقتضاه الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية (فيما عدا المستسلمين الذين

(*) عن الشاعر هوراس راجع : أحمد عتمان ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، القاهرة بدون طبعة ٢٤٠ – ٢٥٢ . والمرجع من أحدث الدراسات التى وضعت فى أدب العصر الإمبراطورى فى روما . (المترجمة)

هناك اختلاف كبير بين الباحثين حول تعريفهم) . ويمكننا أن نستشف الدوافع التى حركت الإمبراطور لإصدار هذا المنشور ، ولكن هناك شيئًا واحدًا أوضحه لنا البردى: إن التغيير كان نفسيًا وظاهريًا ولم يحدث تغيير جوهرى فى بنية مصر الاجتماعية ، أو فى العلاقات بين الطبقات أو الضوابط التى كانت تحكمها ، وكان الأمر بالنسبة إلى المصريين فى المدن والقرى على النحو التالى :

كلما كانت هناك رغبة فى التغيير ، ظل الوضع على ما هو عليه : Plus ça change, plus ça reste la même chose .

الهوامش

(١) Pliny , Letters , Book 10 , nos. 6-7 ولكى يصف وظيفة رجل مثل هاريقراط فقد استعار الرومان الاصطلاح اليونانى الذى يترجم " طبيب التدليك " .

(٢) ترد البيانات الخاصة بالفصيلة cohort فى المصدر التالى : BGU. 696 = Select Papyri - 401 .

(٣) تم نشر وثيقة أوسلو البردية فى : Proceedings of the XVI International congress of Papyrology , Americal studies in Papytology, 23(1981), 329. وقد دونت الوثيقة السابقة باللغة اللاتينية وهى من مجموعة PSI. 1026 . وكان كل جندى مسرح من الفرقة أو القوات المساعدة يحصل على براءة برونزية Diploma مكتوبة باللغة اللاتينية ، تشهد بتسريحه المشرف ومنحه الامتيازات المترتبة على ذلك . والمعروف أن رجال الفرقة الرومانية مواطنين رومان فى الأصل ؛ أما هؤلاء الجنود فلم يكونوا مواطنين رومان عندما بدأوا خدمتهم العسكرية ، ولكن تم بعد ذلك ترحيلهم إلى قوات الفرقة ، وحيث إن قوائم تسجيلهم سوف توضح أنهم كانوا ملتحقين بالقوات المساعدة لذلك شعروا بحاجتهم لشهادة توضح وضعهم . وهناك ترجمة للوثيقة الخاصة بهم وهى PSI . 1026 منشورة من L.R.II, pp 525 - 6.

(٤) نشرت البيانات الخاصة بسكنوبايونيسوس مع التعليق عليها فى : D. H. Samuel. Proceedings of the XVI International Congress of Papyrology, American Studies in Papyrology , 23 (1981) , 389-403 / حيث يجد القراء فيها المصادر الخاصة بالدراسات المبكرة لأماكن أخرى .

(٥) SB. 9636 .

(٦) وهذه الوثائق هى : SB. 11114, and SB 7523 = Select Papyri, 254 أما الفقرة التى تم الاستشهاد بها هنا فهى من شيشرون فى دراسته عن الجمهورية Cicero , On the Republic, Book 2, ch. 52 .

(٧) ورد الدليل على وجود مجلس للشورى فى مدينة بطلمية فى الوثيقة التالية SB. 9016 والتى تتضمن وثائق من عامى ٤٨م و ١٦٠م .

(٨) تم نشر خطاب الإمبراطور كلوديوس فى P. Lond. 1912 = Select papyri 212 = Corpus Papyrorum Judicarum, 153 مع الترجمة والتعليق المفصل ، وهناك ترجمة أخرى وردت فى L - R, II, pp. 366-9 أما خطاب السكندريين فقد نشر فى : = BGU. 1079 = Select Papyri, 107 Corp. Pap Jud . 152.

(٩) الوثائق التى تم الاقتباس منها هى على النحو التالى:- P.Giss. 41 = W. Ch. 18 = Select Papyri, 298 and P. Oxy. 705 = W.Chr. 153 هذه الوثائق وأخرى غيرها تعكس الثورة ونتائجها التى نتجت عنها وهى منشورة فى : Corp. Pap. Jud. 435-50 .

(١٠) History of Rome, Book, 38, ch. 37

(١١) W. Chr. 52 = Select Papyri, 301

(١٢) BGU. 12110 وهناك فقرة كبيرة مأخوذة من R - II, PP. 380-3

(١٣) المقتطفات الواردة في هـذه الفقـرة من . T. Rice Holmes, The Architect of the Roman Empire II, P. ; R m Syme, The Roman Revolution , p.275; Horace, Odes, Book 1, . no. 37.

الفصل الثالث

مدن الأقاليم ، أو "مقابلة صغار الأعيان "

تنقسم مصر التى أضافها أغسطس للشعب الرومانى إلى ثلاثين وحدة إدارية تدعى أقاليم nomoi ، وقد نُقل الاصطلاح اليونانى الأخير - الاصطلاح نفسه - إلى حروف اللغة الإنجليزية nomes . لقد أبقى أغسطس وخلفاؤه على التقسيم السابق لمصر ، ولكنه سحب من مديرى الأقاليم اختصاصاتهم العسكرية ، ويتم تعيينهم على يد والى مصر Prefect ، ويعملون بالتالى وفقًا لمشيئته . كان لكل مدير مساعد يحل محله فى أثناء غيابه ، ويلقب بالكاتب الملكى، واستمر استعمال هذا اللقب الذى كان ولا يزال مستعملاً منذ العصر البطلمى.

وكان لكل إقليم noma عاصمته metropolis التى تتمركز فيها إدارته ، واختلفت هذه الأقاليم فى أسمائها وحجمها وعدد سكانها ، وانعكس هذا التباين فيما تم العثور عليه من بقاياها الأثرية فى أثناء الحفائر التى أجريت فيها ، وفى ما تم العثور عليه من أوراقها البردية . ومن الصعوبة بمكان معرفة عدد سكان تلك الأقاليم ، وكشفت الحفائر الأثرية فى مدينة منف Memphis أن تخطيطها العام كان كمُثَّرى - بيضاوى - الشكل ، بطول بلغ خمسة كليو مترات ، أحيط بمساحة بلغت حوالى كيلو متر مربع . وتكونت مدينة "هرموبوليس" Hermopolis من أكثر من هذه المساحة بحوالى مرة ونصف ، وهذا لا يعنى بأى حال أن عدد سكان مدينة "هرموبوليس" كان أكثر من سكان مدينة "منف" بمرة ونصف . حقيقة لدينا عدة مقاييس ، ولكنها متغيرة وغير معروفة ولا نستطيع أن نتحكم فيها . وعلى سبيل المثال : ما المساحات التى خصصت فيها للمبانى العامة ؟ أو للمنشآت الدينية ؟ وتشير البقايا الأثرية للبهنسا إلى أن مسرحها كان يضم عدداً من المقاعد تكفى لاستيعاب عدد من الأفراد يتراوح بين ثمانية آلاف واثنى عشر ألفًا - ولكن هل يمكن أن نستنتج من هذا الافتراض ، بوضع حد أدنى ، وحد أعلى للعدد الكلى لسكان المدينة ؟ إننا لو قمنا بذلك فسوف نصطدم بحشد هائل من الأسئلة التى لن نتمكن من الإجابة عنها . وتأتى الصعوبة الرئيسية من أننا

لا نعرف الشريحة الاجتماعية التى خصص لها هذا المسرح من بين شرائح المجتمع ، هل هم كل البالغين من الذكور ؟ كما أننا لا نعرف ما إذا كانت المسرحيات اليونانية تقدم على هذا المسرح أم أنه خصص للمتحدثين باليونانية فى عواصم الأقاليم ؟ إنه من الصعوبة بمكان الإجابة عن هذه الأسئلة وأسئلة أخرى غيرها كثيرة .

وعثر على وثيقة من إحدى عواصم الأقاليم المصرية خاصة بإحصاء للمنازل تم فيها فى عام ١١٦ م ، وهى على النحو التالى :

« من هيراكيون Hierakion كاتب المدينة ، الترتيبات الأمنية للشوارع الرئيسية وشوارع المدينة .

– من شارع حمام السيدات إلى منزل فانائيس بن سيسوئيس Phanais son of Sisois حتى عطفة أونوفريس Onnophris تاجر الزيت : ١٢٣ منزلاً .

إنتايوس بن هليدوروس Antaios son of Helidoros رئيسا ، باريتوس ابن Paaretos son of

هيروجيوس الصغير بن توتسيمس Hergeus son of Thotsymis من معبد سيرابيس Serapais إلى منزل أورسينوفيس بن بيتوزريس Orsenouphis son of Pe-tosiris ومنزل خايراس Chairas الرسام : ١٢٩ منزلاً .

باخوموس بن هيراكيون Pachomos son Hierakion رئيسا ، فيموليلوس بن سياس Phimoulilous son of Seias وبانجورسايوس بن بساخيس Pangor Sauis son of Psachis أعضاء شرف .

– من بداية معبد أبوللون وأفروديت الإلهة العظيمة ، إلى مكان الاحتفال بالموكب : ١٣٢ منزلاً . أنتايوس بن بسنتاربسايس Antaios son of Psentarpsais، رئيسًا ؛ هاسيئيس بن كلوتيخميس Hasies son of Kolloutechmis وبيتيموثيس بن ميسيس Peteimouthes Son of Miysis أعضاء شرف» .

المجموع الكلى = ١٢٧٣ منزلاً (١)، وتم تسجيل عشر حالات بالطريقة السابقة ، وإذا كانت هذه الوثيقة إحصاء كاملا للمدينة كما هو واضح من العنوان الذى يظهر عليها ،

فيفترض هنا أنها تناظر مثيلاتها من عواصم الأقاليم الأخرى. إلا أن مدينة هرموبوليس كانت على خلاف ذلك ، إذ بلغ عدد منازلها ٧٠٠٠ منزل ، واستخرج هذا الرقم من ترميم لوثيقة بلغ عدد المنازل الواضحة فيها ٤٠٠٠ منزل . والواقع أننا نعرف الكثير عن الهيكل التخطيطى لهرموبوليس نتيجة للحفائر التى تمت فيها بعد عشر سنوات من الحرب العالمية الثانية . وأحيطت المدينة بسور من الطوب اللبن ، ويقع النطاق الدينى فى الجزء الشمالى منها ، وكانت أسوارها سميكة بشكل غير عادى إذ بلغ سمكها حوالى ٢٥ متراً ، فكانت تبدو كمعبد محصن ، وفى النطاق الدينى الذى بلغ عرض واجهته خمسين متراً ، بعمق بلغ أكثر من مائة متر ، كان يوجد معبد الإله هرميس Hermes ، الذى اشتق منه اسم المدينة ، وهو الصورة الهللينية للإله المصرى توت Thot ، وبداخله كان يقع معبد أغسطس ، وبالإضافة إلى هذا المعبد الشخصى فى النطاق المقدس فمن المحتمل أنه كان يوجد بالقرب منه مقر الحامية المحلية ، وربما أقامت فيها أيضًا بعض العائلات المحلية التى لم تكن لها صلة بالشعائر الدينية . وكان الشارع الرئيسى فى المدينة يحدد الحافة الجنوبية للنطاق الدينى ، ويبدأ من بوابة القمر فى الجانب الغربى إلى بوابة الشمس فى الجانب الشرقى ، ويواصل سيره باتجاه ميناء المدينة النهرى ، حيث يعبُر منها إلى موقع مدينة أنتينوبوليس Antinopolis ، وغير الإمبراطور هادريان اسم هذا الشارع العريض (أو على الأقل الجزء الشرقى منه) من شارع سيرابيس إلى شارع ذكرى أنتينوس المتوفى Antinous ، ثم يواصل الشارع امتداده بزاوية إلى اليمين نحو الجنوب حتى يقترب من معبد هرميس ، وكانت نقطة تقاطع هذين الشارعين الرئيسيين محور أنشطة المدينة ، فكان يوجد فيها السوق الرئيسى ، حيث المنشآت العامة الضخمة ، ومعابد كل من أنتينوس ، وهادريان ، وسيرابيس النيل، وأفروديت، والحظ Fortune، وأثينا. وخصص الجزء الجنوبى من المدينة للسكنى، وكشفت الحفائر عن وجود اثنين من الحمامات العامة، وجمنازيوم بحمام خاص كان هدية من الإمبراطور هادريان، وعدة منازل أخرى فخمة تفتخر بحماماتها الخاصة، وبالإضافة إلى كل هذه المزايا فى هرموبوليس كانت بها حديقة عامة وبحيرة(٢).

أما العاصمتان اللتان نعرف منهما معلومات أفضل مما تقدم فهما مدينتا الفيوم Arsinoe والبهنسا Oxyrhynchos . وقد تمكنا من خلال آلاف الوثائق البردية التى عثر

عليها فى البهنسا والقرى القريبة منها أن نعرف معلومات ضخمة عنها مثل أسماء الأقسام الرئيسية فى المدينة ، وأسماء عدد من شوارعها . ونستطيع أن نحدد وجود ومكان بعض مؤسساتها مثل الجمنازيوم ، والحمامات العامة ، والمسرح ، والبنك الذى كان قائمًا عند مذبح سيرابيس ، وعشرين معبدًا أخر ، وكنيستين ترجعان لنهاية القرن الثالث الميلادى . ويوجد ملف لأوراق البردى فى المتحف البريطانى يتضمن حسابًا خاصا بالدخل والنفقات قام المشرفون على تزويد المدينة بالمياه بتسجيله عام ١١٣ م ، ومنه نعلم أن مدينة الفيوم زودت بالمياه الجارية فى بعض أجزائها على الأقل فى خزانات تُضخ المياه إليها من أحد فروع النيل بواسطة خط أو أكثر من الطنابير وآلات أخرى (الفصل السادس) ، وتم تشغيل هذه الآلات بواسطة جماعات تتكون كل جماعة منها من عدد من الرجال يتراوح بين ستة أفراد وعشرين فردًا يعملون صباحًا ومساءً بالتناوب . وكان ضمن المستهلكين للمياه من يدفع من ١,٥ إلى أكثر ٤٠ دراخمة يوميًا ، وكانت الحمامات العامة ، ومصنع البيرة الواقع بالقرب من معبد سيرابيس ، ومعبد ومكان لصلاة يهود طيبة (مما يشير إلى احتمال وجود على الأقل معبد أخر لهم فى المدينة) من بين المستهلكين للمياه ، لكن ليس من الواضح ما إذا كانت المنازل الخاصة قد تم توصيل مياه المدينة إليها أم لا [٣] .

الأعيان وامتيازاتهم

إن أكثر ما نقابله من خلال أوراق البردى هم أولئك الأفراد الذين يقيمون فى عواصم الأقاليم ، وسبق أن رأينا خلال الفصل الثانى أن جميع سكان المدن بمن فيهم أولئك الذين يدعون انحدارهم من نسل إغريقى خالص قد أنزلتهم الحكومة الرومانية إلى مرتبة المصريين ، وعلى الرغم من ذلك فإن مواطنى عواصم الأقاليم – كما كانت الأرستقراطية المحلية تسمى نفسها – تشبثوا باعتزازٍ بروابطهم – سواء كانت حقيقية أو خيالاً – بالثقافة الهللينية ، وصاغوا حياتهم والجو المحيط بهم بطريقة تشبه الحياة فى المدن الإغريقية الأربعة ، خصوصًا الإسكندرية ، وذلك بقدر ما أتاحته لهم إمكانياتهم ، واحتفظوا بالألعاب الإغريقية وأعياد الآلهة اليونانية بطريقة تجاوزت

حد الحكمة والتبصر . ومع نهاية القرن الثاني عانت كثير من عواصم الأقاليم من العجز المالي في مواجهة نفقاتها الجارية ، وجرت محاولات لوضع حلول تقضي بتخفيض النفقات ، واتُّهم أصحابها بقصر النظر من قبل أولئك المتمسكين بالمظاهر ، والذين رأوا أنه لا ينبغي أن يلجأوا إلى هذه الوسيلة إلا إذا كانت هي الحل الأخير . وقام أحد رجال البر في عام ٢٠٠ م برصد وقف خصص للإنفاق على مباريات الشبيبة السنوية بحيث تكون على المستوى نفسه كتلك التي تجري في مدينة أنتينوبوليس . وفي الواقع لقد كان هناك تمسك بالمظاهر الهللينية حتى خلال فترة المشاكل السياسية والاقتصادية في الحقبة الأخيرة من القرن الثالث .

وبدلاً من تخفيض هذه النفقات استمر مواطنو عواصم الأقاليم في إضافة جديد عليها يتطلب نفقات طائلة . وعلى سبيل المثال أنشأوا في البهنسا طبقة شرفية تتكون من مائتين من مواطني عواصم الأقاليم من ذوي الامتيازات ، تضاف نفقاتهم إلى النفقات العامة ، وكونوا منهم مجلساً للشيوخ يذكرهم ببلاد الإغريق في عصرها الكلاسيكي . وأدخل في البهنسا وبعض عواصم الأقاليم الأخرى – ولا نستطيع أن نقول جميعها – نظام توزيع هبات القمح المجاني لعدد من أفرادها . ولا شك في أن هذا التصرف الأخير كان محبباً إلى قلوبهم ، الذي كان سمة مميزة ليس فقط للإسكندرية وأنتينوبوليس ولكن لروما أيضاً (٤) .

ولا يثير دهشتنا أن مواطني عواصم الأقاليم الذين عرف عنهم التعلق بحياة المدن الإغريقية قاموا بنبذ كل ما هو قروي ومصري ، إذ كتب أحدهم من البهنسا وكان يزمع زيارة أصدقاء له وأسرهم بعد أن عاش بعيداً عنها لمدة عام قائلاً : "ربما تظن أنني أصبحت بربريا أو مصريا غير متحضر " ، وكتب له ذلك مؤكداً أنه لم تحدث له مثل هذه التغييرات (٥) .

وبالرغم من أن الوثائق التي لدينا من عواصم الأقاليم تقدر بالمئات فإننا لا نستطيع أن نحدد تحديداً مؤكداً ما المقصود بعبارة : "مواطني عواصم الأقاليم" metropolites ، وعبارة : "الذين هم من عاصمة الأقاليم" . لقد تكونت هذه الطبقة

فيما يبدو من أولئك المنحدرين من نسل طبقة الإغريق الذين أغراهم البطالمة بالاستيطان فى مصر. ولكن هل تكونت هذه الطبقة من هؤلاء فقط أو أنهم كانوا نواتها ؟ كما أننا لا نعرف على وجه التحديد ما إذا كان أولئك الذين نتجوا من الزواج المختلط بين المصريين وغيرهم كانت تضمهم هذه الطبقة أم لا؟ وهل كان تسجيل الإقامة فى عاصمة الإقليم يتبعه بالتالى الحصول على حقوق مواطنيها ؟

إن الإجابة المؤكدة عن هذين السؤالين هى بالنفى ؛ لأنه اتضح من الوثائق أنه كان يتم تسجيل مواطنى عواصم الأقاليم من الذين انحدروا من والدين ينتميان إلى الطبقة نفسها (وبناء على ذلك كان يحق لمواطنى عواصم الأقاليم أن يعترفوا بأنهم ما زالوا يمارسون حياة مدينة الدولة الإغريقية القديمة والتى كانت أشهرها أثينا فى عصر بركليز الذهبى) ، وبناء على ما تقدم فإن المصريين المقيمين فى عاصمة الإقليم ، والأبناء الذين أنجبوا من زواج مختلط كان محرمًا عليهم الحصول على مواطنة عاصمة الإقليم .

ويدور السؤال الآن على النحو التالى : هل كانت طبقة مواطنى عواصم الأقاليم طبقة متجانسة ؟ يبدو أن الأمر لم يكن كذلك ، فلدينا مجموعة من "٦٤٧٥ من المستوطنين " فى الفيوم ، ومن هرموبوليس والبهنسا " وطبقة الذين ينتمون إلى معهد التربية " ، ويبدو أن مثل هؤلاء كانوا فئة مميزة أكثر من كونهم طبقة انبثقت من خلال طبقة مواطنى عواصم الأقاليم .

وإذا حاولنا أن نعرف أصل ومغزى المشار إليهم بـ "٦٤٧٥ من المستوطنين فى الفيوم " فإننا لا نستطيع إيجاد تفسير لهذه المشكلة ، فربما يشبه هذا الاصطلاح من الناحية الشكلية اصطلاح الحد الأقصى **numerus clausus** الذى لا يمكن تعديه ، ولكن إذا كان الأمر كذلك فماذا يحدث إذا زاد العدد نتيجة لزيادة السكان ؟ ماذا سيكون مصير أبناء هذه الطبقة المميزة ؟ هل يظلون خارج نطاق عضويتها إلى أن يخلو مكان لهم بالوفاة ؟ وما الطريقة التى يشغل بها المكان الخالى ؟ هل لأكبرهم سنا ، أم كان يتم ذلك بالاقتراع ؟ إن جميع هذه القيود تتعارض مع حق الأطفال فى أن يسجلوا فى طبقة والديهم ، وأن يتمتعوا بحقوقهم عند بلوغ سن الرابعة عشرة .

وفى ضوء ما تقدم – وعلى الرغم من أنه لم يتم التأكد من ذلك – فإن التفسير المحتمل للعدد ٦٤٧٥ أنه يمثل عدد الفئة المميزة عندما تم إنشاؤها ، وبالتالى ظلت أجيالها المتعاقبة تحمل هذا اللقب المميز ، دون أن يسبب لها متاعب البحث عن التسلسل الزمنى الدقيق لهم .

خضع جميع المقيمين فى مصر فى أثناء الحكم الرومانى فيما عدا الرومان من مواطنى المدن الإغريقية واليهود والمصريين – أو بمعنى آخر أولئك الذين صنفتهم الحكومة الرومانية على أنهم مصريون – لدفع ضريبة الرأس بدءًا من سن الرابعة عشرة وحتى سن الستين (الذى بلغه عدد قليل فى العصور القديمة) ، وتم تخفيض هذه الضريبة بالنسبة إلى مواطنى عواصم الأقاليم وعبيدهم ، دفعها أفراد هذه الطبقة بمعدل ثمانية دراخمات فى كل من هيراكليوبوليس وهرموبوليس ، وبمعدل ١٢ دراخمة فى البهنسا ، وعشرين دراخمة فى الفيوم ، ويبدو أن هذا التفاوت فى معدلها يعكس مستوى الرخاء فى هذه الأقاليم : وكانت أراضى الفيوم خصبة ومثمرة (انظر الفصل السادس)، لذا ارتفع معدل الضريبة فيها على كل رأس per capita

وعندما يبلغ الصبى المنتمى إلى هذه الطبقة سن الرابعة عشرة من يوم مولده ، يتقدم والداه بطلب رسمى لفحصه epikrsis (فحص وضعه القانونى) وتسجيله فى طبقتهم ، وكان يذكر فى الطلب – بالنسبة إلى مواطنى عواصم الأقاليم – السنة التى قام فيها والداه بتسجيله . أما بالنسبة إلى طبقة الفيوم المميزة فكان على مقدم الطلب أن يثبت أن والديه ينتميان لطبقة ٦٤٧٥ من المستوطنين . وكان الوضع على عكس ذلك فى كل البهنسا وهرموبوليس ، إذ جرت العادة على إثبات عضوية مقدم الطلب فى هيئة الجمنازيوم من جهة أسلافه سواء من جانب الأم أو من جانب الأب ؛ ولذلك كان يتم الرجوع إلى القوائم الرسمية التى أعلنت عام ٤ / ٥ م ، أو تلك القوائم التى أعدت بناء على منحة خاصة من الجهات الرسمية بين التاريخ السابق وعام ٧٢ / ٧٣ م والتى أغلق بعدها الباب أمام أى إضافات جديدة ، وفى الطلب التالى الذى سلم فى البهنسا فى ٢٨ أغسطس عام ٢٦٠ م ويُرجِع مُقدِّمه باعتزازٍ أسلاف الصبى الذى كان ينتمى إلى طبقة الجمنازيوم "إلى سبعة أجيال سابقة " :

« طبقًا للتعليمات الصادرة لفحص الحالات المتقدمة لمعرفة ما إذا كان المتقدمون من طبقة الجمنازيوم ، فإننى أقرر أن ابنى [فقد الاسم] ، الذى بلغ سن الرابعة عشرة فى السنة السابعة من حكم الأباطرة فاليريان Valerian وجالينوس Gallienus ولا يحمل أى علامة مميزة ، الرمّاح فى التدريبات ، والمسجل فى ضاحية .... على ذلك فإننى أقر حتى يتم الفحص أن جدى الأكبر من جهة والدى هو ديونيسيوس ابن فيلون Dionysios son of Philon وكان مسجلاً فى ضاحية ميتروون Meteroon فى فحص عضوية الجمنازيوم التى تمت فى السنة الخامسة من حكم المؤله فسباسيان [٧٢ / ٧٣ م] ، طبقًا للأدلة التى قدمها ، وثبت أن جد ديونيسيوس بن فيلون كان مدرجًا فى قائمة عام ٣٤ من حكم المؤله أغسطس [٤ / ٥ م] ، وأن جد جد والدى الأكبر [فقد الاسم] كان قد تم تسجيله فى ضاحية كريت فى الفحص الذى تم فى عام ... من حكم المؤله دوميتيان [٨١ / ٩٦ م] ، وأن كورنيليوس Cornelius جد جدى الأكبر كان مسجلاً فى ضاحية ميتروون Metroon فى أثناء عملية فحص المرشحين فى العام السابع عشر من حكم المؤله تراجان [١١٣ / ١١٤ م] . كما تم تسجيل جدى فى الضاحية نفسها فى فحص عام ... من حكم المؤله أنطونينوس [١٣٧ / ١٦١م] ؛ وتم تسجيل والدى سارابيون Sarapion فى ناحية أنامفودارخس Anamphodarchs فى فحص المرشحين فى العام السادس من حكم المؤله ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ولوكيوس فيروس Lucius Verus [١٦٥ / ١٦٦م] . كما أننى مسجل فى ضاحية كريت ... وبالإضافة إلى ما تقدم فإن جد زوجتى الكبير أبوللونيوس بن أبوللونيوس Apollonius Son of Apollonius كان مسجلاً فى ناحية ... فى الفحص الذى تم فى العام الخامس من حكم المؤله فسباسيان ... [يلى ذلك السنة التى تم فيها تسجيل كل منهم : الجد الكبير ، وجد الأب الكبير] .

وأقسم بحياة أباطرتنا [أسماؤهم] أن المعلومات التى سبق تدوينها صحيحة وأن [فقد الاسم] هو ابنى الشرعى من [فقد الاسم] ، وليس ابنا بالتبنى أو ابنا مزيفا ، كما أننى لم أستخدم وثائق الآخرين ، أو لفظًا فى غير موضعه ... وأقر بأننى مستعد لتحمل تبعات هذا القسم [التاريخ ، وتوقيع ثلاثة من الشهود] » (٦) .

ونشر حديثًا مجلد من مجموعة بردى البهنسا يتضمن بقايا ملف خاص يمثل هذه الطلبات ، ولدينا ثلاث عشرة وثيقة منها تحمل أرقامًا من ١٠٩ إلى ١٢٣ ، وجميعها مؤرخة بعام ١٤٩م. لذا يبدو من المحتمل (وإن كنا غير متأكدين) أن الأعداد من ١ إلى ١٠٨ ربما تكون مؤرخة بالعام نفسه . إن تقديم أكثر من مائة طلب لإحصاء الشبيبة فى عام واحد يشير إلى أن طبقة الجمنازيوم فى البهنسا كانت أكبر مما يتوقع المرء[٧].

ولا يثير دهشتنا كثيراً أن مواطنى عواصم الأقاليم ومجموعتهم المميزة كانت تنمو بطريقة ملحوظة ، وكان الزواج من خارج طبقتهم – كما لاحظنا سابقًا – يحرم الأبناء التمتعَ بحقوق هذه الطبقة . أما الأمر الذى يثير دهشة القارئ الحديث فإن الطلاق فى داخل هذه الطبقة أو بين العائلات وبعضها كان نادر الحدوث ، ويدخل فى إطاره الزواج بين الإخوة والأخوات . والآن لدينا دعوة لحضور مثل هذا الزواج :

* تتقدم هيرائيس Herais بدعوتكم لحضور زواج أطفالها فى منزلها غدا اليوم الخامس ، وسيبدأ الحفل فى الساعة التاسعة [الثالثة بعد الظهر] [٨] .

عندما بدأت تظهر بعض نماذج الزواج بين الإخوة لأول مرة على أوراق البردى استقبلت بشك كبير فى بعض الأنحاء ، وبنى المتشككون رأيهم على عدم إمكانية سماح المجتمع بمثل هذا الاعتداء الصارخ على المحارم وإقراره للفسق ، على الرغم من أن بعض الأنثربولوجيين (علماء علم دراسة السلالات البشرية) كانوا يرون فيه "ظاهرة عالمية " فى المجتمع الإنسانى ، حيث يحدث أحيانًا أن ينادى الزوج زوجته بلقب "أختى" أو يطلق الصديق على صديقه لقب "أخى"، وهو أمر يماثل ما كان يحدث فى الشرق الأدنى القديم . إن هذه المناقشات البارعة سوف تختفى تمامًا فى مواجهة الأدلة المتراكمة من أوراق البردى العديدة – سواء كانت وثائق رسمية أو خاصة – التى تذكر فيها الزوجة أنها "أخت لزوجها ولدت للأب والأم نفسيهما " ، ووضح انتشار مثل هذا الزواج من تاريخ ديودور الصقلى ، وقامت الحكومة الرومانية باتخاذ إجراء رسمى ضد هذه العادة ، حيث نصت المادة ٢٣ من قواعد مدير الحساب الخاص على الآتى : "يحرم على الرومان الزواج بأخواتهم أو عماتهم أو خالاتهم ، ويسمح فقط بالزواج

بين أبناء الإخوة وبعضهم " . وربما كان لهذا التحريم صلة بالرجال المصريين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية ، أو ربما حدثت عدة مخالفات منهم . ثم حرم زواج الأخت من أخيها فى جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية طبقًا للمنشور الإمبراطورى الذى صدر عام ٢٩٥ م(٩) .

كان للزواج بين الإخوة والأخوات فوائده من الناحية الاقتصادية ليحافظوا على أنصبتهم التى يرثونها ، وأمكن عن هذا الطريق عدم تفتيت ضياع كثيرة إلى أجزاء صغيرة . ويتضح لنا من جميع أنواع الوثائق أن أسر مواطنى عواصم الأقاليم ظلت حتى رمقها الأخير تعيش فى يسر من العيش ، وامتلكت كل أسرة منها منزلاً فى المدينة ، ومزرعة فى الريف على الأقل ، وازدهرت مشروعاتهم الاستثمارية ، وامتلك بعضهم أملاكًا كثيرة وثروات طائلة . وبلغت الضرائب الزراعية لإحدى ضياع مواطنى عواصم الأقاليم فى إحدى القرى ١٥٪ من ضرائب القرية بأسرها ، وفى قائمة للمزروعات من قرية أخرى سجل المزارعون المحليون عند قيامهم ببذر الحبوب استخدامهم من ١ إلى ١٢ أردبا من القمح ، بينما استخدم لبذر الحبوب فى أراضى عدة ملاك كانوا يقيمون بعيداً عن أراضيهم – وكان أحدهم رومانيا ، والباقون من طبقة مواطنى عواصم الأقاليم – ما يتراوح بين ٢١ و ٣٤ أردبًا من الغلال ، وامتلك أحد مواطنى عواصم الأقاليم ١٨ مزرعة تجاوزت مساحتها أكثر من مائة أرورا Aroura (*) ويمكن تقدير حجم العمل فى أملاكه من خلال كشف حساب النفقات الشهرية للمشتريات ولتأجير العمال الذى بلغ ٢٣٠٠ دراخمة ، وبلغ الدخل الشهرى أكثر من ٢٧٠٠ دراخمة (١٠) .

كان مجال القروض المالية ، خصوصًا الكبيرة منها ، من أكثر المشروعات الاقتصادية التى عمل مواطنو عواصم الأقاليم فى ميدانها ، ومن بين النماذج العديدة

(*) الأرورا هى وحدة مقياس الأراضى عند الرومان ، وهى تساوى أربعة أخماس الفدان المصرى . (المترجمة)

التى لدينا نلاحظ هذا القرض الذى بلغت قيمته ١٥٠٠ دراخمة ، والآخر الذى بلغ ٦٥٠٠ دراخمة بفائدة شهرية بلغت ١٪ ، ومثل هذه الفائدة فى المبالغ الكبيرة ينتج عنها دخل لا يستهان به ، ولذلك كان يفضل فيها أن تظل القروض مسترخية عند من قام باقتراضها لأطول فترة ممكنة . وهناك وثيقة أخرى ذات طابع مميز ، وهى تلك المؤرخة بعام ١٨٦ م ، التى قام فيها أحد أفراد طبقة الجمنازيوم الأرستقراطية بإقراض شخص مبلغ من المال بلغ مقداره ٢ تالنت أى حوالى ١٢٠٠٠ دراخمة ، وهو مبلغ كان يمكن به شراء زورقين نهريين صغيرين ، أو خمسة أو ستة من العبيد ، ولما كانت فائدة هذا القرض بلغت ٢/٣ من المعدل المعتاد فيمكننا القول إنه كان قرضاً بين صديقين . وتتحدث وثيقة ثانية عن أحد مواطنى عواصم الأقاليم الذى اقترض من خزانة البلدية – وهى الخزانة التى كان قد تم إنشاؤها قبل خمسة وعشرين عامًا للإنفاق على ألعاب الشبيبة السنوية – مبلغ ١٢ تالنت و ١٧٠٠ دراخمة ، بمعنى آخر ٤٣٧٠٠ دراخمة ، ومعنى ذلك أن أملاكه كان يمكنها تغطية أكثر من قيمة القرض . وتذكر لنا وثيقة ثالثة – خاصة بأحد رجال الأعمال – أن أحد أعضاء الجمنازيوم كان يمتلك مصنعًا يعمل فيه ٣٦ نساجا (١١) .

قام مواطنو عواصم الأقاليم بتغطية احتياجاتهم الضرورية ، ووسائل راحتهم ، وبالإضافة إلى ذلك استخدموا ثرواتهم للمحافظة على مظاهرهم الاجتماعية بطريقة واضحة ، وجرت عادة أهل البر فى جميع أنحاء الإمبراطورية على إنشاء المنشآت العامة وزخرفتها ، وتقديم التسهيلات للحمامات والمقاعد والأسواق العامة .. وهكذا . وتلك النقوش التى سجلت على قواعد التماثيل التى تبرع بها أصحاب الهبات، والتماثيل التى شيدت – فقد اختفت فى أغلب الحالات – والتى وجدت بأعداد كبيرة فى جميع أنحاء حوض البحر المتوسط ، وجاءت أغلب هذه النقوش المهداة بمناسبة ذكرى تولى أحد رجال الخير لأحد المناصب العامة. وفى الواقع فإن مواطنى عواصم الأقاليم فى مصر لم يمارسوا قبل القرن الثالث تولى أى منصب من مناصب الحكم الذاتى ، ولم يصلوا إلى الحد الأدنى الذى تمتعت به الجالية اليهودية ، وعلى أية حال فقد منح مواطنو عواصم الأقاليم الحق فى اختيار موظفين منهم للقيام ببعض الأعمال البلدية ،

كما سمح لهم بأن يطلقوا على هؤلاء الموظفين لقب الحكام magistrates ، واعتاد الكتاب المعاصرون على استخدام هذا الاصطلاح كما لو كانوا يمارسون نوعًا من السلطة الحكومية ، لذا يجب علينا أن نوضح أنه حتى عام ٢٠٠ - وهو العام الذى منح فيه الإمبراطور سيبتيموس سيفروس عواصم الأقاليم بعض المؤسسات الإدارية التى أنيط بها مسئوليات محددة (سوف نقوم بمناقشتها فيما بعد) - لم تكن هيئة حكام مواطنى عواصم الأقاليم هيئة حكومية ، ولكنها كانت لجنة للإشراف على بعض الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع ؛ أى أنه لم يكن هناك وجود حقيقى للحكام فى الواقع ، ولكن مواطنى عواصم الأقاليم كان يسعدهم من الناحية النفسية القول إنهم ينحدرون من نسل الحكام ، وامتدت سلطة مدير الإقليم الحكومية وجهازه الإدارى لتشمل كل أنحاء الإقليم بما فى ذلك العاصمة metropolis .

أضافت هذه المناصب لمركز مواطنى عواصم الأقاليم الاجتماعى رونقا وبهاءً ، ويرجع السبب الأول لذلك فى اللقب الذى كان يحمله من يشغل إحدى وظائفها ، ويقوم شاغل المنصب بدفع رسوم شغله وحمل لقبه والقيام بأعبائه ، ويتولى الإنفاق الكلى أو الجزئى على منصبه [وفى يوم الاحتفال بشغل المنصب تزين المؤسسة ثم تلقى خطب المديح العصماء . ويحمل الموظفون ألقابًا تقليدية ترجع إلى القرن الخامس فى أثينا ، ويوضع الغار على رأس المسئول الجديد فى حفل التعيين و كان يسمى حفل التتويج] .

وعثر على إحدى الدعوات الخاصة لمثل هذا الاحتفال فى البهنسا جاء فيها : « يتقدم "يودايمون" Eudaimon بدعوتكم لتناول طعام العشاء فى الجمنازيوم بمناسبة تتويج ابنه نيلوس Nilos فى اليوم الأول من الشهر ، وسوف يبدأ الحفل فى الساعة الثامنة [الثانية ظهرًا] » (١٢) .

وظل شاغل أى منصب يتمتع طوال حياته بشرف الحصول على لقبه مثل لقب "مدير معهد التربية" ومنصب الكوزميتس Kosmetes ، وهكذا ، وهى العادة نفسها التى نلاحظها اليوم فيمن يقوم بشغل أحد المناصب العليا .

وتكونت هيئة حكام عاصمة الإقليم من ستة مناصب ، حملت خمسة منها الألقاب البطلمية ، وتواءمت واجباتها مع ضرورات وظروف الحكم الرومانى ، وأنشئ المنصب السادس ، وهو منصب المشرف على التموين Eurheniarch إما فى القرن الأول أو فى القرن الثانى ، ويمكن أن نميز قواعد هذه المناصب الستة وواجباتها على النحو التالى :

رئيس معهد التربية Gymnasiarch

لم يكن شاغل هذا المنصب إداريا بقدر ما كان مسئولاً عن التموين ؛ فهو مسئول عن إدارة الجمنازيوم يومًا بيوم ، يشرف بالدرجة الأولى على تزويد المعهد باحتياجاته الأساسية من الوقود اللازم لتدفئة المياه ، والزيت الذى يستخدم فى الدليك والإضاءة . وتمثلت شارات هذا المنصب فى غطاء رأس أرجوانى اللون ، وحذاء مميز أبيض اللون ، ويصاحبه حرس من أربعة من الشبيبة فى أثناء الاحتفالات .

الرقيب Kosmetes

وكان يشرف على الإجراءات الروتينية الخاصة بتدريب شباب أرستقراطية المعهد أى الشبيبة ، وخصص له اثنان من الشبيبة حرسًا فى أثناء الاحتفالات .

المـديـر Exegetes

يرأس مجموعة حكام العام ، وهى المجموعة التى أصبحت مع نهاية القرن الثانى - إن لم يكن قبل هذا التـاريخ - تبـدو كما لو أنها بمثابة منظمة أو نقابة . أما اختصاصاته الأخرى - إذا كانت توجد لديه ثمة اختصاصات - فهى غير واضحة (١٣) وله حرس شرف يتمثل فى اثنين من الشبيبة .

المشرف على تموين الطعام Eurheniarch

تمثلت اختصاصاته فى "مد المدينة بالطعام" ، ويعنى هذا الاصطلاح من الناحية العملية مراقبة طحن الغلال ، وخبز الخبز حتى لا يحتوى إلا على الحد الأدنى من الشوائب ، ولما كان هذا الموظف لا يتمتع بسلطة بوليسية ، لذلك كانت وسيلته الإقناع وحافظة ممتلئة بالنقود لتلافى حدوث أى اضطرابات أو مشاكل عامة . وكان يتوقع منه – بالرغم من عدم وجود إلزام رسمى بذلك – أن ينفق من موارده الخاصة لحل أى نقص فى مواد التموين .

المشرف على السوق Agoranomos

لا نعرف إلا القليل من واجبات هذا المنصب الذى يشير إليه لقب حامله ، فقد رأينا فى وثيقة ترجع إلى منتصف القرن الثانى قيام أحد المشرفين على السوق بتأجير بعض أكشاك لحساب مجلس المدينة ، وخصص له حارس شرفى واحد .

الكاهن الأعلى Archiereus

بالرغم من اللقب الفخم الذى أطلق على شاغل هذا المنصب فإنه لم يكن رئيسًا لمجموعة من الكهنة ، وتمثل واجبه الرئيسى فى القيام بتأدية طقوس عبادة الأباطرة والأسرة الإمبراطورية ، واقتصر حرسه الشرفى على حارس واحد .

وتم ترتيب القائمة السابقة كما هو واضح طبقًا لأهمية كل منصب ومظاهر التشريف التى أضيفت إليه ، وكان يجرى فى العادة اختيار منصب أو أكثر ليتم شغله لمدة عام واحد ، وهذا يؤدى من الناحية العملية إلى قيام أكبر عدد من الأفراد فى المشاركة فى نفقات المنصب وأيضًا فى الحصول على شرف شغله ، وشغل بعض الحكام منصبهم لمدة تجاوزت العام ، خصوصًا منصب رئيس الجمنازيوم ، حقيقة ليس من الواضح شروط التقدم لشغلها ، ولكن يمكننا استنتاج بعض الحقائق من خلال

معرفتنا بالمناصب المهمة على الأقل ، منها أنها اقتصرت على أرستقراطية مواطنى عواصم الأقاليم ، فى البداية ، ثم فتحت فيما بعد أمام بقية الطبقات ، عندما أصبح من الصعوبة بمكان تقدم العدد الكافى من المرشحين لها من بين أفراد هذه الطبقة بسبب تدهور ثرواتها .

لدينا الآن مجموعة كبيرة من الحقائق توضح الآتى : إنه ابتداء من النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى - ثم زاد الوضع بعد ذلك - تضخمت نفقات هذه المناصب وأصبحت أكبر مما يجب ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الاقتصاد المصرى - كما هو الحال فى أنحاء الإمبراطورية كافة - أصبح يعطى إشارات لا تخطئها الفراسة إلى أنه يتجه للتدهور التدريجى . ثم بدأ تردى الوضع الاقتصادى لطبقة مواطنى عواصم الأقاليم ، لذلك ظهرت موجة لتحاشى شغل المناصب الشرفية بطريقة أو بأخرى ، وتعاون أكثر من فرد فى شغلها ، ووضعت حلول أخرى لمحاولة المواءمة بين متطلبات المناصب وظروف العصر وحقائقه. وعلى سبيل المثال زاد عدد شاغلى المنصب الواحد ، حقيقة كان الواحد منهم يتمتع بالتشريف بشغل المنصب لمدة عام من الناحية الاسمية لكنه كان مسئولاً عن نفقات شهر واحد فقط وربما أقل من ذلك . وفى المرحلة الأخيرة من مراحل تطور شغل هذه المناصب جادل المرشحون فى رفضها ، وربما حاول الواحد منهم - كحلٍّ وسط - قبول منصب قليل النفقات بدلاً من المنصب الذى كان مرشحًا له فى الأصل .

ويعزو بعض المؤرخين التغيرات الجذرية من وجهة نظر "سيفروس" وسياسته الإمبراطورية ، التى كان يخالف بها سياسة أسلافه فى بعض الوجوه إلى ظروف نشأته فى شمال أفريقيا ، وأيا كان السبب ، فليس هناك شك فى أن فترة شغله لمنصب المواطن الأول تعد علامة على بداية الحقبة التى اتجهت فيها الإمبراطورية إلى محاولة الوصول إلى سياسة المساواة بين رعاياها ، فنحن نرى هنا أنها رفعت من وضع الولايات لتقترب من ذلك الوضع الذى كانت تتمتع به إيطاليا وحدها ، ووضعت الفقراء والمتواضعين جنبًا إلى جنب مع الأخيار vis - à-vis . إن دستور مجلس شورى عواصم الأقاليم شىء لابد لنا من توضيحه ، فهو يعنى - دون شك - إضفاء مظاهر الشرف

والتكريم على عاصمة الإقليم ومواطنيها الذين أصبحوا أعضاء فى المجلس . ففى المجلس الجديد ومن خلال حكامهم التقليديين الذين ظلت مناصبهم كما هى، أصبحوا يمارسون الآن مسئولية يومية فى إدارة شئون مدينتهم . وعلى أية حال فلم تكن لمجالس الشورى أى سلطة تشريعية ، وكانت عبارة عن هيئة إدارية بالدرجة الأولى ، مهمتها الأساسية الإدارة والإشراف على الشئون المالية والأعمال العامة والمنشآت العامة فى عاصمة الإقليم ، إضافة إلى جمع الضرائب الحكومية من كل أنحاء الإقليم .

إن تحمُّل مسئوليات ضخمة كهذه المسئوليات كان يتطلب بالتالى دفع مبالغ كبيرة وقعت على عاتق أعضاء المجلس والحكام المحليين ، ومع انكماش مصادرهم المالية فى نهاية القرن الثالث ، كان لا مفر أمامهم من التنازل عن هذه المناصب الشرفية لغيرهم ، ومحاولة إيجاد حل خارج حدود طبقتهم . ويتضح لنا من إحدى وثائق المتحف البريطانى التى ترجع إلى منتصف القرن الثالث محاولة حكام الفيوم تخفيف الأعباء الملقاة على عاتق مواطنى عاصمة الإقليم عن طريق تكليف قرويين ميسورى الحال بشغلها ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، وكان مواطنو المدينة حتى الآن لا يزالون ينظرون باحتقار إلى القرويين المصريين ، وبطبيعة الحال قاوم القرويون هذه المحاولة التى كان الهدف منها السطو على مواردهم المالية ، وكانت القضية فى حاجة إلى توضيح سياسة الحكومة تجاهها ، من أجل ذلك عرضت على والى مصر . وفى إحدى مراحل عرض القضية سمعت محامى القرويين يدافع عنهم قائلاً : « إننى سوف أقوم بتلاوة قانون الإمبراطور "سيفروس" الذى يذكر فيه إنه لا ينبغى جر القرويين لشغل مناصب مواطنى عاصمة الإقليم ... وتلا ذلك جميع ولاة مصر الذين حكموا طبقًا لقانونه » . وهنا رد عليه أحد محاميى المعارضين موجها حديثه للوالى قائلاً : « إن القوانين لها تقديرها واحترامها ، ولكن لكى يمكن الحكم فى مثل هذه القضية ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار كيف كان يقوم الولاة السابقون بمراعاة مصالح المدن ... إنك تجلس هنا للفصل فى قضية خاصة بمواطنى مدينة الفيوم ، تلك المدينة التى كانت سابقًا غنية برجالها، مزدهرة باقتصادها، ولكن رجالها الآن سيتعرضون للخراب الشامل إذا شغلوا مناصبها حتى ولو لمدة يومين». وبعد قليل سأل الوالى أحد محاميى القرويين عن

رأيه في قانون سيفروس وقرارات الولاة ؟ فأجابه قائلاً: "لقد أصدر سيفروس قراره فى مصر عندما كانت المدن لا تزال مزدهرة " ، هنا رد عليه الوالى ملاحظًا : "إن مناقشة قضية الازدهار أو التحول عنه مسألة تنطبق على القرى والمدن على حد سواء" . والجزء الباقى من الوثيقة مهلهل ، ولم يحفظ لنا الحكم الذى أصدره الوالى ، ولكن من الواضح أنه جاء لصالح القرويين ، ويؤيد ذلك تلك الفقرة التى يقول الوالى فيها : " إن قوة القوانين ينبغى أن تعضد (بدلاً من معارضتها) بمضى الزمن ". وهكذا فإنه بعد مضى حوالى نصف قرن من الزمان على صدور قانون سيفروس كان ولا يزال يقوم بحماية القرويين ضد بعض الانتهاكات الإدارية من قبل مواطنى عواصم الأقاليم (١٤) .

حمل عضو مجلس الشورى لقب بوليويتس Bouleutes (الجمع بوليتاى Bouleatai) ويمكننا أن نقوم بفحص عدد من أعضاء المجلس من خلال الوثائق البردية التى لدينا، ويمكننا معرفة بعض أسمائهم ، ولكننا ما زلنا لا نعرف الطريقة التى كان يتم بها ترشيحهم للمجلس ، أو شروط العضوية فيه ، ولكن الشىء الذى نعرفه هو أنه إذا حصل الفرد على عضوية المجلس كان يحمل لقب العضوية طوال حياته ، وهذا لا يعنى أنه كان يشغل المنصب طوال حياته ، ومن المحتمل أنه كان يمكن شغل المنصب لأكثر من دورة ، ومن المنطقى أن نفترض أنه كان يتم اختيار أعضائه من بين أرستقراطية المدينة. ولكن هل كان الاختيار قاصراً عليهم فقط ، أم أنه كان يسمح لجميع أفراد الطبقة بشغله ؟ وكم كان عدد أعضائه ؟ إن هذه الأسئلة المطروحة لا يمكننا الآن الإجابة عنها .

يقوم عضو مجلس الشورى بدفع "رسم شرف" دخول المجلس ، ويناظر الحال هنا جميع الولايات فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية . ونشرت حديثًا وثيقة ترجع إلى عام ٢٢٣م كشفت لنا أن هذا الرسم بلغ فى البهنسا ١٠٠٠٠ دراخمة وأكثر ، وهو مبلغ كان يمكن به شراء ستة منازل من الحجم المتوسط فى المدينة أو دفع أجر عشرين عاملا زراعيا فى مزرعة لمدة سنة . من هنا يتضح لنا أنه كان فى استطاعة الأثرياء فقط الإنفاق على عضوية المجلس .

آن الآوان الآن لنترك حياة الأرستقراطية الرسمية ونستدير لننظر إلى نماذج من حياتهم الخاصة ومجريات أمورهم اليومية . ويتضح لنا من الوثائق المتبقية أنهم تمتعوا بسعة من العيش والرخاء فى حياتهم الخاصة ، على الأقل حتى منتصف القرن الثالث مثلما كان الحال فى حياتهم العامة ، فلنأخذ على سبيل المثال المنازل التى كانوا يقيمون فيها ، حيث تذكر لنا الوثائق أنهـا تكونت فى المدينة من طابقين أو ثلاثة ، كما تقدم لنا نماذج لمنازل ذات أجنحة منفصلة أو قاعات لاستقبال الرجال والسيدات ، وأخرى مزدانة بالأروقة والمقاصير والشرفات Exedras للحصول على شمـس الشتاء أو التمتع بنسمات أمسيات الصيف الرقيقة ، وتوجه الوثائق انتباهنا إلى القباب والمظلات التى أقيمت فوق الأبواب ، بالإضافة إلى خصائص معمارية أخرى تهدف إلى إضفاء مزيد من الراحة والأناقة على المنزل ، وأدت بعضها الغرضين فى آن واحد حيث استخدمت الحجرات التى تطل على الشارع حوانيت ، وهو نظام معروف لنا اليوم من خلال أطلال مدينتى بومبى Pompeii وهيركولانيوم Herculaneum ، ولدينا وثيقة بردية نشرت حديثًا من الفيوم عبارة عن طلب تأجير لناصية منزل بها " ثلاثة حوانيت أمامية واثنان على الشارع الجانبى"(١٥) .

كان من النادر أن تشير الوثائق إلى مساحة الحجرات الخاصة بالأفراد أو إلى مساحة المنزل بصفة عامة ، ولكننا عثرنا على منزل صغير من البهنسا بلغت مساحته الكلية ١٥ مترًا مربعًا ، وعلى النقيض من ذلك المنزل عثرنا على منزل آخر بلغت مساحته المسطحة أكثر من مائة متر مربع ، وشيدت جدران المنازل من مادة البناء الأساسية التى كانت تستخدم فى مصر منذ زمن بعيد وهى الطوب اللبن أى الطين المجفف فى الشمس ، ولولا سقوط الأمطار التى تؤدى إلى تلفها لأمكن لهذه المادة أن تعمر فترة زمنية طويلة . وفى العادة كانت الجدران الخارجية تشيد من عدة صفوف متوازية من الطوب السميك ، واقتصر الأمر عادة على صفين بالنسبة إلى الجدران الداخلية ، وطليت الجدران الداخلية ، وكثيراً ما زخرفت برسوم لموضوعات أسطورية ودينية لونت بألوان مشرقة ، وكانت مثل هذه الموضوعات لها الأفضلية الأولى . حقيقة إن الأحجار متوافرة فى محاجر مصر العديدة ، ولكن نظراً لارتفاع تكاليفها بالمقارنة

بالطوب اللبن استخدمت باقتصاد فى الدور الخاصة في الأعتاب وأكتاف الأبواب فى أغلب الأحيان . وعندما تحدث إلينا أحد أثرياء البهنسا عن "منزله الحجرى " فمن المحتمل أنه كان يقصد بهذا الإشارة إلى أن جدران منزله الخارجية ومدخله قد شيدا من الحجر أكثر من كون المنزل قد تم تشييده برمته من الحجر (١٦) .

زود كل منزل فى المدينة أيا كان حجمه أو أناقته ببئر خاصة عميقة للمياه فى فنائه ، وكما تقوم الشمس بتجفيف الطوب فهى بالتالى سوف تقوم بتبخير المياه ، وبناء على ذلك فيبدو أن هذه البئر كانت تشيد من الحجر أو الطوب المحروق الذى ربما يستخدم معه - أو لا يستخدم - الحجر على السطح .

تقع الأقسام الخاصة بالمعيشة والنوم فى الدور الأرضى ، أما تلك الصغيرة التى تبنى على شكل قبو فقد خصصت للخزين ، وخصصت بعض الغرف العلوية للغرض نفسه ، ولدينا وثيقة ترجع إلى عام ٢٠٠ تتضمن المحتويات التالية :

قائمة بمحتويات منزل

فى المخزن :

عدد (١) طشت من البرونز ، وعدد (١) كوز من الصفيح ، و (١) فنجان صفيح ، وميزان خشبى له يد مكسوة بالحديد ، و (١) طشت غسيل ، و (١) قاعدة لمبة برونزية مع غطائها .

فى حجرات المخزن :

(١) صحن من الصفيح ، و (٣) فناجين مع صحونها من الصفيح ، و (١) لمبة صغيرة برونزية ، وعباءة موشاة بالخيوط الذهبية ، و (١) لحاف سرير موشى بالذهب .

فى الغرف العلوية :

(١) براد شاى من البرونز ، و (١) فنجان صفيح ، و (١) كازرولة برونز ، و (١) مصفاة برونزية صغيرة ، و (٢) إناء للعجن ، و (٣) سكاكين لتقليم الأشجار ، و (١) طبق من الصفيح ، و (١) جرة من البرونز ، و (١) ميزان من البرونز ، و (٢) ميزان خشبى بيد مغطاة بالحديد ، و (٣) عباءات موشاة بالذهب ، و (١) لحاف كتانى كبير، و (٢) وسادة خضراء ، و (١) لحاف ملون ، و (٢) مرتبة محشوة ، و (١) مفرش سرير ، و (١) سرير ، و (١) صندوق ، و صندوق صغير (؟) ، و إناء برونزى [١٧] .

من المحتمل أن القائمة السابق تقديمها تتضمن الأشياء الإضافية التى لم تكن هناك حاجة لاستخدامها ، حيث خصصت الحجرات السفلى من المنزل للأدوات المستخدمة يوميا ، أما السرير والصندوق والمرتبة المذكورة فى نهاية الوثيقة فيبدو أنها كانت خاصة بحجرة للزوار فى الدور العلوى ، ونلاحظ أننا لم نر أى ملابس فى القائمة ، ويبدو أنها وضعت فى حجرات المعيشة وغرف النوم فى الطابق الأرضى . أما العباءات الأربعة التى حفظت فى حجرات التخزين فيبدو أنها كانت من النوع الثقيل لذلك وضعت بعيداً لحين الحاجة إلى استخدامها فى الشتاء التالى .

يدور الآن السؤال التالى : ما نوعية الملابس التى كان يرتديها أفراد طبقتنا؟ لقد كانوا ينتعلون الصنادل والأحذية فى أقدامهم وربما كانت تصنع من خامات عديدة ؛ من لحاء البردى أو الجلود ، وربما كانت تزين بالخرز أو المواد اللامعة أو الملونة . أما الثياب التى كانوا يرتدونها على أجسادهم فهى تدل على أنهم كانوا يفضلونها ملونة وخصوصًا ذات اللونين الأخضر والأحمر ، وكان اللون الأزرق بكل درجاته هو المفضل لديهم ، وكانوا عادة ما يرتدون فوق الجسم مباشرة قمصانًا من القطن ، أما الثوب الخارجى فكان يصنع من الكتان أو الصوف ، وكان الاعتقاد السائد لفترة طويلة أن القطن دخل مصر عن طريق الهند بعد العصر الرومانى بفترة طويلة ، ولكن لدينا ثلاث وثائق من مجموعة بردى ميتشيجان قدمت لنا الدليل على أن القطن لم يستخدم فى مصر فقط ولكنه كان يزرع بها فى القرن الثانى الميلادى على الأقل ، واستوردت مصر

المنسوجات الحريرية من الصين ، وجاء بعضها من الهند والآخر عن طريق فـارس (*) (وخصوصاً فى القرون المتأخرة) زينت به ياقات وأطراف ملابس الأثرياء (١٨) .

توافرت لدينا معلومات عن حجم العائلات من خلال سياق الحديث الذى كان يرد على وجه الخصوص فى وثائق الوصايا والمواريث وتقسيم الثروة inter visos ، وفى وثائق التعداد التى كان يقدمها كل صاحب منزل كل أربعة عشر عاماً . ونقابل من خلال أوراق البردى بعض أسر مواطنى عواصم الأقاليم كان لديها خمسة أطفال ، ولكن متوسط المعدل بين طبقتهم تراوح بين ٢ و ٣ أطفال ، ويتضح من الوثائق أن معدلات الميلاد كانت أكبر من تلك الأرقام التى تشير إليها ، ومعنى هذا أن المعدل سيزيد عما ذكرناه ، ونحن لا نستطيع أن نعرف العدد على وجه الدقة لعدة أسباب ، أولاً : بسبب ارتفاع معدلات الوفيات من الأطفال، وهو أمر شائع خلال العصر القديم ؛ ثانياً : بسبب عادة الإغريق التى درجوا عليها فى التخلص بالموت من المواليد غير المرغوب فيهم ؛ ثالثاً : أن وثائق التعداد لم تكن تتضمن الأبناء الذين كبروا وتركوا منزل أبيهم ، بالإضافة إلى أن بيانات التعداد كثيراً ما تضمنت إحصاء لواحد أو اثنين من أبناء صاحب المنزل المتزوجين وزوجاتهم ، وأبنائهم ، وفى أحيان أخرى نجد أحد والدى مقدم البيان أو بعض ذوى قربا يعيشون معه ، وفى أغلب الأحيان نجد عبدا أو اثنين ، وأوضحت الوثائق أن حوالى ٢٥٪ من أسر مواطنى عواصم الأقاليم التى لدينا كان لديهم عبدان أو أكثر . وتمثل عدد أفراد أسرة كبيرة الحجم على النحو التالى : الزوج يبلغ من العمر ٥٠ عاماً وزوجته شقيقته ، وتبلغ من العمر ٥٤ عاماً ، وأربعة أبناء ذكور يتراوح سنهم بين ٩ و ٢٩ عاماً ، وابنة عمرها سبع سنوات ، وزوجة الابن الثانى ووليدها (السن غير مقروء) ، وثلاثة من أبناء الأخت أو الأخ تتراوح أعمارهم بين ٣٤ و ١٩ عاماً ، وزوجة الكبير منهم مع ابنتها التى تبلغ من العمر عاماً واحداً ، ورجل يبلغ عمره ٤٤ عاماً ، ويبدو أنه كان جد هذه الطفلة لأمها مع أخته

(*) عن حرير الشرق وتجارته راجع :

كرون (باتريشيا) ، تجارة مكة وظهور الإسلام ، ترجمة الروبى (آمال محمد) ، مراجعة بكر (محمد إبراهيم) ، المجلس الأعلى للثقافة رقم ٧٥٧ ، القاهرة ٢٠٠٥ ، صـ ١٣٥ وما يليها .

وزوجته التى بلغت ٥٢ عامًا وابنهما الذى يبلغ ٨ أعوام ، وثلاثة إخوة يتراوح سنهم ما بين ٥٢ و٢٦ عامًا لزوجة الابن الثانى لصاحب المنزل ، وزوجة وأخت أصغر هؤلاء الإخوة الثلاثة وتبلغ من العمر ٢٣ عامًا ، ويبلغ عدد هؤلاء ١٧ من البالغين وسبعة أطفال . ذكر بيان التعداد أن كل هؤلاء كانوا يعيشون فى عُشر منزل فى المدينة (١٩) .

تراوح متوسط حياة الفرد خلال العصر القديم بين ٢٥ و ٣٠ عامًا ، وإذا كانت الأعداد السابقة تبدو غير حقيقية ومنخفضة بالنسبة لنا فإننا يجب أن نتذكر أن معدلات الوفيات المرتفعة بين الأطفال بلغ متوسطها طبقًا لتحليلات الكمبيوتر المستمدة من بيانات خاصة بمصر فى العصر الرومانى توضح أنه منذ سن البلوغ ينشق عدد الأحياء إلى نصفين كل عشر سنوات ، وهذا يعنى أن جميع الذين بلغوا سن ١٥ عامًا سوف يموت نصفهم ، ويظل النصف الآخر على قيد الحياة ليصلوا إلى سن ٢٥ عامًا ، مما يعنى أن ربع العدد هو الذى يصل إلى سن ٣٥ عامًا ، وتوضح لنا هذه المعلومات السبب فى وجود أعداد كبيرة من الأرامل فى مصر خلال العصر الرومانى ، ولماذا كثيرًا ما قابلنا الزواج الثانى ، والإخوة والأخوات غير الأشقاء .

ومن بين وثائق التعداد الكثيرة التى لدينا وجدنا فى وثيقتين منها فقط خاصة بإحدى أسر مواطنى عواصم الأقاليم أن عدد الإناث كان أكبر من عدد الذكور (وفيما عدا ذلك نجد أن لديهم ابنة أو ابنتين على الأكثر) ، وظل مواطنو عواصم الأقاليم يمارسون العادة الإغريقية القدمية وهى التخلص من الأطفال غير المرغوب فيهم طبقًا لاحتياجاتهم الخاصة . أما المصريون الذين كانت عقيدتهم الدينية تمنعهم من قتل الأطفال فكثيرًا ما قاموا بإنقاذ الأطفال الذين تركوا لملاقاة مصيرهم ، وسمح القانون لهم بتبنى اللقطاء أو اتخاذهم عبيدًا لهم ، وكان يذكر دائمًا أصل هؤلاء الأطفال فى الأسماء التى يحملونها مثل اسم كوبريس **Køpreus** واشتقاقاته المختلفة ، وهو يعنى "الذى عثر عليه فى أحد الأكوام " ولدينا خطاب استخدم كثيرًا منذ نشر عام ١٩٠٤ ، مؤرخ فى ١٧ يونيو من للعام الأول قبل الميلاد كتب فيه شخص يدعى هيلاريون **Hilarion** لزوجته وأخته عندما كان يعمل فى الإسكندرية الآتى :

«أخبرك بأننى ما زلت فى الإسكندرية ، ولا تقلقى إذا عادوا جميعاً وبقيت أنا فى الإسكندرية . أرجوك وأتوسل إليك أن تهتمى جيداً بطفلنا ، وعند حصولى على مبلغ سوف أرسله إليك . وإذا أنجبت [قبل عودتى إلى المنزل] وكان ذكراً فاحتفظى به ، أما إذا كانت أنثى فتخلصى منها . أرجو أن لا تنسى أنك سبق ووعدتنى بذلك ، أما أنا فكيف لى أن أنساك؟ أرجو ألا تقلقى علىَّ» .

ولَفَتَ الاتفاق الذى حُرر فى الإسكندرية عام ٨ ق.م. الأنظار إلى موضوع تخلص الإغريق من الأطفال حديثى الولادة بتركهم فى العراء ، حيث أقرت امرأة صغيرة السن ترملت حديثًا بعد زواج دام عامًا ونصف فقط، أنها استعادت من والدة زوجها المتوفى الدوطة التى كانت قد أحضرتها لزوجها المتوفى ، ولهذا فهى تعلن تنازلها عن أى حق لها فى ميراث زوجها المتوفى ، وتضمن الاتفاق العبارات التالية :

" على الرغم من أنها حامل فإنها لن تطالب بأية [نفقات] لطفلها لأنها ميسورة [ماليا] كما أن لها الحق فى التخلص من الطفل والارتباط برجل آخر " (٢٠) .

ولا ينبغى أن يتبادر إلى الأذهان أنه كان يتم التخلص من الأطفال الإناث فقط ، على الرغم من أن الأدلة التى لدينا توضح أنهن عانين من هذا المصير أكثر من الذكور، ويرجع السبب فى عدم الرغبة فى الأنثى المولودة إلى الدوطة التى كانت تحتاج إليها عند الزواج . وعلى أى حال فإن الدوطة الكبيرة كانت شكلا من أشكال الأرستقراطية الاجتماعية ، وعلى سبيل المثال قام والدا إحدى العرائس بإرسالها إلى منزل الزوجية فى عام ١٢٧م مع جهاز أنيق من ضمن محتوياته زوج من الحلقان يزن ٣ مينا minas، ١٤,٥ مثقال ؛ وبروش يزن ٨ أرباع مثقال بالإضافة إلى مجوهرات أخرى يصل مجموع وزنها خمسة مينا ، وعدد ٢ ثوب خارجى ، أحدهما أحمر اللون والآخر ملون بألوان الزهر ، وروب وعباءة بلغ ثمنها ٥٦٠ دراخمة فضية (وهذا الثمن يساوى خمسة أمثال الملابس لو كانت السادة والعادية) ومبلغ نقدى بلغ ١٨٠٠ دراخمة ، وهكذا بلغ المجموع الكلى للدوطة ٤١٠٠ دراخمة .

جرت العادة على أن يتم زواج الشباب بين سن ١٨ و ٢٠ وكانت الزوجة فى أغلب الأحيان تقل عن الزوج بعدة سنوات . وقد تزوجت فتيات وقمن بالإنجاب وكن فى سن تتراوح بين ١٥ و ١٦ عامًا ، وتكشف عقود الزواج التى لدينا حتى الآن عن أنها كانت تتضمن عبارة "الرغبة فى أن يعيش الزوجان معًا بدون خلافات ، وأن يضعا فى اعتبارهما حقوق الزواج ، فعلى الزوج أن يغطى احتياجات زوجته طبقًا لإمكانياته " . أما بالنسبة إلى عقود زواج إغريق المدينة فكان يتم فيها تبادل الحقوق بين الزوجين ، مع ذكر تفصيلات كثيرة لحقوق الزوجة على النحو التالى :

«لا يجب عليه أن يسىء معاملتها أو يقوم بطردها خارج المنزل أو أن يسبها أو يحضر امرأة أخرى إلى المنزل ، وإذا فعل شيئًا من هذا القبيل فعليه أن يقوم بدفع الدوطة مضافًا إليها نصفها .. وعلى الزوجة أن تقوم بأداء واجباتها كاملة لزوجها ولأفراد أسرته ولا يجب عليها أن تقضى ليلة أو يوم خارج منزلها دون إذن منه ، وأن وأن لا تحتقر ولا تضر منزلها ، ولا تقيم علاقة مع رجل آخر ، وإذا حاولت وثبت ارتكابها لأى من الأخطاء السابقة فسوف يترتب على ذلك أن تفقد دوطتها » (٢١) .

يبدو أن الطلاق كان أمرًا سهلاً وشائعًا ، وعلى الخصوص بين الزيجات التى تتم بين الشباب كما هو الحال اليوم . وعندما ينتهى الارتباط بالطلاق كان على الزوج أن يعيد لزوجته كل منقولاتها ودوطتها التى أحضرتها ، وأن يعوضها نقدًا عن الهدايا التى قدمت لها – فى حالة وجودها – أو أى شىء آخر . ولم تتم جميع حالات الطلاق – كما هو الحال اليوم – بالاتفاق . ولدينا خطاب غامض بعض الشىء ويجب أن يقرأ فى ضوء أنه بمثابة اعتذار من زوج غيور لزوجته لكى يستعيدها بعد أن تركته : أما كولوبوس Kolobos "قصير الذيل " المذكور فى الخطاب فيبدو أنه اسم الرجل الذى فرت معه الزوجة .

«من سيرينوس Serenus إلى أخته وزوجته أزيدورا Isidora، إننى قبل كل شىء أتمنى أن تكونى بخير ، وإننى أدعو لك يوميا صباحًا ومساءً أمام الربة ثيوريس Theoris التى تحبك . وأريد أن أخبرك بأنى منذ اليوم الأول الذى تركتِنى فيه أبكى طوال الليل ،

وأنتحب بالنهار، ومنذ أن استحممت معك فى ١٢ من بابة Phaophi(*) فإننى لم أستحم أو أدهن جسدى بالزيت حتى ١٢ هاتور Hathyr [بعد ثلاثين يومًا] ، وعندما وصلنى خطابك الذى يفتت الصخر هزتنى كلماتك إلى أبعد مدى وكتبت إليك فى الحال فى اليوم الثانى عشر عما تضمنه خطابك وذكرت فى خطابك " أن كولوبوس Kolobos قد جعل منك امرأة عاهرة " ولكنه قال لى " إن زوجتك تبعث إليك بهذه الرسالة (ذكريه بذلك) وكان هو الذى قام ببيع القلادة لى، وهو نفسه الذى وضعنى على القارب، إنك يجب أن تقولى ذلك لأن الناس لا تريد أن تصدق دفاعى ، ولكن ضعى فى اعتبارك أننى سوف أكتب وأظل أكتب إليك ، أخبرينى هل ستعودين إلىَّ أم لا » (٢٢) .

كان من الممكن أيضًا أن ينتهى الزواج على يد والد الزوجة ، الذى كان يملك الحق القانونى فى هذا الإجراء ، ويرجع جذور هذا الحق إلى القانون الأثينى القديم الذى يقضى بحق الأب فى فسخ زواج ابنته من زوجها ، حتى ولو كان ذلك ضد مشيئتها ؛ ليقوم بتزويجها من رجل آخر . وثبت من بعض الحالات ضعف التعامل بهذا القانون غير الإنسانى فى العصر الرومانى ، وأصبح التعامل يتكيف مع القواعد الإنسانية ، ففى إحدى القضايا التى نظرت عام ١٨٦ والتى استمر عرضها على المحاكم لمدة سنتين وحدثت فيها مناقشات طويلة ، رفضت الزوجة أوامر أبيها بترك زوجها ، وهكذا وضعت هذه السابقة القانونية . وقام والى مصر فى عام ١٢٨ بوضع قاعدة جديدة للتعامل بها ، وهى "مع من ترغب المرأة المتزوجة أن تعيش" وفى قضية مماثلة جاءت بعد ذلك بخمس سنوات قرر المدير العام Episrategos "أن القاعدة التى وضعها الوالى تقضى بسؤال المرأة عن رغبتها"، عندئذ أجابت المرأة : " إنها تريد أن تبقى مع زوجها " لذلك أمر ببقائها معه ، وبعد مضى حوالى عام أو عامين تقدم أحد خبراء القانون بمشورته أمام محكمة صغيرة قائلاً بفتور : " منحت المرأة الوسيلة التى يمكن أن تتحرر بها من الزواج الذى تم على يد والدها ، وهكذا لم تعد خاضعة لسلطانه" (٢٣) .

(*) عن الشهور المصرية القديمة راجع : آمال الروبى ، أجهزة الحكم فى روما ، ص ١٠٩ . (المترجمة)

تكونت الأسـرة النمـوذجيـة لمواطنى عواصـم الأقاليم من : الوالديـن ، والأطفـال ، وربما بعض أفراد الأسرة والعبيد ، وامتلكت كل عائلة عبدا أو اثنين ، وبعضـها كان يملك أكثر من ذلك العدد . أما العائلات التى امتلكت أعدادا غفيرة من العبيد فكانت تُعد استثناء من القاعدة . وعلمنا مؤخراً أن إحدى عائلات الإسكندرية الأرستقراطية التى ارتفعت منزلتها بعد حصولها على الجنسية الرومانية كان لديها أكثر من مائة عبد امتلكهم الأب وثلاثة من أبنائه معاً (٢٤) ، عملت الغالبية العظمى من العبيد فى الخدمات المنزلية ، وتم تدريب بعضـهم لإنتـاج الحـرير (الفصل السـابع) ، والملاحظ غيـاب الأدلة التى تدل على مشاركة العبيد فى الإنتاج الزراعى(*) ، وهى ظاهرة عامة فى المجتمعات القديمة ، ويرجع السبب الرئيسى فى ذلك إلى أن الفلاحين الأجراء الذين عاش أغلبهم على الكفاف كانوا يقدمون للعمل الزراعى مصدراً أكثر رخصـاً من استـخدام العبيد الذين كانوا يحتاجون إلى رأسمال لشرائهم، بالإضافة إلى نفقاتهم طوال العام. ويتمثل العامل الرئيسى الثانى ، فى أن طبيعة وادى النيل الضيق والنهر الخصيب الذى يجرى

(*) لى تحفظ على ما ذكره الأستاذ نافتال لويس المؤلف عن "غياب الأدلة التى تدل على مشاركة العبيد فى الإنتاج الزراعى"، حيث اتضح من دراستى لإقليم هرموبوليس ماجـــنا (الأشمونين) أن أسرة إبيماخوس Epimachos وكانت من الأسر الثرية فى الإقليم وكان لديها ما لا يقل عن ستة من العبيد قاموا بأعمال مختلفة فى الضيعة ، وفى حالة عدم وجود عمل لهم فيها كان يتم إرسالهم إلى أماكن أخرى ليقوموا بالعمل فيها ، ولذا لم يظهر لنا سائق الحمير باوس Paos إلا قليلا ، ولم نر عامل البناء إلا مرة واحدة ولم يذكر أن أيا منهم تقاضى أجراً ، وكان لدى أسرة سيرابيون من الإقليم نفسه ما لا يقل عن خمسة عبيد وجرت العادة على أن يشرف على سير العمل فى الملكيات الكبيرة ناظر لها وغالباً ما كان عبداً محرراً، والمعروف أن راتب العبد كان أردب قمح شهريا إلى جانب كميات من الزيت والنبيذ ، راجع:

Swiderek (Anne), op - cit., p. 58 , b2 . 58 , b2, 72-3 3103 p. Sarapion Le Archives des Sarapion et de ses fils. Une expolitation agricole aux environs d'Hermoupole Magna (de qo a 133 P.C.) ed. Y Schwartz, Caire 1981, P. 309.; Schwaetz, "La terre d'Egypte aux temps de Trajan et Hadien, Archives de Sarapion, Choronique d'Egypt, XXXIV, 1959, P. 349

آمال الروبى ، هرموبوليس ماجنا فى العصر الرومانى ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٢٠ وما يليها . (المترجمة)

بين صحراوين على الجانبين – على عكس السهول الفسيحة فى إيطاليا وسهول شمال أفريقيا – لم تتح الفرصة لإنتاج مكثف يرتفع إلى مستوى الضياع الرومانية الكبرى Latifundia التى كانت الناحية الاقتصادية تستدعى استخدام العبيد فيها . حقيقة لقد نمت بعض الضياع الكبيرة فى مصر (*) – غير تلك الخاصة بالأباطرة – منذ القرن الثالث ، ولكن كان الشكل العام للملكية الزراعية فى مصر خلال حكم المواطن الأول صغيراً ومحدوداً ، فكانت عبارة عن وحدات يقوم بزراعتها ملاَّكها أو الذين يلتزمون بزراعتها (الفصلان ٤ و ٦) .

إن ما تقدمه مصادر مصر عن العبيد واستخدامهم توضح ظروف انتشارهم فى أنحاء الإمبراطورية ، فالمعروف أنه نتيجة لحروب روما التوسعية فى القرن الثانى قبل الميلاد طُرح عشرات الآلاف من الذين تم أسرهم للبيع فى أسواق العبيد ، وعندما يصبح ثمن العبد زهيداً ، فإن مالكه لم يكن يرى إلا فائدة قليلة من تربية نسل العبد ، حيث كان من الممكن أن يموت الطفل قبل أن يصل إلى السن التى يستفيد منه المالك فيها ويتمكن من استعادة بعض ما أنفقه عليه ، ولكن عندما قلت الحروب خلال القرنين الأول والثانى الميلاديين ، ترتب على ذلك انخفاض شديد فى عدد الأسرى الذين يتم بيعهم ، ونتيجة لما تقدم شجع ملاك العبيد عبيدهم على إنجاب الأطفال ، لذلك بدأ يظهر فى أوراق البردى اصطلاح "العبد الذى ولد فى المنزل" ، أو "العبد الوطنى" . وربما استخدمت مثل هذه العبارات لترويج شراء العبد حيث إنها تؤكد على قدرته على تحمل الظروف المحلية، وذلك بمقارنته بالعبد الذى يتم استيراده من الخارج والذى لا يُعرف أصله أو تاريخه على وجه التحديد . ولكن ليس لدينا ما يوضح ما إذا كان ثمن العبد الوطنى أعلى من غيره أم لا ، ولدينا عبارة ذكر نصها بمهارة فى قواعد تنظيمات مدير الحساب الخاص يتضح منها تحريم تصدير العبيد من مصر إلى الخارج .

(*) عن نمو الضياع والملكيات الخاصة فى مصر فى القرن الثالث الميلادى راجع : آمال الروبى ، "نمو الملكيات الزراعية فى مصر فى القرن الثالث الميلادى طبقاً لأرشيف إزيدوروس" . مجلة الدراسات البردية ، جامعة عين شمس ، عام ١٩٨٧ . (المترجمة)

وظلت أعداد قليلة من العبيد تستورد إلى مصر خلال كل العصور من كل أنحاء الإمبراطورية ، ومن المناطق الواقعة خلف الحدود . ومن بين الأماكن التى جاء ذكرها فى أوراق البردى : تراقيا Thrace ، وفيريجيا Phrygia ، وأوسرونيا Osrhoenia ، وجلاتيا Galatia ، وليكيا Lycia ، وبامفيليا Pamphelia (*) ، وبلاد العرب Arabia ، وإثيوبيا Ethipoia وموريتانيا Muretania ، وسبق أن ذكرنا أنه كان يمكن التقاط المواليد الذين تم التخلص منهم بإلقائهم على " أكوام السماد " وتحويلهم إلى عبيد ، وشجعت الحكومة الرومانية الذين التقطوا هؤلاء المواليد على تحويلهم إلى عبيد ، وذلك بفرضها عقوبة على من يقوم بتبنيهم كأبناء أو بنات ، وورد فى القاعدة رقم (٤١) من قواعد مدير الحساب الخاص : "إنه إذا عثر مصرى على طفل ملقى به فى أكوام السماد وقام بتبنيه تصادر ربع ثروته عند وفاته " .

إن القاعدة الأخلاقية التى كان يعامل على أساسها مواطنو عواصم الأقاليم عبيدَهم تشبه تلك التى نسميها اليوم بالالتزام الأدبى moblesse oblige . ويتضح لنا من خلال الوثائق أن عدداً من العبيد تم تعليمهم القراءة والكتابة ، وكان عددهم أكبر من أن يجعلنا نعتقد أنه كان نوعاً من أنواع استثمار سادتهم لهم . كذلك فإن استمرار خدمة العبيد للأسرة نفسها لمدة ثلاثة أو أربعة أجيال متعاقبة يدل على المعاملة الإنسانية التى كانوا يلاقونها، والتى كانت أكبر درجاتها منحهم حريتهم بطبيعة الحال وكثيراً ما تم تحريرهم على يد سيدهم أو سيدتهم فى وصيته الأخيرة أو فى اتفاقاته مكافأة لهم على خدمتهم بأمانة وإخلاص طوال حياتهم . وعلى سبيل المثال هناك وثيقة كتبت فى عام ١٥٦ م منح صاحب الوصية أربعة من عبيده حريتهم بعد وفاته بسبب "إخلاصهم وحنانهم "وترك لورثته" كل العبيد الآخرين وأبناءهم الحاليين أو أى أبناء يقومون بإنجابهم فيما بعد " . وجرت العادة على تحرير اثنين من العبيد خلال حياة سيدهما . وقام بعض العبيد من الذين تمتعوا بمهارات خاصة بشراء حريتهم من سادتهم بما أمكنهم جمعه من ذلك الجزء الضئيل الذى سمح به سادتهم لهم بالاحتفاظ به من مدخراتهم ، وجرت العادة أيضاً على أن يتم تحرير العبد أو شراء حريته فى أحد المعابد تحت جناحى إله أو إلهة المعبد (٢٥) .

(*) تقع جميع هـذه المناطق فى آسيا الصغرى ، التى كانت تسمى ولاية آسيا الرومانية ، فى العصر الرومانى . (المترجمة)

وقبل أن ننتهى من هذا الفصل نطرح على أنفسنا السؤال التالى : ماذا يقدم البردى لنا عن الحياة الثقافية لمجتمع عاصمة الإقليم ؟ إننا نستقى معلوماتنا الأولية من خلال أوراق البردى الأدبية ، فإذا قمنا بإلقاء نظرة سريعة على قائمة النصوص الباقية لدينا نجد أنها تكشف أن جميع مؤلفات الكتاب الكبار ، وبعض كتاب الإغريق الصغار كانت لا تزال تنسخ ويعاد نسخها طوال العصر الرومانى ، ولعدة قرون بعد ذلك . ومما لا شك فيه أنه كان لها "زبون" مستعد لشراء مثل هذه الكتب أو يقوم باستعارتها ليقوم بنسخها لمكتبته الخاصة . وكان الإغريق يشيرون إلى هوميروس خلال العصور القديمة بأنه "الشاعر" ، وكان هو المفضل لديهم فى كل وقت سواء بالنسبة إلى قرائه من الكبار أو فى الفصول الدراسية فى المدارس، وتم حتى الآن نشر حوالى ٧٠٠ وثيقة بردية وقطعة أوستراكا تحمل نصوص هوميروس ، يتراوح حجمها بين بيت واحد وعدة أبيات، اقتبست من كتاب واحد أو أكثر ، إلى كتب كاملة من الإلياذة . ويليه الخطيب ديموثنيس Demothenes ، والكاتب المسرحى يوريبيديس Euripides والشاعر هزيود Hesiod حيث عثر على حوالى مائة قصاصة من أعمالهم .

إن إشارات البردى التى وردت من أنحاء الولاية لها مغزاها أيضاً ، حيث تضمنت بعض الأوراق التى عثر عليها فى بعض القرى مثل قرية تبتونس Tebtynis ، وكرانيس Karanis نصوصاً أدبية . وعلى الرغم من أن الكم الأكبر من أكوام البردى الأدبى أو المسيحى عثر عليه فى بقايا المنازل وأكوام مخلفات المدن ، فإنه ليس هناك إلا أمل ضئيل فى القيام بكشوف أثرية فى الإسكندرية أو على مقربة منها: ويرجع ذلك إلى أنه إضافة إلى الأشياء التى كتبها واستهلكها أصحابها من الذين أقاموا فى هذا المكان فإن رطوبة الأراضى فى منطقة الدلتا أدت إلى تحلل أوراق البردى ، إلا فى حالة عدة أوراق تقدر بالعشرات حفظت لنا بسبب تفحمها . وعثرت إحدى البعثات الأثرية فى أثناء قيامها بالتنقيب فى منطقة مدينة "أنتينوبوليس" Antinoopolis عام ١٩١٣ / ١٩١٤ م على ٢٠٦ وثيقة بردية فى باطن الأرض ، منها ١٤٨ وثيقة أدبية وعلمية (طبية وفلكية ... إلخ) ، أما بانوبوليس Panopolis – وهى إحدى عواصم الأقاليم فى مصر

العليا – فتعد المصدر الوحيد الذى أمدنا بكوميديا كاملة للشاعر "ميناندر" Menander ، بالإضافة إلى جزء كبير لثلاث من مسرحياته ، كما أنها قدمت لنا أقدم مصدر عن نصوص كتب العهد الجديد وكتابات مسيحية أخرى يؤرخ أقدمها بعام ٢٠٠ م . أما البهنسا التى تعتبر أغنى مصدر لكل أنواع البردى ، فقد نتج عن الحفائر التى تمت فيها منذ نهاية القرن الماضى وما تلا ذلك أن قدمت لنا كنوزًا يبدو منها أنها كانت على الأقل بقايا لمكتبتين خاصتين ، حيث عثر على مئات من البردى الأدبى فيها ، بعضه معروف لنا وبعضه جديد ، وتم نشر العديد من هذه الأوراق ، ومازالت المئات منها فى طريقها إلى النشر .

وتقدم لنا الوثيقة فى بعض الأحيان لمحات عن كيفية قيام مواطنى عواصم الأقاليم بتكوين مكتباتهم من خلال شراء الكتب واستعارتها ونسخها . على سبيل المثال ، تلك البردية التى سُجل فيها قيام شخص بدفع مبلغ من المال لأحد الكتبة ليقوم بنسخ مسرحيتين لـ بلوتوس Plutus وأرسطوفانيس Aristophanes ومسرحية ثيستيس Thyestes الثالث لسوفوكليس Shophocles ، وتذكر لنا وثيقة أخرى سفر أحد الأبناء نهرًا إلى الإسكندرية لشراء صناديق كتب لوالده المقيم فى البهنسا ، وما زلنا نقرأ فى وثيقة تالية هذا الملحق الذى ذيل به الخطاب : « عليك أن تقوم بنسخ وإرسال "الكوميديا الساخرة" لهيبسيكراتيس Hypsikrates الكتب ٦ – ٧ ؛ وقد ذكر لى هاربوقراطيون Harpokration أنها موجودة بين كتب بوليو Polio (ومن المحتمل معرفة آخرين لها) وكان لديه ملخص نثرى عن أساطير التراجيديا لثيرساجوراس Thersagoras » . وأضيف أيضًا الملحق التالى على الخطاب :

« ذكر لى هاربوقراطيون أنها موجودة عند ديمتريوس Demetrius بائع الكتب ، وقد كتبت إلى أبوللونيديس Apollonides لكى يرسل لى بعض كتبى التى سبق وأراها لك سيليوقس Seleukos بنفسه توا . وإذا عثرت على شىء أكثر مما ذكرته ، عليك أن تقوم بنسخه وإرساله إلىَّ . ويوجد عند ديودوروس Diodoros بعض الكتب التى لا توجد لدى » .

واقترح بعض المفسرين – ولكننا لا نستطيع لسوء الحظ أن نتأكد من ذلك – أن الاسم الأول لجامع الكتب المذكور فى الخطاب هو فاليريوس بوليو Valerius Polio من الإسكندرية الذى عرف عنه أنه كان يقتنى قاموساً للغة اليونانية ، وكان له ابن يدعى ديودوروس Diodoros .

هناك وثيقتان مهمتان بالنسبة إلى الكتب وجامعيها ، إحداهما موجودة فى فلورنسا والثانية فى ميلانو . الوثيقة الأولى كانت فى الأصل مخصصة لتسجيل ضرائب لمساحة من الأراضى ، وعندما لم يعد هناك حاجة إلى هذا السجل قام أحد الأفراد من البهنسا ، وهو فى أغلب الظن أحد باعة الكتب ، قام بكتابة قائمة بأسماء كتب على ظهرها ، وطلب كما هو واضح من أحد الأفراد أن يقوم بشرائها له ، وهى عبارة عن : ٢٠ محاورة من محاورات أفلاطون ذكرها له بالاسم ، وأربعة من أعمال إكسينيفون Xenephon ، وطلب منه أن يحضر له كل ما يجده عن هومر ، وميناندر ، وأرسطوفانيس . أما الوثيقة الثانية ففيها يخبرنا كاتبها عن وصول الكتب التالية إليه من الإسكندرية : بئوثيوس Boethos " التعليم "الكتب من ٢ إلى ٢٤ ؛ ديوجنييس Diogenes " الزواج" و " الخلاص من الألم " ، و " فضل الوالدين" و " فائدة استخدام العبيد فى المنزل"، والكتب ١ – ٢ ؛ وبوسيدونيوس Poseidonios "الإقناع" Persuasion الكتاب رقم ٣ (٢٦) .

ومما لا شك فيه أن عنصر الزهو والمباهاة كان يدخل – كما هو الحال اليوم – فى عملية جمع الكتب وتكوين المكتبات الكبيرة ، وينسخ هذا الإحساس معرفتنا أن هذه الكتب تم اقتناؤها لكى تقرأ ثم يعاد قراءتها . وتضمن ولاء مواطنى عواصم الأقاليم للتقاليد الكلاسيكية ، عروض المسرحيات الكلاسيكية ومسرحيات أخرى بنصوص جديدة كانت تقدم فى المهرجانات وخصصت جوائز للمتنافسين . وتم حديثًا نشر بعض فقرات من مسرحية ليوريبيدس Euripides ترجع إلى القرن الثالث تضمنت تعليمات مكتوبة للممثلين على الجانب الأيسر من النص، وذكر فى كشف حساب – قبل التاريخ السابق أو بعده – يذكر دفع مبلغ ٤٩٦ دراخمة للممثل ، ومبلغ ٤٤٨ دراخمة لمن قام

بقراءة أشعار هوميروس ، وهى مبالغ تعد كبيرة فى وقت كان يحصل فيه عامل البناء الماهر على أجر بلغ أربع دراخمات يوميا (٢٧) .

ومن المهم أن نعلم أن عدداً من الكتاب الذين تفاوتت درجات شهرتهم ولدوا فى مدن الأقاليم المصرية وعواصمها ، وكان من بينهم أثينايوس Athenaeus ذلك الجامع الدءوب للمتفرقات ، الذى ولد فى مدينة نقراطيس ؛ وأفلوطين Plotinus ، فيلسوف الأفلاطونية الحديثة الكبير الذى ولد لأسرة رومانية كانت تقيم فى ليكوبوليس Lykopolis فى مصر العليا . ومن المؤكد أن هؤلاء الكتاب الذين تركوا مواطنهم لكى يستكملوا دراساتهم فى الإسكندرية و روما ، قد تركت فترة تكوينهم الأولى فى مواطنهم بصماتها الثقافية عليهم .

هناك عنصر آخر فى المجال الأدبى لابد لنا من ذكره ، ويتمثل فى ظهور الكتاب اللاتينى على أوراق البردى . ويلاحظ أن عدد المخطوطات اللاتينية قليل ، ويورخ أغلبها بعد القرن الثالث الميلادى ؛ أى الفترة التى أعقبت المنحة الشاملة لحقوق المواطنة الرومانية ، وترتب على هذا الإجراء نتيجة مهمة تمثلت فى إيجاد سوق للقواميس اللغوية الثنائية لكى تساعد الإغريق فى ترجمة النصوص اللاتينية .

إن هذه الحقائق مجتمعة التى قدمناها عن النشاط الأدبى تقدم لنا صورة عن مجتمع يستطيع أفراده أن يقرأوا ويكتبوا اللغة التى يتحدثون بها ، وينطبق هذا القول على المرأة مثل الرجل – وسوف نناقش هذا الموضوع فيما بعد – وعلى هذا الأساس كان يمكن لمواطنى عواصم الأقاليم أن يشبهوا أنفسهم بمواطنى أثينا فى عصرها الكلاسيكى (٢٨) .

لا يعد البردى الأدبى المصدر الوحيد أو حتى أفضل المصادر التى توضح معرفة مواطنى عواصم الأقاليم بالقراءة والكتابة ؛ لقد عثرنا على أفضل الأدلة من خلال البردى غير الأدبى : من وثائق الحياة اليومية الممثلة فى العقود ، والوصايا ، وجميع أنواع الأوراق الأخرى ، فعند وجود شخص لا يستطيع التوقيع بإمضائه يقوم غيره بأداء هذه المهمة نيابة عنه أو عنها ويضيف ؛ لأنه أو لأنها "أمية" ، وعندما تم حصر

عدد من أوراق البردى التى تم نشرها من القرون الثلاثة الأولى وجد أن من بينها ٦٠٠ فرد أمي لا يعرفون القراءة والكتابة ، من بينهم ثلاثة فقط من مواطنى عواصم الأقاليم فى القرن الثالث ، وهى الفترة التى أصاب فيها العسر هذه الطبقة ؛ لذلك يبدو أنهم تنازلوا عن التعليم الذى كان يعد من قبل أمراً مهما فى تلك الدائرة الاجتماعية . وفى الواقع بدأت كثير من أسر مواطنى عواصم الأقاليم تبطل من عاداتها فى الانعزال عن حياة المصريين من سكان المدن وتم الزواج المختلط ، وهو الأمر الذى لم يكن يفكر فيه أحد من قبل ، واتضح هذا التحول من خلال طلب نُشر حديثًا وهو خاص بتسجيل صبى ولد عام ٢٦٠ م فى طبقة الجمنازيوم الأرستقراطية فى مدينة البهنسا ، وعند سرد سلسلة نسبه كانت هناك تفصيلات مثيرة للانتباه ، إذ كان أجداده على مدى خمسة أجيال يحملون أسماء إغريقية ، ولكن الابن كان يحمل اسما مصريا وهو اسم بطرس موثيس Peter Mouthis (٢٩) .

إن هؤلاء الأميين الثلاثة استثناء بين طبقة مواطنى عواصم الأقاليم ، فحتى فى أوقات التدهور الاقتصادى حرص أفراد هذه الطبقة على إرسال أبنائهم إلى المدارس ، أما بالنسبة إلى الفتيات فقد كان قرار تعليمهن من عدمه أمراً شخصيا يتوقف على آبائهن ، أكثر من كونه يمثل قاعدة اجتماعية (*) . ولدينا ستة خطابات من أوائل القرن الثانى الميلادى تتحدث فيها عن ابنة أحد مديرى الأقاليم التى كانت فى مدرسة بعيدة عن منزلها . وعلى النقيض من ذلك نجد وثيقة من عام ١٥١ م يقوم فيها أحد أفراد طبقة المستوطنين المميزة فى الفيوم بالتوقيع نيابة عن أخته لكونها أمية لا تقرأ ولا تكتب. أما المرأة التى كانت باستطاعتها القراءة والكتابة فكانت كثيراً ما تفتخر بنفسها، وتنتهز الفرصة لتذكر هذه الحقيقة سواء كان ذلك مناسبًا للموقف أو لا . ففى عام ٢٦٣ م ذكرت إحدى السيدات وكانت تدعى أوريليا ثايسوس Aurelia Thaisous وتدعى أيضًا لوليان Lolliane ، فى التماس قدمته إلى والى مصر ذكرت فيه – دون أن تستدعى الحاجة ذلك – معرفتها بالقراءة والكتابة :

(*) عن تعليم البنات فى مصر فى العصر الرومانى راجع : آمال الروبى ، مصر فى العصر الرومانى ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ . (المترجمة)

« إننى سيدة أتشرف بأن لدى ثلاثة أطفال من ذوى الامتيازات ، منحت الحق فى التصرف بنفسى والتفاوض دون وكيل قانونى لى فيما يتعلق بما أنجزه من أعمال ، كما أننى أعرف القراءة والكتابة، وعلى ذلك فإننى فخورة بشرف وجود هؤلاء الأطفال ، كما أننى لست أمية وأكتب بيسر وسهولة لذلك ألتمس من سعادتكم ... [إلخ] » (٣٠) .

لم تعان عواصم الأقاليم أو القرى الكبيرة من نقص فى معلمى مبادئ اللغة اليونانية ، وكان بعضهم من العبيد ، وآخرون من النساء . ويبدو أن التعليم كان يبدأ فى المدارس عندما يصل الصبى إلى سن العاشرة ، فقد وجدنا صبيا بلغ التاسعة من عمره ، ولم يستطع أن يوقع باسمه على الوثيقة الخاصة بميراثه ، وآخر بلغ الرابعة عشرة وكان من أرستقراطية الجمنازيوم ، وكان لا يزال يتعلم القراءة والكتابة ، وفى إحدى وثائق تعداد عام ٢١٦ م سجل الوالد اثنين من أبنائه أحدهما يبلغ ١٣ عامًا والآخر بلغ العاشرة من عمره ، مضيفًا بعد ذكر اسم كل منهما أنهما يتعلمان القراءة والكتابة (٣١) .

قامت المدارس المحلية بتعليم التلميذ كيفية القراءة والكتابة ، وربما كانوا يدربونه على بعض نصوص من ثروة الإغريق الكلاسيكية ، أما فيما عدا هذا المستوى فكان التعليم يحتاج لمواصلته فى الإسكندرية ، وأرسلت بعض عائلات مواطنى عواصم الأقاليم أبناءها إلى هناك ليحصلوا على المرحلة الرفيعة من تعليمهم ، وجرت العادة على أن يصاحب الابن فى هذه المرحلة فى الإسكندرية عبدا أو اثنين للعمل على خدمته وراحته ، وكثيراً ما أثبتت التجربة العملية أن مدينة الإسكندرية - تلك المدينة الكبيرة ذات الشهرة العريضة - كانت أقل مما يتوقع الطلبة منها حيث ضمت بين أساتذتها من هم دون المتوسط وبعض الدجالين . وكتب أحد الشباب لأسرته فى القرن الأول معبراً عن خيبة أمله حيث يقول :

« ربما أستطيع أن أجد معلمًا بعد فترة وجيزة ، وقد رفضت أن يعلمنى ثيون Theon؛ لأننى كونت فيه رأيا سيئًا فهو لا يقدر المسئولية بطبيعته، ووافق فيلوكسيموس Philoxemos على رأيى هذا عندما أخبرته به ، وأخبرنى أن المدينة تعانى نقصًا فى

الأساتذة ، وأن ديديموس Didymos [الذى يبدو أنه صديقه] سوف يبحر جنوبًا ليقوم بإنشاء مدرسة هناك . وقام بإغراء أبناء أبوللونيوس بن هيروديس Apollonius son of Herodes بالدراسة مع ديديموس ؛ لأنهم منذ وفاة أستاذهم فيلولوجس Phiologos الذى كانوا يدرسون على يديه لا يزال يبحث لهم عن أستاذ آخر أفضل منه . وبخصوصى فإنه إذا استجيب لصلواتى فسوف أتمكن من العثور على أستاذ آخر من الذين يستحقون التقدير ، عندئذ لن أنظر فى وجه ديديموس ولو حتى من بعيد . والشىء الذى يثيرنى هو كيف يضع نفسه على قدم المساواة مع باقى الأساتذة [هنا] ، إنه لا شىء ولا يعد أكثر من مُعلم ريفى ؛ لذلك فبعد أن تأكدت من أنه لا فائدة تُرجى من أى أستاذ هنا ، وأننى أقوم فقط بدفع رسوم باهظة مقابل لا شىء ، فقد قررت أن أعتمد على نفسى ، وأرجو أن تكتب لى بسرعة عن رأيك فى هذا الموضوع . ويوجد هنا ديديموس وذكر لى فيلوكسينوس أنه مستعد دائمًا أن يخصص لى وقتًا كافيًا وأن يفعل أى شىء يستطيعه من أجلى . إنى متأكد من أن ما أفعله هو الصواب ، وسوف أقوم بمشيئة الآلهة بالاستماع إلى المحاضرات العامة التى سيكون من بينها تلك التى يقوم الأستاذ بوسيدونيوس Posodonius بإلقائها » (*) .

وكتب أب آخر لمثل هذا الابن قائلاً له إنه سوف يضطر نتيجة لضغط العمل أن يؤجل زيارته له للشهر القادم، وأضاف قائلاً: "ينبغى أن تركز جميع حواسك على كتبك فى سعيك للعلم ، وسوف تجد فيها فائدة جمة ". ومما لا شك فيه أن لورد شسترفيلد Chesterfield كان سيصوغ هذه العبارة بطريقة أكثر أناقة ، ولكن عبارات بلونيوس Plonius ذلك الأب الذى يفصل بيننا وبينه ثمانية عشر قرنًا جاءت عميقة الأثر ، ذات أسلوب مختصر ، نلاحظ منها اهتمام الآباء الأزلى بحياة أولادهم ورفعة منزلتهم (٣٢) .

(*) عن التعليم فى تلك الفترة راجع : الروبى (آمال) ، مصر فى عصر الرومان ص ٢٦٨ وما يليها. (المترجمة)

الهوامش

(١) P.Brem 23 كان عمل هذه اللجنة يمثل واجبًا مدنيا وليس له صلة بقوات البوليس .

(٢) سجلت نتائج الحفائر الأثرية في هرموبوليس في G. Roeder, Hermopolis 1929-1939, Hilde-sheim, 1959 ، كذلك قدم ملخص عنها في J. Schwartz in Ktema , 2, (1977), P. ,59 -63 ، وقامت المترجمة بتقديم دراسة عن الإقليم تحت العنوان التالي . هرموبوليس ماجنا في العصر الروماني ، دراسة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية في ضوء الوثائق البردية ٣٠ق.م. إلى ٢٨٤م . وحصلت بها على درجة الماجستير من جامعة القاهرة في التاريخ اليوناني الروماني عام ١٩٧١م .

(٣) وردت التفصيلات عن منشآت البهنسا في الوثيقة التالية :- P. oxy. 43 Verso ، أما تلك الخاصة بمد الفيوم بالمياه فقد ذكرت في الوثيقة التالية P. Lond. 1177 = Select Papyri, 406. ولها ترجمة أخرى في L. R. II . PP. 333-5 .

(٤) ظهرت الأوقاف الخاصة بالألعاب في الوثيقة التالية P. Oxy . 705 = W. Chr. 153 ، كما ظهر مجلس الشيوخ في الوثيقة التالية P. Ryl. 599, = SB. 8032 ، وعن توزيع الغلال في البهنسا راجع P.Oxy. XL وجاء التعليق عليها في المقالة التي نشرت في :- Chronique d'Egypte , 49 (1974),, P. 158 - 162. وقد بلغ عدد الحاصلين عليها ٤٠٠٠ من الذكور البالغين ، وهو عدد يمكن تقديره بخمس سكان المدينة .

(٥) P. Oxy. 1681 (III cent.) = Select papyri, 152 .

(٦) P. Oxy . 2186

(٧) أما الطلبات التي مازالت باقية حتى الآن فهي منشورة في المجموعة التالية P. Oxy 3276 - 84

(٨) نجد في الوثيقة التالية العائلات التي تم فيها عديد من حالات الزواج بين الإخوة P. Amh. 75 and BGU. 115 = W. Chr. 203 وهناك تفاصيل أخرى في ص ٨٥، ص ٨٨ . وعن دعوة لحضور حفل الزفاف راجع P. Oxy. III = W.Chr. 484 وعن نماذج زواج الإخوة في القرى راجع: ص ١١٢، ص ٢٤١، أما رسالة الماجستير التي قدمها شيرفيلدر H. Thierfider عام ١٩٦٠ في مونستر Muen-ster فهي لم تقدم أكثر من نماذج من الوثائق المتبقية لتوضيح أن زواج الأخت من أخيها في مصر خلال العصر الروماني ... هي حقيقة لا تقبل الجدل . وقد افترض المؤلف (ص ٩٠ – ٩٤) أن النتائج الدينية كانت أكثر أهمية من الأوضاع الاقتصادية ، ولكن هذا الرأي لم يجد إلا قليلاً من التأييد .

أما أحدث دراسة عن الموضوع ، والتي تمت فيها محاولة تفسير الحقائق التاريخية بمساعدة البقايا الأنثروبولجية وعلم الوراثة وبالإضافة إلى نظريات الإحصاء الحديثة فهي تلك التي قدمها هوبكنز Hopkins, Comparative Studies in Society and Histiory, 22 (1980), 303 - 54 وقد أوضح هوبكنز في ص (٣٢٢ و ٣٢٣) ضعف النظرية التي تنادي بغلبة الجوانب الاقتصادية لهذه العادة ، ولكنه سلم هنا بعد ذلك ، بأن الذين كانوا يمارسونها ربما كان لديهم مثل ذلك الهدف (فربما حرص الآباء على الحفاظ على ثروة الأسرة معا ص ٣٥١) وحيث إن مصادرنا لسوء الحظ غير قادرة على أن تجعلنا نعرف الأسباب التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة ، لذلك فقد كرس الجزء الأخير من مقاله لتحليل عناصر المجتمع المصرى . . . التي ربما تساعدنا في كشف المحيط الاجتماعي الذي كان ينتشر فيه زواج الأخت من أخيها . ص ٣٢٧ – ٣٢٩ .

(٩) عثر على المرسوم بين تشريعات جستنيان Codex Justinianus, Book 5 Ch. 4 no. 17 أما مصدر ديودوروس فهو مؤلفه : المكتبة التاريخية Historical Library , Book, I. Ch. 27 .

(١٠) الوثائق المذكورة هي : BGU 141; P.Lond. 188; P.Mil . Vogl 52 and 130 introd . وهناك نموذج أخر لأحد مواطني عواصم الأقاليم الذين يملكون مزرعة سبق ذكرها أعلاه .

(١١) أخذت هذه الأمثلة من P. Giss. 32, St. Pal. XX 18 ; PSI 1253; P.Oxy. 2848, P. Grenf. I, 50

(١٢) انظر P.Oxy . 2147 . لقد شغل المرشحون للمنصب في يوم رأس السنة المصرية ، الموافق الأول من شهر توت Thoth (= ٢٩ أغسطس) .

(١٣) أما الأعمال الأخرى التي ظهر فيها الرقباء Exegetes مثل تعيين الأوصياء على القصَّر والنساء ، فربما لم تكن في مهام المنصب .

(١٤) أما لجنة الاستماع التي عقدت في عام ٢٥٠م فقد سجلت في الوثيقة SB, 7696 وهي لسوء الحظ وثيقة ممزقة في عدة أماكن ولم تحفظ جيداً .

(١٥) P. Turner, 37.

(١٦) P. Oxy . 243

(١٧) St. Pal XX, 67 recto

(١٨) عن وجود القطن في العصر الروماني راجع : P. Mich. 500 والتعليق على السطر رقم (٧) .

(١٩) BGU. 115 = W. Chr. 203

(٢٠) P. Oxy . 744 = Select Papyri , 105 ; BGU. 1104

(٢١) BGU. 1052 = Select papyri .3. وعن أمهات في سن الخامسة عشرة راجع ص ١١١من الكتاب.

(٢٢) P. Oxy. 528 = Select Papyri, 125

(٢٣) P. Oxy. 237 وفي هذه الوثيقة تتضمن قضية ترجع إلى عام ١٨٦م وإجراءاتها . أما مضبطة جلسة الاستماع لعام ١٢٨م فقد ذكرت في ص ٢٨٦ وما يليها؛ هذه الوثائق وغيرها التي توضح حق الأب التاريخي تمت مناقشتها في :.Revue Internationale des Droits d'Antiquité , 17 (1970), 251 - 8

(٢٤) P. Oxy. 3197. of A D. 111.

(٢٥) هناك مثال مذكور سابقًا ، أما الوثيقة التى جاء الاقتباس منها فهى فى البردية : = P. Oxy . 494
M. Chr. 305

(٢٦) وطبقًا لتسلسل الوثائق فهى توجد فى المصادر التالية :- Aegyptus, 2 (1921) 283 - 5; P. Oxy 1153 ; 2192 ; Aegyptus , 2 (1921), 19 - 20; . وهناك تعليق إضافى فى المجلة نفسها رقم (1964). 23 - 44; and P. Mil. Vogl 11.

(٢٧) . P. Oxy. 2548 and 529

(٢٨) وقد قام هارفى بمناقشة مدى انتشار التعليم في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد فى المجلة التالية 79 F. D. Harvey, Revue des Etudes Grecque (1966), pp. 585 - 636 .

(٢٩) P. Turner , 38 وقد ذكرت وثيقة من عام ١٩٨ م أن أحد مواطنى مدينة أنتينوبوليس كان أميا ، وقد نشرت هذه الوثيقة منذ حوالى ثلاثين عامًا مضت (من وقت تأليف المؤلف لكتابه) .

(٣٠) P. Oxy. 1467 = Select Papyri, 305.

(٣١) P. Flor. 56 , and 3827 = W. Chr. 143 and St. Pal. II, P. 27.

(٣٢) الخطابان اللذان تم الاقتباس منهما هما : P. Oxy. 2190 and 531 = W. Chr. 482

الفصل الرابع

فلاحو القرى (القرويون)

(قانعون بالقليل ونغنى من السعادة)

عاش القرويون فى قرى وكفور متجاورة ؛ حتى يتمكنوا من الانتقال على أقدامهم أو على ظهور حميرهم إلى حقولهم التى كثيراً ما كانت تقع على مسافة بعيدة من مساكنهم . إن القرية بطبيعتها وحدة أصغر من عاصمة الإقليم وتقدم لعين المسافر عندما يقترب منها منظراً لمجموعة من الجدران المشيدة من الطوب اللبن المعتم تنتشر خلال المنظر الطبيعى ، وعندما يقترب المسافر منها يرى أنها عبارة عن كتل متلاصقة البنيان تفصل بينها شوارع وممرات ضيقة ، وتقدم الفيوم التى تبعد حوالى خمسين كيلو مترا شمال شرقى القاهرة أفضل نموذج لهذه المنازل القديمة من خلال خرائب قرية كرانيس التى قامت بعثة جامعة ميتشيجان بالحفر فيها فى الفترة بين الحربين العالميتين .

وتكشف رمال الصحراء عن منازل يبلغ عمرها ألفى عام (كتب ذلك أحد الذين قاموا بزيارتها فى عام ١٩٦٣ وقدم نموذجا لأحد منازلها) : إن ذلك المنزل يعد جزءا من مجمع أكبر ، يمكن الدخول إليه عبر ثلاث خطوات من ممر ضيق يؤدى إذا اتجهنا شمالا إلى الشارع الرئيسى . ولا تزال دعامة مدخله الخشبى قائمة عند باب المنزل الذى يقود إلى حجرتين ، تراوحت مساحة كل واحدة منهما بين عشرة وتسعة أقدام ، شيدت أرضيتها من الطين ، وطليت جدرانها . ولم يكن هناك أى ضوء يدخل الحجرة الأولى، إلا ذلك الذى يتسرب إليها عبر الباب . والمعروف أن الشمس ساطعة فى مصر، ولذلك كان يتم تحاشى دخول الضوء بقدر الإمكان ... أما الحجرة الثانية فكانت ذات كوة – نيش – على جدارها الشمالى ، ونافذة تطل على الممر ... على جانب الشارع من الحجرة الرئيسية يوجد مخرج فى مواجهة الباب الخارجى حيث توجد سلسلة من المخازن ، ويبدو أن هذه المخازن كانت عبارة عن حوانيت لها فتحات منفصلة على الممر. ولم يتضمن المنزل وجود حجرات سفلية تحت الأرض أو سراديب كما كان الحال لدى بعض السكان ، ولم يكن للمنزل فناء حيث كان يقع الفرن ، والطاحونة ، أو مكان لحظيرة الحيوانات (١) .

لقد ذهل هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد من عادة الفلاحين المصريين فى الاحتفاظ بالحيوانات المنزلية داخل المنزل ، ثم قفز إلى النتيجة بأنهم الشعب الوحيد الذى يفعل ذلك (٢) .

كان المنزل بالنسبة إلى سكان القرية مكان إقامتهم من المهد إلى اللحد . أما الفلاحون الموسرون فكانوا يبحثون عن مستوى اجتماعى وثقافى أفضل من الذى يعيشون فيه ، وذلك بنقل أسرهم للإقامة فى عواصم الأقاليم ليعيشوا فى المدينة فى جو يشبه ذلك الذى خلقه الإغريق من مواطنى عواصم الأقاليم لأنفسهم ، حتى يكيفوا حياتهم مع طريقة حياة مواطنى عواصم الأقاليم الحضارية ، على الرغم من أنهم كانوا محرومين – نظرا لتواضع أصولهم – من الانتماء للطبقة المميزة فى المدينة . ومن هؤلاء سارابيون بن يوتيخيديس Sarapion Son of Eutychides وكان يبلغ من العمر أربعين عاما أو حولها عندما قرر عام ١٠٠م أن يستقر فى مدينة هرموبوليس مع زوجته سيلينى Selene وأبنائهم الأربعة وابنتهم ومربية أطفالهم ، ولدينا معلومات وفيرة عن هذه الأسرة من خلال أرشيف وثائقها الذى يبلغ محتواه ١٥٠ وثيقة ، بُعثرت خلال سوق العاديات ووصلت إلى متحفين وخمس مكتبات خاصة فى أوروبا والولايات المتحدة . وامتلكت أسرة سارابيون فى المركز Toparch أو أحد المراكز الريفية قرب العاصمة أملاكا زراعية تضم حدائق للكروم ومراعىَ ، بالإضافة إلى مزارع للقمح ومحصولات زراعية أخرى ، ولقد كانت هذه الأملاك كبيرة لدرجة أن سارابيون وأبناءه من بعده كانوا يقومون بالإشراف على سير العمل يوما بيوم ، وبلغت قطعان الخراف والماعز أكثر من ألف رأس ، وكانوا يقومون ببيع إنتاجها فى مجموعات تراوحت بين دستة وسبعة دست .

وتقدر قيمة هذا القطاع من ممتلكاتهم بحوالى ١٥٠٠٠ دراخمة. وفى ميدان الزراعة امتد نشاطهم ليشمل تأجير مساحات من الآخرين لزراعتها بالإضافة إلى ما يمتلكونه من أراضى . وتذكر إحدى وثائق أرشيفهم قيامهم فى إحدى السنوات بحصاد

مساحة بلغت ٢٣٠ أرورا(*) (= ١٥٦ فدانا أو ٦٢ هكتاراً) وهي مساحة تعادل عشرين أو ثلاثين مرة ما يمكن للمزارع الصغير أن يقوم بزراعته . ويبدو أيضا أن زوجته سيليني كانت تملك أراضيَ خاصة بها آلت إليها في أغلب الظن عن طريق الوراثة ، وتقع في القسم الشمالي من المركز ، ونتيجة لبعد موقعها عن مدينة هرموبوليس فضلا أن يؤجراها لمزارعين محليين بشروط مريحة ، واستطاعا استثمار دخلهما النقدي في قروض مالية تراوحت قيمة القرض منها بين مائة ومائتي دراخمة .

ونتيجة لكل ما تقدم واصل دخل الأسرة نموه وازدهاره ولكن ليس دون ثمن – كما نقول في العصر الحديث – حيث دفع الابن الأكبر هذا الثمن لأنه كان يعاني من التخلف ، أي أنه كان مختلا من الناحية العقلية ، ولم يكن هناك أمل في شفائه (٣) .

لم تغر عاصمة الإقليم كل فلاح ميسور بالإقامة فيها ، وفضل أكثرهم البقاء حيث هم في أماكنهم كأعمدة لمجتمعهم المحلي ، يعيشون في منازل كانت تنافس نظيراتها في عاصمة الإقليم من حيث الحجم والديكور وعدد العبيد ، وكان في استطاعة هؤلاء أن يحصلوا على قدر طيب من التعليم والثقافة ، وهل هناك سبب آخر غير هذا السبب يمكن أن يفسر وجود النسخ العديدة التي تم العثور عليها لمؤلفات هومر ، وهزيود ويوريبيدس وأفلاطون وكتاب آخرين بين أطلال هذه القرى ؟ إن هذه الفئة كان في استطاعتها – عندما تريد – التمتع ببعض مباهج عاصمة الإقليم وأن يقوموا بتأجيرها بما لديهم من ثروة .

« إلى إزيدورا راقصة الصاجات ، من أرتيميسيا Artemesia من قرية ثيادلفيا Theadelphia أرجو أن تحضري مع اثنتين من راقصات الصاجات لترقصي في منزلي لمدة ستة أيام ابتداء من يوم ٢٤ من شهر بئونة بالطريقة القديمة لحساب الأيام ، نظير مبلغ ٣٦ دراخمة عن كل يوم بالإضافة إلى هدية تتكون من ٤ أرادب من الشعير وعشرين رغيف خبز عن المدة بأكملها . وأتعهد بالمحافظة على الملابس والمجوهرات التي تحضرينها معك وتجهيز حمارين لاستخدامهما في الذهاب والعودة [من عاصمة الإقليم وإليه] [التاريخ] يونيو ٢٠٦ م » (٤) .

(*) حوالي ١٨٤ فداناً مصريا ؛ لأن الأرورا ٤/٥ الفدان المصري . (المترجمة)

كان هؤلاء الميسورون من الرجال والنساء قلة بطبيعة الحال . وإذا قمنا بإلقاء نظرة عامة على سكان القرية لوجدنا أن أغلبهم كانوا يحصلون على ضرورات الحياة بصعوبة ، وعاش الرجال والنساء والأطفال والحيوانات المنزلية مكدسين جميعا فى أحياء قريبة ومزدحمة . ويوضح هذا الازدحام تلك الوثائق العديدة التى تسجل بيع أجزاء صغيرة جدا من حصص المنازل ، مثل أربعة أخماس حصة من ست حصص فى إحدى الحالات ، وفى أخرى عشر حصص من أربع وعشرين حصة ، وحصتين من أربعين حصة ، ووجدنا سبعة عشر شخصا من البالغين وسبعة أطفال يعيشون معا فى عُشر منزل .

ما هو العدد المثالى للأفراد الذين يعيشون فى القرية ؟ أى نوع من الأسئلة مثل هذا السؤال الذى يفتقر إلى البيانات الإحصائية ؟ نحن لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن نجيب عنه إجابة محددة، إن أفضل الطرق لمحاولة الإجابة عنه هى المجازفة بوضع بعض الافتراضات لتكون بمثابة مفتاح للإجابة . وبلغ عدد الذكور فى إحدى القرى (فقد اسم القرية) فى عام ٩٤ م من الخاضعين لدفع ضريبة الرأس ٦٣٦ رجلا تراوح سنهم بين أربعة عشر عاما وستين؛ وعلى هذا يمكننا أن نفترض أن العدد الكلى لسكان هذه القرية كان يبلغ حوالى ثلاثة آلاف فرد ، وبلغ عدد الخاضعين لضريبة الرأس فى سجلات كرانيس عام ١٧٢/١٧٣ م حوالى ألف شخص ، مما يجعلنا نفترض أن عدد سكانها يتراوح بين أربعة آلاف وستة آلاف فرد(*) . أما سكان فيلادلفيا Philadelphia فيمكن بمقارنته بسكان قرية كرانيس أن نفترض أن عدد السكان فى القرية الأولى كان أقل من عدد السكان فى القرية الثانية بحوالى ألف شخص . وعلى العكس من هذه القرى الكبيرة كان يوجد العديد من الكفور الصغيرة والقليلة فى حجم قاطنيها . وسمعنا عن فرار جميع سكان أحد هذه الكفور ، أغلب الظن بسبب انتشار وباء الطاعون الذى استمر عدة سنوات خلال عصر ماركوس أوريليوس ، ولذلك انخفض عدد سكانها من الرجال من ٢٧ رجلا إلى ثلاثة ثم إلى صفر بعد ذلك ، وفى كفر آخر انخفض عدد السكان من ٥٤ إلى الصفر أيضا (٥) .

(*) يتفق هذا الرأى مع ما سبق وذكرته عند دراستى عام ١٩٧٣ لقرية كرانيس ، راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ص ١٩٩ وما يليها . (المترجمة)

ونتساءل الآن عن نوع الطعام الذى كان يتناوله القروى ، إذ جرت العادة فى المجتمعات الزراعية أن تمثل النشويات الجزء الأكبر من الوجبة ، ويتكون طعامه أساسا من الحبوب والخضراوات التى يقوم بزراعتها ، بالإضافة إلى أن مستنقعات النيل كانت تعد مكانا مناسبًا لنمو النباتات التى كان بعضها يصلح للاستخدام الآدمى ، " كانت هذه النباتات تكفى الفقراء شر الحاجة" كما يقول ديودور الصقلى ..

وكان نبات اللوتس من بين النباتات التى تنمو فى الأحراش ، ويمكن عمل الخبز منه ، وإذا تم تناول ثمار التوت معه كنوع من الحلوى ، كان يعد وجبة كاملة . وكان يتم تناول لُبِّ سيقان نبات البردى الذى انتشر بوفرة فى أنحاء البلاد إما مسلوقا أو مشويا، بالإضافة إلى أنه يمكن مضغه لامتصاص عصارته (كانوا يتخلصون من مخلفاته كما يفعل المصريون الآن مع أعواد القصب ، وكما يفعل الصينيون مع براعم نبات الخيزران) . وحصل المصريون على حاجاتهم من البروتين والدهون من الدجاج والحيوانات المنزلية ، وبالإضافة إلى ذلك كان يمكن وضع أصناف أخرى على مائدة الطعام من تلك التى يقومون بتخميرها أو التى يمكنهم دفع ثمنها . وأشارت بعض المصادر إلى الألبان ، واستخدم الجبن على نطاق واسع مع اللبن ، وتوفرت الأسماك من النهر والبحيرات والبرك الصناعية ، وانتشر الدجاج البرى على ضفاف البحيرات مع الأسماك الموجودة فيها . وفى أغلب الأحيان كان يتم دفع رسوم نظير حق الصيد ، ومع ذلك فإن سرقة الصيد لم تكن أمرا غير عادى ، وتذكر لنا وثيقة من عام ٣١م أنه حدثت سرقة أسماك تبلغ قيمتها ٦٠٠٠ دراخمة من إحدى البرك الخاصة . وتشير وثيقة أخرى إلى قيام مجموعة من الرجال بدفع مبلغ ١٨٠ دراخمة نظير حق صيد الأسماك فى بعض البرك لمدة سبعة أشهر . وهكذا كان يمكن الحصول على المال بالطريق القانونى أو غير القانونى عن طريق صفقات السمك ، ونعلم من خلال الوثائق التى لها صلة بالأسماك أنه كان يتم تناوله طازجا أو يتم حفظه لكى يستخدم فيما بعد عن طريق التجفيف أو التمليح. وفى النهاية فإن المشروبات(*) الذى اعتادوا على تناولها فكانت تصنع إما من نبيذ العنب أو البيرة المصنوعة من الشعير (٦) .

(*) كان الشراب القومى فى مصر القديمة هو الجعة المصنوعة من الشعير ، أما النبيذ فلم يعرف وينتشر فى مصر إلا منذ الحكم البطلمى لها . (المترجمة)

نقـرأ فى سجلات إحدى المزارع عن كميـة الطعام اليـومية التى اعتاد العمال المستأجرين استهلاكها؛ أنه كان يتم دفع رغيفين من الخبز يوميا أجرة لكل عامل منهم، أى حوالى نصف كيلو جرام لكل فرد . وتشير دراسة أخرى - تعتمد على مثل هذه البيانات - إلى أن حاجة الشخص من السعرات الحرارية كانت تختلف من شخص إلى آخر وتراوحت بين ١٢٠٠ و٢٢٠٠ سعر حرارى يوميا طبقا للسن والمستوى الاجتماعى. والمعروف أن الرجل الذى يبلغ وزنه خمسين كيلو جراما ويقوم بعمل عضلى عنيف يحتاج إلى ٢٢٠٠ سعر حرارى كحد أدنى ليظل فى صحة جيدة ، ويبدو أن كثيرا من الفلاحين المصريين وصلوا إلى هذا الوزن ، ولكننا لا نعرف هل تمكنوا من الحصول على الحد الأدنى وهو ٢٢٠٠ سعر حرارى يوميا بطريقة متوازنة أم لا . على أية حال لدينا شك كبير فى هذا المجال (٧) .

والآن ما الملابس التى كان يرتديها القرويون ؟ لقد كانوا مثل أغلب السكان من الفلاحين يوجد بينهم من يستطيعون دفع ثمن طاقم جيد من الملابس لارتدائه فى المناسبات والاحتفالات ، أما فى أثناء العمل اليومى فقد ارتدوا القمصان والجلابيب مثل تلك التى يرتديها سكان المدن ، ولكنهم كانوا على عكس سكان المدن يسيرون حفاة الأقدام فى أغلب الأحيان ، ولذلك وقعت بينهم كثير من حوادث إصابات القدم .

كانت قرية تيبتونس Tebtynis (*) الواقعة على الحافة الجنوبية لإقليم الفيوم من أكثر المناطق خصوبة فى إمدادنا بأوراق البردى اليونانية ، وعثر على مجموعة وثائق - الآن فى جامعة ميلانو - يبلغ عددها ٦٩ وثيقة خاصة بشخص يدعى كرونيون Kronion وأسرته فى الفترة الواقعة بين عامى ١٠٧ و ١٥٣م ، وهناك وثيقة أخرى فى مجموعة جامعة ميتشيجان ترجع لعام ٣٥م خاصة بوالد كرونيون . إن هذه المجموعة من الوثائق تمثل أفضل ما لدينا عن أسرة قروية ذات إمكانيات محدودة ؛ لذلك فهى تستحق أن نلقى نظرة على أرشيف كرونيون لنستقى منه بعض التفاصيل .

(*) هى قرية أم البرجات حاليا فى الفيوم . (المترجمة)

ونبدأ أولا بذكر شجرة العائلة :

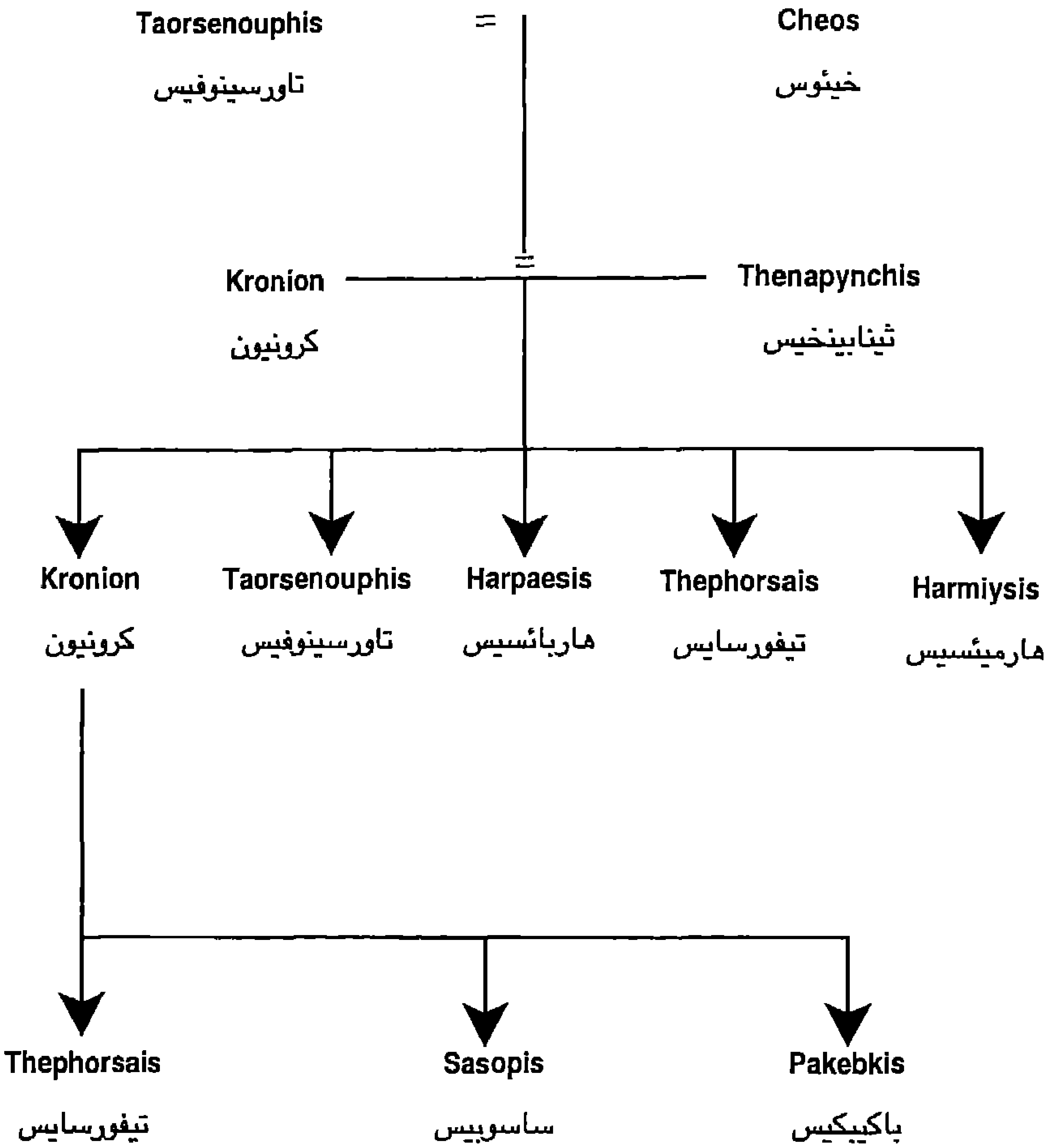

كانت والدة خيئوس Cheos تدعى ثائيسيس ابنة بسوسنيوس Thaesis d.of Psosneas ولدت عام ٥ ق.م . وأنجبت خيئوس عندما كانت فى الخامسة عشرة من عمرها (ولا نعرف إذا كانت قد أنجبت طفلا قبله أم لا) . وكان خيئوس Cheos فى الثالثة والخمسين من العمر عندما أنجب ابنه كرونيون Kronion ، ولم تكن هذه ظاهرة غريبة فى مصر ؛ فهناك حالة أخرى بلغ فيها عمر الزوج ٦٩ عاما وبلغ عمر زوجته

الثانية ٥٢ عاما عندما ذكرا أن لهما ابنا فى الثالثة فى عمره . وتزوج كرونيون من ثينابينخيس Thenapynchis وأنجبا خمسة أطفال - خمسة فقط هم الذين ظلوا على قيد الحياة وظهروا فى الأرشيف - ثلاثة من الذكور وابنتين . وولد الابن الأول عندما كان كرونيون فى التاسعة عشرة من عمره وزوجته فى الخامسة عشرة من العمر ، ثم أنجبا الأطفال الأربعة الآخرين فى فترة بلغت أكثر من عشرين عاما ، ولم يكن هذا الأمر شيئا غير عادى . وتم نشر مجموعة حديثة من أوراق البردى خاصة بشخص يدعى سوتيريخوس Soterichos من القرن الأول ، وهى تقدم لنا نموذجا مشابها ، أنجبت زوجته ابنها الأول عندما كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ، وأنجبت ابنها الأخير عندما كانت فى الثالثة والأربعين من عمرها . ولما كان مجتمعهم لا يوجد لديه الحافز ، كما كان لا يعرف وسائل التحكم فى النسل لذلك يبدو أن الفترة الزمنية التى بلغت ثمانية وعشرين عاما ينبغى أن نتوقف أمامها على اعتبار أنها الفترة التى كان يتم فيها إنجاب الأطفال ، بعضهم قدر لهم الحياة والآخرون لم يقدر لهم الحياة . كما ظهرت فى وثائق تعداد عام ١٥٨ سيدة أخرى أنجبت طفلا بعد فترة بلغت ثمانية وعشرين عاما (٨) .

لنعد مرة أخرى إلى كرونيون وأسرته ، تزوج ابنه الأكبر وابنته الكبرى كل منهما بالآخر ، ومن هذا الزواج ولد كرونيون الأصغر أولا وتزوج من أخته تاورسينوفيس Taorsenouphis التى كانت تصغره بأربع سنوات . وليس هناك أى معلومات فى الأرشيف توضح لنا كيف كانت تعيش الأسرة ، ولا نعرف ما إذا كانت تعيش فى تيبتونس أم فى إحدى المناطق القريبة منها. ولدينا إيصال يرجع إلى عام ١١٤م قام فيه كرونيون بدفع مبلغ ٢٨ دراخمة نظير إيجار منزل ، ومن هنا يتضح أنه عندما كان كرونيون يبلغ حوالى الخمسين من العمر لم يكن يمتلك منزلا لكى يقيم فيه . وتشير وثائق أخرى من الفترة نفسها إلى أنه كان يدفع مبلغ ٢٨ دراخمة إيجاراً سنويا ، وإذا كان هذا صحيحا فإن معنى ذلك أن المنزل لم يكن كبيرا . ومن الواضح أنه كان المنزل الذى تعيش فيه الأسرة كلها ، ومعنى ذلك أنهم كانوا يعيشون فى جيوب بعضهم إلى جانب بعض . ولكن مثل هذا الازدحام لم يكن شيئا غريبا كما سبق أن رأينا فى الفصل الثالث .

وكانوا يمتلكون مساحة من الأرض . وتمكنت تاورسينوفيس بتدبيرها للنقود من أن تنمى الأرورات الأربعة ليصبح مجموع مساحة الأراضى التى تملكها الأسرة

سبعة عشر أرورا (تساوى ٧.٥ فدان إنجليزى أو ٤.٥ هكتار)(*) . ولكن هذه المساحة لم تكف حاجة الأسرة ، ولذلك قامت بتأجير أراض أخرى لزراعتها .

واعتمدت الأسرة فى معيشتها فى المقام الأول على مزرعة بلغت مساحتها خمسة وعشرين أرورا ، استأجروها لمدة أربعين عاما بصفة متصلة من ملاكها الذين كانوا يعيشون بعيدا عنها ، ولكى يتمكنوا من إدارة العمل فى هذه المزرعة كان عليهم أن يقطعوا يوميا مسافة بلغت عشرة كيلومترات أو أكثر من تبتونس والعودة إليها ، ويبدو أن هذه الأراضى كانت شديدة الخصوبة ، أو ربما كانت هناك أسباب أخرى شجعتهم على تأجيرها عاما بعد عام بصفة مستمرة على الرغم من بعد المسافة بينها وبين مكان إقامتهم . وبالإضافة إلى الأراضى السابقة قاموا بتأجير مساحات أخرى صغيرة تراوحت فى حجمها بين ٢.٥ و ١٢ أرورا .

ارتبط النشاط الاقتصادى فى القرية المصرية فى جوهره - باستثناء عدد قليل من الموسرين فيها - بممارسته بالطرق التلقيدية أى بالمقايضة . وفيما عدا الضرائب وبعض الالتزامات الأخرى التى كان يتم دفعها نقدا عانى كرونيون وأمثاله كثيرا من السيوله النقدية ؛ ولذلك كان يقترض قروضا مالية قصيرة الأجل ، وليس من قبيل المصادفة أن تسع عشرة وثيقة من بين مجموع وثائق أرشيفه التى تبلغ ٦٩ وثيقة تتعلق بقروض مالية اقترضها من فرد أو آخر من القادرين فى القرية . وتراوحت قيمة القروض بين ٥٤ و ٣٧٣ دراخمة ، كما اقترض قروضا عينية أخرى بلغت عشرين وأربعين وخمسين أردبا من الغلال ، وجرت العادة على أن يتم تسديد هذه القروض بعد حصاد المحصول بفائدة بلغت ٥٠٪ من قيمتها (٩) .

وبالرغم من هذا النشاط السابق ذكره والتدابير الاقتصادية المحكمة استطاعت أسرة كرونيون أن تعيش فى مستوى متوسط بين الفقر المدقع ورغد العيش(**) ، وتطلَّب هذا المستوى من المعيشة من رجال الأسرة أن يشغلوا على سبيل المثال بعض الوظائف

(*) يساوى ٣/٥ ١٣ فدان مصرى . (المترجمة)

(**) عن أسعار البضائع والخدمات راجع الملحق المذكور فى ص ٣١٣/٢١٤ . (المترجمة)

الدنيا فى الخدمات العامة فى القرية من تلك الوظائف التى لا تتطلب من شاغلها نفقات مالية كبيرة ، ولأن هذه الوظائف لم تكن تفرض على الطبقة الفقيرة فى المجتمع .

ويقدم لنا الأرشيف - كما توقعنا - بعض لمحات من حياة الأسرة الخاصة ، وقد اكتشفنا أنه بعد زواج دام أكثر من ثلاثين عاما وإنجاب ثلاثة أطفال أن الطلاق تم بين كرونيون الأصغر وأخته تاورسينوفيس Taorsenoaphis ، وورد فى عقد الطلاق (المذكور فيما بعد) أن الارتباط تم بينهما دون كتابة عقد رسمى ، وهى عادة مصرية أكثر من كونها قاعدة للزواج مثل تلك القواعد التى توجد لدينا اليوم . ومن السهل أن نفهم أن الزواج بين الأقارب ربما كان يخفف من الشروط المعتادة لعقود الزواج فيما يخص الدوطة وغيرها ، ولكن الواقع أن الزواج حتى بين الإخوة كان يتم الاحتفال به بأسلوب الزواج العادى نفسه .

« قام كرونيون فى ١٢ يونيو ١٣٨ بتقسيم ممتلكاته على النحو التالى : [التاريخ] يعلن كرونيون بن خيئوس بن هارميسيس Kronion Son of Cheos Son of Harmiysis ووالدته تاورسينوفيس Taorseenouphis من قرية تيبتونس التابعة لقسم بوليمون Polemon فى إقليم الفيوم ، وهو يبلغ من العمر ٧٧ عاما ولديه علامة مميزة على يده اليمنى يعلن الآتى : [لكى توضع - الوصية - موضع التنفيذ بعد وفاته وتنقل أملاكه إلى أبنائه من زوجته الأخيرة ثينابنخيس Thenapynchis ابنة باتنيس Patynis وهما أبناؤه هارميسيس Hatmiysis وهارفائسيس Harphaesis وأيضًا إلى تيفورسياس Tephorsais الصغيرة من أبناء كرونيون الأصغر وتاورسينوفوس للثلاثة معا كورثة لكل ما يتركه كرونيون خلفه من الأثاث والأدوات والممتلكات المنزلية الأخرى ، وأى قروض مستحقة الدفع له أو أى شىء آخر لكل منهم نصيب الثلث ، وإلى أبناء كرونيون الآخرين وهم : كرونيون [الأصغر] وتاورسينوفوس وتيفورسياس Tephorsoas على النحو التالى : قمت بتحديد مبلغ أربعين دراخمة فضية لكرونيون الأصغر وذلك لما ارتكبه من أخطاء فى أثناء حياته ؛ وإلى كل من ابنتيه تاورسينوفيس Taorsenouphis وتيفورسياس Tephotsias بالإضافة إلى المشغولات الذهبية والفضية والملابس التى أقر بأنه اشتراها لهم [لكى يبقوها ملكا لهم] ، وقمت بمنح كل

منهم مبلغ مائة [؟] دراخمة فضية وعلى الورثة الثلاثة هارمائيسيس وهارفئسيس وحفيدته تيفورسايس الصغرى أن يقمن بتشييع جنازته ودفنه وعليهم أن يقوموا بتقسيم الميراث على النحو السابق ذكره ، وتسديد أى ديون خاصة أو عامة تظهر عليه فيما بعد ، ولكن طالما بقى كرونيون صاحب الوصية على قيد الحياة فإن له الحق الكامل فى إدارة كل أملاكه بالطريقة التى يراها . [توقيع وختم كرونيون (الذى قام شخص آخر بالكتابة له لأنه لا يعرف القراءة والكتابة) وتوقيع ستة من الشهود ، تأشيرة من دار تسجيل تيبتونس]» (١٠) .

نلاحظ فى الوثيقة السابقة شيئا صارخا وأيضا صارما، وذلك فى الإشارة إلى الأخطاء التى ارتكبها كرونيون الأصغر . إذ ألمحوا إليها فى تبريرهم إعطائه هذا المبلغ الضئيل ، ولكنهم كانوا حذرين فى عدم ذكر التفاصيل؛ وذلك حتى لا تعلن مشاكل الأسرة على الملأ، وقام بكتابة الوصية أحد الكتبة العموميين فى حضور ستة من الشهود، ثم سجلت فى دار السجلات المحلية فيما بعد . أما هذه الأخطاء التى ارتكبها كرونيون الأصغر فسوف تظهر قريبا وهى التى كانت السبب الجذرى فى الطلاق الذى تم بينه وبين أخته تاورسينوفيس ، وهو الطلاق الذى سجل بعد أحد عشر أسبوعا من الوصية فى الثلاثين من أغسطس :

«نسخة من الاتفاق [التاريخ] الذى تم فى تيبتونس التابعة لقسم بوليمون فى إقليم الفيوم بين كرونيون بن كرونيون ويبلغ من العمر حوالى ٥٤ عاما ، وله علامة مميزة على ساعده الأيسر ، وزوجته حتى الآن تاورسينوفيس التى تبلغ من العمر حوالى خمسين عاما ، ويمثلها قانونيا والدهما معا كرونيون بن خيئوس الذى يبلغ من العمر ٧٦ عاما ، الذى له علامة مميزة على يده اليمنى ، تم الاتفاق بموافقة الطرفين على فسخ الزواج الذى كان بينهما بدون عقد مكتوب ، وأصبح لكل منهما مطلق الحرية فى إدارة شئون حياته بالطريقة التى يختارها. ومن حق تاورسينوفيس أن تتزوج من رجل آخر دون الاعتراض عليها بأية طريقة . أما مجوهراتها التى تتمثل فى واحد مينا Mina وعشرة أرباع مثقال من الذهب و ٢٨ وزنة من الفضة وشهد جميع الأطراف أن كرونيون أخذها وحولها إلى مبالغ نقدية لاستخدامه الشخصى، فعلى كرونيون أن يقوم بإعادتها إلى أخته فى صورة مجوهرات بالقيمة نفسها خلال ستين يوما ابتداء من اليوم ،

وإلا سيكون من حق تاورسينوفيس أن تتخذ ضده وممتلكاته الإجراء القانونى اللازم . وبالنسبة إلى المتعلقات الأخرى التى ارتبطت بزواجهما فليس من حق أى واحد منهما أن يشكو الطرف الآخر بأية طريقة ، وليس من حق كرونيون على وجه الخصوص أن يتقدم بشكوى ضد تاورسينوفيس بخصوص أى ممتلكات أخرى كانت قد أحضرتها معها للمنزل طالما كانت قد قامت بدفع ثمنها من أموالها الخاصة ، كذلك بخصوص أى ممتلكات مكتوبة أو غير مكتوبة حتى يومنا هذا . أما الأبناء الذين أنجبوهما سويا فهما ولدان ساسوبيس Sasopis وباكيبكيس وابنة تدعى تيفورسياس «Tephorsiass» (١١) .

وعلمنا من وثيقة أخرى تؤرخ بعد شهرين من الطلاق الذى تم بين الزوجين أن الزوج كان يعمل وكيلا لدى سيدة تملك أملاكا لها حجمها فى إحدى الضواحى القريبة . ونستطيع أن نقرأ بين السطور السبب فى الطلاق الذى تم والذى يتمثل فى العلاقة الغرامية التى ربطت بين كرونيون وهو فى الرابعة والخمسين من العمر وبين مخدومته التى كانت فى الخامسة والأربعين من العمر ، تلك العلاقة التى يرجع إليها السبب فى النكبة العاطفية التى أصابت الأسرة .

لنترك الآن أسرة كرونيون بأفراحها وأتراحها ، وننتقل إلى الحديث عن بعض العناصر الأخرى فى حياة القرية . كان الأفراد الذين يقوم كرونيون باستئجار أراض منهم لزراعتها يملكون مساحات صغيرة من الأراضى الصالحة للزراعة فى القرية ، وواصلت المعابد ملكيتها لمساحات من الأراضى ، وسبق لأغسطس أن قام بتقليص أملاكهم الواسعة . أما أكبر أقسام الأراضى مساحة وأعلاها خصوبة فتمثلت فى تلك الأراضى التى امتلكتها الدولة أو التى كان يمتلكها الإمبراطور اسميا . ففى خلال حقبة المائة السنة الأولى من الحكم الرومانى امتلك عدد قليل من أفراد الأسرة الإمبراطورية وبعض رجال الدولة وبعض رجال المال السكندريين ضياعا واسعة فى مصر كنوع من أنواع الاستثمار الكثيف ، ثم آلت ملكية هذه الضياع قبل نهاية القرن الأول إلى أملاك الإمبراطور بطريقة أو بأخرى ، وعلى الرغم من ذلك ظلت على مدى قرن آخر من الزمان تحمل أسماء ملاكها السابقين مثل ميكيناس Maecenas ،

وأنطونيا Antonia وسينيكا Seneca وهكذا . ولذلك تحكمت أراضى الدولة والضياع الإمبراطورية فى حياة القرويين (*) .

وضعت أراضى الدولة (وكان يشار إليها رسميا بأراضى الدولة Public ge أو الأراضى الملكية royal ge) تحت إشراف مجموعة من الموظفين الرسميين فى عواصم الأقاليم وفى المناطق المحلية ، كانوا يقومون بتأجيرها سنويا لأعلى سعر يقدمه المؤجرون ، وأطلق على الذين يقومون بتأجيرها اسم « مزارعو الدولة » وجرت العادة على أن يقوموا بزراعتها بأنفسهم ، وكان يمكنهم القيام بتأجيرها من الباطن إذا رغبوا فى ذلك . وقبل التعاقد مع الدولة كانوا يقدمون لها الضمانات التى تضمن قيامهم بهذا العمل ، وكان يمكنهم أن يقدموا ضمانات مالية لذلك ، ولكن حيث إن عددا قليلا من المزارعين هم الذين توافرت لديهم السيولة النقدية فيبدو أن الإجراء المعتاد كان يتمثل فى ذكر قائمة من أسماء أصدقائهم ضامنين لهم .

تم تعيين مشرفين للإشراف على إدارة الضياع الإمبراطورية ، وكان فى إمكانهم أن يقوموا فى بعض الأحيان بتأجير مساحات من الضيعة أو إعطاء حق استغلال بعض مصادرها لبعض المزارعين الذين كان يشار إليهم باسم "مزارعو الضيعة" أو "مزارعو الإمبراطور" ، وفى بعض الأحيان فضل هؤلاء المشرفون أن يستخدموا الطريقة التى كانت منتشرة بكثرة لإدارة الضياع الإمبراطورية وخصوصا فى شمال أفريقيا ، وفيها كانت تقسم الضياع إلى حصص كبيرة تعطى لعدد قليل من الوسطاء ، وكان لدى هؤلاء الملتزمين الإمكانيات التى يقدمونها للإدارة لتضمن قيامهم بأداء التزامات العقود العينية والنقدية . أما العائد الذى كان يعود على الملتزمين فكان يأتى من تقسيم هذه المساحات إلى حصص صغيرة يقومون بتأجيرها من الباطن لمزارعى الضياع ، ولدينا نموذج لعقد إيجار من الباطن دوِّن فى ١٠ أكتوبر سنة ١٢٠ م ، وهو على النحو التالى :

(*) عن هذه الضياع الإمبراطورية Ousia ge والمصير الذى آلت إليه راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ١٥٦ - ١٦٦ . (المترجمة)

«من بيتيخون بن هارعوس Petechon Son of Hareos إلى هرمياس بن سابوريون Hermias son of Sabourion تحياتى .. قمت بمقتضى ذلك العقد بتأجير مساحة ثلاثة أرورات منك لهذا العام ، السنة الخامسة من حكم مولانا قيصر هادريان ، لبذرها بحبوب الخضراوات من أراضى الضياع الإمبراطورية التى تقوم بالتزامها ، وسبق أن كان أجَّرْتها لأبوللونيوس بن أجاثيونوس Apollonis Son of Agathionos ، نظير إيجار عينى يبلغ ثلاثة أرادب يتم وزنها بميزان الزيت لكل أرورا موجودة على خريطة مسح الأراضى الخاصة بالمشرف الإمبراطورى ، وأعنى تلك المساحة من الأراضى التى كان يقوم بزراعتها من قبل فى السنة الرابعة من حكم مولانا قيصر هادريان فينيون بن توثيس Phinion Son of Tothes. وسوف أقوم بوزن عائدها فى شهر أبيب Epeiph على أن تكون جميع الحبوب جديدة وسليمة عندما تقوم بحملها من الجرن وسيتم وزنها بمكيال أثينا للأرادب ذى السعة السباعية والذى يستخدم فى المزرعة . على أن تقوم بدفع عوائدها العينية للدولة [التاريخ] قمت أنا ديودكوروس بن ديديموس Diodkoros Son. of Didymes بالكتابة نيابة عنه لأنه أمى» (١٢) .

وفضلا عن ذلك تمتعت الدولة والإمبراطور بوصفهما ملاكا للأراضى ببعض المميزات الواضحة التى لم تكن تتوافر لملاك الأراضى الخاصة . فكانت أى شكوى لهما ضد أى ملتزم من ملتزمى هذه الأراضى بخصوص تقصيره أو تأخره فى دفع عوائد الأراضى يصبح لها الأولوية الأولى على أنواع الشكاوى الأخرى التى تقدم من الأفراد العاديين . وفى كل عام توجد مساحات من الأراضى التى تظل لسبب أو لآخر (لعدم خصوبتها أو لبعد المسافة) دون أن يتقدم أحد للقيام بتأجيرها لزراعتها فى الموسم التالى ، وهنا كان ملاك الأراضى الخاصة يحاولون أن يستأجروا شخصا لزراعة الأرض لهم ، أو يحاولوا أن يجدوا أحداً ليقوم بالتزام تأجيرها نظير إيجار منخفض ، وفى حالة فشلهم فى اتخاذ أى من التدابير السابقة كانوا يتقدمون بطلب للدولة يذكرون فيه أن هذه المساحة تعد أراضى بور فى تلك السنة ، أما أراضى الدولة والأراضى الإمبراطورية فكانت محصنة ضد هذه المحاولات؛ لأنه فى مثل هذه الحالات تقوم الدولة بفرض تحميل زراعتها على الأراضى الخاصة التى تقع فى المنطقة نفسها وذلك بنسبة معينة ، ولذلك كان يتم التأكيد على هذا الإجراء فى عقود تأجير الأراضى الخاصة

بذكر أنها لم يلحق عليها زراعة أراض للدولة (*) . أما فى حالة المساحات الكبيرة من الأراضى وتراوحت المساحة التى لدينا بين ٢١٠ و ٨٥٩ أرورا (= ٥٨٤ فدانا إنجليزيا أو ٢٣٦ هكتارًا) - فقد كانت الدولة تقوم بفرض زراعتها كاملة أو مجزأة فى بعض الأحيان على القرية أو القرى المجاورة ، وهناك يقوم الموظفون المحليون بتحديد اليد العاملة التى تحتاجها . ولكن ما الحل إذا وقعت الأراضى المطلوب زراعتها على مسافة بعيدة ، أو كانت كبيرة المساحة بحيث لا يستطيع الفلاحون الذين فرضت عليهم زراعتها أن يقوموا بأداء العمل فيها مع استمرار إقامتهم فى منازلهم وقراهم ؟ يبدو أنه فى مثل هذه الحالة كان يتم ترحيل الفلاحين إلى مكان العمل ليقيموا هناك ، ولكن ليس لدينا معلومات مؤكدة عن الطريقة التى كان يتم بها إسكانهم ، ومن المحتمل أنهم كانوا يقيمون فى مزرعة الدولة التى تقع فيها الأراضى التى يقومون بزراعتها ، أو كانت تُفرض إقامتهم على فلاحى المنطقة القريبة منها (**) .

وفى جميع النماذج التى لدينا (تم جمع خمسين نموذجا منها فى إحدى الدراسات الحديثة) كانت المسافة بين القرية التى يقيم فيها المزارعون ومكان العمل الذى فرض عليهم زراعة أراض فيه لا تتجاوز عشرة أو اثنى عشر كيلو مترا . وهى مسافة سبق أن رأينا أن رجال أسرة كرونيون كانوا مستعدين لقطعها عاما بعد عام لفلاحة الأرض . كما وجدنا مزارعين من قرية سكنوبايو نيسوس **Soknopaiou Nesos** فى قرية باخياس **Bakchias** التى تبعد عنها ٣٢ كيلو مترا ، وبلغت المسافة فى حالتين أخريين أربعين كيلو مترا . وتقدم لنا بعض الوثائق معلومات عن عدد الرجال الذين فرضت عليهم زراعة أراض على النحو التالى :

(*) عن إلحاق زراعة أراضى الدولة بأقسامها كافة بالأراضى الخاصة ليقوم المزارعون بزراعتها فى حالة عدم تقدم واحد منهم . راجع الدراسة التفصيلية عن هذا الموضوع فى : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ١٩٦ وما يليها والهوامش . (المترجمة)

(**) عن هذا الموضوع راجع : آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص ١٩٦ وما يليها . (المترجمة)

التاريخ	عدد الرجال	المساحة	المسافة بالكيلو مترات
عام ٧٠ م	٣ مزارعين لأراضى الدولة	(١٩) أرورا	٣ أو ٤ كيلو مترات
١٠٠ / ١٠١ م	٢ من مزارعى الضياع	(٥١) أرورا	٣ أو ٤ كيلو مترات
١٤١ / ١٤٢ م	٢ من مزارعى الدولة	(١٣) أرورا	٦ أو ٧ كيلو مترات
١٥٣ / ١٥٤ م	٣ من مزارعى الدولة ومزارعى الضياع	(٣٧) أرورا مقسمة إلى أربعة أجزاء	٥ أو ٦ كيلو مترات (؟)
٢١٥ م	٢١ من مزارعى الدولة	(٩٣) أرورا	١٠ أو ١٢ كيلو مترا (؟)

قدمت الدراسات الحديثة حقائق واضحة عن ترحيل جميع العاملين إلى مكان عملهم فى أراضى الدولة من خلال جمع بيانات كانت نادرا ما يأتى ذكرها فى الوثائق. وذكرت إحدى وثائق عام ٢١٣ / ٢١٤ ترحيل ستين عاملا إلى قرية منديس Mendes ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى تم ترحيل هؤلاء الرجال ؛ لكون الوثيقة غير كاملة .

أما أوضح النماذج التى لدينا فقد عثر عليها فى ملف ضرائب يرجع إلى عام ١٦٧ م . وهو خاص بمساحة ضخمة من الأراضى تبلغ ٢٤٥٩ أرورا (= ١٥٧٢ فدانا إنجليزيا أو ٦٧٦ هكتارًا) من أراضى الدولة وأراضى الضياع فى قرية بطلمية الجديدة Ptolemais Nea حيث تم فرض زراعة مساحة بلغت ٨٥٩ أرورا (أى أكثر من ثلث المساحة الكلية) على قرية كرانيس لزراعتها، وفرضت المساحة الباقية

على ملاك الأراضى من قرية بطلمية الجديدة نفسها وعلى عاصمة الإقليم . وعلى الرغم من أن قريتى كرانيس وبطلمية كانتا متجاورتين ولا تتجاوز المسافة بينهما ٦ أو ٨ كيلو مترات ، فقد تم ترحيل ٤٤ فردا من كرانيس للقيام بزراعة أراضى الدولة والضياع فى بطلمية، ويبدو أن السبب فى هذا يرجع إلى ضخامة حجم العمل هناك(١٣).

وإذا قمنا بحساب هذا العدد الكبير الذى يرحل من رجال القرية للعمل الجبرى ، بالإضافة إلى الغائبين عنها لأسباب أخرى فهو يعنى أن حوالى ٢٠٪ من رجال القرية البالغين يستنزفون منها ، أما بقية رجالها فغالبيتهم فى العادة كانوا بعيدا عنها طوال اليوم حيث يؤدون عملهم فى الحقول ، وآخرون فى نقل البضائع والأفراد . وإذا اقترب الزائر من القرية يخيل إليه أنه قد تم تنويمها مغناطيسيا فى الشمس الحارقة ، وسرعان ما ينتهى هذا المنظر عند دخوله إليها حيث يرى كل من حوله مشغولا بنشاطه اليومى : الحرفيون يقومون بأداء أعمالهم ، وأطفال القرية يلعبون أو يقومون بمساعدة أهل المنزل ، وربات البيوت منهمكات فى أداء أعمالهن أو واقفات يثرثرن ، وفجأة تحدث مشاجرة واندفاع نحو الجرحى بعضها حقيقى وبعضها وهمى . وفى خلفية الصورة نجد لصا اعتاد دوما أن يتستر تحت جنح الظلام ليقوم بسرقاته ، أو ينتهز فرصة الضجيج وانشغال الناس فى المشاجرة ليقوم بالسرقة فى وضح النهار ثم يلوذ بالفرار .

إن جرائم الاعتداء والعنف تعد ظاهرة واضحة فى أوراق البردى ، وكانت النساء والأطفال والعجزة أسهل ضحاياها . وقد اتهم الرومان (وهى نماذج كثيرا ما تكرر وجودها فى الفصل التالى) المصريين بأنهم مجتمع غريب ، غير متوازن ، متمرد على القانون . وقبل غالبية الكُتّاب فى العصر الحديث هذا التحامل على المصريين . وإذا نظرنا إلى هذا الموضوع نظرة حيادية متزنة فإننا لا نجد سببا يجعلنا نفترض أن القرية المصرية ارتكبت جرائم أكثر من غيرها ، ولو قدر العثور على أوراق بردى بأعداد ضخمة من الولايات الرومانية الأخرى لتطابقت صورتها مع القرية المصرية .

وكان نصيب القرية المصرية من الطمع البشرى عاديا ، وكان يمكن للقواعد والنظم العامة العادلة أن تحظر وقوعه ، خصوصا إذا زادت حدته نتيجة لضغوط الفقر،

وتضم مكتبة "جون ريلاند" John Ryland في مانشستر Manchester مجموعة تتكون من ٢٨ شكوى لجرائم وقعت فى الفترة الزمنية من عام ٢٨ إلى عام ٤٢ م ، وكانت لدى رئيس البوليس فى قرية يوهيميريا Euhemerria فى إقليم الفيوم . وهى تتكون من : ٧ شكاوى ضرب وتعد ، و٢ شكاوى خاصة بكسر المنازل ودخولها ، و٧ سرقات سطو وسرقة ، و٧ شكاوى بإتلاف المحاصيل الزراعية عن طريق المواشى . وبالإضافة إلى كون هذه الشكاوى لها أهميتها الإنسانية ، فإنها تقدم لنا مع السجلات الأخرى من المناطق المختلفة صورة حية عن العلاقات الاجتماعية فى القرى ، إلى جانب إعطاء صورة عن الأحوال الاقتصادية ، وقمت باختصار بعض النماذج من هذه المجموعة وهى على النحو التالى :

«إلى سيرابيون Serapion(*) رئيس البوليس من أورسينوفيس ابن هاربائسيس Orsenouphis Son of Harpaesis رئيس قرية يوهيميريا Euhemeria الواقعة فى قسم ثيمستيس Themistes. حدث خلال شهر مسرى فى السنة الرابعة عشرة من حكم تيبريوس قيصر أغسطس [سنة ٢٨م] أن كلفت عامل البناء بيتوسوخوس بن بيتوسوخوس Petosouchos Son of Petosouchos بهدم وإزالة جدران قديمة فى ملحقات منزلى ، وعندما تركت القرية لشراء بعض المؤن ، وعند قيام بيتوسوخوس بعملية الهدم وجد كنزا كانت والدتى قد قامت بإخفائه فى صندوق صغير فى السنة السادسة عشرة من حكم [أغسطس] قيصر [سنة ٥ ق.م]، وهو يتكون من الآتى: زوج من الأقراط الذهبية تزن ٤ أرباع ، وهلال ذهبى يزن ٣ أرباع ، وزوج من الأساور الفضية تزن ١٢ دراخمة ، وعقد مطعم بالفضة يبلغ ثمنه ٨٠ دراخمة ، ومبلغ ٦٠ دراخمة فضية نقدا . وقد غافل عامل البناء مساعديه وأهلى (واستولى عليها) ، وقامت ابنته الصغيرة بحمل ما تم العثور عليه ونقلته إلى منزله حيث قام بتفريغ محتوياته السابقة ، ثم ألقى بالصندوق فارغا فى منزلى ، ولذلك أرجو

(*) يكتب هذا الاسم أحيانا سيرابيون ، وأحيانا أخرى ساربيون . (المترجمة)

منك استدعاء المتهم للمثول أمامك لتتخذ ضده الإجراءات اللازمة ، مع العلم بأنه اعترف بالحصول على الصندوق ولكنه ادعى أنه وجده فارغا . مع تحياتى» .

« إلى ... رئيس الوحدة المئوية Centurion من سوتيرخوس ... بن ثيون Soterichos son of Theon من قرية تيبتونس . لقد اقتحم عدة لصوص منزلى الكائن بالقرية وكسروا الباب فى الليلة السابقة على يوم ٢٢ من شهر هاتور الحالى [أى اليوم] وانتهزوا فرصة غيابى عن المنزل بسبب الحداد على زوج ابنتى [وتمكنوا من الدخول] ليلاً عن طريق خلع مسامير الباب وحملوا معهم كل ما كنت أمتلكه فى المنزل. وسوف أقوم بكتابة قائمة بهذه الأشياء عند الحاجة إليها . إننى أتقدم بهذه الشكوى لكى تقوم الجهات المسئولة بالبحث والتحرى حتى يتمكنوا من تخفيف معاناتى [التاريخ ١٨ نوفمبر عام ١٧٦ م]» .

« إلى هيراكس Hierax المدعو نيميسيون Nemesion مدير إقليم هيراكليديس Herakleides فى إقليم الفيوم من جميللوس Gamellus المعروف باسم هوريون Horion بن جايوس أبولليناريوس Son. of Gaius Apollonarius ، مواطن من مدينة أنطونية .. تقدمت يا سيدى بالتماس إلى فخامة والى مصر أيميليوس ساتورنينوس Aemilius Satruninus لكى أخبره بالاعتداء الذى وقع علىَّ من قبل شخص يدعى سوتاس Sotas قام بإهانتى بسبب ضعف بصرى ، وخطط لكى يسطو على كل ممتلكاتى بعنف ووقاحة . وتسلمت كتاب فخامة الوالى الذى أمرنى فيه باللجوء إلى فخامة المدير العام وفى خلال هذه الفترة توفى سوتاس ، ولكن أخاه جوليوس Julius الذى يتصف بنفس مظاهر العنف ، قام بالاعتداء على بعض حقولى التى زرعتها بنفسى وحمل معه كمية كبيرة من القش ، ولم يكتف بذلك ، بل قام بقطع وسرقة براعم الزيتون المجففة وبعض نبات الخلنج من مزرعة زيتون أمتلكها بالقرب من قرية كيركيسوخا Kerkesoucha ، وعلمت بما قام به من سلب ونهب عندما حضرت هنا فى أثناء موسم الحصاد . ولم يكتف بما تقدم ، بل قام بالسير فى أرضى مصطحبا هذه المرة زوجته وشخصًا يدعى زيناس Zenas وأحضروا معهم رمز العين الشريرة لكى يقوموا بسحر أحد عمالى الزراعيين بالسحر الأسود حتى يهجر عمله

الزراعى بعد حصاد جزء من محصول مزرعة أخرى أمتلكها ، ثم قاموا بحصاد المحصول لأنفسهم. وقمت بعد ذلك بمواجهة جوليوس بنفسى أمام بعض موظفى القرية الذين يمكن استخدامهم شهوداً . بالطريقة نفسها قام أتباعه بإلقاء العين الشريرة علىّ بهدف إحاطتى بالسحر الأسود فى حضور بيتوسوخوس Petesouchos وبتولاس Ptollas شيوخ قرية كرانيس وكتبتها السابقين وسوكراس Sokras ومساعديهم ، وعندما كان الموظفون لا يزالون هناك أخذ جوليوس رمز العين الشريرة مع ما تبقى من المحصول من الحقول وحملها إلى منزله . وقمت بتسجيل كل ما قام به من تعديات أمام الموظفين السابق ذكرهم وعند محصلى عوائد القمح العينية فى القرية المذكورة . من أجل ذلك تقدمت بهذا الالتماس وأرجو ضمه إلى الملف الخاص بى لحفظ ما أطالب به ضدهم أمام سعادة المدير العام بسبب الجرائم التى ارتكبوها ضدى ، ولكى يقوموا بدفع الضرائب لخزانة الدولة عن هذه الحقول لأنهم قاموا بنهب محصول الحصاد عنوة . [التوقيع والتاريخ فى ٢٢ مايو عام ١٩٧ م] ».

« إلى أبولونيوس ، مدير إقليم الفيوم من ثونيس بن أكوسيلاوس Thunis Son of Akoasilaus من قرية أريس Ares التابعة لقسم بوليمون .. حدث أمس عندما كنت أقوم بتصفية حسابات مع بنتيتيس بن بنتيتيس Bentetis Son of Bentetis راعى الأغنام من [قرية] البهنسا التابعة للقسم المذكور ، لدفع أموال ورواتب عينية مستحقة لى أن رفض دفع مستحقاتى وحاول أن يغشنى، وأساء معاملتى ومعاملة زوجتى تانوريس بنت هيروناس Tenouris d. of Heronas وهى من القرية السابق ذكرها . ولم يكتف بذلك ، بل اندفع نحو زوجتى وضربها ضربا – بدون رحمة – بالأيدى على أى جزء من جسدها استطاع الوصول إليه رغم أنها كانت حاملا مما تسبب عنه إجهاضها وموت جنينها ، وهى الآن ملازمة للفراش فى حالة خطرة ، لذلك فإننى أرجو منك أن تكتب لشيوخ القرية فى البهنسا لكى يرسلوا المتهم للمثول أمامك لاتخاذ الإجراءات اللازمة ضده . [التاريخ ٢٤ نوفمبر عام ٤٧ ، التوقيع]» (١٤) .

إنه لأمر مؤسف وظالم أن نختتم هذه النظرة التى قمنا بإلقائها على القرية بسكانها الكادحين، الذين طالت معاناتهم، بهذه الإشارة الكئيبة عن قسوة الإنسان على

الإنسان . إن الحقيقة الأولى لوجود المجتمع تتمثل فى أن نسلّم جدلا بحسن التعامل بين أفراده ، ولكن العكس هو الصحيح ؛ لأن المجتمع المحكم فى تنظيمه لا وجود له فى الحياة . وإذا كانت السجلات الباقيــة لدينا تقدم لنا بسخاء نماذج الاعتداء أكثر مما تقدم لنا النماذج المتآلفة والمتعاونة فلعل هذا يذكرنا بالحقيقة المهمة التالية وهى :" إن الشر الذى يرتكبه هؤلاء عمره أطول" ، ولكن روح المودة والإنسانية لم تكن لتنقطع بسبب صعوبة الحياة فى القرية المصرية إلا لكى تنبع من جديد . ويتضح لنا ذلك من الخطاب التالى الذى دوِّن فى فترة ما من القرن الأول الميلادى والذى يتوسل فيه كاتبه لوالده طالبا منه مساعدة زوجة صديق له على وشك الوضع فى أثناء غياب زوجها :

« ...أن يأتى [بطريق النهر] حتى يستطيع أن يلتمس منك أن تهتم بأمرها ، ولكن لم توجد لديه الفرصة [للقيام بذلك] لأن منصب رئيس العربان Arabarch الذى يشغله قد منعه من السفر ، وهو على وشك أن ينتهى من فترة شغله . وفى الواقع كان على وشك أن يرسل أخاه بالزورق السريع لكى يلتمس منك ذلك ولكننى قلت له " دعنى أكتب لوالدى أولا عن أهمية ولادتها ثم عن تغيبك القهرى " ، وعلى ذلك فإنى أرجوك يا والدى أن تذهب إليها فى حوالى نهاية شهر مسرى أو منتصف برمودة ، حتى تكون هناك قبل أن يحين موعد ... إن كل شىء تم إعداده لنفاسها ... لذلك أرجوك يا والدى ... [فقد الجزء الباقى من الوثيقة] ».

وبالمثل أيضا فإن الوثيقة التالية التى كتبت فى القرن الثانى تفيض بالمشاعر الحارة : « من أبوللونيوس Abollonios وساربياس Sarapias إلى ديونيسيا Dionysia أطيب تحياتنا .. سررنا غاية السرور بالأنباء السارة التى أخبرتنا بها بمناسبة قرب زفاف ابنك الرائع سارابيون Sarapion ، كنا نتمنى الحضور إليك على وجه السرعة فى ذلك اليوم الذى كثيرا ما تمنيناه ؛ لمساعدتك ومشاركتك فرحتك ، ولكننا لن نتمكن من الحضور بسبب انعقاد المحكمة السنوية ، إضافة إلى أننا فى فترة النقاهة من المرض . إن الزهور لم يكتمل تفتحها الكامل هنا – بل فى الواقع هى نادرة – واستطعنا بصعوبة كبيرة جمع ألف زهرة من جميع المشاتل ومن بائعى الزهور وقمنا بإرسالها إليك مع سرابياس Sarapias ، وجمعنا فيها حتى تلك الزهور التى لم يكن من المفروض قطفها إلا غدا . وأحضرنا جميع زهور النرجس التى

طلبتها ، وأرسلنا إليك هذه الألف بدل الألفين التى طلبتها . ونرجو ألا تقللى من شأننا وتسخرى منا بقولك إنك أرسلت [ثمن الزهور] ، حيث إننا نعتبر أولادك بمثابة أولادنا ولهم نفس التقدير والحب فى نفوسنا أكثر من أبنائنا . ولذلك فنحن سعداء مثلك ومثل والدهم سواء بسواء [التحيات المعتادة]» (١٥) .

وبعد أن قرأنا عن مشاعر الصداقة والمحبة ، فمن المثير للدهشة حقا أنه من بين آلاف الوثائق التى تم نشرها الآن لا يوجد إلا عدد قليل من خطابات المواساة ، وتلك القليلة المتعلقة بوفاة الأطفال . ويبدو أن موت البالغين سواء من الذين كانوا فى ريعان شبابهم أو الذين كانوا فى سن متقدمة ، كان شيئا روتينيا للأحوال الإنسانية التى كانت تحتاج إلى تعبير خاص ولو من الناحية الشكلية Pro fomâ Natura . إن خطابات المواساة التى عثر عليها تمت صياغتها بعبارات مؤثرة كما هو الحال اليوم ، وأهم ما نشر بخصوص هذا الموضوع كان لوثيقة عثر عليها فى عاصمة أحد الأقاليم . ومما لا شك فيه أن هذه الوثيقة خاصة بمجتمع عاصمة الإقليم بسبب المكان الذى عثر عليها فيه . أرسلت فى ١٤ ديسمبر عام ٢٣٥ م إلى أحد الشخصيات الكبيرة فى البهنسا لاحظ الكلمات **المكتوبة بخط أسود** تلفت النظر إلى العبارات التى جرت العادة على تكرارها فى الوثائق :

« من مينستيانوس Mnesthianus إلى أبولونيانوس Apollonianos وسبارتياتى Spartiate [زوج وزوجة] كن شجاعًا تشهد الآلهة أننى عندما علمت **بأمر سيدى ابنكم حزنت وبكيت كما لو كان ابنى** . إن ذكراه ستظل أبدا . وعندما كنت أستعد للحضور إليكم منعنى بينوتيون Pinoution لأنه قال إنكم يا سيدى أبولونيانوس أرسلتم إليه طالبا منى عدم الحضور لأنك سوف تكون فى الفيوم . **على أى حال أرجو أن تتحملوا بصبر لأنه سيكون مع الآلهة »** . يمضى بعد ذلك الخطاب فى استعراض شئون العمل ويختتم بالتالى : « لقد فقدت أنا الأخرى عبدا لى ولد فى المنزل ويبلغ ثمنه تالنتين . إننى أصلى من أجل سلامتكم يا سيدى ولسيدى والدكم ، وأن تكونوا جميعا فى رعاية الآلهة» (١٦) .

سنقوم فى ختام هذا الفصل بإلقاء نظرة على المستوى الحضارى كما فعلنا فى الفصل السابق ، وذكرنا أنه من بين ٦٠٠ وثيقة تم حصرها من الوثائق البردية خاصة بالأميين كان من بينها ثلاث وثائق فقط خاصة بمواطنى عواصم الأقاليم ، أما باقى الوثائق فكانت خاصة بأصحاب الحرف والفلاحين المصريين ، وكان من بينهم كهنة ، ورؤساء القرية ، ومديرى ضياع ، وجندى مسرح من خدمة القوات العسكرية ، الذى لم يستطع خلال مدة ٢٦ عاما قضاها فى الخدمة العسكرية فى الجيش أن يمحى أميته . ومنذ حوالى ١٥ عاما نشرت مجموعة من الوثائق البردية كانت خاصة بكاتب إحدى القرى وكان " لا يعرف القراءة أو الكتابة" ، وأشار مرارا إلى هذه الحقيقة . وعلينا أن نضيف هنا أن جميع الإشارات الخاصة بالقراءة والكتابة إنما تعنى قراءة اللغة اليونانية وكتابتها ، وكان بعض الذين يجهلون اليونانية وخصوصا من طبقة الكهنة يمكنهم أن يقرأوا ويكتبوا باللغة المصرية ، ونادرا ما كانت الإشارة تتم إلى ذلك بالتفصيل ، ولكن وجد فى عقد بيع منزل على سبيل المثال يرجع إلى عام ٥٥ م يذكر فيه أن أحد الموقعين قام بالكتابة نيابة عنه " لأنه يجهل الحروف الإغريقية ، ولكنه كان يكتب بالمصرية " . إن ممارسة الكتابة بالديموطيقية - كما كانت تسمى بالعامية المصرية - بدأت فى الاختفاء فى القرن الثانى ، ويبدو أن بقاياها استمرت خلال قرنين من الزمان بعد ذلك (١٧) .

وكثيرا ما وصف بعض الأشخاص بأنهم "يكتبون ببطء" وهذا يعنى أنه كان يمكن أن يكتب توقيعه - وليس أكثر من ذلك - بحروف غير متقنة يقلد فيها الحروف اليونانية . ويمكننا أن نفترض - نحن مطمئنون - أن بعض القرويين كان يمكنهم أن يوقعوا بأسمائهم أفضل من ذلك ، بل ربما كان هناك عدد منهم يستطيع القراءة ويتذوق الأدب الإغريقى ، ويعزز هذا الافتراض وجود شذرات متفرقة لأعمال الكتاب الإغريق بين أطلال القرى . وأخيرا ، فإنه كما سبق ورأينا فى بداية هذا الفصل أن ذلك العدد القليل من أثرياء القرى والذين كانوا يسعون لوضع أقدامهم على سلم الصعود الاجتماعى (كما نقول بتعبير اليوم) درجوا على تقليد حياة مواطنى عواصم الأقاليم ، التى كان من ضمنها تعليم أولادهم تعليما إغريقيا . ولكن الأمية كانت هى السمة العامة فى القرية المصرية خلال العصر الرومانى ، وكان المثقفون قلة فى عددهم وأحاط

بهم محيط من الأميين . وكانت الكتابة منذ البداية فى العصر الفرعونى مقصورة على الكهنة بوجه خاص ، وكذلك على الطبقة العليا وأصحاب المهن التى تتطلب مهارات خاصة ، واستمر شيء من ذلك التقليد فى القرى حتى العصر الرومانى وربما العصر الذى تلاه أيضا . إننا ما زلنا نشاهد فى منطقة الشرق الأدنى والأوسط الكتبة وهم يجلسون أمام مائدة صغيرة على ناصية الطريق العام حيث يأتى المواطنون إليهم ويحضرون لهم خطاباتهم ليقوموا بالرد عليها ، ويكتبوا لهم تظلماتهم ، ويسجلوا لهم عقودهم ويوقعوها ، وقام الكتبة فى العصور القديمة بالدور نفسه ، ويبدو أنهم كانوا يشبهونهم فى الشكل ، فيما عدا أنهم كانوا يجلسون القرفصاء ويكتبون على حجرهم فى العصور القديمة . هنا " فى الشارع" كما ذكرت بعض العقود – تمت أغلب كتابات القرويين ، وتفاوت المستوى الثقافى من كاتب إلى آخر ، ولكن أغلبهم يترك لدينا الإحساس بأنهم كانوا غير أميين أكثر من كونهم متعلمين تعليما عاليا ، وكان أغلبهم يكتبون صيغا رسمية وأكلشيهات . نرى هذه الحقيقة من خلال العقود التى قاموا بكتابتها ، ولكن أكثر ما يثير دهشتنا استخدامهم لهذه الطريقة الروتينية فى الخطابات الخاصة التى كان أكبر جزء منها عبارة عن مجموعة من كلمات التحية والتمنيات الطيبة .

لا شك فى أن القارئ قد لاحظ أن هذا الفصل أكثر إيجازا من الفصل السابق ، ويرجع ذلك إلى " اختصار حوليات الفقراء وبساطتها " . على أى حال فإن سكان القرى الذين يمثلون الغالبية العظمى من سكان الولاية سيلعبون الدور القيادى فى أغلب الفصول التالية .

الهوامش

(١) E. G. Turner, Greek Papyri, an introduction , pp. 78 - 9 .

(٢) Herodotus, Histories , Book 2 Ch. 36

(٣) لقد تم نشر أرشيف الأسرة مع تعليق مفصل عليه على يد شفارتز : J. Schwartz , Les Archives de Sarapion et des ses Fils, le Caire, 1961.

(٤) P. Corn. 9 = Select Papyri , 20

(٥) W. Chr. 63 ; P. Mich. 224 ; PSI 101 & 102

(٦) Diodoros, Historical Library, Book I, Ch. 34;P . Oxy .2234; P. Turner 25.

(٧) استمدت البيانات الخاصة بهذه الحسابات من المصادر التالية :

T.Reekmans, Papyrolgica Bruxellensia, 3 (1966) esp. 55-7.

(٨) هناك إشارات عن عائلات أخرى موجودة فى الوثائق التالية :

P. Lugd - . Bat Vol. V, col. V = P. Brux. 5, and. P . Soterichos

(٩) وفى حالة سوتيريخوس الثيادلفى Soterichos of Theadelphia ، الذى بدأنا نسمع عنه من خلال دراسة نشرت حديثا لاحظ ناشر أرشيفه ص ٢٣ أنه حاول أن يقتصد من يوم إلى آخر ، ولكنه لم يتمكن من أن يجمع أى مدخرات ، وذلك كان حال الفلاح فى ذلك الوقت . وبالرغم من ذلك فإنه لم يعتبر رجلا فقيرا بمقياس تلك الفترة ؛ « فقد كان سوتيريخوس » كما يرى الناشر « مستأجرا للأرض أساسا ، ولم يكن من ملاك الأراضى ، وكثيرا ما اقترض المال لينفق على احتياجات زراعته ... وعند موته ترك دينا ماليا كبيرا أمضت زوجته وأبناؤه سنوات فى تسديده» R. S. Bagnall, Bull. Amer. Soc. Papyrologists, 17 (1980, 98)

(١٠) P . Mil. Vogl . 84 = P. Kronion, 50.

(١١) P. Mil. Vogl. 85 = P. Kronion. 52 يساوى وزن الذهب والفضة اللذان ورد ذكرهما حوالى ٩٠٠ دراخمة ، وبلغت دوطة بنات مواطنى عواصم الأقاليم أكثر من هذا الرقم مرات عديدة كما رأينا فى ص ٨٧ سابقا .

(١٢) P. Ryl. 168. ويوجد أمثلة أخرى فى L. R. II, P. 185

(١٣) الوثائق الرئيسية هى : SB, 7528; P. Iand. 27; P. Hamb. 65; P. Phil. 15; CPR. 1,33; BGU. 618; P. Bour. 42 أما أحدث دراسة عن الموضوع فهى G. Poethke, Papyrologica, Bruxellensia,8.(1969).

(١٤) وكنمـوذج على استـمـرار وجهـة نظر الرومـان "عـن الأفـراد الـذين اعتـادوا على القـيـام بالشـغب"، راجع . J. G. Winter , life and Letter in the Papyri, P. 113. أمـا الوثائق التي تم منهـا اقتـبـاس الشكاوى فـهي على النحـو التـالي P. RYL. 125 = Select Papyri, 278; P.Mich.- 421, BGU. 22, P. Teb. 332;P.Mich. 424, 228. وهناك مـثال آخـر قدمت فيه الشكوى لقائد المائة Centurion في ص ١٢٣ ، راجع أيضا الفصل السادس ، ملحوظة رقم (١٠) .

(١٥) اقتبست الخطابات من . BGU.665; P. Oxy 3313

(١٦) PSI. 1248 وهناك خطاب بخصـوص وفاة سيدة عندما كانت تضع طفلها تم نشره في المصدر الآتي . L-R. II, PP. 408-9

(١٧) وعن بيـتـاوس Petaus « الكاتب الذى لا يعـرف الكتـابة » راجع: Chronique d'Egypte, 41 (1966) 127-33. وعثر في مكتبه على ١٢٧ وثيقة ، آلت ثلاثة أرباعها إلى جامعة كولونيا ، والربع الأخير إلى جامعة ميتشيجان . وقد تم نشرها بالتعاون بين ألمانيا وأمريكا على يد كل من هاجيدورن ويوتي: ,Hagedorn - Youtie, Das Archiv des Petaus, Papyrologica Coloniensia 4,1969. أما الذى قام بتوقيع الوثيقة فقد ذكر أنه لا يكتب اليونانية ، ولكنه يعرف الـتابة بصفة عامة راجع : ص ٩٦-٩٧ .

الفصل الخامس

« المعتقدات والخرافات ووسائل اللهو»

SUPERSTITITIONE ET LASCIVIA

« أعمال الآلهة والشياطين وأيامهم »

لم يعبر أحد عن احتقار الرومان للشعب المصرى وطريقة حياته مثلما عبر عنها الشاعر جوفينال فى قصيدته « الخنزير الأسـود » ، وكان يقصد به كريسبينوس Crispinus الثرى المصرى الذى وصل إلى مركز له أهميته فى روما . ولكن كراهية جوفينال وازدراءه انسحبت لتضم كل أفراد الشعب ، فهاجم فى قصيدته الهجائية الخامسة عشرة من ديوانه تلك البلاد المجنونة التى تقدس الحيوانات . وادعى أنه شاهد فى أثناء زيارته لمصر ما حدث عندما أدت العصبية المحلية إلى قيام مدينة بغزو أخرى فى أثناء احتفالها بمعبودها المحلى ، بدأت المعركة بالكلمات التى تحولت إلى الاشتباك بالأيدى ، الذى قاد إلى ثورة شاملة شحنت بكل بشاعة آكلى لحوم البشر .

ولن نستطيع أن نعرف ما إذا كان جوفينال جاد فيما ذكره أم أنه كان يتحدث بلسان دنىء ، لقد تحدث الباحثون فى كلا الجانبين بدون اتخاذ رأى محدد لأى جانب. حقيقة وصف كل من بلوتارك وديون كاسيوس Dio Cassius غيرة المصريين على عباداتهم المحلية ، ولكن هناك فارقا شاسعا بينهما وبين تلك القصة المرعبة التى يحدثنا عنها جوفينال أو التى كانت من بنات خياله(*) . ومن المؤكد أن حقائق الحياة اليومية التى نقابلها من خلال النقوش والوثائق البردية من القرون الثلاثة الأولى من الحكم الرومانى تحمل ملامح مختلفة تماما ، فنحن نرى الآن بلادا تلتقى فيها الآلهة من ثلاث حضارات : الحضارة الوطنية المصرية ، وحضارة الإغريق الذين أصبحت مصر الآن

(*) قضى الشاعر جوفينال سنوات نفيه فى مصر بعد أن أبعده الإمبراطور أغسطس عن روما لجريمة أخلاقية ارتكبها وأدين فيها ، لذلك فمصر المنفى لم يكن يحمل لها إلا كل ذكرى سيئة فى ذهنه ، ومن هنا فى أغلب الظن جاء تحامله على مصر والمصريين فى أشعاره التى انتشرت عبر الزمان .

وعن قصيدته الهجائية الخامسة عشرة من ديوانه راجع ترجمتها العربية الرائعة التى قام بها أستاذى : الدكتور عبد اللطيف أحمد على فى مؤلفه : مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء أوراق البردى ، القاهرة ١٩٦٢ ، الفصل الثانى . (المترجمة)

موطنهم بعد ثلاثة قرون من التكيف تحت الحكم البطلمى ، والرومان الذين وصلوا إليها حديثا ، حقيقة كانوا يحتكون بالأكتاف ولكن بدون أى إصابات ظاهرة ، وفى بعض الأحيان كانت كل حضارة من الحضارات الثلاث تحافظ على شخصيتها المنفصلة ، وفى بعض الأحيان كثيرا ما تم التوفيق بين الثقافات الثلاث أو التحالف بينها .

وسرعان ما وفق الرومان - الذين اتخذوا من مصر مقرا لهم - بين عبادتهم والعبادة الإغريقية والمصرية التى وجدوها هناك . ولدينا نموذج جيد بهذا الخصوص لنقش مؤرخ بعام ١١م ، وتم كشفه منذ ثلاثين عاما فى الصحراء الشرقية على الطريق القديم الذى كان يربط بين قفط والنيل وأحد موانئ البحر الأحمر ، وفيه نقرأ الآتى :

«كان من قبيل حسن الطالع أنه عندما كان بوبيليوس جوفينتيوس روفوس Publius Juventius Rufus التربيون العسكرى للفرقة الرومانية ومدير مناجم جبل برنيس ، كان هو أيضا المدير المسئول عن مناجم الزمرد والتوباز وإنتاج اللؤلؤ وجميع مناجم مصر ، أن قام أجاثابووس عبده المعتق بتكريس هذا المزار المقدس للإله "بان" الكبير باسم بوبيليوس جوفينتيوس روفوس ولىّ نعمته فى إقليم أوبليات Opliate » [(١)] .

إن المزج بين الحضارات الثلاث فى هذا النقش جدير بأن نقوم بفحصه تفصيليا . إن الشخص الذى قام بالإهداء عبد محرر يحمل اسما إغريقيا ، وقام بتكريم ولى نعمته وسيده السابق ، وكان رجلا رومانيا يحتل مكانة رفيعة . ودوّن النقش باللغة اليونانية على نصب بشكل وزخرفة مصريتين. أما الإله بان ، روح الصحراء البرية الموحشة التى تسبب الهلع للمسافرين ، فقد ذكر باسمه الإغريقى ، ولكنه صور على النصب فى الصورة التقليدية للإله المصرى "مين" Min .

كذلك نقرأ فى أحد الخطابات من القرن الثالث ما يأتى : « من ماركوس أوريليوس أبوللونيوس Marcas Aurelius Apollonios الكاهن إلى حامل سلة الكتب المقدسة (لقرية) «نيسميميس» Nesmeimis .. تحياتى. أرجو أن تذهب إلى معبد الربة "ديميتر" فى قرية سينكيفا Sinkepha ، لكى تخبرهم بتقديم الأضاحى المعتادة لسادتنا الأباطرة وانتصارهم ، لكى يرتفع (فيضان) النيل ، وتزداد المحاصيل ، ولكى تتحسن أحوال الطقس . إننى أصلى من أجل سلامتك » .

إننا نجد هنا مزيجا حضاريا متنوعا ، فالكاهن مواطن رومانى ، ولكن العبادة ليست رومانية ، وذكرت الإلهة ديميتر باسمها الإغريقى ، وكانت ترمز للربة « إيزيس » فى القرى المصرية (وقام هيرودوت بعقد مقارنة لأوجه الشبه بين الربتين فى فترة مبكرة من القرن الخامس قبل الميلاد حيث كان يجرى فى معبدها إقامة شعائر عبادة أباطرة الرومان، وعبادة النيل ، وآلهة المناخ) [٢] .

لم تكن القرى الصغيرة فقط مثل قرية سينكيفا هى التى ليس لديها الإمكانيات سواء البشرية أو المادية لبناء معابد مستقلة لكل إله من الآلهة بدلاً من وجود معبد واحد يعبد فيه جميع الآلهة 'Multi - Service' ، ولكن يتضح لنا مثل هذا العناق بين العبادات فى المعابد التى خصصت للعبادات الإغريقية والرومانية فى عواصم الأقاليم . أما فى عمق مصر فإن مواطنى المدن وأولئك الذين حرصوا على تقاليدهم كانوا متمسكين بتقديس آلهة الإغريق كنوع من الاعتزاز بأصولهم الهللينية من الناحية الشكلية فقط ، ولكن كثيرا منهم وجدوا أنفسهم محصورين فى دائرة الثقافة الوطنية : حاولوا قدر إمكانهم الإفلات منها ، ولكنهم لم يستطيعوا تجاهلها طوال الوقت . واستمرت آلهة جبل أوليمبوس Olympus كأسماء فقط ، ولكنها اختفت كعقائد .

إن عملية التوفيق التى تمت بين الآلهة كانت فى أغلبها بين الآلهة المصرية والإغريقية ، بالإضافة إلى خليط آخر من آلهة المناطق الأخرى ، وخصوصا من منطقة الهلال الخصيب وآسيا الصغرى . وتمت فى مصر مضاهاة الربة أثينا فى البداية بالربة المصرية « ثيوريس » Thoëris ، والإله « زيوس » « بالإله « آمون » ، «وهرميس» بالإله « توت » ، وهكذا بالنسبة إلى الآلهة الأخرى . واشترك أغلب الآلهة فى أكثر من صفة من الصفات المشتركة بينها وأخذت هذه الصفات أشكالا مختلفة فى المناطق الشعبية . وعندما يطلق قرويون يحملون أسماء مصرية على أنفسهم كهنة هرميس وأفروديت فنحن نكاد نكون متأكدين من أنهم أسقطوا اسما من أسمائهم واستخدموا الاسم الإغريقى الدال على الطبقة الإغريقية المتميزة وأشاروا به إلى آلهتهم الوطنية . وانتشرت سياسة المضاهاة بين الآلهة وأصبحت فى الواقع أداة سـياسـية منذ أسس بطلميوس الأول عبادة سيرابيس Sarapis ، وهى مزيج غامض من العقيدة الإغريقية والمصرية ، كان الهدف منها أن تكون رمزا للوحدة والمساواة بين الحضارتين

– وهى فكرة يمكنها أن تأتى بنتائجها من الناحية الظاهرية ، كما أنها يمكن أن تحقق فائدة فى آفاق المستقبل – وكانت عبادة سيرابيس مهمة وواكبها النجاح مع المصريين لما كانت تعد به من حياة أخرى أفضل . أما بالنسبة إلى الإغريق وسلالتهم فلأنها كانت تسمح لهم بالتمتع بالرخاء الذى تضمنته فكرة المساواة مع العلم التام بأن الحكومة كانت متمسكة فى سياستها بتدرج الطبقات . وبعد أن أصبح لسيرابيس وجود مستقل ، انتشرت جماعات أخرى إضافية له ، وشُبِّه فى أحد الأماكن بزيوس وفى أخرى بإله النيل ، وهكذا (*) .

كانت عبادة الربة إيزيس – السخية فى عطائها ، مانحة الحياة – أكثر العبادات المصرية انتشارا على الإطلاق ، فقد انتشرت فى أنحاء عالم البحر المتوسط ، وكان لها مركز فى روما ذاتها ، وذكر فى أحد أجزاء كتاب دينى عثر عليه فى البهنسا قائمة بأشكالها ، وأسمائها ، ونسبها ، وتشبيهاتها التى عرفت بها "صاحبة الأسماء العديدة" فى المناطق المختلفة سواء فى مصر أو فى خارجها . إن ذكر بعض أسمائها هنا سيكون كافيا لمعرفة بقية أسمائها وألقابها المائة والخمسين التى وجدت لها فى أكثر من مائة مكان : فى مدينة "أفروديتوبوليس **Aphroditopolis** فى إقليم "بروسوبيتى" **Prosopite** (سميت باسم) قائدة الأسطول ، وذات الأشكال المتعددة أفروديت . فى نقراطيس: العذراء التى أنجبت ، والمرحة ، والمنقذة ، وذات القدرة ، والمنظمة . وفى هرموبوليس : أفروديتى الملكة ، والمقدسة . وفى تانيس **Tanis** : لطيفة الشمائل هيرا . وفى كانوب : قائدة ربات الفنون . وفى روما : الشجاعة . وفى إيطاليا : معشوقة جميع الآلهة .

(*) عن عبادة سيرابيس وسياسة بطلميوس الأول الدينية راجع الدراسة الحديثة التى نشرت عن هذا الموضوع، التى قامت بها إحدى المتخصصات فى هذا الفرع من الدراسة وهى الأستاذة الدكتورة دوروثى تومبسون Dororhy Thompson ، الأستاذ فى جامعة كمبردج البريطانية والتى كان لى شرف التتلمذ على يديها عندما كنت أقوم بدراسة الدكتوراه هناك: Dororhy Thompson, Memphis under the Ptolemais,Princeton,1988 . عن سيرابيون الإسكندرية 239 , 148 , 146 , 116 , pp.70 عند سيرابيون منف pp. 10,11,12,22,23,27-30,139,204,212 . (المترجمة)

وكان الزوار الإغريق والرومان عادة ما يرفضون هذا الإفراط في الألقاب والصفات لافتقارة إلى العقلانية ، ولاحظ ديودورس الصقلى حيث نتبين صدى ضجره في كلماته التى يذكر فيها إن الربة نفسها تسمى لدى البعض بإيزيس ، وآخرين يسمونها: الخيرة ، وديميتر ، وآخرون واهبة القانون ، أو سيلينى Selene أو هيرا Hera ، وهناك غيرهم يطلقون عليها جميع الألقاب، وأطلق البعض على "أوزيريس" اسم ديونيسيوس Dionysius أو بلوتو Pluto ، كما سماه آخرون " آمون" ، وقليلون "زيوس" وكثيرون "بان" Pan [٣] .

ونستطيع أن نحدد عددا من مراتب معابد البهنسا لتكامل معلوماتنا عنها ، مثل هذه المعابد الخاصة بسيرابيس وأثينا وثيوريس Athena - Theoris (ونعلم أن الأخيرة شيد لها نصب تذكارى له أربعة طرز معمارية) ، وأطلقوا أسماء هذه الآلهة على الضواحى التى شيدت فيها تلك المعابد ، وفى ضاحية ثيوريس Theoris كان يوجد معبد لديونيسيوس Dionysus ، وفى الضاحية الجنوبية الشرقية كان يوجد معبد لأبوللون "الإلة العظيم والروح الطيبة" وآخر لنيوترا Neotera (وأعنى أفروديت وهاتور Hathor)، وفى الجهة الجنوبية كان يوجد معبد لديميتر Demeter ، كما أقيمت نصب في ثلاثة أحياء أخرى لكل من زيوس وهيرا وأتارجيتيس Atargatis (وقد شبهت الإلهة السورية عشتار بالربة إيزيس) وبيرسيفون Persephone معا . كما ورد ذكر لوجود معابد لإيزيس وللقياصرة في أماكن أخرى . ومما هو جدير بالملاحظة أنه فى أى مكان كان يظهر فيه كهنة وكاهنات هذه الربة ، كانوا جميعهم يحملون أسماء مصرية .

وعلاوة على المعتقدات المصرية والإغريقية التى كانت موجودة ، أضاف وصول الرومان إلى مصر عنصرا جديدا يتمثل فى ثالوث الكابيتول: (جوبيتر – جونو – مينرفا) وبعض الآلهة الإيطالية الأخرى . وأكثر ما يمكن أن نلاحظه فى ممارسة طقوس العقائد الدينية فى الولاية – بالرغم من أنها كانت طقوسا رسمية أكثر من كونها طقوسا روحية – هو ما كان خاصا بممارسة عبادة الأباطرة الرومان ، حيث إنها لم تقتصر – كما كان الحال فى روما – على عبادة الأموات من الأباطرة فقط ، ولكنها شملت الأباطرة الأحياء أيضا على اعتبار أن القداسة شملتهم أيضًا ، وتلك كانت عادة البلاد فى الأراضى الواقعة خلف الجانب الشرقى من البحر المتوسط ، بل إن هذه

العبادة كثيرا ما شملت أفراد الأسرة الإمبراطورية . ولذلك عندما زار مصر الأمير جرمانيكوس Germanicus ابن شقيق الإمبراطور تيبريوس وابن الإمبراطور بالتبنى فى عام ١٩ م ، اعتبرت زيارته ذات طابع مقدس ، وعلى أى حال فقد رفض جرمانيكوس مغالاتهم فى الترحيب به بطريقة دبلوماسية فى منشوره التالى :

« من جرمانيكوس قيصر بن (تيبريوس) أغسطس ، وحفيد المؤله أغسطس البروقنصل يعلن الآتى : إننى أرحب بالشعور الطيب الذى تبدونه دائما نحوى كلما شاهدتمونى ، غير أننى أستنكر استنكارا تاما مناداتكم إياى بألقاب تثير علىّ البغضاء ، لأنها كألقاب الآلهة، ولا تليق إلا بأبى المنقذ الحقيقى للجنس البشرى بأكمله، ومسدى الخير له ، وبأمه التى هى جدتى ، فكل ما نملك لا يعدو أن يكون أثرا من آثار ألوهيتهما . وإذا لم تمتثلوا لأمرى فسوف ترغمونى على عدم الظهور كثيراً بينكم» [٤].

ولدينا ملف بردى طوله أكثر من مترين ، عبارة عن سجلات لمعبد جوبيتر الكابتوليتى فى الفيوم لمدة ستة أشهر من عام ٢١٥ م ، وفى معبد كبير آلهة الرومان أقيم تمثال للإمبراطور الحاكم "كاراكالا" وفيه كان يتم الاحتفال بالعطلات الرسمية ، وسلسلة من أعياد ميلاد أفراد الأسرة الإمبراطورية ، هذا إلى جانب عبادة التمساح الوطنية . ويكفى أن نذكر هنا فى هذا المقام بعض ما تم تدوينه ليوضح ما جاء فيه :

أول أمشير (٢٦ يناير) : عطلة بمناسبة الاحتفال بالعيد العاشر لتنصيب مولانا الإمبراطور سيفروس أنطونينوس كاراكالا . تزين بالزهور جميع تماثيل الآلهة والدروع وتماثيل الرجال .

١٩ أمشير (١٣ فيراير) : عطلة بمناسبة الاحتفال بتولى الإمبراطور سيفروس المؤله والد مولانا الإمبراطور سيفروس أنطونينوس . تزين كل تماثيل المعبد بالزهور (كما فى الحالة السابقة) .

١٨ برمودة (١٤ مارس) : عطلة بمناسبة الاحتفال بالأعياد فى ذكرى إقامة تمثال لمولانا الإمبراطور سيفروس أنطونينوس . يزين المعبد بعقود الزهور (كما فى الحالة السابقة) .

٥ برمودة (٣١ مارس) : عطلة بمناسبة الاحتفال بانتصار مولانا الإمبراطور سيفروس أنطونينوس . تزين بالزهور كل الدروع وتماثيل الآلهة والرجال فى المعبد .

٩ برمودة (٤ أبريل) : عيد ميلاد مولانا الإمبراطور سيفروس أنطونينوس . يزين كل شيء قائم فى المعبد بالزهور (قائمة بنفقات العطور) .

١٩ برمودة (١٤ أبريل) : عطلة بمناسبة الاحتفال بإطلاق لقب أم الجيوش التى لا تقهر على سيدتنا جوليا دومينا Julia Domna . يزين كل ما هو موجود فى المعبد بالزهور (كما فى الحالة السابقة) .

٢٦ برمودة (٢١ أبريل) : عيد تأسيس روما . يزين كل ما هو موجود فى المعبد بعقود الزهور (كما فى الحالة السابقة) .

(فقد التاريخ) : الاعتراف بفضل جدنا الأكبر (التمساح) الإله سوخوس Souchos العظيم . تزين الدروع وتماثيل الآلهة والرجال الموجودة فى المعبد بعقود الزهور [٥] .

لقد سجلت عطلات الشهور الأخرى فى هذه الوثيقة وفى وثائق أخرى ، وتضمنت أعياد ميلاد جميع الأباطرة ، ومناسبات توليهم الحكم منذ عصر أغسطس ، كما شملت أعياد ميلاد كبار الأباطرة المؤلهين مثل هادريان أنطونيوس (فى ٣٠ نوفمبر) ، وماركيانا Marciana وماتيديا Matidia شقيقة الإمبراطور تراجان وابنة أخته أو أخيه (من ١١ أغسطس إلى ٤ يوليو) ، وجرمانيكوس قيصر (فى ٢٤ مايو) ، ويوليوس قيصر بطبيعة الحال (فى ٢١يوليو) .

وعند وصول الأنباء بتولى العرش إمبراطور جديد ، يقوم جميع سكان الولاية بتأدية يمين الولاء للحاكم الجديد فى احتفال كبير ، ثم يضاف يوم توليه المنصب إلى قائمة عطلات الأباطرة ليتم الاحتفال به سنويا بطريقة لائقة . ولدينا مرسومان أصدرهما والى مصر فى هاتين المناسبتين فى عام ٥٤ م وعام ١٩٣ م :

« لقد ذهب الإمبراطور كلوديوس ليلحق بأسلافه أصحاب الفضل عليه ، وشاءت إرادة الله أن يكون الإمبراطور الجديد الذى يتوقعه العالم أجمع ويتمنى تعيينه ، نابغة العالم ومصدر الخير له هو نيرون قيصر [التاريخ] » .

« من مانتينيوس سابينوس Màntennius Sabinus إلى مديرى إقليمى هيبتانوميا Heptanomia والفيوم .. تحياتى .. أصدرت أوامرى بأن يلحق بخطابى هذا نسخة من المنشور الذى أصدرته إلى مدينة الإسكندرية المجيدة وذلك لكى تحاطوا جميعا علما بإقامة الاحتفال فى الأيام المحددة نفسها . وتصحبكم السلامة [التاريخ] » .

« نسخة من المنشور! إنه يتفق مع رغبة شعب الإسكندرية أن تقيموا الاحتفال بتولى مولانا الإمبراطور بوبيليوس هيلفيوس برتيناكس أغسطس Publius Helvius Pertenax Augustus رئيسا لمجلس السناتو الإمبراطورى وراعيا لأمته ، وأن يقدم له ولابنه ولزوجته فيلافيا تيتيانا أوجستا Flavia Titiana Augusta القرابين والصلوات لدوام حكمه وأسرته ، وأن تقوموا بارتداء عقود الزهور لمدة خمسة عشر يوما ابتداء من اليوم (٦) » .

وإلى جانب الاحتفالات الرسمية المنظمة ، هناك الاحتفالات التقليدية للمعتقدات الشعبية التى تمتد جذور أغلبها فى أعماق أرض الوجود اليومى . وأكثر الملامح التى كانت تميز المعتقدات الشعبية التى لاحظها الأجانب وقابلوها بالسخرية والاستهزاء هى عبادتهم للحيوانات ، وعندما كان أوكتافيوس يتعرف بنفسه على مصر التى فتحها حديثا رفض زيارة (العجل) أبيس وقال إنه " اعتاد أن يقدس آلهة وليس حيوانات " . أما الشاعر جوفينال فقال صارخا بعنف كما نتوقع : " من ذا الذى لا يعلم أى مخلوقات غريبة تقدسها مصر البلهاء ، فهذه المنطقة تعبد التمساح ، وتلك يمتلئ قلبها رهبة من أبى منجل المتخم بالثعابين . هناك يعبدون القطط ، وهنا السمك ، وهناك مدن بأكملها تعبد الكلب" .

وأدرك بعض الكتاب الإغريق أن أصول هذه المعتقدات ربما ترجع إلى الرغبة فى استئناس المخلوقات البرية التى كان لها نفعها ، أو اتقاء شر تلك التى تهدد وجود الحياة فى وادى النيل. وكان يسعد الزوار الإغريق والرومان الذين قدموا إلى مصر لزيارة الأهرامات وقصر التيه Labyrinth أن يقوموا بزيارة قصيرة لكى يشاهدوا الكهنة وهم يطعمون التماسيح فى البحيرة المقدسة لمعبده فى الفيوم، وكان الأمر بالنسبة إليهم شيئا

يجذب السائح . أما بالنسبة إلى سكان إقليم الفيوم فكان يمثل إلههم الحارس سوبك Sobek (وقد ترجمه الإغريق إلى سوخوس Souchos) وكانت كل قرية من قرى الفيوم تقيم له معبدا إذا أمكنها ذلك ، كما قام الناس باستشارة نبوءته المحلية فى أمورهم (٧) .

وتنعكس أوجه الخلاف الجوهرية بين الشعب المصرى وسادة مجتمعهم بصدق فى طريقة إدارتهم للمعاب ، وقد تطورت طبقة الكهنة فى مصر منذ وقت مبكر، وكانت تمثل طائفة خاصة لها مميزاتها ، وهو شىء لم يفعله الإغريق ، وكان منصب الكاهن مفتوحا أمام أى شخص فى كل مدنهم ، كما ذكر الخطيب الأثينى أيسوقراطيس Isocrates فى خطابه إلى نيكوكليس Nikokles ملك قبرص . كذلك لم تجد الحكومة الرومانية أى داع للتدخل فى أمور هذه الجماعة ذات التقاليد الخاصة ، بل على العكس فقد أيدت هذه الجماعة وعضدت سياستها فى التمييز بين الطبقات ، وذكر فى القاعدة رقم ٨٦ من قواعد مدير الحساب الخاص ، وهو رئيس الإدارة التى أشرفت على الشئون الدينية فى مصر : " إنه يسمح للأفراد الذين تم تعيينهم فى المعابد أن يقوموا بخدمة الشعائر فى المعابد الإغريقية " ، وتبعا لذلك فلم يكن هناك هيئة كهنوتية لمعابد الآلهة الإغريقية فى المدن وعواصم الأقاليم المصرية ، بل كان لديهم موظفون وإداريون يتم اختيارهم سنويا من بين مواطنى عواصم الأقاليم للإشراف على الاحتياجات المادية للشعائر والهياكل المقدسة ، ويشبه هؤلاء الموظفون الشمامسة ووكلاء الكنائس اليوم . أما الشخص الذى كان يحمل ذلك اللقب الفخم ، لقب : " رئيس الكهنة" فهو فى واقع الأمر أحد موظفى الإقليم ، وكان بعد انتهاء شغله لوظيفته السنوية يظل يحمل اللقب طوال حياته ، مثله فى ذلك مثل مدير معهد التربية السابق وغيره ، وكان هذا اللقب يمثل وضعا اجتماعيا أكثر من كونه يتضمن مغزى دينيا معينا .

وعلى العكس من ذلك كان لمعابد آلهة المصريين سواء سميت بأسمائها الوطنية أو بأسمائها الإغريقية هيئة وراثية من الكهنة تقوم على خدمتها ، يساعدهم عدد من الشمامسة بدرجات ومراتب متعددة ، وأدى زيادة عدد الاحتفالات الدينية المصرية وتنوعها إلى زيادة عدد العاملين فى هذه المهنة ، وهو أمر لا مفر منه . وقد تعجب

هيرودوت من أن المصريين لا يحتفلون بالعيد مرة واحدة فى العام كما يفعل الإغريق "ولكن كان لديهم احتفالات عديدة" للإله نفسه ، وأمكن من خلال ترميم أحد التقاويم من أوراق البردى العديدة التى عثر عليها فى الفيوم فى قرية سكنوبايو Soknopaiou (جزيرة التمساح) أن كل احتفال فيها كان يتضمن الآتى : عيد ميلاد الإله التمساح ، وعيد زواجه من إيزيس ، والاحتفال بذكرى إقامة هيكله .. إلخ ، وكان كل احتفال من هذه الاحتفالات يستغرق من ٧ إلى ٩ أيام ، ويعنى هذا أن العدد الإجمالى للاحتفالات كان يصل إلى ١٥٠ يوما فى السنة ، ولا يوجد أى مجتمع زراعى مهما بلغت درجة خصوبة أراضيه – التى تعتمد أساسا على نهر النيل – يمكنه أن يستوعب كل هذه العطلات فى دورة عمله الزراعى . إن هذه الاحتفالات كانت بمثابة الواجب الدائم لكهنتها ، وكان يمكن للفلاحين أن يشاركوا فى بعض منها، ويقيم الكهنة بقية الاحتفالات باسمهم(٨).

إن التاريخ المصرى يمثل عبر امتداده آلاف السنين تأرجح السلطة بين الملكية ورجال الكهنة ، وبعد أن أضاف أغسطس مصر إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية قام بوضع سياسة تهدف إلى الحد من ثروة رجال الدين الضخمة ، وكبح جماح نفوذهم السياسى الذى تمكنوا من انتزاعه لأنفسهم خلال فترة ضعف سلطة البطالمة الأواخر ، ونتج عن ذلك تقلص عدد المعابد ، وبتر ممتلكاتها ، وخضعت سجلات رجال الدين الشخصية وحسابات المعابد المالية لفحص دورى من قبل ممثلى مدير الحساب الخاص، ومنع الكهنة منعا باتا من التدخل فى أى نوع من أنواع الأنشطة بخلاف تلك المتعلقة بالخدمة الدينية وإلا عرّضوا أنفسهم لأشد أنواع العقاب (وينطبق هذا الإجراء الأخير على المناصب العليا فى عدة معابد) ، أما المناصب الدنيا فيها فشغلها أفراد عاديون (لبعض الوقت) ولذلك شلت قدرة رجال الدين عن القيام بإشعال الثورات ضد الحكومة الرومانية . وعلى أية حال حدثت ثورات فى بعض الأحيان (مثل تلك التى وقعت أحداثها فى الإسكندرية عام ١٥٣ م ، وكلفت حاكم الولاية حياته) ، وبخلاف هذه الثورة الكبيرة لم تحدث سوى ثورات محلية أمكن القضاء عليها (الفصل العاشر) .

وهكذا يتضح لنا بجلاء ذلك التغيير الذى حدث لهيئة الكهنة من المنشور الذى أصدره الوالى جايوس تورانيوس Gaius Turranius عام ٤ ق . م . وفيه يقول :

« أمرت (المعابد) بأن تسجل أسماء كهنتها الوراثيين وشمامستها وجميع من ينتمون إلى المعابد وأبنائهم ، لكى يتضح ما يقومون به من أعمال ، وسوف أقوم بفحص قائمة العام الحالى ، السادس والعشرين من حكم أغسطس قيصر ، وسوف أقوم بطرد أولئك الذين لا ينتمون إلى طبقة الكهنة الوراثية » (٩) .

وحتى هؤلاء الذين تأكد انتماؤهم إلى طبقة الكهنة الوراثية لم يتم إعفاؤهم من الضرائب أو تأدية الخدمات العامة الإلزامية ، ولكن منح – فيما يبدو – عدد محدود منهم امتيازات . وكان عدد الكهنة يختلف من معبد إلى آخر طبقا لحجم السكان وأهمية الهيكل، ووصل عدد الكهنة فى معبد إله التمساح فى إحدى قرى الفيوم الصغيرة إلى ثلاثة كهنة وشماس واحد ، بينما بلغ العدد الكلى فى قرية تيبتونس Tebtynis ثمانية ، وفى كرانيس وصل عددهم إلى ١٠٤ من رجال الكهنوت .

وتميز رجال الدين المصريون من الناحية المظهرية والمادية عن بقية السكان ، فكانوا ذوى رءوس محلوقة (وبلغت عقوبة من يترك شعره مرسلا ألف دراخمة) ، ولم يكن يسمح لهم بارتداء الملابس الصوفية ، وسمح لهم فقط بارتداء الملابس الكتانية . وكانوا هم الفئة الوحيدة باستثناء اليهود التى يتم ختان أفرادها ويتم الإشراف عليهم من قبل مندوبى الحكومة طبقا للقواعد السابقة وغيرها ، ولدينا مثال واضح على الإجراءات التى كانت تتبع للحصول على الإذن بالختان .

وتتمثل أولى خطوات هذا الإجراء فى ملء طلب يرفق به شهادة مثل تلك التى قدمت إلى مدير الإقليم فى ١٨٧ م وقدمها أربعة من الكهنة المشهورين الذين تم إعفاؤهم من الضرائب فى معبد (قرية) تيبتونس :

« بالإشارة إلى الطلب المقدم إليك من قبل ماريمبميس بن مارسيسوخوس ابن هاريقراطيون ، كاهن المعبد المذكور، يطلب فيه لابنه بانئسيس Penesis ووالدته تسمى ثينباكيبكيس بنت بانئسيس Thenpakebkis d. of Panesis إجراء

عملية الختان ، وعن استعلامكم عما إذا كان هذا الابن ينحدر من نسل الكهنة لإجراء عملية الختان له، نقسم بحظ الإمبراطور السعيد ماركوس أوريليوس كومودوس أنطونينوس أغسطس إنه ينحدر من نسل الكهنة ، وسجلت الأدلة التى تثبت صحة نسبه ، وبناء على ذلك ينبغى إجراء عملية الختان له لأنه بدونها لا يستطيع تولى أى منصب دينى ، أما إذا لم يثبت [صحة ما ذكرناه] فسوف نتحمل تبعات الحنث بقسمنا [التوقيعات] » .

كان المدير يريد أن يتأكد من نقطة معينة وهو أن الصبى ليس ابنا بالتبنى أو لقيطا ؛ لأن القاعدة رقم ٩٢ من قواعد مدير الحساب الخاص حرمت على مثل هؤلاء أن يصبحوا كهنة . وإذا اقتنع مدير الإقليم بصحة تأصيل سلالة الصبى ، يكتب بذلك إلى الكاهن الأكبر لكل مصر وهو أحد مساعدى حاكم الولاية ، الذى يقوم بدوره بالموافقة أو الرفض على الطلب المقدم ، وطبقا لإحدى مفكرات وفد الاستماع الخاصة بالكاهن الأعظم فى عام ١٧١ كانت على النحو التالى :

« بخصوص استعلام القادة ومساعديهم ، وكتبة (وحفظة) السجلات المقدسة عن ما إذا كان لدى الصبى أى تشوه فى جسده فنحن نقر بأنه بدون أى تشوهات جسدية، وبتوقيع أولبيوس سيرنيانوس Ulpius Serenianus الكاهن الأعظم ووزير إدارة المعابد على خطاب المدير ، يسمح للصبى بأن يتم ختانه »(١٠) .

ونعلم أنه فى حالة واحدة على الأقل سمح لصبى لديه علامة مميزة فى جسده بأن تجرى له عملية الختان ، وكان قد ادعى كذبا أن المرشح لا توجد لديه عيوب جسدية ، وفى حالة أخرى لمرشح كان لديه عيب جسدى أقرت لجنة الاستماع أمام الكاهن الأعظم بالاستغناء عنه ، وفيما عدا هاتين الحالتين السابقتين فإن النتائج الإيجابية كانت مشكوك فيها ، وذلك لأن مثل هذه الطلبات كان يقف خلف ستارها نفوذ السياسة أو المال أو كلاهما معا .

وإذا خلا أحد مناصب المعبد لعدم وجود وريث له ، تقوم الدولة ببيعه لأعلى سعر يقدمه المزايدون ، ولا شك فى أن القارئ الحديث سيصدم لهذا الإجراء الذى يمثل انتهاكا لحرمة المعابد بالنسبة لعالم الكنائس . ولكن الموقف كان يختلف بالنسبة إلى مصر وأجزاء أخرى من شرقى البحر المتوسط، حيث كان هذا الإجراء إجراء جوهريا ،

وكانت المناصب الكهنوتية وما يتعلق بها من اختصاصات إضافية لها قيمتها الواضحة التى تترجم ترجمة نقدية وكان فيها روح المزايدة خصوصا بالنسبة إلى المناصب المربحة ، وكان فرض الغرامات المالية على المخالفين ، والتى اتبعت بفرض غرامات مالية على الدعاوى المضادة أمرا مألوفا .

واستمرت إقامة كل من المعابد المصرية والإغريقية على الطراز المعمارى التقليدى الخاص بكل منها وذلك من الناحية المادية ، ولم يخطر ببال الإغريق أن يشيدوها على عكس طُرز بلادهم ، الأم الروحية لهم ، وعلى الرغم من ذلك فقد حدثت بعض التغييرات الفنية فيها نتيجة لاستخدامهم مواد بناء وأساليب محلية ، هذا فيما عدا قليلا من المعابد الإغريقية التى شيدت فى عواصم الأقاليم فى أنحاء الولاية لتكون بمثابة مظهر من مظاهر اعتزازهم بالهللينية . أما الطراز المصرى الذى انتشر فتفاوت فيه حجم المعابد من معبد على شكل منزل صغير ، وهو الشكل الذى عثر عليه فى كثير من القرى ، إلى المبانى الضخمة ذات البوابات المجنحة والتى يجد الفرد فيها عندما يقترب منها على طول الطريق تماثيل على هيئة أبى الهول أو ذات أشكال لحيوانات أخرى ، ونشاهد فى إدفو مدينة أبوللونوبوليس ماجنا Apollonopolis Magna – القديمة أفضل طرز البوابات التى حفظت حتى اليوم ، مع صور للأباطرة الرومان رسمت على جدران المعبد وهم يرتدون ملابس الملوك الفراعنة القدماء نفسها وبأوضاعهم التقليدية نفسها . أما قرية تيبتونس التى كانت تمثل إحدى القرى الكبيرة فلم يتبق شىء من معبدها ، كما لم يُكشف عن طريقها المزين بتماثيل أبى الهول فى حفائر نصف القرن الماضى . وكان يوجد إلى جانب المعابد المصرية الكبرى أماكن خصصت لعبادة الحيوانات المقدسة مثل: أبيس Apis الثور المقدس فى منف ، وسوبك – التمساح فى الفيوم ، وأنوبيس الكلب فى كينوبوليس Kynopolis أسيوط (مدينة الكلب) ، وهكذا كلٌ فى المدينة التى كان يعد الإله الرئيسى فيها) .

ومن ناحية أخرى قُدس نهر النيل ، وكانت عبادته تعد العبادة الأولى فى كل مكان فى الدولة ، فبدون مياهه لا يمكن أن تقوم للحياة قائمة فى مصر . ويمكن أن نقتفى أثر الأناشيد والصلوات التى وضعت له منذ آلاف السنين ، وأقدمها نص هيروغليفى يرجع إلى عام ١٢٠٠ ق.م. وبعد حوالى ألفى عام عثرنا على ترجمتين بيزنطيتين له ،

وأخرى مسيحية أرسلت إلى القديس سنتيوس Senthius ، وعثر على ترجمة سريانية فى إحدى مخطوطات القرن الثانى عشر الميلادى ، وإليك النص الذى كان موجودا خلال العصر الرومانى :

« سيتم الاحتفال ببدء فيضان نيلنا المقدس بإقامة الشعائر لجلب الخير والبركة . لقد وصل الماء ، تحيةً للينابيع عندما ترتفع المياه فى نهر إيزيس سيدة المياه الجارية . أيها النيل صاحب الفيضانات العديدة وصاحب الاسم الكبير ، فلتنبع من مروى Meroë لتصل إلينا سخيا متدفقا ولتنشر الغرين المخصب فى فيضانك ، إنك تستطيع أن تهب الحلاوة لمصر كلها ، وتجعلها خصبة كل عام فى الفصل المناسب . انظروا كيف أن فيضان النهر كالذهب للجميع ولكل شىء. وأنتم أيها المنشدون رددوا له الأناشيد ثلاث مرات فى احتفالكم لتتدفق المياه فى مجاريه.. ارتفع أيها النيل وواصل الارتفاع بنشوة حتى تصل إلى ارتفاع ستة عشر ذراعا [وهو الارتفاع الأمثل لمستوى الفيضان]»(١١).

وكانت الربة إيزيس مانحة الحياة تفوق الجميع مكانة بلا استثناء فى مجمع الآلهة المصرية ، ومن السهل علينا أن نفهم سبب ارتباطها بالنيل ومياهه التى تعد مصدر الحياة . وفى الاحتفال البهيج الذى كان يتم فيه الاحتفال بارتفاع مياه الفيضان السنوى ، كان يتم ملأ قارورة من " المياه الجديدة" وتوضع فى آنية ذهبية ، وترفع إلى أعلى وتقدم إلى إيزيس . وفى أحد الأناشيد التى وضعت لمدحها والثناء عليها تقول كلماته : " لقد امتلأت كل قنوات النيل بفضل قوتك" ، وأيضا : "لقد قمت بدفع المياه وقيادتها فى مجارى النهر الذهبى فى الفصل المناسب ، ودفعت به إلى جميع أراضى مصر من أجل سعادة البشرية" . ويتم الاحتفال بارتفاع النيل فى كل أنحاء الوادى صعودا وهبوطا فى يوم ١٢ بئونة (٦ يونيو فى ذلك الوقت = ١٩ يونيو فى التقويم الجديد) فى احتفال مهيب ، وحفر هذا اليوم فى الضمير الشعبى ، وانتقل بطريق غير محسوس إلى التقويم المسيحى (ثم العربى بعد ذلك) للأعياد ، إذ نسب المسيحيون ارتفاع نهر النيل المبارك الخصب " إلى قوة المسيح" وجعلوا من رئيس الحواريين " ميخائيل " قديسه الحارس . ولا يزال يحتفل حتى الآن بفيضان النيل فى الكنيسة القبطية يوم ١٩ يونيو، وهو يوم الاحتفال بعيد القديس ميخائيل (١٢) .

لم تكن كل العبادات تحتاج إلى معابد وكهنة وكان كثير منها يمارس على انفراد فى المنازل ، وفى كواتها ، أو فى معابد صغيرة فى الطرقات ، وفى الخارج فى الحقول. ولا شك فى أنه كان يوجد فى مصر فى العصر الرومانى أماكن عبادة صغيرة تشبه تلك الموجودة فى المدن الكاثوليكية اليوم .

وصبغت العقائد المصرية بالسرية والروحانية سواء أكانت تمارس فى داخل المنزل أم فى خارجه ، على الملأ أو على انفراد ، لدرجة جعلت العالم القديم ينظر إلى مصر باعتبارها منبع وأصل fons et origo السحر الأصلى والغيبيات وطرق الوصول إلى أسرارها ، ويرى البعض أن ذلك الحشد الهائل من فنون السحر وإبداعاته فى العصور الوسطى والتى تعرف باسم الهرمزيات Hermetica إنما هى فى أساسها تلك التعاليم التى تنسب إلى الإله المصرى "توت" الذى شُبِّه بالإله الإغريقى هرميس. وتمت ممارسة السحر بطرق عديدة فى مصر ، مثل الصلوات ، والأعمال السحرية ، أو استدعاء الإله "بس" وطلب المساعدة منه ، ويمثل الإله "بس" أحد صغار المعبودات فى مصر، إذ كان قزما قبيح الشكل ، صور على الأوانى الفخارية ببطن منتفخة ، ولم يُقَم له معبد ، ولكنهم تصوروا وجوده فى كل الأوقات. واعتقد المصريون اعتقادا راسخا فى الأحجبة والتمائم ، وعثر على كثير منها مدونا على أوراق البردى ، كان يتم ربطها بخيط رفيع أو توضع فى غلاف ليقوم الفرد بارتدائها ، ونقشت على مختلف المواد التى يمكن الكتابة عليها بما فيها الأحجار الكريمة ونصف الكريمة .

وعثر على تمائم ذات رموز مصرية فى جميع أنحاء عالم البحر المتوسط، مما يدل دلالة بالغة على الانتشار العالمى للمعتقدات المصرية عن الجن والشياطين ، ولا يخفى على أحد أن استخدام التمائم والتعاويذ كان وسيلة من الوسائل التى استخدمها الوثنيون ليتمكنوا من أن يعيشوا فى الوسط المسيحى . وهناك نموذج مهم منها يرجع إلى القرن السادس الميلادى ولا نستطيع لطوله أن نقدمه كاملا ، ولذلك نكتفى باقتباس بعض من فقراته على النحو التالى :

«إننا نهيب بالسيد المسيح ، ووالدته ، وجميع القديسين، أن يحافظوا على جواتينا التى تحملها فى أحشائها أنستاسيا من جميع الأرواح الشريرة ، وأن تحفظها من كل

أنواع الحمى ، وكل أنواع نزلات البرد اليومية ، والثلاثية ، والرباعية ، ومن كل شر» [١٣] .

ومن بين مواضيع السحر تلك الخاصة بصيغ وتعويذات الحب والعاطفة ، وهو أمر شائع في كل الحضارات ، ويوجه دائمًا من الذكور إلى النساء اللاتي يرغبن فيهن . وهناك أيضًا تعاويذ سحرية في مجالات أخرى عثر عليها بأعداد كبيرة على لفافات بردية ، بعضها طويل ، يتضمن طبقا لما هو ظاهر منها سيلا بلا نهاية من الوصايا والأدعية ، وهناك نصوص قائمة بذاتها سجلت على البردي كما دونت على صفائح الرصاص الرقيقة التي كان يفضل استخدامها في مثل هذه الأمور . وعثر على تعويذة حب مدونة على البردي وملفوفة حول خصلة من شعر المحبوب تم الحصول عليها بطريقة شريفة أو غير شريفة من رأس المحبوب . أما الطريقة الشائعة فكانت تتم بربط قطعة من الصلصال تمثل وجه الحبيب حول البردية التي كتبت عليها التعويذة من أجله، واستخدمت طريقة أخرى تتمثل في وضع تعويذة على مومياء أو في المقابر؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن قوة السحر سوف تجبر روح الميت على أن تؤدي ما يطلبه منها سحر الساحر [١٤] .

وامتلأت ملفات كاملة من أوراق البردي – حتى بعد انتصار المسيحية بفترة طويلة – بكل أنواع التعاليم التي يقوم الفرد بأدائها لكي يحصل على نتائج سحرية . وسنقدم الآن نموذجين منها تم الحصول عليهما من أحد الملفات الموجودة في المكتبة البريطانية :

«ينبغي أن تأخذ اللقمة أو الرشفة الأولى في أثناء تناول الطعام أو الشراب وأن تضعها في إناء صغير في المحراب ، بينما أنت تقول يا فلان الفلاني هلم إلى مساعدتي لتنفيذ تعليمات الإله ، ثم تذكر اسمك وتدعو إياوه وسبؤث وزاباارباثيو وأدوناي Iao , Sabaoth, Zabarbathiao, Adonai أن يغرسوا الحب في قلب فلانة الفلانية تجاه فلان الفلاني ، عاطفة متأججة لا تنطفئ أبدا . وهناك أسلوب آخر وهو أن تدعو الإله العظيم الجبار بأن يجعل فلانة الفلانية تقع في حبك من أول نظرة وباستسلام تام وألا تستطيع المقاومة . وبعد ذلك عندما تراها تأخذ ثلاثة أنفاس عميقة

بينما تنظر إليها بإمعان، وفى هذه اللحظة سوف تبتسم لك، وهى علامة على أنها وقعت فى غرامك» [١٥] .

وهناك تعويذة أخرى لتقييد الأرواح الشريرة ، وتعمل ضد جميع الأعداء واللائمين واللصوص والمخاوف والهلوسة فى الأحلام : «خذ طبقًا من الذهب أو الفضة وارسم عليه هذه الشخصيات والكلمات السحرية وبذلك يصبح لها القدرة على تنفيذ رغباتك واحملها معك بقلب صاف، والعلامة هى :

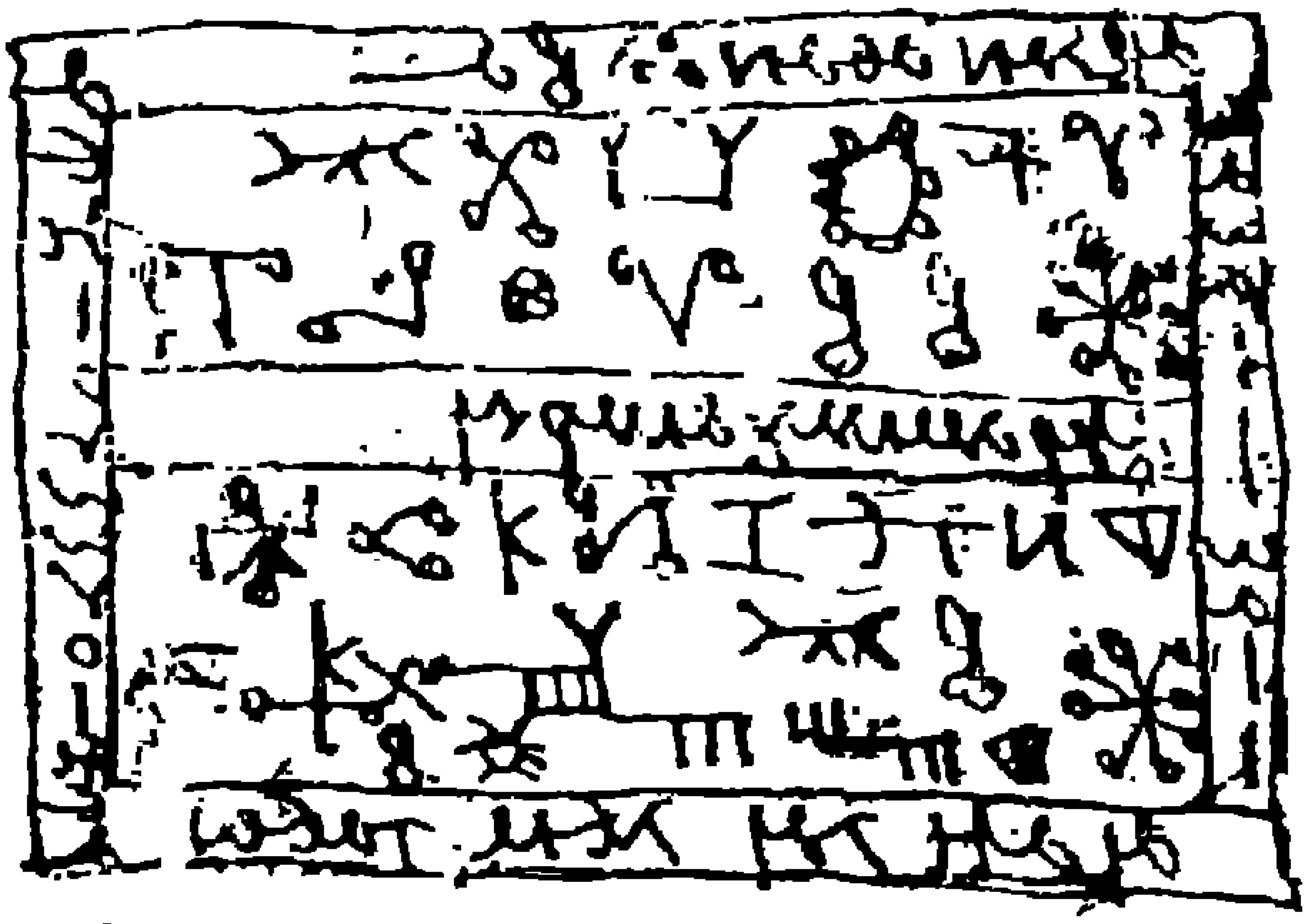

اعتقد سكان مصر بصفة عامة – وفى بعض الأحيان بصورة أكثر عمقا ، مثلهم فى ذلك مثل بقية شعوب العالم القديم – أنهم إذا تقربوا إلى الآلهة بطريقة صحيحة يمكن لهذه الآلهة أن تتكهن بالمستقبل . وكان كل إله فى نظرهم خالدا ، وبناء على ذلك فهو أزلى ، ومن أجل ذلك فلديه قدرة على التنبؤ . وتمتعت بعض الآلهة بشهرة أكثر من غيرهم فى هذا المجال ، كما كان لديهم أنماط لنبوءاتهم . وقد ذكر ديون فم الذهب Dio chrysostom مخاطبا شعب الإسكندرية فى أوائل القرن الثانى الميلادى بأن الإله سيرابيس يتمتع بخاصية مميزة ، فهو يمارس قوته فى التنبؤات والأحلام كل يوم. كذلك اشتهرت نبوءة أخرى وهى نبوءة الإله آمون فى واحة سيوة ، واكتسبت هذه النبوءة شهرة غير محدودة عندما عرج عليها الإسكندر وزارها فى صحراء مصر الشرقية ليسألها عن مستقبله ، وتنبأت له باكتساح الإمبراطورية الفارسية . ثم امتدت شهرة هذه النبوءة إلى الآفاق العالمية فى أثناء الحكم الرومانى [١٦] .

انتشرت شعبية النبوءات فى كل مكان فى أثناء القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد، وترجع جذور هذا الانتشار إلى أن معظم المعتقدات الدينية فى ذلك الوقت مالت إلى زيادة إجراءاتها الشكلية ، تلك الإجراءات التى كان يجد الأفراد فيها بهجة ووسيلة من وسائل التسلية ، ولكنها لم تكن تشبع حاجاتهم الروحية .

وكنوع من أنواع التعويض الذى اشترك فيه الأغنياء والفقراء على قدم المساواة ، بل ربما الأباطرة أيضًا مثلهم فى ذلك مثل أصغر المزارعين ، بدأوا يجدون راحة فى إضفاء الروحانية على عديد من العبادات التى كانت خالية من الطقوس الروحية . والدليل على ذلك ما لاحظناه فى مصر من تقلص عدد كهنة المعابد ، التى كانت تعتمد فى مواردها على ما تقدمه لها الجماهير بصفة أساسية ، لذلك أصبحت مناصبها أقل جاذبية ، وتحولت ممارسة الشعائر الدينية من الممارسة الجماعية إلى الممارسة الفردية. هذا على الرغم من أنه إذا استطلعنا بعض الوثائق نلاحظ أن بعضها كان يتمتع بشعبية كبيرة ، ولكن حتى تلك العبادات كانت تحتاج إلى الطوائف الدينية المدربة لكشف جوانبها التنبؤية ، ومن هنا جاءت شعبية التنبؤات التى كان يمكن فيها للرجل العادى أن يتحدث بنفسه ومباشرة مع الإله الذى يختاره ، ويتعامل معه وجها لوجه . وقد كتبت إحدى السيدات إلى ابنها قائلة : " هل تظن أننى قصرت فى حقك ، إننى أقوم باستشارة النبوءة كل عشرة أيام من أجلك بصفة منتظمة " . ويبدو أن السؤال المطروح كان يتمثل فى : " هل يظل فى مصر أم يتحرك للذهاب إلى روما لإنجاز بعض الأعمال هناك" ؟ وتقدم رجل آخر بسؤال إلى إله التمساح يستوضحه : " هل سيتم شفاؤه من المرض الذى ألم به ؟ " ، وسؤال آخر تقدمت به نيكى Nike إلى " الإله زيوس وإله الشمس والإله سيرابيس العظيم فى معبدهم المشترك " تستفسر منهم" عما إذا كان من الأفضل لها أن تشترى العبد سيرابيون الذى تمتلكه تاسارابيون Tasarapion والمدعو جايون Gaion " . وقام رجل آخر يدعى ميناندر بسؤال الآلهة السابقة نفسها : " ما إذا كان يصرح له بالزواج" . هذه هى نماذج الأسئلة قبل أن يتم عملية تقنينها وتصنيفها لكى تتلاءم مع تضخم أعداد الأسئلة المطروحة لتسهل إجراءاتها، وقد تم صياغة كل سؤال منها بطريقة عامة ، وتم ترقيم كل سؤال برقم ، حتى يتمكن كل فرد يتقدم ليسأل سؤالا من أن يشير إلى الرقم فى قائمة الأسئلة :

٧٢ - هل سوف أحصل على الأجر ؟

٧٣ - هل سأمكث فى المكان الذى سأذهب إليه ؟

٧٤ - هل سيتم بيعى ؟

٧٥ – هل سأحصل على مساعدة من صديقى ؟

٧٦ – هل سوف يسمح لى بأن أتعاقد مع شخص آخر ؟

٧٧ – هل سوف أتصالح مع ابنى ؟

٧٨ – هل سوف أحصل على إجازة ؟

٧٩ – هل سوف أحصل على المال ؟

٨٠ – هل الشخص الغائب مازال على قيد الحياة ؟

٨١ – هل سأستفيد من الصفقة ؟

٨٢ – هل سيتم مصادرة ممتلكاتى ؟

٨٣ – هل سأجد طريقة للبيع ؟

٨٤ – هل سيمكننى أن أنزع ما يدور فى رأسى ؟

٨٥ – هل سيكتب لى النجاح ؟

٨٦ – هل سأصبح طريداً ؟

٨٧ – هل سأذهب فى سفارة ؟

٨٨ – هل سأصبح عضوا بالمجلس ؟

٨٩ – هل سيصبح فرارى بغير جدوى ؟

٩٠ – هل سيتم طلاقى من زوجتى ؟

٩١ – هل تناولت سما ؟

٩٢ – هل سأسترد ممتلكاتى ؟

واعتقدوا كذلك فى الأحلام التى كانت – مثلها مثل التنبؤات – تعد ذات دلالة دينية وطبيعة تنبؤية ، وأدت الحاجة إلى تفسير محتوياتها المجازية إلى ظهور وازدهار مهنة مفسرى الأحلام الذين تسلحوا بالتوسع فى جمع المعلومات التاريخية ، وكانوا يقومون بشرح معانيها الخفية سواء فى الأحلام اليومية ، والرؤى الليلية ، والتهيؤات العصبية ، والكوابيس ، نظير رسوم معينة . وهناك نموذج لحلم كان يمكن للفرد أن يتعامل فيه مباشرة مع الإله مثله فى ذلك مثل النبوءة (١٧).

واعتقد سكان مصر – مثلهم فى ذلك مثل بقية شعوب العالم القديم – بقدرة آلهة معينة على شفاء الأمراض، وأفضل وسيلة للتوسل إلى هذه الآلهة كانت تتم بقضاء المريض ليلة فى محراب المعبد ، يصلى فيها للإله ويتوسل إليه أن يعالجه فى الحلم . وكان مركز إله الطب أسكلبيوس **Asklepios** فى منطقة إبيداوروس **Epidauros** أكثر المناطق شهرة فى بلاد اليونان ، وكان يأتى إليه المريدون من أماكن خارجية مختلفة . وشبه الإغريق فى مصر وأحفادهم الإله القومى إيمحتب بالإله الإغريقى أسكلبيوس **Asklepios** وحرفوا اسمه إلى إموتيس **Imouthes** ، وأصبح معبده الواقع على حافة الصحراء بالقرب من ممفيس مصدرا لإشاعة المعجزات الهائلة التى قام بها هذا الإله ، التى وجد بعضها مدونا على بعض أوراق بردى البهنسا (١٨) .

وهناك ظاهرة أخرى نمت خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد وتتمثل فى عقيدة التوحيد، وسبق وصف المجتمع اليهودى فى الفصل الثانى من هذا المؤلف . حقيقة لقد لعب اليهود دورا مهما فى نشاط مصر الاقتصادى وخصوصا فى مدينة الإسكندرية ، ولكن لم تهد عقيدتهم فى التوحيد أو تغرِ إلا عددا قليلاً من الذين تحولوا إليها . وعلى أية حال ظهرت الآن طائفة فى يهودية من فلسطين سيئول إليها حكم جميع أنحاء الإمبراطورية، ثم بالتالى الجانب الغربى من العالم فى خلال عدة مئات من السنين .

وصلت المسيحية منذ فترة مبكرة إلى مصر أولا إلى اليهود فى الإسكندرية ، وهو المجتمع الذى كان قريبا إلى فلسطين من الناحية الجغرافية ومن ناحية التعاملات . ثم انتشرت المسيحية قبل مضى فترة طويلة بين المجتمعات غير اليهودية فى الداخل ، ومما ساعد على سرعة انتشارها أوجه التشابه بينها فى بعض العناصر مع العقيدة

المصرية ، مثل عقيدة البعث بعد الموت التى كانت مرتبطة بالاحتفالات السنوية المثيرة للربة إيزيس عندما كانت تقوم بتجميع أوصال زوجها أوزيريس (وهى الدورة السنوية للموت، ثم معجزة عودة الميلاد للنبات التى كان لها نظيرها فى أساطير الشعوب البدائية) .

يعد مارك Mark – مرقس – الذى قام بتجميع الإنجيل فى عام ٦٥ م هو المؤسس التقليدى لكنيسة الإسكندرية ، ويأتى على رأس القائمة الطويلة لبطاركتها كما يسميها أساقفتها ، وكان يوجد فى مصر عند منتصف القرن الثالث أسقفيتان أخريان على الأقل فى اثنتين من عواصم الأقاليم المصرية . وعند نهاية هذا القرن وجدت كنيستان فى البهنسا من بين أماكن العبادة فيها .

ويرجع تاريخ أقدم شذرة بردية من الإنجيل والكتب المسيحية الأخرى إلى حوالى عام ١٠٠ م ، وليس أبعد من ذلك التاريخ ، وأقدم الكتابات التى عثر عليها والتى تعد كتابة مسيحية واضحة هى عبارة عن خطاب (يوجد الآن فى مكتبة برمنجهام Birmingham) ويتفق العلماء على أنه يرجع إلى أوائل القرن الثالث الميلادى . وهذا الخطاب يعكس المذهب الغنوصى Gnostic الذى قدر له الانتشار بين المجتمعات المسيحية المبكرة ؛ وأهم ما يلاحظ على هذه الجماعات هو تخفيض الثالوث إلى الثنائية بحذف الابن (هذا على الرغم من أن قلة من الباحثين هم الذين يرون أن كلمة الحق Truth المذكورة فيها تشير إلى المسيح مجازا) (١٩) .

وكانت نظرة العالم الخارجى إلى المسيحيين – وهم الذين لم يكن هناك ثمة اهتمام بهم لمدة بلغت قرنا من الزمان وأكثر – أنهم غير مختلفين عن اليهود ، بل هم عبارة عن طائفة من المجاذيب من ذلك الشعب الغريب المنشق . وكتب المؤرخ سويتونيوس Suetonius بعد حوالى مائة عام من صلب المسيح فى تراجمه " أن الإمبراطور كلوديوس Claudius قام فى عام ٤٩ بطرد اليهود من روما (٢٠) بسبب المتاعب التى أثاروها نتيجة لتحريض كريستوس لهم Chrestus " ، وهناك حقائق تكشفها كتابة حروف اسم كريستوس، فالمعروف أن كلمة كريستوس Chrestus فى اللغة اليونانية تعنى الممسوح بالزيت ، وانتقل معناها المرتبط بالمسيح فى أذهان الوثنيين وحتى المثقفين الرومان من أمثال

سويتونيوس على أنها خاصة بالقائد الذى يحمل الاسم الإغريقى الشائع كريستوس والذى يخضع اليهود لأوامره، وافترض أغلب المعاصرين مما سمعوه أو رأوه من المجتمعات المسيحية الأولى أن السبب فى الربط بينهما يرجع إلى ممارسة نوع من أنواع الشعوذة. وبالإضافة إلى ذلك فإن نصوص السحر تقدم لنا بعض الطقوس التى تتطابق مع الطقوس والأفكار واللغة المسيحية ومن بينها رطانة الحديث Speaking with tongues . وفى خلال القرنين التاليين ، عندما كانت أعداد المسيحيين تتزايد فى سرعة كبيرة ، وجدت فيهم مجتمعات كثيرة من العالم الرومانى ضحايا مناسبين لإلقاء اللوم عليهم لكل أنواع المشاكل والأحداث التى مرت بهم . وحتى هؤلاء الذين وجهت الاتهامات إليهم بأنهم هم الذين دفعوا الحكام أو الأباطرة إلى أن ينزلوا العقوبات بالمسيحيين كانت أصولهم ترجع إلى المناطق المحلية وليس إلى الحكومة الرومانية، ولم نسمع خلال هذه الفترة عن اضطهاد المسيحية المحلى فى مصر . وحتى إذا وجدت فقد كانت تمثل حالات نادرة ، مما يدل على مواءمتها للاتجاه العام للسكان من ناحية العقيدة الدينية (٢١) .

لم تكن الأجهزة الحكومية فى مصر تستطيع أن تتوانى بطبيعة الحال عن تنفيذ أوامر الاضطهاد إذا صدرت إليها هذه الأوامر من قبل الإمبراطور ، ولكن لا يوجد لدينا أى دليل على أى قانون إمبراطورى أو منشور عام صدر ضد المسيحية قبل عام ٢٤٩ م. وقد غض العلماء المحدثون اليوم النظر عن ذلك الطابع الروائى فى سجلات الأدب الوطنى الذى يصور شدة الانتقام والاستشهاد بين المسيحيين فى أثناء حكم الأباطرة الأوائل ، وعلى وجه التحديد فى أثناء حكم أكثر الأباطرة تدينا واعتدالا وإنصافا ، وهم أباطرة آل سيفروس فى الثلث الأول من القرن الثالث الميلادى . وظهر الاتجاه نحو مقاومة المسيحية فى الحكومة الرومانية عندما كان القرن الثالث الميلادى يقترب من نقطة انتصافه ، ولكن هذا الاتجاه لم يتحرك دائمًا بسبب إصرار أصحاب الديانة الجديدة بعناد على عدم الاعتراف بألوهية حكامهم، ولكن نتيجة لانتشار الخيانة، التى يبدو أنها ظهرت للأباطرة فى القوات المسلحة التى كان يتم فيها ارتداد الضباط والرجال عن الوثنية . ويؤرخ بداية الاضطهاد بذلك الأمر الإمبراطورى الذى صدر عام ٢٤٩م ، وسبق ذلك تلك القاعدة المختصرة التى وضعها الإمبراطور ديكيوس Decius

التى طالبت كل شخص – رجلا كان أو امرأة ، صغيرا كان أو كبيراً – بأن يشارك فى الطقوس الوثنية فى حضور اللجنة الخاصة التى خصصت لذلك فى كل منطقة ، والتى كانت تشهد على رضوخه لهذا الأمر ، وهؤلاء الذين كانوا يرفضون الإذعان لهذا الأمر كان يتم معاقبتهم لأنهم يكشفون عن مسيحيتهم .

أما هؤلاء الذين كانوا يرضخون فيتم إعطاؤهم شهادات بذلك، وعثر على عديد منها فى مصر ، وفى مصر وحدها ، ودونت جميعها بخط رفيع على شريحة رفيعة من البردى، ولا يدهشنا ذلك لأن صاحبها كان من المفروض عليه أن يحملها معه ويبرزها عند طلب السلطات مشاهدتها . وكان يتم صياغة هذه الشهادات وفقًا للنموذج التالى مع بعض التغييرات الطفيفة :

« إلى المشـــرفين على القرابين فى قرية ثيادلفيا Theadelphia من أوريلـــيا بيلاس Aurelia Belloas بنت بيتريس Peteres وأختها كابينيس Capinis لقد قمنا بتقديم القرابين إلى الآلهة . الآن وفى حضورك وطبقًا للأمر فإننى أقوم بسكب القربان وتقديم الأضحية وأتذوق ما قدم من قرابين لذلك فإننى أرجو تسجيل ذلك لى [خط يد ثان] نـشـــهـد نحـــن أوريـــليـوس ســيرنسوس Aurelius Serenus وأوريليـــوس هـيرماس Aurelieus Hermas بأننا شاهدناك وأنت تقومين بتقديم القرابين [التاريخ ٢١ يونيـــو سنة ٢٥٠م] » (٢٢) .

ونتج عن مطاردة ديكيوس للمسيحيين موت العديد منهم ، وكان من بينهم عالم اللاهوت والمواطن السكندرى أوريجين Origen .

واستمر الاضطهاد عامًا آخر حتى وفاة ديكيوس فى إحدى المعارك العسكرية ضد القوط فى أثناء غزوهم لحدود الإمبراطورية ، وانتهى الاضطهاد بعد حقبة زمنية أخرى على يد الإمبراطور جاللينوس Gallinas الذى كان مشغولا بمنافسيه على العرش من جهة وبالبرابرة على حدود الإمبراطورية من جهة أخرى . وعادت مصر مرة أخرى إلى ممارسة معتقداتها الدينية المتعددة ، وأصبح المسيحيون أحرارا فى تعقب الذين اضطهدوهم فى الداخل .. وكان النزاع يبدأ بالخلاف العقائدى فى الحوار ، الذى كان يتحول فى بعض الأحيان من المناقشة إلى الهجوم الدموى فيما بعد (٢٣) .

هناك موضوع آخر انفرد البردى بتقديمه لنا ، ويتمثل فى الطريقة التى كانت تقام ا الاحتفالات . وهو يوضح لنا كما كنا نتوقع وجود عادات مختلفة ، ودرجات متفاوتة , المشاركة. فكانت أجهزة الحكومة تقوم – كما سبق أن أوردنا سالفا فى هذا الكتاب – صدار الأوامر والإشراف على الاحتفالات الخاصة بمناسبات الدولة مثل: أعياد ميلاد باطرة ، وذكرى توليهم العرش ، وذكرى الانتصارات ، وذلك بإقامة احتفالات كبيرة اسبة فى الولاية، وهناك ملف بردى يرجع تاريخه إلى عام ٢٣٢ م تم فيه سجيل ما حدث فى أثناء الاحتفال برأس السنة المصرية (فى الأول من شهر توت افق ٢٩ أغسطس) حيث قام مدير الإقليم بتنصيب مدير معهد التربية ، وقام إشراف على تقديم الأضاحى فى كل من معهد التربية ومعبد القياصرة، وانتقل بعده , العاصمة للتجول فى أنحاء الإقليم حيث حضر الاحتفالات الدينية المقدسة (٢٤) .

واصل الإغريق فى المدن إقامة الاحتفالات بالمباريات الرياضية والأدبية والموسيقية تمثيلية، ويتمثل وجه الاختلاف الأساسى بين هذه الاحتفالات وتلك التى كانت تجرى , العصر الكلاسيكى أن أبطال الجرى والملاكمة والمصارعة وغيرهم من المتسابقين فى اع الرياضات الأخرى أصبحوا اليوم محترفين ، وكانوا يتنقلون من مكان إلى آخر خول المنافسات الرياضية ، وكان الفائز منهم يحصل على شهرة عالمية وجائزة نقدية، كانة اجتماعية مميزة حيث يحظى بالحصول على شرف المواطنة ويتم إعفاؤه من الضرائب .

وقلدت المدن فى احتفالاتها عواصم المدن الهللينية فى ذلك مثل باقى مظاهر اتها الأخرى التقاليد التى كانت تسير عليها فى هذا المضمار، وسبق أن ذكرنا فى ا الكتاب ص ٦٩ أن أحد مواطنى مدينة البهنسا تبرع بمبلغ نقدى كبير لكى تقام اريات الشبيبة على نمط تلك التى كانت تجرى فى مدينة أنتينوبوليس، ونجد فى قائمة صة بأسماء أفراد من البهنسا ترجع للفترة بين ٢٦٨ و ٢٦١م أن جميع الأسماء هى ريق وإغريق رومان ما عدا واحدا أو اثنين وهى تشمل : الشعراء ، ونافخى الأبواق، عبى الدروع الذين يبدو أنهم كانوا من مدينة نقراطيس ، وبلغ سن اثنين من الفائزين ألعاب الدروع خمسة عشر عاما ، وستة عشر عاما . وقد بلغ عمر أحد الشعراء سة عشر عاما، ومن سوء الحظ أنه لا يوجد لدينا نموذج من عمله الأدبى، والأمر ك بالنسبة لذلك الشاعر الذى كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاما وأشير إليه فى

القائمة نفسها بأنه "يدرس الأدب". ويبدو أن مثل هذه المبارْيات كانت تقام كمرحلة لاستعراض مواهب شباب مواطنى عواصم الأقاليم أمام المشاهدين وأمام آبائهم الفخورين بهم. وعُثر فى البهنسا على سجل لنفقات المدينة على عدد من احتفالاتها، وأنفق فى الاحتفالات الخاصة بالإله ديونيسيوس (أغلب الظن) أموالا على لاعبى الدروع، ونافخى الأبواق وعلى الكوميديا (ويبدو أن المقصود بهذه الكلمة هو قيام أحد الرجال بالغناء والرقص فى آن واحد، وأنه كان يقوم بكتابة النص بنفسه)، ثم جاء ذكر أشخاص آخرين، بالإضافة إلى ثمن عجل صغير قدم للتضحية به وسجل دفع مبلغ من المال لراقص جيد، واثنين من الرياضيين فى كل من ألعاب الملاكمة والمصارعة (إلخ)، والذى يتولى القيام بعمل المساج (التدليك)، وأحد الكوميديين، ولاعبى الدروع، ومصممى الرقصات، وأحد قراء (النصوص الدينية) وشاعر للربابة، كما تم دفع أموال لطعام الكلب (الإله أنوبيس Anubis) وتم دفع مبلغ آخر من المال لعدة أشياء لم يرد ذكرها، ودفع مبلغ ٤٩٦ دراخمة للتمثيل الصامت، و٤٤٨ دراخمة لشاعر ربابة، ومبلغ يتراوح بين مائة ومائتى دراخمة لأحد الراقصين، ومبلغ من المال فقد رقمه للموسيقيين، و٧٦ دراخمة للرجال الذين يحملون تمثال إله النيل المقدس وتماثيل الآلهة الأخرى فى الاحتفالات، و٨ دراخمات للاعب دروع، و٤ دراخمات لنافخ البوق، وهناك مبالغ أخرى تم إنفاقها ولكننا لا نستطيع تحديد معناها. وحرص سكان عواصم الأقاليم على إصلاح المسرح مرارا كمظهر من مظاهر حرصهم على التقاليد الهللينية، حيث كانوا يشاهدون عليه المسرحيات الإغريقية القديمة (كانت المسرحيات التراجيدية المفضلة لديهم هى مسرحيات يوريبيديس Euripides، وكانوا يفضلون مسرحيات ميناندر فى مجال الكوميديا). وتمتعوا أيضا بمشاهدة مؤلفات الفنانين المعاصرين، ولدينا مثال حى على ذلك يبدو من إحدى المنشآت التى يرجح أنها صالة للموسيقى أو صالة للرقص والتمثيل الارتجالى الضاحك الذى كان يتم لمدة عشر دقائق أو أقل. ولا نستطيع أن نحكم على مدى البذخ فى الإنفاق على الإنتاج المسرحى، ولكن إحدى الشذرات البردية تسجل لنا مبلغ ٦٠٠٠ دراخمة إجمالى نفقات أحد المسارح عن مدة شهرين، وهو مبلغ كان يكفى لشراء عدد كاف من التالنتات(*) حتى فى هذه الفترة من فترات التضخم الاقتصادى فى القرن الثالث(٢٥).

(*) التالنت: عملة رومانية ذهبية. (المترجمة)

وكان يتم اختيار نجوم الرياضة الجوالين أعضاءً فى مجمع أبطال الرياضة الفائزين والمتوجين والجوالين تحت رعاية الإله هيراكليس ، وهى هيئة إمبراطورية واسعة الانتشار مركزها الرئيسى روما، ويتم اختيار أفضل الشعراء والممثلين والموسيقيين لعضوية مجمع الفنانين الفائزين المتوجين فى جميع أنحاء العالم الرومانى تحت رعاية الإله ديونيسيوس. ولدينا فرصة أكبر للحديث عن هاتين المؤسستين فى الفصل السابع من هذا الكتاب .

وكثيراً ما احتفل بالأعياد فى مصر – كما سبق القول – فى أثناء العام ، واستغرقت الاحتفالات عدة أيام فى كل عيد منها. وكانت الأعياد والعطلات الكبيرة هى فقط التى يتم الاحتفال بها فى مهرجانات كبيرة تجرى فيها المباريات، كتلك التى سبق تقديم تفصيل عنها ، أما فى المناسبات الأقل أهمية فيقام فيها احتفالات موسيقية وراقصة، إلى جانب ما كان الأغنياء يقيمونه من احتفالات خاصة بهم . ويمكن أن نصفها من خلال النموذج التالى :

«من أوريليوس أجاثوس Aurelii Agathos مدير معهد التربية ومدير مجلس الشورى الحالى ، والرقيب هيرمانو بامون Hermanobammon ، وديموس Didymos رئيس الكهنة ، وكوبرياس Koprias المشرف على التموين فى إقليم الفيوم ، إلى أوريليوس يورباس Aurelii Euripas الممثل وإلى سراباس Sarapas شاعر الربابة أطيب تحياتنا... نرجو حضوركما على وجه السرعة كعادتكما فى مساعدتنا لتشاركونا فى الاحتفالات التى سوف تقام للاحتفال بعيد أجدادنا بمناسبة ذكرى الإله كرونوس Kro-nos العظيم، وسوف يبدأ الاحتفال بها منذ الغد الموافق اليوم العاشر طبقًا للتقويم العادى للأيام. وسوف تحصلان على أجوركما المعتادة بالإضافة إلى الهدايا. [التوقيعات] » (٢٦) .

كانت مظاهر الحفاوة فى الاحتفالات كبيرة ولافتة للأنظار – من الناحية الشكلية على الأقل – وكانت تتناسب مع طقوس المناسبات الدينية التى يتم الاحتفال بها. أما طقوس إقامة الشعائر الوطنية فقد كانت تتم وفقا للعادات المتبعة من حيث الغناء والترانيم وموكب التماثيل المقدمة وإطلاق البخور والعطور ، وتقديم الكعك والعسل

والنبيد والمأكولات الأخرى (التى كان يلتهمها رجال المعبد فيما بعد ، على اعتبار أنها من عائدات مناصبهم). وفيما يلى قائمة بأسماء الأشياء التى تم تجهيزها فى اثنتين من هذه المناسبات: الأولى تم تسليمها لمدير الإقليم ، والثانية سلمت للحامية الرومانية المحلية، ومنها يتضح مدى إشراف الحكومة الذى وصل فى تغلغله إلى مثل تلك التفصيلات :

القائمة الأولى

الأشياء التى سوف تقدم على شرف إله النيل المقدس :

٣٠ بئونة (٢٤ يونيو) : عجل صغير ، (٢) جرة من النبيذ الحلو ،

(١٦) من رقائق الفطائر (رقاق)، و (١٦) باقة من الزهور ،

(١٦) قمحا من الأناناس، و (١٦) كعكة، و (١٦) فرعا من سعف النخيل الأخضر،

(١٦) عوداً من البوص الأخضر ، وزيت، وعسل نحل ، ولبن ، وكل أنواع الطيوب فيما عدا اللبان الذكر (*) .

القائمة الثانية

وهى التى جرت العادة على تقديمها فى قرابين شهر هاتور: (٤) طيور، وخنزير، و(٨) بيضات، و(١٨) قمحا من الأناناس، و (٢) جرة من النبيذ ، ومقادير قليلة من العسل واللبن وزيت الزيتون ، و(٨) باقات من الزهور .

كان كل صنف من الأصناف السابق ذكرها فى القائمتين يحمله أحد الأشخاص ، وحتى القرى الصغيرة كانت تشارك فى مثل تلك الإجراءات بحوالى مائة شخص من الذين كانوا يسيرون فى القرية ويطالبون أهلها من مشاهديهم بالمشاركة فى موكبهم [٢٧] .

(*) وعن الطيوب (البخور) راجع : كرون (باتريشيا) ، المرجع السابق ، ص ١٠٩ – ص ١٣٠ .

لم يكن هناك شيء أكثر جاذبية للسكان من هذه الاحتفالات وفرقها الموسيقية ومشاهديها والمشاركين في مواكبها؛ مما كان يؤدى إلي التزاحم عليها ، وحيثما يوجد الازدحام تقع الحوادث ، مثل تلك الحادثة التالية :

«من هيراكس Hierax مدير إقليم البهنسا إلى مساعده كلوديوس سيرينوس Claudius Serenius : قام ليونيداس المعروف أيضًا باسم سيرينوس Serenos بتسليمى التماس (سوف أقوم بإرساله إليك) ، وبناء عليه يجب أن تذهب مع الطبيب لفحص الجثة موضوع السؤال ، وتقوم بالتصريح بدفنها وتسلم رفيقك تقريراً مكتوبا عنها. [التوقيع]، [والتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٢م]» (٢٨) .

«إلى هيراكس المدير من ليونيداس المدعو سيرينوس ، بخصوص ابن تاوريس Tauris من قرية سينبتا Senepta : حدث فى نهاية يوم أمس فى أثناء الاحتفال الذى تم فى سينبتا ، وعندما كان راقصو الصاجات يقدمون استعراضهم ، وعند اقترابهم من منزل بلوتيون Ploution ابن أخى زوجتى ، حدث أن تدلى العبد إيبافروديتوس من جانب المنزل لمشاهدة الراقصين مما أدى إلى سقوطه ومصرعه ، لذلك قمت بتقديم هذا الالتماس راجيا إذا تفضلتم أن ترسلوا أحد مساعديكم إلى قرية سينبتا حتى لا يتم تأخير إجراءات دفن جثة إيبافروديتوس [التاريخ نفسه ، والتوقيع]» (٢٩) .

وصلت الرحلة إلى نهايتها ، وكذلك انتهت مظاهر البهجة والسرور، وجميع الحوادث غير السارة ، وانتهت الشعائر والطقوس الدينية ، وأيضًا مظاهر العربدة ، وتسلم الراقصون والموسيقيون أجورهم ورحلوا عن المكان ، وعاد المشاهدون إلى منازلهم وإلى استئناف حياتهم بطريقة عادية. وتمثل عمل الغالبية العظمى من أفراد الشعب المصرى فى مجال الزراعة وهى موضوع الفصل التالى من الكتاب .

الهوامش

(١) SB. 10173 a = SEG XXno, 760

(٢) تم الاقتباس من هذه الوثائق : .P. Mert. 63; P. Oxy. 2782، أما الإشارات إلى هيرودوت فهى إلى كتابة Histories على النحو التالى : -Herodotus ,Histories, Book 2,Ch. 59;156

(٣) P. Oxy. 1380 and Diodorus, Historical Library, Book I Ch.25.

(٤) SB. 3924 = Select Papyri, 211.

(٥) BGU. 362 = Select Papyri, 404

(٦) اقتبست النصوص من الوثائق التالية : = P. Oxy 1021 BGU. 646 = Select Papyri, 235, 222.

(٧) الاقتباسات جاءت على النحو التالى : - Dio Cassius ,Roman History, Book 51, Ch. 16; Juvenal, Satire, 15, verse1-8. كان القيام باسترضاء الحيوانات المتوحشة عن طريق تقديسها ظاهرة ملحوظة وواسعة الانتشار لدى المجتمعات البدائية .

(٨) تم الاقتباس من: Herodotus ,Histories, Book 2,Ch. 59

(٩) BGU. 1199

(١٠) الوثائق التى تم الاقتباس منها هى : P. Teb. 293 and BGU. 347 = W.Chr.75 , 76 وفى الوثيقة التالية التى تم فيها إدانة المرشح SB . 16;P. Tebt 314

(١١) هذه الترنيمة جزء من وثيقة P. Lond. Lit. 239 ، كانت مروى Moröe هى عاصمة النوبة (كوش) ، والقصد من ذكرها هنا هو الإشارة بطريقة مجازية إلى أنها المكان الذى كان ينبع منه النيل . وهى تقع جنوبى النيل الأبيض عند التقائه مع النيل الأزرق ، ومن هذه النقطة تقطع مياه النيل مسافة تقدر بأكثر من ألف كيلو متر قبل أن تصل إلى الأراضى المصرية .

(١٢) تم الاقتباس من هذه الوثائق : -SEG. VIII, nos. 548-549;P. Oxy. 1830 وقد ذكر أحد زوار مصر فى أواخر القرن الثامن عشر « أن الاحتفال بالقديس ميخائيل كبير الملائكة قد أدى إلى وجود أسطورة أصبح يؤمن بها الأتراك والأقباط ومسيحيون آخرون فى الدولة، إلخ ، وهى أن القديس يقوم فى هذا اليوم بإلقاء قطرة من الماء تسبب هياج النهر الذى يترتب عليه ارتفاعه إلى الحد الذى يغطى فيه الدولة بأكملها . لذلك سمى اليوم الأول من شهر يونيو باسم نوتا Nockta (وهو يعنى قطرة الماء) من قبل جميع سكان مصر . وسيتهم بالجهل كل من يعارض هذه الخرافة ، والوضع نفسه إذا لم يعترف المرء بفضل البئر النبوى فى بلدة القرنة فى مصر الوسطى ، حيث تتضح المعجزة طبقا لرأيهم فى

ارتفاع المياه بطريقة كالمعجزة فى الشهر الأول من السنة إلى المنسوب الذى ستكون عليه مياه النيل فى هذا الفصل» . انظر :

J. Antes ,Observations on the manners and customs of the Egyptians, Dublin, 1801 , pp. 78-9

(١٣) P. Oxy. 1151

(١٤) هناك تمثال من الصلصال ربطت عليه تعويذة كتبت على ورق البردى نشرت الصورة المنشورة فى المجلة التالية : .Journal of Egyptian Archaeology, 15 (1929). XXXI. I وتعد هذه التعويذه فريدة فى نوعها لأنها تعبر عن رغبة رجل فى رجل آخر . أما وثيقة الهوارة التى نشرت فى Aechiv Fur Papyrusfarschung ,5 (1913), 343 فهى تعويذة لأنثى شاذة تهوى بنات جنسها .

ويعد اللجوء إلى تعاويذ الحب ظاهرة عالمية حتى فى العصور الحديثة . وقبل أن نترك هذا الموضوع لنا ملحوظة تثير الانتباه وهى أن أشهر كتاب لطقوس التعاويذ من بين كتب الأدب القديم هو الأنشودة الرعوية الثالثة Idyll للشاعر الصقلى ثيوكريتوس Theokritos ، والتى يبدو أن أصلها يرجع لمنطقة تسثاليا (تسثاليا إقليم فى بلاد اليونان) .

(١٥) P. Lond. 124= Pap. Gr. Mag. X.

(١٦) Dio, Oration 32, Sect. 12

(١٧) تم اقتباس النصوص من الوثائق الآتية : .P. Mert. 81; BGU, 229;P.Oxy. 1149, 123, 1477 إن السؤال رقم ٨٦ فى الوثيقة الأخيرة يشير إلى المحاولة الأخيرة لهؤلاء الأفراد الذين لا يستطيعون مواجهة ثقل أعباء الضرائب والالتزامات الأخرى التى تطالبهم بها الدولة (راجع الفصل الثامن) . لقد كيفت النبوءات نفسها وبسرعة مع انتصار المسيحية . ومن نصوص القرن السادس التى لدينا نكتفى بذكر مثالين من الأمثلة العديدة التى لدينا وهى منشورة فى : P. Oxy. 925 and 1150 = Select Papyri, 196 197. والأول هو : « أيها الإله القادر ، المقدس ، الحق ، الكريم ، العظيم ، والد مولانا ومنقذنا المسيح عيسى ، اكشف لى بقدرتك المنيعة حقيقة ما إذا كانت إرادتك أن أرحل إلى خيوط Chiout ، وهل ستقوم بمعاونتى ، وتيسر أمرى ؟ ليكن ، آمين » .

والثانى هو : « أيها الإله حامى القديس فيلوكسينوس Philoxenos ترى هل تأذن لنا بمشيئتك أن تحمل أنوب Anoup إلى دارك الشافية . وليكن النجاح حليف هذه الرسالة » .

(١٨) P. Oxy. 1381.

(١٩) P. Harr. 107.

(٢٠) M. Smith, Jesus the magician, New York, 1978. أما الجزء المقتبس من سوتينيوس Suetonius فهو من حياة كلوديوس Life of Cloudius .

(٢١) وقد انعكس ذلك فى دفاع الفقيه تيرتوليان Tertullian فى الفصل ٤٠ فى رسالته عن الاعتذار Apology التى كتبها عام ٢٠٠م . وفيها يقول : « إذا وصل نهر التيبر إلى الجدران ، ولم يتمكن النيل من أن يروى الحقول وإذا لم [تمطر] السماء ، أو حدث [زلزال] للأرض ، وإذا ما حدثت مجاعة ، أو انتشر وباء الطاعون ، سترتفع الأصوات صارخة وقائلة ألقوا بالمسيحيين إلى الأسود » . وفى ضوء تلك البلاغة الواضحة ، وعنصر التعميم الواضح فى هذه الفقرة ، يبدو أنه من غير المناسب أن نتمسك بأن ذكر كل من التيبر والنيل ، كان يشير إلى حالات أو مناسبات محددة هنا .

(٢٢) P.Mich. 158.

(٢٣) انتهى الاضطهاد الدينى طبقا للأمر الإمبراطورى الذى أصدره الإمبراطور جاالليـنوس Gallienus بعد حوالى جيل من صدوره . ثم حدث الاضطهاد الكبير بعد ذلك فى أوائل القرن الرابع الميلادى ، تبعه إصدار منشور العفو العام سنة ٣١١ ، ثم اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية فى العام التالى .

كان أوريجين Origin أشهر شخصية فى تاريخ المسيحية فى مصر، نظرا لما تمتع به من جرأة ولعمق فكره اللاهوتى ، وتفسيره البارع للكتاب المقدس ، ولذا فهو يعد أحد كبار مفكرى المسيحية ... وكان ينتمى إلى مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، كما تأثر بالفلسفة الغنوصية Gnosticism فى مصر H. I. Bell, cults and creeds in Graeco-Roman Egypt, P.97.

(٢٤) P. Par. 69 = W. Chr. 41, ii

(٢٥) والوثائق المذكورة هى على النحو التالى : P.Oxy. 705 = W. Chr. 153; P. Oxy. 2338; SB, 7336; P. Oxy. 519 = W. Ch. 492 = Select Papyri , 402; and P. Oxy. 413 and 2127

(٢٦) P. Oxy. 1025 = W. Chr. 493 = Select Papyri , 359. استخدم اسم أوريليوس Aurelii بعد عام ٢١٢م . راجع الكشاف .

(٢٧) P. Oxy. 1211 - select Papyri, 403 (II cent A.D.); P. Oxy. 2797 (late III cent A.D.) . وكانت الخنازير فى البداية محرمة فى الاحتفالات الدينية المصرية منذ فترة مبكرة راجع ص ١٩٩ .

(٢٨) هذه الصيغة تميز الأبناء الذين ولدوا للجنود فى أثناء خدمتهم العسكرية . على الرغم من أنه كان محرمًا على الجنود الزواج بمقتضى عقود زواج قانونية ، ولكن جرت العادة على زواج الجنود بطريقة غير قانونية ، ويعكس اسم ليونيداس Leonidas الإغريقى جنسية والدته بينما يدل اسم سيرينوس Serenus اللاتينى على والده الذى كان جنديا بغير شك .

(٢٩) P. Oxy. 475 = W. Chr. 494 = Select Papyri. 337

الفصل السادس

الإنتاج الغذائى ، أو تموين الغلال

ANNONAE FECUNDAM

"هبة النيل"[*] تلك هى الصفة التى وصف بها هيرودوت فى كتابه الثانى - الفصل الخامس - طمى تربة الدلتا التى ترسبت بفضل نهر النيل ، وهى العبارة التى كثيراً ما اقتبست كقول مأثور لوصف الحياة فى كل أنحاء مصر . فمياه النيل تعد مصدراً للحياة فى ذلك الجزء الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا ، وبدونها لا يمكن لهذه المنطقة أن تسكن أو تقوم فيها حياة .

إن مصر التى تقع ليبيا فى غربها ، والبحر الأحمر فى شرقها ، والسودان (النوبة قديما) فى جنوبها ، والتى تقع فى جنوبى البحر المتوسط الذى يقع فى شمالها ، عبارة عن منطقة صحراوية مترامية الأطراف يقطعها شريط أخضر يمثل وادى النيل وتربطها بالغرب عدة واحات منتشرة . ولا يوجد فيها إلا ثلاث مساحات ذات أحجام مختلفة تصلح للزراعة : وهى تلك الخاصة بوادى النهر ، التى تمتد فيما بين عشرة وعشرين كيلو مترا فى اتساع عرضا ، ودلتا النهر الخصبة التى تتكون من سبعة أفرع حيث يقوم النهر من خلالها بتفريغ مياهه فى البحر المتوسط . وهى عبارة عن مثلث يتكون جانباه من مائتى كيلو متر ، وعلى بعد مائة كيلو متر من جنوبى غربى القاهرة يقع منخفض طبيعى ، يصب النهر كمية من مياهه فيه مكونا بذلك بحيرة فى القاع ، وتسمى هذه المنطقة اليوم باسم الفيوم (وهو مشتق من الاسم القبطى للبحيرة) ، وكانت تسمى فى العصرين الهللينستى والرومانى باسم إقليم أرسينوى ، وتبلغ مساحتها المسطحة ١٦٠٠ كيلو متر (٦٤٠ ميلا) وتتغذى على شبكة من قنوات الرى

(*) لم يكن هيرودوت فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ومعاصروه يعرفون منابع نهر النيل لأنه لو عرف أنه ينبع من هضبة الحبشة ويمر بعدة بلاد قبل أن يصل إلى مصر لغير تلك المقولة التى قالها والتى رددها المؤرخون والكتاب ، بل المصريون حتى يومنا هذا . وإلا لماذا والنيل الخالد واحد ، لم تكن هناك حضارة مبدعة وخلاقة تناظر أو تقارب الحضارة المصرية ، ويترتب على ذلك أن مصر تعتبر هبة النيل والمصريين معا ، وليست هبة النهر وحده . (المترجمة)

تشمل حوالى ١٠٪ من مساحة الأراضى الزراعية فيها . وتبلغ مساحة البحيرة اليوم ٢٨٠ كيلو مترا مربعا ، وهى تمثل نصف مساحتها القديمة ، حيث انخفض مستوى سطحها حوالى عشرة أمتار ، وعلى الرغم من تراكم الأراضى الغائرة فإن مساحتها الزراعية اليوم أقل مما كانت عليه فى العصر الرومانى ، وترجع هذه الظاهرة نتيجة لسلسلة من عوامل رد الفعل التى بدأت فى أواخر العصور القديمة ، فالمشاكل الاقتصادية ترتبت على تشدد الدولة فى تحصيل مستحقاتها ، مما أدى إلى هجر الأراضى الزراعية والزراعة، ونتج عن ذلك أن زادت الأعباء على من تبقى من السكان . لذلك وجد السكان أنفسهم فى وضع سيئ وحرج للغاية فُهَجِرت قرى بأكملها وخصوصا تلك الواقعة على حافة الصحراء ، وأصبحت أراضى قرى بأكملها بورا . والمعروف أن هذه الأراضى التى تركها سكانها والتى تقع على حافة الصحراء كانت نائية ومرتفعة عن سطح الأرض ، لذلك أصبح هناك عجز فى توصيل مياه الرى إليها ، فأهملت مرافق الرى فيها ، ولم تعد تصلها مادة الغرين المخصبة ؛ لذلك تركت الأراضى التى تركها أصحابها دون زراعة . وهكذا فسدت جميع مراحل الدورة ، ولذا كان يجب أن تبدأ من جديد. وسرعان ما طغت رمال الصحراء على تلك الأراضى (١) .

ويفيض النهر على جانبيه فى فصل الصيف ، وتغطى المياه جميع أنحاء الوادى الذى يتحول إلى بحيرة عريضة ، أما نتيجة هذه الظاهرة الطبيعية فكان موضوعا للبحث والتفكير طوال العصر القديم .

وذكر هيرودوت فى القرن الخامس أن أى فرد لا يستطيع أن يتحدث عن منابع النيل ، حيث إن أفريقيا التى ينبع منها هذا النيل بلاد غير مأهولة بالسكان وجرداء ، وعلى أية حال فقد سجل لنا النظريات الثلاثة التى كانت معروفة فى عصره عن الفيضان، وأضاف أخرى من تصوره ، ورفض هيرودوت جميع النظريات السابقة عليه ، حتى تلك النظرية الصحيحة التى طرحها الفيلسوف أناكساجوروس Anaxàgoros ، التى ورد ذكرها أيضًا فى إحدى شذرات عمل مفقود للكاتب المسرحى يوربيديس Euripides .

ونقرأ بعد أربعة قرون من هيرودوت لدى الكاتب ديودور الصقلى عدة تفسيرات أخرى ، من بينها التفسير السليم الذى كان ولا يزال مرفوضا حتى عصره . وقد كتب بلينى الكبير Pliny فى منتصف القرن الأول الميلادى: "إن النيل ينبع من مناطق لم يتم الكشف عنها بعد" . ثم واصل وصفه للمناطق العليا التى يصلها بطريقة تغلب فيها الأسطورة على الحقيقة (٢) .

وأثبت المكتشفون فى العصر الحديث ما كان يحدث خلال فصل الربيع عندما "تذوب الثلوج"(*) على جبال الحبشة، وينتج عن ذلك بلايين الجالونات من المياه التى تنحدر فى النيل من منابعه ، ويتدافع الماء بسرعة من الجنوب إلى الشمال من القارة الأفريقية ، ويصل مصر فى أوائل شهر يونيو . وتم الآن التحكم فى مياه النهر فى مصر عن طريق بناء السد العالى فى جنوب أسوان ، أما خلال العصور القديمة فكان النهر يسير فى طريقه دون تحكم ، ويصل إلى منف وإلى إقليم الفيوم فى مدة تتراوح بين أسبوعين وثلاثة أسابيع . وفى خلال الشهر الأول من توغله فى الأراضى الزراعية كان المصريون يطلقون عليه اسما شاعريا وهو "حلاوة أوزيريس"، وفى أثناء هذه العملية من التشرب البطىء للمياه فى الأراضى تُمْلأ الشقوق وتتكون المستنقعات . وفى حوالى ٢٠ يونيو كان يحدث تغير مثير يشار إليه بارتفاع النجم سيريوس Sirius نجم الكلب . وكانت المياه تحمل معها الطمى وتنقله معها من منابع النهر البعيدة، وهنا يتحول لون الأرض من الأخضر إلى الأحمر الذى يميل إلى البنى . وفى الوقت نفسه يبدأ النهر فى الارتفاع ويغطى مساحة عريضة لمدة تبلغ شهرين أو أكثر ، ويصبح الوادى على شكل بحيرة ، ولا تتوقف المياه إلا أمام المدن والقرى التى تقع على مستوى مرتفع من الأرض . ولفت هذا المنظر عددا كبيرا من الزوار، ومن بينهم أباطرة الرومان الذين كانوا يقفون مندهشين من منظره الرائع . وسجل لنا سينيكا Seneca الفيلسوف والكاتب المسرحى الرومانى ، الذى كان يمتلك مزرعة ضخمة فى مصر فى القرن الأول الميلادى "أن منظر النيل كان أكثر روعة عندما ينشر النهر نفسه على

(*) لا توجد ثلوج على هضبة الحبشة ، ولكن تهطل الأمطار الاستوائية عليها مما يتسبب فى فيضان النهر . (المترجمة)

نفسه" (ويقصد واديه ودلتاه) وكثيرا ما كان نهر النيل فى أثناء فيضانه موضوعا تناوله الفن الرومانى سواء فى ميدان الرسم (الذى يشاهد اليوم فى مدينة بومبيى Pompeeii) أو فى الخزف ، وأشهر نماذج الخزف التى لدينا منها الذى تم العثور عليه فى منطقة باليسترينا Palestrina على مقربة من روما (صورة رقم ٥) [٣].

وفى منتصف أغسطس يبدأ الفيضان فى الانحسار عن إلفنتين Elephantine ، وفى منتصف شهر سبتمبر عن إقليم الفيوم . وتستغرق هذه العملية بين عشرين ومائة يوم منذ بدايتها . وتشاهد عملية انخفاض المياه ببطء فى البداية ثم تبدأ بعد ذلك فى الإسراع، ومع نهاية شهر أكتوبر يبدأ النهر فى العودة إلى مجراه ، ويترك وراءه على الحقول كما كبيرا من الرواسب ، ويعادل هذا الكم اليوم حوالى عشرين طنا من المواد المخصبة على كل هكتار من الأراضى الزراعية ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يجرف معه عددا كبير من فئران الحقول (الجرذان) مما يعد عاملا إضافيا مساعدا للفلاح. ثم تواصل المياه انخفاضها فى مجرى النهر ببطء حتى تصل إلى أدنى مستوياتها قبل موسم فيضان السنة التالية . تلك هى هيدوجرافية (وصف المياه) النيل فى معدلها السنوى المتوسط .

وأدرك سكان مصر منذ عصور ما قبل التاريخ أن حجم المحصول الذى سوف يحصلون عليه يرتبط ارتباطا مباشرا بمتسوى ارتفاع منسوب النيل . وذكر لنا بلينى Pliny فى تاريخه الطبيعى "إن منسوب ١٦ ذراعا لارتفاع المياه يعد منسوبا ملائما" ، أما إذا انخفض منسوب المياه عن ذلك فلم تكن هناك إمكانية لرى جميع الأراضى الزراعية، وإذا زاد عنه ترتب عليه تأخر انحسار المياه عن الأراضى مما ينتج عنه تأخر فترة بذر الحبوب نتيجة لتشبع التربة بالمياه، وإذا حدث العكس فيؤدى ذلك إلى عدم التمكن من بذر الحبوب فى موسمها؛ نتيجة لجفاف التربة . وتم تقدير المقاييس على النحو التالى :

منسوب ١٢ ذراعا يؤدى إلى حدوث مجاعة ، ومنسوب ١٣ ذراعا تظل المجاعة قائمة ، ومنسوب ١٤ ذراعا يجلب البهجة ، ومنسوب ١٥ ذراعا يطرد القلق ، ومنسوب ١٦ ذراعا تعم البهجة والسرور . وأضاف بلينى الذى توفى نتيجة لثورة بركان

فيزوف Vesovius عام ٧٩(*) أن عام ٤٨ ق.م. سجل أدنى منسوب لمياه الفيضان حيث بلغ خمس بوصات ، أما أعلى منسوب له فسجل فى عام ٤٥ ق.م. حيث بلغ ١٨ بوصة . وكشفت إحدى البرديات التى نشرت حديثا بطريقة غير مباشرة تلك الكارثة التى وقعت عام ٩٩ نتيجة لانخفاض منسوب مياه الفيضان ، الأمر الذى نتج عنه انتشار المجاعة ، مما دعا الإمبراطور تراجان - إذا جاز لنا أن نصدق مديح بلينى الصغير له - إلى إصدار أوامره إلى السفن التى كانت تحمل القمح من مصر بالعودة إليها بحمولتها الثمينة مرة أخرى (٤) .

ويتضح مما تقدم أن منسوب المياه فى أثناء الفيضان كان يساعد مقدما على معرفة المحصول الزراعى المتوقع . ومن هنا جاء اختراع مقياس النيل ، ومقياس النيل فى شكله البدائى وببساطة عبارة عن صخرة من حجم مناسب ، يضعها أحد الرجال فى النهر أو فى إحدى البحيرات ، وعليها علامات أفقية لقراءة ارتفاع منسوب المياه فى السنوات المتعاقبة. ثم قام المصريون خلال العصر التاريخى بتشييد بناء صخرى كبير، يحمل الفكرة الأساسية السابقة نفسها، وكان فى العادة عبارة عن حجر أحسنت إقامته فى مكان يمكن النزول إليه فى النهر عن طريق عدة درجات فى مستوى مائل واحد . وكانت العلامات الأفقية على الجدار الداخلى توضح ارتفاع منسوب المياه التى يتم قياسها بالذراع (الذراع ٥٢٫٥ سم) وأجزائه . والواقع أنه لم يكن هناك اختراع مماثل له فى أى نهر فى العالم القديم ، لذلك كان يبهر الزوار فى العصر القديم والسائحين فى العصر الحديث عند رؤيتهم لما يزال قائمًا من بعض نماذجه . وأقيمت المقاييس فى أماكن عديدة فى النهر لإرشاد الجهات المحلية ، وارتبطت هذه المقاييس المحلية فى كثير من الأحيان بمعبد النيل (وقد رأينا فى الفصل الخامس أن النيل عُبد بوصفه إلها). وكان يوجد فى البهنسا مقياسان ، أحدهما كبير والآخر صغير ، وعلى بعد حوالى ٤٠ كيلو مترا من جنوبها حيث كانت تقع قرية أكوريس AKORIS لا يزال أحدهما قائمًا حتى اليوم ، ويمكن أن نقرأ عليه مجموعة من النقوش التى توضح

(*) عرف عن بلينى الكبير فضوله العلمى الشديد، وعندما ثار بركان فيزوف فى جنوب غرب إيطاليا بالقرب من نابلى عام ٧٩ ظل يقترب من فوهة البركان ليرى ويشاهد التغيرات الطبيعية لثورة البركان فسقطت عليه إحدى الحمم فقتلته على الفور . (المترجمة)

ارتفاع مستوى المياه فى النيل لعدة سنوات فى أواخر القرن الثالث الميلادى .
أما مفتاح مقاييس النيل جميعها فيتمثل فى المقياس الواقع على جزيرة إلفنتين ، وهو أول ما يقوم بقياس منسوب الفيضان عند دخوله مصر . وعندما يصل الفيضان لذروته كانت أنباؤه تصل بسرعة بالغة عن طريق الرسل على طول الطريق حتى تصل إلى الإسكندرية، حيث تقوم الحكومة المركزية بتقدير حجم المحصول الزراعى والضرائب المتوقعة عليه . ويمكن أن نقرأ على مقياس النيل فى إلفنتين منسوب المياه على النحو التالى :

- عام ٢٥ من حكم أغسطس قيصر : ٢٤ ذراعا ، و٤ أكف ، وإصبع واحد (٥ ق . م) .
- عام ١٣ من حكم نيرون قيصر : ٢٤ ذراعا ، و١٦ كفا ، وإصبع واحد (عام ٦٧م) .
- عام ١٠ من حكم دوميتان قيصر : ٢٤ ذراعا ، و٤ أكف (عام ٩١ م) .
- عام ١٤ من حكم تراجان قيصر : ٢٥ ذراعا (عام ١١١ م) (٥) .

من أجل ذلك كتب هيرودوت : "أنه لا يوجد رجال فى العالم أجمع يمكن أن يحصلوا على المحصول الزراعى من التربة ، بهذا القدر الضئيل من الجهد ، فهم لا يكدون لحرث الأرض بالمحراث ، كما أنهم لايقَلِّبون التربة ، ولا يقومون بأى عمل من الذى يقوم به الآخرون للحصول على المحصول الزراعى ، فالنهر يرتفع تلقائيا ليروى الحقول ، ثم تنحسر المياه بعد ذلك ليقوم كل فرد ببِذر الحبوب فى حقله ثم يترك الخنازير التى يستخدمها لتمشى على البذور لتدكها فى الأرض ثم ينتظر حتى يجنى محصوله " (٦) . ويمكن أن نفهم سبب دهشة هيرودوت فكونه رجلا إغريقيا آت من ذلك الجزء من العالم حيث كان على الرجال أن يقوموا بجرف وتشقيق الأرض بأدواتهم التى لا نهاية لها، وكانوا يستخدمون مهاراتهم من أجل الحصول على محصول من تلك التربة الصخرية ذات السمك الضئيل ، وكانت الزراعة المصرية لا تعد شيئًا أكثر من كونها الحصول على مكافأة بدون عمل كما تخيل هيرودوت ، ولكن الفلاحين المصريين كانوا بالفعل يقومون بحرث الأرض وخصوصا فى أثناء تطهير الأرض أو إصلاحها لإعدادها للإنتاج بعد أن تكون قد تُركت لفترة من الزمن ، كما كانوا يقومون بتقليب التربة وزراعتها بانتظام ، بالإضافة إلى استخدام المخصبات عند الحاجة إليها، وخصوصا فى الأراضى التى تزرع بالخضراوات وأشجار الزيتون .

توجه مياه الفيضان فى المقام الأول نحو الأرض التى فى حاجة أكثر إليها ، أو تلك الأرض التى لم تستطع المياه الوصول إليها دون مساعدة بشرية ، ولتحقيق هذه النتيجة وضع الفراعنة لأول مرة هندسة نظام الرى وتم التوسع فيها فى أثناء فترة الحكم البطلمى ، وشهد هذا النظام أضخم توسع له فى حوض إقليم الفيوم المتسع بعد أن كان قد انهار أغلب أجزاء هذا النظام فى أثناء فترة ضعف الحكومة المالى وعجزها فى أواخر العصر البطلمى ، لعدم تمكنها من إجراء الصيانة اللازمة له . وبعد فتح مصر قرر أوكتافيان أن يجعل من ولايته الجديدة مصدرا يركن إليه لإنتاج القمح لكى تسهم مصر فى إطعام مدينة روما ، لذلك أصدر الأوامر لجنوده والمكلفين بالعمل من أطقم العمال المحليين بإعادة بناء الجسور المنهارة ، وتطهير ما تراكم فى القنوات من رواسب على وجه السرعة ، كما أمر بصيانتها بطريقة منتظمة عن طريق فرض نظام السخرة ، وفرضت السخرة على كل ذكر بالغ وعبيده - فى حالة وجودهم - للقيام بأداء العمل فى الترع والجسور ، بدون أجر مقابل لمدة خمسة أيام فى الظروف العادية ويمكن إطالتها لأيام أخرى إذا ما استجدت ظروف استثنائية طارئة ، وقدرت السخرة فى مصر العليا وبعض المناطق الأخرى بقياس الكميات التى تم رفعها من الأرض أكثر من قياسها بزمن العمل. أما الطريقة التى كان يقرر بها العمل ويدار فهى عن طريق سلسلة من الأوامر التى تصل من مقر الحكومة فى الإسكندرية إلى أصغر وحدة محلية فى مصر، فهى تتضح لنا من خلال ذلك الخطاب الدورى الذى كان يوجه من مديرية الإقليم إلى محصلى ضرائب الغلال فيها ، وصدر من الإسكندرية خطاب فى أول أبريل ٢٧٨ م وهى الفترة التى تصل مياه النيل فيها إلى أدنى انخفاض لها فى أثناء الدورة السنوية للنهر، ومما لاشك فيه أن مثل هذا الخطاب الروتينى كان يصدر كل عام وهو على النحو التالى : «لقد وصلنا الآن إلى موسم إصلاح الجسور وتنظيف القنوات ، لذلك ارتأيت أنه من الأفضل أن أذكِّر بخطابى هذا كل فلاحى منطقتكم أن يبدأوا العمل المكلفين به بكل نشاط من أجل الصالح العام ولمصلحة كل منهم شخصيا ، وإننى على يقين من أن كل فرد يدرك تماما مدى الفائدة التى تعود عليه نتيجة للقيام بهذا العمل . لذلك ينبغى أن ننظر إليه بهذا المفهوم طبقًا لما هو مذكور فى اللوائح ، وعلى المراقبين الذين يتم اختيارهم من بين الموظفين والمواطنين العاديين أن يدفعوا دون تعنت أو تحيز كل فرد

وأن يحثوه شخصيا على القيام بالعمل المناط إليه ، حتى يمكن أن تصل الجسور فى ارتفاعها وعرضها إلى الحد المطلوب ، وحتى يمكن سد التشققات فيها ، وليتم التأكد من أنه سوف يمكنها أن تقاوم المقدم السعيد لفيضان نهر النيل المقدس ، كما يجب أن يتم تطهير الترع من (معوقات التطهير) كما تُسمى ، وذلك لكى تتمكن من أن تحتوى بسهولة ويسر تدفق المياه وتوجهها للحقول ، حتى يعم الخير للجميع . ويمنع منعا قطعيا أى فرد من أن يقوم بدفع المال مقابل تأدية العمل . وإذا تجرأ أى فرد على القيام بأية محاولة لإهمال هذه الأوامر فعليه أن يدرك أنه بهذه المغامرة لا يعرض أملاكه فقط، بل حياته شخصيا للعقاب وستتم محاكمته لتعطيله الإجراءات التى وضعت لحماية جميع أنحاء مصر » .

وتمثل الجملتان الأخيرتان من هذا الخطاب المشكلة المزمنة التى يثيرها نظام السخرة : حيث كانت هناك فرصة للمحاباة ، والرشوة والمحسوبية . وقد اتهم اثنان من موظفى إحدى القرى منذ مائتى سنة سابقة المشرفَ على الجسور بحصوله على مبلغ أربعة دراخمات من الرجال الذين بلغ عددهم تسعة وخمسين رجلا نظير عدم قيامهم بأداء العمل فى الجسور العامة ، وقام بحماية تسعة رجال آخرين على نحو مشابه (٧) .

كان العمل يجرى طوال العالم طبقًا للحاجة ، ولكن حتى بعد تلك الاستعدادات التى ورد ذكرها فى الخطاب السابق ، فإن أكبر كم من العمل كان يجرى فى أثناء شهور الفيضان ، حيث يصبح من الضرورى توجيه المياه الثمينة إلى المناطق التى تحتاج إليها . وجرت العادة على أن يقوم الرجال بأداء السخرة فى قراهم أو على مقربة منها ، وبالرغم من ذلك فلدينا ثلاث حالات على الأقل تم فيها أداء السخرة لعدة أيام على بعد عشرين كيلو مترا من حيث يقيمون . وعندما تم ترحيل ١٨٠ رجلا من قرية تيبتونس Tebtunis لمسافة ١٢ كيلو مترا فى أوائل شهر فبراير – وهو الوقت الذى يبدأ فيه النهر العودة إلى مجراه ثم يبدأ فى الهبوط التدريجى – فلا ريب فى أن السبب فى ترحيلهم يرجع إلى ظرف طارئ ، حيث إن حدوث انهيار كبير فى جسر أى من القنوات الرئيسية كان يحتاج إلى عدد كبير من الأيدى العاملة (٨) .

بعد أن يؤدى الفلاح العمل المكلف به ، يحصل على صك مدون على شريحة من البردى أو على قطعة أوستراكا ، وإليك الآن نموذجا منها وهو واحد من أكثر من أربعمائة إيصال لا تزال موجودة لدينا :

« السنة الثانية عشرة من حكم الإمبراطور تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس (عام ٥٢ م) . قام بسينامونيس بن هارباجاثوس Psenamounis son of Harpagathos من قرية سكنوبايوبيسوس Soknopaionesos بإتمام العمل فى قناة بورسيرى Porsiere الملاحية لمدة خمسة أيام، وأتم العمل كاملا فى السنة المذكورة، وقمت أنا المدعو كوراكس Korax ، المدعو سوخاس Souchas موظفا الكاتب الملكى فى الإقليم بالتوقيع » (٩) .

كان على نظام الرى أن يتواءم فى عدة أماكن مع الصعوبات التى يواجهها، فالمياه لا تستطيع الوصول إلى الأماكن المرتفعة حتى إذا تمكنت المياه من أن تجرى بسرعة خلال القنوات . وفى فترات انخفاض المياه فى النهر كان يجب أن يتم رفع المياه إلى الأراضى المرتفعة بالوسائل الصناعية واستخدمت عجلة أرشميدس Archimedes (الطنبور) التى أطلق عليها الإغريق اسم كوخاليس (أى الحلزون أو اللولب) لمدى محدود ، وأشار ديودوروس إلى استخدامها فى الدلتا ، وأخبرنا إسترابون بأنه كان يتم رفع المياه إلى المعسكر الحربى الكبير بالقرب من ممفيس بواسطة ١٥٠ سجينا كانوا يديرون الطنابير وعجلات المياه (السواقى). ولما كان الطنبور غالى الثمن فلم يكن فى استطاعة الفلاح الذى يحتاج إلى استخدامه أن يقوم بشرائه ، لذلك قاموا باختراع وسيلة أو وسيلتين أكثر بساطة ورخصا منه ، وهذه الوسائل ترجع فى أصولها إلى العصر المبكر – من الحضارة المصرية – ومازالت تميز المنظر العام للأراضى الزراعية فى مصر الحديثة (اللوحات رقم ٦ و٧) وتسمى كيلون Kelon أى الأرجوحة ذات الذراع، فى العصر الرومانى ، أما اليوم فتسمى الشادوف وهو عبارة عن عمود خشبى مركب على نقطة ارتكاز ويعمل بتأرجح ، ويتدلى من أحد جانبيه سطل ينغمس فى المياه ، ويستخدم ثقل فى الجانب المعاكس من السطل ليُسَهِلْ رفع السطل عند ملئه بالمياه . أما الوسيلة الأخرى فتسمى الآن بالساقية ، أو الآلة وأحيانا تختصر إلى العجلة trachos ، وهى عبارة عن عجلة مثبتة جيدا حول رأس ، ويقوم ثور أو أحد حيوانات الجر بالسير دائريا حول العجلة الأفقية التى يسير تحت نيرها، وتبدأ سنون الإطار

الخارجى للعجلة فى التداخل في بعضها من الزاوية اليمنى لمحور مدار العجلة الذى ينتهى بسلسلة من الأسطال ، التى تملأ عندما تنغمس فى المياه السفلى ، ثم تقوم بسكب محتوياتها عندما تكون فى وضع منكس، حتى يحصلوا على أقصى ارتفاع لقوس دائرتهم(*) (١٠) .

وبالرغم من كل جهود الرجال ومهاراتهم فلم يكن فى استطاعتهم الحصول على المحصول العادى من الأراضى فى السنة التى تنخفض فيها مياه النهر عن الحد الأدنى الذى تحتاج إليه الزراعة . وتتضح لنا تقلبات فيضان النيل فى مجموعتين من وثائق عصر هادريان (١١٧ – ١٣٨ م) ، فلدينا عدة طلبات لتخفيض ضرائب الأراضى من الشهور التى تلت اعتلاءه العرش واعتمد فيها مقدموها على : (المرسوم المتكرر بالإضافة إلى المساعدات التى قدمها مولانا الإمبراطور هادريان قيصر والتى أمر فيها بأن تربط الضرائب على الأراضى الملكية والعامة والضياع الإمبراطورية طبقًا لحالتها الفعلية وليس طبقًا للخطة القديمة) .

والطلب الحالى يمثل أفضل الطلبات التى وصلت إلينا :

« إلى أبوللونيوس مدير إقليم أبوللونوبوليس ذى القرى السبع من بافيس بن هونيس Paphis son of Hones وإخوته من قرية Terythis [نفيدكم] أن الأراضى الملكية المسجلة باسم والدنا هونيس التى تقع بالقرب من القرية المذكورة على النحو التالى :

مساحة : $3\frac{1}{12}$ أرورا بمعدل ضرائب $\frac{1}{2}$ ٣ أردب على الأرورا .

ومساحة : $\frac{1}{2}$ ١ أرورا ، ضرائبها أردبان .

ومساحة : $\frac{43}{64}$ أرورا ، ضرائبها $\frac{1}{12}$ ٥ أردب .

ومساحة : $\frac{1}{16}$ أرورا ، ضرائبها $\frac{1}{12}$ ٤ أردب .

(*) لمزيد من التفاصل عن أدوات الرى راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢١٩ – ٢٢٠ . (المترجمة)

المساحة الإجمالية $\frac{٤٧}{٦٤}$ ٦ (ست أرورات + $\frac{٤٧}{٦٤}$ من الأرورا) . وحيث إن هذه المساحات لا تنتج الآن إنتاجا كافيا لفرض مثل هذه الضرائب العالية ، التى نئن تحت وطأة أعبائها أتقدم ملتمسا طبقًا لأوامر مولانا وسيدنا هادريان قيصر مسدى الخير لجميع سكان العالم بأن تعامل الأرض مستقبلا بمعدل $\frac{١}{٢٤}$ ١ أردب من الغلال على كل أرورا ، وأن تقيد لحسابى ويسمح لى بإبقاء الأراضى التى لم يصلها الفيضان ، ونصف مساحة الأراضى التى تروى عن طريق ضخ المياه كما جرت عليه العادة ، وذلك حتى أتمكن من المشاركة فى عمل الخير والسلام [٢٨ ديسمبر ١١٧م]» .

ثم رأى الإمبراطور هادريان فى أواخر عصره ضرورة إجراء تخفيض آخر الضرائب لفلاحى مصر . ففى منشوره المؤرخ فى ٣ مايو ١٣٦م الذى حفظت لنا أجزاء منه فى شذرات بردى القاهرة وأوسلو يشير إلى « أن فيضان النيل لم يكن كافيا أو كاملا لمدة سنتين متتابعتين ، وتبعا لذلك فقد منح حق تأجيل الضرائب لمدة تتراوح بين سنتين وخمس سنوات (*) » (١١) .

حيث إننا سنقوم الآن باستعراض المحاصيل الزراعية الرئيسية فى مصر الرومانية وطرق إنتاجها ، فمن الأفضل أن نلقى نظرة على التقويم الزراعى ومقابلته بالتقويم القبطى الذى كانت السنة تبدأ فيه بشهر توت Thot (٢٩ أغسطس) ، وفيما يلى خطة النشاط الزراعى الرئيسى فى منطقة ممفيس وإقليم الفيوم ، والتى كانت تبدأ مبكرة عن النشاط الزراعى السنوى فى طيبة بمدة تتراوح بين أسبوعين وأربعة أسابيع :

يونيو (بئونة Payni) : بداية ارتفاع النيل ، ونهاية فترة حصاد محاصيل الغلال واستمرار درسها .

يوليو (أبيب Epiph) : استمرار ارتفاع فيضان النيل ، والوصول إلى مرحلة الفيضان ، وانتهاء موسم درس المحاصيل .

(*) عن هذا الموضوع راجع: آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص ١٨٢ . (المترجمة)

أغسطس (مسرى Mesore) : الاقتراب من مرحلة الفيضان الكامل ، وبداية جمع محصول الكروم .

سبتمبر (توت Thot) : قمة فيضان النيل ، ثم بداية الانخفاض ، والانتهاء من جمع الكروم ، وجنى البلح .

أكتوبر (بابة Phaopi) : انتهاء الفيضان، وبداية بذر محاصيل الغلال ، وجمع محصول الزيتون ، وجمع محصول البلح الذى يصل لذروته .

نوفمبر (هاتور Hathyr) : استمرار بذر الغلال وبداية الزراعة ، وجمع الزيتون وبعض البلح .

ديسمبر (كهيك Choiak) : استمرار الزراعة ، واستمرار جمع الزيتون .

يناير (طوبة Tybi) : انتهاء موسم حصاد الزيتون ، وبداية موسم الثمار الجديدة للعنب والزيتون .

فبراير (أمشير Mecier) : بداية الاستعداد لجنى القمح .

مارس (برمهات Phamenorh) : استمرار الاستعدادات .

أبريل (برمودة Pharamouth) : بداية جنى محصول القمح .

مايو (بشنس Pachon) : استمرار جنى المحاصيل ودرسها .

محاصيل الغلال

كان القمح والشعير المحصولين الرئيسيين فى الزراعة المصرية ، استخدم المحصول الأول فى صناعة الخبز ، واستخدام الثانى فى صناعة البيرة بصفة رئيسية (والتى اكتشفت عملية تخميرها منذ آلاف السنين السابقة) . أما المحصول الثالث وكان يسمى باليونانية أوليرا Olyra ، ولعله كان نوعا قديما من أنواع البرسيم ، فكان محصولا قليل القيمة ، ولذلك كان يزرع فى مساحات أقل ، وكان يقدم فى بعض الأحيان طعاماً للحيوانات .

ولما كان الفلاح هو الذى يقوم بكل العمل الزراعى ، كما هو الحال اليوم ، فكان باستطاعته أن يؤدى أى نوع من أنواع العمل الذى يحتاجه الموسم الزراعى وتتطلبه الظروف . وقبل قيام الثورة الصناعية كان نوع العمل الذى يتاح للفلاح هو ذلك الخاص بأرضه أو الخاص بأراضى الآخرين أو المتعلق بالحيوانات المنزلية ، وكان الفلاح يعمل بمساعدة بعض الآلات والأدوات البسيطة ، ومما لاشك فيه أنه كان يوجد عدد من الأنشطة الزراعية التى كانت تحتاج الى نوع من التخصص أو الخبرة ، فنحن عندما نقرأ على سبيل المثال عن تأجير عمال لجمع محصول العنب ، نفترض على الفور أنهم ليسوا مجرد عمال عاديين ، بل كانت تتوافر لديهم مهارات فى هذا النوع الخاص من العمل ، وبالرغم من ذلك فقد كان فى استطاعة هؤلاء العمال أن يقوموا بتأدية أعمال أخرى فى باقى فصول السنة من أجل تغطية احتياجاتهم المادية والمعنوية . وفى الواقع إن الفئة الوحيدة على المسرح الزراعى التى كان لديها عمل مستمر طوال العام تتمثل فى : فئة المشرفين على الضياع ، وملاحظى العمال ، وبعض هؤلاء الأفراد الذين يقومون بعمل يرتبط بالحيوانات الأليفة مثل رعاة الأغنام ، ورعاة الأبقار ، وسائقو حيوانات الركوب ، وحتى هؤلاء الذين كانوا يوجدون فى آخر القائمة فنحن متأكدون من أنه كان يمكن تحويلهم إلى أداء واجبات أخرى عندما تكون هناك حاجة إلى أيدٍ عاملة إضافية .

لم يكن للعبيد – كما سبق أن ذكرنا فى الفصل الرابع – أى دور فى الحياة الزراعية ، وكان يتم استغلال القسم الأكبر من أقسام الأراضى سواء الأراضى الملكية أو العامة (بما فيها من ضياع) والأراضى الخاصة ، والضياع الإمبراطورية ، وأراضى المعابد ، عن طريق تأجيرها ، أو إعادة تأجيرها من الباطن للمتزمين من الفلاحين سواء أكانت هذه العقود فردية أم جماعية . وكان جزء من أراضى الضياع الكبرى يدار عن طريق تأجير عمال لها ، وبعضهم كانوا موظفين دائمين فيها ، والعدد الأكبر كان يأتى عن طريق تأجيرهم طبقا للاحتياجات الموسمية . أما صغار المزارعين الذين شاء حسن حظهم أن يمتلكوا مساحة من الأرض ، فقد كانوا يقومون بالعمل فى أراضيهم كمشروع أسرى ،

وفضل آخرون أن يعطوا أراضيهم للمتزمين من الفلاحين ليقوموا بزراعتها ، أما إذا كان الفرد يمتلك عدة مساحات من الأراضى فى أماكن متفرقة فكان يقوم بزراعة أقربها إلى محل إقامته ، ثم يقوم بتأجير تلك التى تقع فى الأماكن البعيدة . ولم تعرف مصر الإنتاج الجماعى للمحاصيل الزراعية ، وتمدنا أغلب عقود الأراضى – التى لدينا – بعوائدها المحددة عليها سواء النقدية أو العينية أو كليهما معا .

اتبعت عقود تأجير الأراضى قواعد معينة كما هى العادة فى العقود القانونية ، حيث كان يذكر فيها جميعا صيغ محددة كانت تعد أركانا أساسية فيها لتعطيها قوة قانونية وتلزم بتنفيذها . وهناك أجزاء متغيرة فى العقود – إلى جانب أسماء المتعاقدين بطبيعة الحال ، وتاريخ العقد ، ومكانه – تتمثل فى مدة سريان العقد بالإضافة إلى شروط العقد ، والالتزامات التى اتفق عليها الطرفان والتى ذكرت بالتفصيل . وكانت الطريقة المعتادة لاختتام العقد تبدأ بذكر الثمن الشفوى أو المكتوب والموجه إلى المالك أو إلى ممثله القانونى . كان العقد بسيطا فى شكله ، ولكنه كان عبارة عن عقد موقع ومرسل إلى المرسل إليه ، لذلك انتشرت عادة كتابة عقود منفصلة ، مثل تلك الاتفاقات كانت تتم قبل موسم بذر الحبوب بفتره مبكرة ، وفى حالة ما إذا كان العقد سيسرى لأكثر من سنة جرت العادة على ذكر المحاصيل التى سيتم زراعتها بالتعاقب .

« إلى هيرون بن سارابيون القاصر Heron son of Sarapion ومعه الوصى عليه أيسخريون بن هيروديس Ischyrion son Herodes ، وفى حضور والدته هيروِيس Herois ، من أفروديسيوس بن أكوسيلاوس Aphrodisios son of Akousilaos من العاصمة (أرسينوى) ... أرغب فى أن أستأجر أراضى الكروم التى يملكها هيرون التى تقع بالقرب من قرية يوهيميريا Euhemeria ، وهى عبارة عن مساحة (١١) أرورا ، أو أيا ما كانت مساحتها فى قطعة واحدة لمدة سنتين منذ السنة الحالية، الثالثة والعشرين من حكم مولانا أنطونينوس قيصر، نظير إيجار ٤٠ أردب غلال (وليس من بينها حبوب البذور)، ويتم كيلها بالمكيال الرابع choinix الخاص بالمعبد ، دون أى استقطاع أو غش

(من قبل المستأجر) وأتعهد بتأدية الأعمال السنوية - العمل فى الجسور والرى والحراسة ، وحرث الأرض وتقليبها ، وتطهير المجارى المائية ، وبذر الحبوب ، واستئصال الحشائش الضارة ، وأى عمل آخر تحتاجه الأرض - على نفقتى الخاصة وفى الوقت المناسب ، بحيث لا يحدث أى إضرار بالأرض . وسوف أقوم فى السنة الأولى ببذر الأراضى بالمحصول الذى أختاره فيما عدا العُصفر ، أما فى السنة الثانية فسوف أقوم بزراعة نصف المساحة قمحا ، وأترك نصفها الآخر دون زراعة . كذلك أتعهد أنا أفروديسيوس Aphrodisios بدفع نفقات نقل المحصول السنوى ، وعلى هيرون أن يتحمل بقية الضرائب الأخرى . وسأقوم بتسليم عوائد الأرض من القمح فى شهر بئونة Payni ، من القمح الجديد ، النظيف غير المغشوش ، الخالى من الشعير فى قرية ثيادلفيا Theadelphia . وبعد انتهاء مدة العقد ، وبعد تمام حصاد المحصول الذى تمت زراعته أتعهد بتسليم الأرض نظيفة من أى مخلفات أو أعواد البوص والنخيل الصغير وأى مخلفات من أى نوع وذلك فى حالة الموافقة على العقد . وأبلغ أنا أفروديسيوس من العمر أربعين عاما ، ولدى علامة مميزة فى وسط الجبهة [التاريخ ١٩ نوفمبر ١٥٩]» (١٢) .

إن ذكر الحبوب فى الوثيقة السابقة يذكرنا بالمشكلة السنوية التى تواجه الملتزمين من الفلاحين ؛ إذ كانت هناك حاجة متكررة إلى اقتراضها لاستخدامها فى الزراعة أو لاقتراض الأموال اللازمة لشرائها . وبلغت فائدة القرض العينى ٥٠٪ من قيمته . وفى بعض الأحيان يتم ترتيب البذور مع المستأجر كجزء من شروط العقد ، وفى أحيان أخرى كان يتم اقتراضها من طرف ثالث ، وتمتع ملتزمو أراضى الدولة بميزة فى هذا الخصوص، فكان من حقهم الحصول على قرض من الحبوب من صومعة الدولة دون مقابل، ولكنهم كانوا يقومون بدفع جزء كبير من محصولهم نظير هذه الميزة كعائد للأرض أكبر من ذلك الذى كان يدفعه ملاك الأراضى الخاصة . وعند اقتراضهم من "مخزون حبوب الدولة" فإن مثل هذا الإجراء يقترن بقدر هائل من الروتين الرسمى العقيم الذى كان يهدف إلى منعهم أو على الأقل عدم تشجيعهم على التلاعب . وحتى

بالنسبة إلى القروض الصغيرة مثل ذلك القرض الذى بلغ واحد وربع أردب غلال فقط كان يحتاج أيضاً إلى مثل تلك الإجراءات الطويلة كما هو واضح من الوثيقة التالية :

« من أسكلبياديس Asklepiades مدير إقليم البهنسا إلى هيراكلاس Heraklas الذى يدعى أيضا هيراكليديس Herakleides ، رئيس صومعة الغلال الواقعة فى منطقة باكاركى Pakarke فى المركز الشرقى .. تحياتى .. عليك أن تقوم على مسئوليتى ومسئولية هيراكس Hierax الكاتب الملكى [للإقليم] بكيل غلال من أجود الأصناف من إنتاج السنة الماضية ، الثالثة عشرة لأبولونيوس بن هليودوروس Apollonios son of Heliodoros الذى تدعى والدته تائيس بنت خاريمون Thais d. of Chairemon من قرية البهنسا ، والذى يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، وله علامة مميزة على حاجبه الأيمن – وعليك أن تتعرف عليه على مسئوليتك الخاصة – وأن تكيل له واحد وربع أردب قمح قرضا لحاجته إليها لزراعة مساحة واحد وربع أرورا (تقع فى الناحية التى سبق ذكر تفصيلاتها) بالقرب من قرية أوفيس Ophis . على أن يكون القمح نظيفا غير مغشوش خاليا من الشوائب ، وأن يكون مغربلا أيضاً . وعليك أن تكيل له المقدار المذكور كاملا وهو واحد وربع أردب دون استقطاع أى جزء منه وفاء لدين أو لأى سبب آخر . وذلك حتى يتمكن من أن يقوم ببذرها فى الأرض كما ينبغى تحت إشراف الموظفين المختصين . وسوف يقوم بإعادة المقدار نفسه من المحصول الجديد بالإضافة إلى ضرائب الدولة على الأرض . وعليك أن تتسلم منه نسختين من إيصال التسلُّم القانونى ، وأن ترسل منهما نسخة إلىَّ . [التاريخ ١٤ نوفمبر ١٢٩ ، التوقيع لإثبات صحة توقيع هيراكس Hierax]» (١٣) .

وبالرغم من ذلك الحرص فى المراجعة وتلك الشهادات ، فقد كان يتم اختفاء كميات من غلال الدولة . ففى خطاب لم ينشر بعد من بردى جامعة ميتشيجان أرسله والى مصر فى القرن الثالث إلى مديرى إقليم الفيوم وهيبتاكوميا Heptanomia يؤنبهم على تسامحهم فيما قام به موظفو الصومعة من إهمال ، ويأمرهم بالتأكد "من أنه تم تسليم بذور الزراعة للمستحقين فقط" .

المراقبون المشار إليهم تم اختيارهم طبقًا لأوامر المدير فى خطابه السابق ، وكانت مناصبهم تعد جزءا من الخدمة العامة التى لا يدفع أجر عنها فى أثناء موسم الفيضان، للتأكد أن جميع البذور تمت زراعتها بالفعل ولم تتم سرقتها ، وإنها أيضًا زرعت فى موسمها المناسب . وقامت مجموعة من أمثال هؤلاء المراقبين بتقديم التقرير التالى فى ١١ سبتمبر سنة ١١٧م ، أى فى ذلك الوقت من السنة الذى كان يعهد فيه إليهم بالعمل بعد أن تكون مياه الفيضان قد بدأت فى تراجعها إلى مجرى النهر :

" إلى أبوللونيوس Apollonios مدير القرى السبعة فى إقليم أبوللونوبوليس Apollonopolis من بخريس بن بوريس Pcheris son of pouoris وأورسينوفوس ابن بيتيمنيس Orsenouphis son of Peteminis مراقبى الفيضان فى قرية نابوو Naboo نقسم بحياة مولانا الإمبراطور قيصر تراجان هادريان المعظم أغسطس جرمانيكوس داكيوس قاهر الفرس أن جميع المساحات من الأراضى المذكورة فى القائمة أدناه سيتم حرثها ، وستكون معدة لبذر الحبوب فى خلال ثلاثة أيام . أما إذا حدث عكس ذلك فسنكون معرضين لعقوبة الحنث بالقسم [أسماء التسعة من القرويين بينهم إغريقى واحد وتراوحت أراضى كل منهم بين أقل من أرورا إلى ست أرورات . التاريخ . التوقيع] قام بخريس بكتابة التقرير لأن أورسينوفوس كان أميا» (١٤) .

كان من الضرورى فى الشهور التى تعقب بذر الحبوب أن يقوم الفلاح برعاية زراعته وتأدية العمل المرتبط بها . وتضمنت بعض عقود الإيجار – كما رأينا سالفا – تفصيلات العمل الزراعى بالتحديد، كما قدمت أخرى – مثل النموذج التالى – تفصيلات مماثلة عن الأدوات التى تستخدم فى هذه الأملاك الزراعية :

«قام أوريليوس ديونيسثيون Aurelius Dionysotheon أو أى لقب آخر يحمله ، المدير السابق لمعهد التربية ، عضو مجلس شورى مدينة البهنسا بعمل عقد مع هاريوتيس بن فانيس وتانيخوتيس Haryotes son of Phanes and Tanechotes من كفر مونيموس Monimos لمدة أربع سنوات ابتداء من السنة الثالثة الجارية ، لتأجير مساحة من الأرض التى يمتلكها الأول والتى تقع بالقرب من كفر سكو SKO وكفر مونيموس

Monimos ، وتبلغ مساحتها ٢٢ أرورا والتى كان يزرعها المستأجر نفسه من قبل ، والتى توجد فيها عجلة مياه [ساقية] والأدوات اللازمة لها مع جميع قطع الخشب والحديد الخاصة بها ، على أن يقوم المستأجر بزراعتها بالقمح والخضراوات التى يختارها فيما عدا ورد النيل والعُصفر ، وذلك نظير إيجار سنوى محدد يبلغ ٤٥ أردبا من القمح وعشرة أرادب من حبوب الخضراوات ، بالإضافة إلى ٣٠٠ دراخمة نظير إيجار الماكينة . على أن يقوم المستأجر باستخدام عجلة المياه المذكورة سابقا فى رى الأراضى وأن يتكفل بإحضار الحيوانات لإدارتها والعامل الذى يشرف عليها ، وكل ما تحتاجه ، كما يتحمل المستأجر نفقات إصلاح العجلة وأجور النجارين وحراستها بدون تحايل . أما فى حالة عدم وصول مياه الفيضان إلى أى جزء من الأرض بعد العام الحالى فيجب أن يتم تسوية (الإيجار) والاتفاق على دفعه للمستأجر . ويقع على عاتق مالك الأرض دفع ضرائبها ويعتبر مالك المحصول الزراعى حتى يتم تسلُّمه لمستحقاته السنوية . وحيث إن المالك يضمن تنفيذ العقد ، فإنه يقع على المستأجر أن يسلم الإيجار كل عام فى شهر بئونة Payni من المحصول فى أثناء وجوده فى جرن غلال كفر مونيموس Monimos على أن يكون القمح غير مغشوش ، وخاليا من الشوائب ، وأن يستخدم فى كيله المكيال المستخدم فى الصومعة العامة ، وهو نفسه المكيال الرسمى لمالك الأرض ، ويتم كيل بذور [تقاوى] الخضراوات بمكيال معصرة الزيت . وعند انتهاء مدة العقد ، على المستأجر أن يعيد ماكينة الرى فى حالة جيدة غير بالية أو مهشمة . كما أنه ملزم بدفع ثمن أى شىء لا يعيده ، ويقع التعويض عليه وعلى كل أملاكه . هذا العقد واجب النفاذ [التاريخ سنة ٢٢٣ م]» (١٥) .

عندما يمضى الوقت، ويدفع المستأجر إيجاره، كان يحتاج إلى أن يكون لديه إيصال بطبيعة الحال ليثبت قيامه بتسليم ما عليه . وهنا نموذج للعديد من هذه الإيصالات :

« من ديمتريا التى تدعى أيضًا تاسيئوس بنت أبوللونيدس Taseus d. of Apolonides ، ومعى ابنى أرئيوس بن نيارخوس Areios s. of Nearchos والمدعو منخيس ممثلى القانون ... إلى أنوبيون بن سيرابيون Anoubion son of Serapion ،

ملتزم الزراعة ، تحياتى .. قمت بتسلُّم ما تم كيله لى من محصول السنة السابقة ، التاسعة من حكم مولانا هادريان قيصر ، نظير إيجار الأرض التى تقوم بزراعتها ، ولن أطالب بأى مستحقات أخرى من أى نوع ، ويتعين علىَّ أنا المالكة القيام بدفع ضرائبها [التاريخ ١٠ سبتمبر ١٢٥ م] أعمل أنا أرئيوس بن نيارخوس وكيلا قانونيا لوالدتى ، وقمت بكتابة هذا الإيصال نيابة عنها لعدم معرفتها بالكتابة »[١٦] .

ذكر العقد الذى سبق تقديمه قبل الإيصال السابق حاجة الفلاح إلى استئجار حراس. فطوال فترة نمو المحصول وخلال مواسم الحصاد كان يجب حراسة جميع المحاصيل والمعدات الزراعية ، ليس فقط ضد سرقتها ولكن أيضاً ضد اعتداء الماشية – التى ترعى فى المناطق القريبة – عليها . فقد كانت الماشية تسارع – لو تركت – إلى اقتحام حقول القمح وتلتهم ما فيها أو تطأ بأقدامها المزروعات ، لذلك فنحن نسمع مُرَّ الشكوى من رعاة الحيوانات الذين يتركون قطعانهم متعمدين فى حقول الآخرين . وفى النموذج التالى نرى التخريب الذى أحدثه القطعان فى قلب محصول الحصاد :

«إلى جايوس يوليوس فولوس Gaius Julius Pholos رئيس البوليس ، من بطلميوس بن ديديموس Ptolemais Son of Didymos موثق العقود فى قرية يوهيميريا Eahemeria التابعة لقسم ثيمستيس Themistes .. إنه فى يوم واحد بئونة الحالى للسنة الثالثة من حكم جايوس قيصر أغسطس جرمانيكوس [٢٦ مايو ٣٩] قام كل من سراس بن بطلميوس وسيراس بن بائيس Seras Son of Paes وأورسيوس الذى يسمى فيلكيس [= الوردى] بن هيراكليوديس وهم رعاة للأغنام ، بترك الأغنام ترعى طليقة فى مساحة من الأرض أملكها بالقرب من الجانب الغربى من القرية ، مزروعة بالشعير الذى كان لا يزال قائما فى الحقل ، بالإضافة إلى ما كان قد تم ضمه فى حزم والذى يبلغ حوالى ١٢ طنا من الشعير ، ولذلك فإننى أطالبك بإصدار أوامرك بإلقاء القبض على المتهمين وإحضارهم أمامك واتخاذ العقوبة اللازمة ضدهم ودمتم . »[١٧] .

مما لا شك فيه أن مثل هذه المخالفات كانت كثيرا ما تحدث على مدار السنة سواء عَرَضا أو متعمدة عندما يقل الكلأ فى المراعى ؛ ولذا يبدو أن الفلاحين كانوا

يلجأون إلى حراسة زراعاتهم بأنفسهم أو تعيين الحراس لها . ولا شك فى أن مثل تلك الإجراءات كانت تحقق قدرا من النتائج الطيبة، ولكن من الصعوبة بمكان أن تقوم بتأمينها تأمينا كاملا . فاعتداء الحيوانات على الأراضى الزراعية يعد ظاهرة مرتبطة بالعمل الزراعى، كما أن جهود السلطات المتكررة لمنع هذه الظاهرة لم تؤد إلى القضاء عليها ؛ ولذلك أصدر والى مصر فى أواخر القرن الثالث منشورا يهدد فيه " رعاة الأغنام الذين يتركون حيواناتهم ترعى بين المحاصيل بمصادرة هذه الحيوانات ، بالإضافة إلى تعرض راعى الأغنام نفسه لعقوبة شديدة" (١٨) . ومن المشكوك فيه أن يكون هذا المنشور قد حقق قدرا من النجاح أكثر من كونه نوعا من التحذير المبكر ، لأن جميع الدلائل تشير إلى استمرار الوضع كما كان عليه من قبل .

ومرت الشهور ، وتمت المحافظة على المحاصيل التى زرعت ، وبدأت دورة نموها تصل إلى فصلها الختامى . وبدأ الآن أفضل المواسم للجميع : موسم حصاد القمح ، فماذا يتبقى للفلاح من المحصول نتيجة جهده طوال العام ، إذا كان محصول العام متوسطا ؟ من الصعوبة بمكان أن نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال على الرغم من ثراء معلوماتنا عن تفاصيل النشاط الزراعى ؛ لأن ذلك هو السؤال الذى لم يقدم لنا البردى أى إجابة شافية عنه . وكانت أرض مصر فى نظر الإغريق والرومان ذات خصوبة أسطورية ، وسبق أن تحدث هيرودوت كما رأينا عن روعة خصوبتها ، كما اعتمدت مدينة روما عليها فى سد ثلث احتياجات شعبها من الغلال سنويا ، وبالرغم من ذلك لا يوجد مصدر واحد يحدثنا من بين تلك الكلمات العديدة عن المحصول المتوقع والكمية التى يتم الحصول عليها من الأرورا سنويا . وعلينا أن نحاول أن نصل إلى هذه الإجابة من خلال الأدلة غير المباشرة ، والتى يمكن أن نضعها جنبا إلى جنب حتى يمكننا التعرف على تلك الإجابة . إننا نعلم أن متوسط إنتاج الأرورا فى كل من إيطاليا وصقلية كان يبلغ خمسة أو ستة أضعاف (البذور)، وتراوحت الخصوبة فى الأرض

المرتفعة بين عشرة أضعاف وخمسة عشر ضعفا . وحيث إن الرومان كانوا مندهشين من خصوبة الأراضى المصرية فمن المحتمل أن ما كانوا يحصلون عليه من غلتها الزراعية كان يفوق العائد الذى كانوا يحصلون عليه من إيطاليا وصقلية .

ولدينا بعض معلومات قليلة من مناطق أخرى تفيد فى هذا المجال . فقد سجل فى أحد السطور ما يبدو أنه خمسة عشر ضعفا من الشعير لمدة خمس سنوات فى منطقة مارماريكا Marmarica التى تقع على ساحل البحر المتوسط على بعد عدة مئات من الكيلو مترات غربى دلتا النيل .

أما الدليل الآخر فهو من القرن السادس الميلادى ، وخاص بمنطقة حرس الحدود التى تقع اليوم فى صحراء النقب فى إسرائيل ، حيث يتضح أن الحقول التى تم ريها فى هذه المنطقة الصحراوية تنتج محصولا يبلغ حوالى سبعة أضعاف من القمح ، وثمانية أضعاف أو أكثر من الشعير . ومرة أخرى فنحن نتوقع أن يكون محصول مصر ذات الخصوبة الخرافية أكبر من تلك المحاصيل . وأخيرا لدينا نوعان من المصادر من مصر، تقدم لنا معلومات لها ارتباط بهذا الموضوع ، يتمثل الأول فى ضرائب الثمانية والأربعة عشر أردبا على الأرورا (الفصل الثامن)، وهذا يوضح لنا بجلاء مدى ارتفاع كمية المحصول، ويتمثل الثانى فى تلك الوثائق التى سبق تقديمها فى هذا الفصل – والوثائق الأخرى المماثلة – التى تكشف أن العادة جرت على أن يبذر فى الأرورا الواحدة أردبًا واحدًا من الغلال ، وأن العوائد العينية تراوحت بين ٦ و ٩ أرادب غلال على الأرورا الواحدة بصفة عامة (وسجل فى مثال واحد فقط إيجارًا عينيا بلغ ستة أضعاف البذور). وإذا كانت الأدلة التى لدينا والخاصة بالاتفاق المقترح فى اشتراك المالك والزارع فى غلة الأرض ، وكانت قيمة الإيجار تتراوح بين ثلث المحصول المتوقع وثلثيه ، فإن العقود السابقة تقدم متوسطا لمحصول يتراوح بين (٩) و (٢٧) ضعفا لكمية الحبوب التى تمت زراعتها. وهذا المتوسط يتفق تماما مع ما تشير إليه البيانات التى وردت من خارج مصر ، بالإضافة إلى التفاوت فى الخصوبة بين الأراضى الهامشية وتلك ذات الجودة المرتفعة [١٩] .

فى أثناء فترة الحصاد كانت هناك حاجة شديدة إلى أيد عاملة إضافية ، فالبعض يقوم (كما رأينا منذ فترة قليلة) بحراسة المحاصيل التى لم يتم حصادها بعد ، وكذلك ما تم حصاده؛ خوفا من أن يقوم اللصوص بسرقتها أو تقوم الحيوانات بالاعتداء عليها، فى حين يقوم بقية العمال بعملية الحصاد نفسها. ويتم تأجير عمال بالأجر اليومى ، من أى مكان يوجدون فيه، وكان يتم تأجيرهم فى بعض الأحيان من أماكن بعيدة، مما كان يؤدى إلى منحهم أجرا إضافيا يعادل نصف أجرهم العادى نظير رحلتهم الطويلة من مكان العمل وإليه (*) .

وبعد أن يتم جمع حزم القش ، يتم ربطها وتحمل على ظهور الحمير أو الجمال لنقلها إلى جرن غلال القرية. وامتلكت الضياع الكبيرة الأجران الخاصة بها. وذكر أحد

(*) كشفت لنا أوراق بردى أسرة سرابيون Sarapion (من إقليم هرموبوليس ماجنا Hermopolis Magna) التى كانت تمثل طبقة كبار الملاك فيها عن وثائق ثلاثة خاصة بعقود تأجير عمال فى أراضيها ، ونلاحظ من هذه العقود الثلاثة أن العمال قاموا بالتوقيع الجماعى على العقد الذى تم قبل موسم الحصاد ، وحصل كل منهم على مبلغ أربع دراخمات مقدما ، واشترط صاحب الأرض على العمال القيام بعملهم دون توقف ، ولم يكن من الممكن استبدال آخرين ضعفاء بهم . وتعهد المالك بتسليمهم بقية أجرهم النقدى فى نهاية موسم الحصاد وقبل درس القمح . وجرت العادة على أن يقدم صاحب العمل للعمال فى أثناء العمل الجعة والنبيذ، وكان يشترط فى بعض الأحيان تقديم مكافأة لهم فى نهاية موسم الحصاد مثل أردب من العدس أو كمية من التمر أو القش .

وتباينت أجور عمال الزراعة من فصل لآخر ، وتبعا لسن العامل ونوع العمل الذى يقوم به . وكانت أجور العمال المتخصصين أكبر من غيرهم . وتراوحت أجرة العامل فى فترة الفيضان بين ٣ و ٤ أوبلات يوميا ؛ والصبى بين ٢ و ٢ $\frac{1}{2}$ أوبل ، وبلغت أثناء بذر الحبوب فى شهر هاتور ٤ و ٥ أوبلات ؛ وخلال شهر طوبة وأمشير ، أى فترة قص وتهذيب الأشجار بين ٣ ، ٦ أوبلات ؛ وبين ٦و٧ أوبلات لعامل ضخ المياه ، ٤ و٦ أوبلات لمن يقوم بتسميد الأرض . أما الصبى الذى يقوم بتنظيف الأرض من الأعشاب الضارة فتراوحت أجرته بين ٢ و ٢ $\frac{1}{2}$ أوبل وتفاوتت أجرة العامل الذى يقوم بجمع العيدان الجافة من الحقل بعد الحصاد بين ٢ و ٣ أوبلات ؛ وعامل درس القمح بين ٣ و ٤ أوبلات ؛ وجامع الكروم ٥ أوبلات يوميا .

راجع : P.Sarapion, 49 (A.D. 123); 50 (AD. 124); P. Lond. 131 R (A.D. 78) = Johnson, Roman Egypt, p.104; J. Schwartz, " La trrre d. Egypte au temps de Tragan et d'Headrien : Archive de Sarapion"Chronique d' Egypte, xxxIV, 1959) P. 349. (المترجمة)

الأفراد فى دفتر حساب النفقات التى أنفقها على هذا العمل لمدة أربعة أيام من شهر بشنس Pachon (مايو) حيث قام باستئجار الحطابين، ودفع لكل منهم أجرا بلغ ثلاث دراخمات ونصف يوميا ، ولما كانت هناك حاجة لمثل هذا العمل فى هذا الموسم كان الحطاب يحصل على أجر يعادل أجر العامل الفنى. كما دفع مبلغ دراخمتين نظير تأجير الحمار يوميا ، وحصل سائقه – وهو عمل كان يمكن أن يقوم به أى فرد حتى الصبية – على مبلغ أوبل واحد (*) أو أقل (٢٠) .

ولا نعرف كيف كان يتم تنظيم مرور العمل فى جرن الغلال ، ويبدو أن الذى كان يصل أولا كان يتم خدمته أولا. ويفترض عند هذه المرحلة أن يكون الفلاح قد أخلى مسئوليته الكاملة عن المحصول، فالآن تم دفع ضرائب الأرض من قبل ملاكها ومستأجريها. وعندما يصل القمح محمولا إلى الدولة يكون قد وصل إليها بوصفه ضرائب مقررة لها . وكانت القرى فى حاجة إلى بعض الحراس لحماية الغلال الموجودة فى الأجران من خطر سرقتها ، كما كان على المراقبين أن يقوموا بمراجعة القمح خوفا من أن يكون مغشوشا أو ناقصا. وقام رجال كل منطقة بأداء هذا العمل بصفة دورية دون أن يدفع لهم أجر مقابل ذلك (الفصل الثامن) ، وعلى سبيل المثال نقرأ فى إحدى الوثائق البردية تعيين قرويين لأداء الواجبات التالية : لمراقبة ميزان ضرائب القمح العينية والتأكد من نظافته وعدم غشه ، ومساعدة محصلى ضرائب الغلال فى حراسة الصوامع العامة ، وختمها جيداً (٢١) .

هذه الواجبات التى سبق أن قمنا بذكرها ، تذكرنا بأن مسئولية الفلاحين لا تنتهى بوصول القمح إلى جرن الغلال ؛ إذ كان عليهم أن يسلموا جزءا منه للصومعة المحلية حيث يخزن فيها ليسلم ضرائب للدولة ، وجزءا آخر كان يتم تسليمه لدفع الحسابات الخاصة بملاك الأراضى الخاصة بطبيعة الحال . وسبق أن رأينا أن بعض المؤجرين

(*) الدراخمة = ٦ أوبلات ، والأوبل = ٨ خالكى . (المترجمة)

قد اشترطوا على المستأجرين تسلم إيجار أراضيهم العينى فى الأجران ، حيث كانوا يقومون بعد ذلك بنقله ، بينما فضل آخرون - وهم الغالبية - تسلُّم إيجار أراضيهم العينى فى الصومعة المحلية . وجرت العادة على أن يذكر فى عقود تأجير الأراضى نص يلزم المؤجر بدفع نفقات نقل إيجاره من المحصول ، بينما يقوم المستأجر بدفع نفقات ذلك الجزء الخاص بضرائب الدولة . وكان يحرر له عند تسليم القمح للصومعة إيصال مكتوب ، ولدينا مئات من هذه الإيصالات المدونة على الأوستراكا وأوراق البردى وإليك نموذجا منها مؤرخ بعام ١٨٠ م :

« تم كيل الغلال فى الصومعة العامة من محصول العام الماضى ١٩ من حكم مولانا أوريليوس أنطونينوس Aurelius Antoninos ومولانا كومودوس قيصر Com-modus Caesar على يد محصلى ضرائب القمح فى المركز الغربى لحساب سيرابيون ابن خاريسيوس Sarapion Son of Charisios من منطقة إيبيسيموس، وبلغ مقداره (٤) أرادب غلال [كتابة بيد آخر] قمت أنا ديوجنيس Diogenes محصل ضرائب الغلال بالتوقيع وأشهد على تسلُّم أربعة أرادب من القمح » [٢٢] .

وحتى عندما يقوم الفلاح بتسليم ضرائب القمح للصومعة العامة لم يكن معنى ذلك انتهاء التزاماته ، فعليه بعد ذلك أن يساعد فى نقل القمح من الصومعة إلى أقرب ميناء نهرى لكى تحمله المراكب وتتجه به إلى الإسكندرية (حيث يتم شحنه من هناك إلى روما) . وسوف نقوم بإلقاء نظرة تفصيلية على هذا الموضوع الخاص بتحصيل الضرائب فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

وأخيرا ماذا عن القش الذى يتخلف عن درس القمح ؟ هل كان يترك فى جرن الغلال لتذروه الرياح ؟ من الصعب أن يكون الأمر كذلك، والمعروف فى الاقتصاد الزراعى أنه تتم الاستفادة من كل عنصر من عناصر المنتج الزراعى . لقد استخدمت أعواد القش التى تم فصلها عن القمح فى مصر الرومانية وقوداً - على سبيل المثال - لتدفئة مياه الحمامات العامة وفى معسكرات الجيش .

المحاصيل النقدية

تعد الغلال القاعدة العريضة لإنتاج مصر الزراعى ، ولكنها ليست المحصول الوحيد الذى ينتجه المزارعون المصريون ، لقد تنوع إنتاج مصر فى العصر الرومانى ، وخصصت مساحات من الأراضى ، كبيرة وصغيرة ، لزراعة أشجار الكروم . واعتبر المصريون فى أساطيرهم واحتفالاتهم - مثلهم فى ذلك مثل الإغريق والرومان - أن الكروم هدية من الآلهة ، وكان أوزيريس هو ذلك الإله بالنسبة إلى المصريين . وهناك ما يؤكد وجود زراعة الكروم فى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ ، واستمر إنتاجه فى مصر حتى منعه العرب بعد فتح مصر طبقًا للعقيدة الإسلامية (*) . وجاء ذكر أكثر من اثنى عشر نوعا من أنواع الكروم فى مصر خلال العصر الرومانى ، وتم أقلمة بعض الأنواع التى تم استيرادها من أنحاء متفرقة من العالم الإغريقى (مثل جزيرة خيوس Chios وكيليكيا Cilicia ... ، إلخ) .

وكانت مزارع الكروم - على عكس مزارع الغلال - يتم إحاطتها بالأسوار لحمايتها من اعتداء الحيوان أو الإنسان عليها، وكثيرا ما زرعت أشجار النخيل مع أشجار الزيتون لتلقى بظلالها على أشجار الكروم ، وتحميها من أشعة شمس مصر الحارقة . وكانت مواسم الكروم تتبادل مع مواسم محاصيل الغلال ، ففى خلال شهرى يناير وفبراير بعد أن يتم بذر محصول الغلال كان يأتى ميعاد تشذيب أشجار الكروم القديمة، وحرث الأرض لزراعة أشجار كروم جديدة ، ووضع العُقل الجديدة وترقيدها . ويبدأ محصول الكروم فى النضج فى شهرى أغسطس وسبتمبر وبعد تمام جنى محصول القمح . ويتم جمع العنب الناضج فى سلال ويحمل فى طاولات مصنوعة من الخشب أو الحجر ، حيث يداس بالأقدام . واستخدم عازف المزمار فى بعض الأحيان ليخفف من رتابة العمل. ويُحمل المزيج الذى ينتج عن هذا العمل إلى المعصرة لعصره ، ثم يصفى ويوضع فى أوان خزفية وتغلق بإحكام (وقد عالج القدماء الأوانى الفخارية

(*) لم تذكر المصادر الخاصة بفتح العرب مصر أنه تم منع زراعة الكروم فيها طبقًا للعقيدة الإسلامية ، لأن الإسلام لا يحرم زراعة الكروم لأنه نوع من الفاكهة ، ولكنه يحرم شرب الخمر الذى يصنع من كثير من أنواع الفاكهة وليس الكروم فقط . (المترجمة)

ذات المسام بوضع طبقة من القار لتبطين جدارها الداخلى ، ومن أجل تلك الطريقة اشتهرت بلاد الإغريق ومازالت بجمع العنب)، ثم تُعرَّض الأوانى بعد ذلك لأشعة الشمس سواء مباشرة أو بعد عدة أشهر، وينتج عن حرارة الشمس تخثر النبيذ ويصبح سميكا – على الأقل بالنسبة للذوق المحلى – ومسكراً . ثم يتم تصفيته ووضعه فى أوان أخرى جديدة ، وهكذا يصبح معدا للاستهلاك . أما النبيذ الذى لم يكن يستهلك مباشرة فكان يحفظ فى مستودعات فى مكان بعيد ويوضع على الأوانى بياناته وسنة إنتاجه .

وجاء وصف العمل فى حدائق الكروم فى هذه المناقصة التى يقوم بها ثلاثة أشخاص والمؤرخة بتاريخ ٢١ ديسمبر سنة ٢٦٠ م ، والمقدمة إلى أوريليوس سيرنوس Aurelius Serenus المدعو سارابيون Sarapion وكان من كبار الملاك الذين يقيمون فى البهنسا:

«نتقدم إليك ونحن بكامل إرادتنا بطلب لكى نؤجر منك جميع عمليات العناية بضيعة الكروم لمدة عام يبدأ فى واحد هاتور من السنة السادسة الحالية، وذلك فى مزرعة الكروم الخاصة بك والأرض المزروعة بالبوص الملحقة بها فى الأراضى التى تملكها بالقرب من قرية تانايس Tanais أيا كانت مساحتها ، ويكون لى أنا أوريليوس كتستوس Aurelius Ktistos وابنى نصف المساحة ولبيلويس Peloios والآخرين نصفها الآخر . على أن يجرى العمل فيها على النحو التالى : بخصوص حدائق الكروم، زرع البوص وإزالته وإلقاؤه خارج جدران الجدار الطينى ، وتوليد أكبر عدد من أشجار الكروم عن طريق ترقيدها [تحت الأرض] وتقليب الأرض وتجريفها ، وحفر الجور حول أشجار الكروم ، ويقوم المالك بتزويدنا بقوائم خشبية لتقوية أشجار الكروم أما القيام بوضع هذه القوائم الخشبية فيقع على عاتقنا. كذلك يقع علينا أداء بقية العمل الذى ورد سابقا وهو بالتحديد: غرس الشتلات ، وانتزاع البراعم الزائدة عن الحاجة ، وتغذية النبات ، وإبعاد الأغصان عن بعضها، وربطها [إلى القوائم]، وتخفيف ورق الشجر طبقًا للحاجة . أما فيما يخص نبات البوص ، فعملنا هو القيام بتهذيب الشجيرات مرتين ، وريها واستئصال الحشائش الضارة ، وسوف نقوم بهذا العمل جنبا إلى جنب فى حدائق الكروم وزراعة البوص ، وعلينا إحضار الحمير المحملة

بالطمى لتحصل الأرض على حاجتها من السماد. سنقوم باختبار الأوانى التى سوف تستخدم فى حفظ النبيذ ونتأكد من أنها جيدة ، وعندما يتم ملؤها بالنبيذ سنقوم بتخزينها فى مكان مشمس ، وأن نبقى على سيولة العصير وأن نعمل على دوام تحريكه، ثم نقوم بعد ذلك بنقل النبيذ إلى أوان نظيفة ، ونقوم بحراستها فى أثناء تعريضها للشمس . على أن يكون أجرنا عن كل العمليات السابقة ٤٥٠٠ دراخمة فضية ، و١٠ أرادب من القمح ، و٤ جرار من النبيذ المحفوظ فى براميل . وسيتم دفع الأجر على دفعات فى أثناء مراحل القيام بالعمل . كما أننا نرغب فى أن نؤجر منك لمدة عام إنتاج محصول النخيل وجميع أشجار الفاكهة القائمة فى حديقة الكروم القديمة ، وسنقوم بدفع إيجارها على حدة ، ويبلغ هذا الإيجار أردبا ونصف من البلح الطازج ، وأردبا ونصف من البلح المكبوس ، وأردبا ونصف من البلح المحشو بالجوز ، وأردبا ونصف من الزيتون الأسود [٢٣] و ٥٠٠ ثمرة خوخ منتقاة ، و ١٥ ثمرة نارنج ، و ٤٠٠ ثمرة تين صيفى [مقطوفة] قبل فيضان النيل ، و٥٠٠ ثمرة من التين الشوكى [٢٤] ، و٤ شمامات بيضاء كبيرة . وبالإضافة إلى ما تقدم فإننا سنقوم بحرث حديقة الفاكهة التى تقع جنوب حديقة الكروم ونرويها وننظفها من الأعشاب الضارة ونتعهد بالقيام بكل الأعمال الموسمية المطلوبة .. أما وضع السنادات الخشبية وفرش الطمى فيقع على المالك . [يتبع ذلك التعهد العادى بالقيام بكل الأعمال على نحو جيد وإعادة الأرض بعد انتهاء مدة العقد فى حالة جيدة وخالية من النباتات الضارة . التاريخ]» [٢٥] .

يعد الزيتون أحد المحاصيل الرئيسية ، وهو ينمو منذ تاريخ غير معروف . ويتفق تشذيب شجره وزراعته مع سير العمل فى حدائق الكروم ، ويتم جنى محصوله فى الفترة بين أواخر أكتوبر حتى نهاية يناير - كما هو سائد فى أراضى حوض البحر المتوسط - عقب جنى ثمار العنب وقبل أن يبدأ الفلاح فى الانشغال فى حصاد القمح . ونقرأ فى إحدى وثائق عام ١٧٧ م أن هناك ٣٦ شجرة زيتون كانت تنتشر فى مساحة تبلغ ٢ أرورا ، وهذا يعنى إمكانية زراعة حوالى ١٠٠ شجرة زيتون فى كل هكتار . وهى نسبة لا تختلف عن نظيرتها الموجودة الآن فى بلاد اليونان . وانتشرت أشجار النخيل - كما كان الحال فى حدائق الكروم - فى حدائق الزيتون ، وأحيطت حدائق الزيتون بالأسوار لحمايتها من هجوم الحيوانات عليها من المزارع

القريبة . وتحدثنا شكوى قدمت إلى البوليس فى عام ٢٤ م عن قيام المواشى بتدمير ٢٠٠ شجرة صغيرة عندما قامت بقضم عصارة رءوسها ، ويبدو أن هذه الحديقة لم تكن مسورة (٢٦) .

وسبق أن رأينا أنه فى عملية إنتاج كل من الغلال والكروم كان يمكن للمزارعين ، مع من يتم استئجارهم للمساعدة فى العمل عند الحاجة أن يقوموا بالحصاد والأعمال الأخرى الملحقة به، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى الزيتون. فقد كان يتم استخدام كميات قليلة من محصوله سواء أكانت طازجة أم مملحة فى الطعام ، أما الجزء الأكبر منه فيخصص للحصول على زيت الزيتون. لذلك كانت هناك حاجة إلى معصرة الزيت ، ولما كانت المعصرة عبارة عن مصنع مركب ، لذلك كانت فوق إمكانيات الفلاح المتوسط الحال بطبيعة الحال ؛ لذلك كان على زارع الزيتون أن يحمل محصوله إلى المعصرة : إما لبيعه لها أو يقوم بدفع أجر عصره (نقدا أو عينا) .

كما نمت فى مصر بوفرة نباتات زيتية أخرى مثل نبات الخروع ، ونبات الكتان (للحصول على زيت بذر الكتان) ، والعصفر ، والسمسم . وكانت الحاجة ماسة إلى الزيتون خلال العصور القديمة حيث كان يؤدى ثلاثة أغراض رئيسية فى الحياة اليومية ، فقد استخدمت أفضل الأنواع من زيت الزيتون لتدليك الجسم خاصة بعد التدريبات الرياضية والحمام ، وكذلك فى الأغراض الطبية. أما الاستخدام الثانى للزيت المتوسط الجودة فكان لاستهلاكه فى الطعام ، وفى الطهو كالزبد فى العالم القديم . واستخدمت أقل درجاته لإشعال الفتيل فى مصابيح الإضاءة .

ووجدت أشجار النخيل فى مصر منذ أقدم العصور وحتى الآن ، وهى تنمو تلقائيا فى المناطق الصحراوية ، ولاحظنا سابقًا أنها تنتشر فى حدائق الكروم والزيتون، وتصنع المكانس والسلال المضفورة من خوصها ، وتؤكل ثمرتها إما طازجة أو مجففة . ويتم نضج البلح فى الفترة من سبتمبر حتى ديسمبر ، وتصل ذروة حصاده فى شهر أكتوبر ، بعد أن يتم جنى محصول الكروم ، ويبدأ الزيتون فى مراحل نضجه ، ومن بين الأنواع العديدة التى كانت لها شهرتها يأتى البلح السورى الذى كانت له قيمة كبيرة .

ومن بين أنواع الفاكهة المهمة الأخرى التى كانت تنمو فى مصر يأتى اللارنج والخوخ والكمثرى ، ويمكننا أن نضيف إليها التفاح والخروب والمكسرات والرمان (*) .

أما أهم محاصيل الخضراوات فهى: الفول ، والثوم ، والعدس، والبازلاء ، والحمص الجبلى ، وكان إنتاج البقوليات متنوعا ولكن حيث إنها تحتوى على الكربوهيدرات بصفة أساسية ، لذلك لم تكن تثرى الوجبة التى كانت تعتمد على الغلال اعتمادا رئيسيا .

وكان لابد من إطعام الحيوانات الأليفة ، واعتمد طعامها الرئيسى على الحشائش ، وهى تنمو بصفة دائمة فى المراعى وفى الحقول الصالحة للزراعة فى السنوات التى تستريح فيها الأرض من زراعة الغلال .. لذلك كان الحصول على الحشائش الخضراء شيئا متوافرا طوال العام ، وبالرغم من ذلك تم تجفيف جزء منها لاستخدامه عند الحاجة . وفى بعض الأحيان كان يتم خلطه بالحمص والشعير ليقدم للحيوانات غذاءً إضافيا .

وأخيرا كانت توجد عدة محاصيل زراعية مهمة أخرى لم يكن الهدف منها تقديمها غذاءً ، مثل الصوف الذى يجز من الخراف والذى سوف نتناوله بالدراسة عند الحديث عن الحيوانات الأليفة . كذلك كان لنبات الكتان فائدة مزدوجة : فمن حبوبه يستخرج الزيت ، وكان يصنع منه نسيج الكتان . كما تم إنتاج كميات صغيرة من القطن الذى كان يسمى كما يسميه الألمان اليوم "شجرة الصوف"، واشتهرت مصر بنوع ممتاز من النسيج يسمى بيسوس byssos ويبدو أنه – وقد اختلف الباحثون فيه – إما أنه نوع ممتاز من القطن الصافى أو أنه كان نوعا من الكتان الشفاف ، ويبدو أن الأمر الثانى هو أكثر احتمالا .

ويعد نبات البردى من أهم المحاصيل النقدية ، وهو نبات مائى دوار ، ينمو بكثرة فى المستنقعات المنخفضة فى الدلتا التى يصلها مياه الفيضان . ومنذ فترة مبكرة

(*) وكذلك التين والشمام ، انظر ص ١٩٣ والهوامش . (المترجمة)

ترجع إلى حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. اكتشف المصريون كيف يمكنهم صناعة الورق منه عن طريق كبس شرائحه المقطوعة من طبقات ساق النبات . وليس لدينا معلومات يمكننا أن نعرف منها مدى زراعته فى أنحاء العالم القديم ، ولكن يمكننا أن نقول إنه كان ينمو بصورة تجارية فى مصر فقط ، حيث كان يتم تصديره من الإسكندرية إلى بقية أنحاء حوض البحر المتوسط حتى أوائل العصور الوسطى ، وذلك عندما أحضر العرب معهم فى أثناء فتوحاتهم طريقة استخدام الورق المصنوع من الأسمال البالية ، والذى كان يتم تصنيعه بالطريقة التى تعلمها العرب من الصينيين (*) .

استخدم البردى فى مصر فى أغراض متعددة ، فقد ربطت سيقان النبات مع بعضها ربطا جيدا فى شكل حزم صنعت منها زوارق خفيفة ولكنها متينة ذات غاطس سطحى وكان لها صارٍ يبدو بين الأحراش، وهى تشبه زوارق اليوم، واستخدمها الملوك وحكام المقاطعات فى الرياضة ، وكذلك صائدو الأسماك والطيور فى كسب قوت يومهم (وانتشر حديثا استخدام زوارق البردى وتعويمها بطريقة استعراضية منذ أن قام المكتشف ثيوثور هايردال ببناء سفينة بردى وأبحر بها عابرا المحيط الأطلنطى) (٢٧) . كذلك صنعت من تاج نبات البردى الأكاليل الأنيقة التى كانت على شكل الريش وشكلت فى ضفائر ، وزينت بها تماثيل الآلهة والملوك . أما ساق النبات فكان يؤكل إذا كان صغيرا ولينا ، حيث كان يتم مضغ عصارته لامتصاصها ثم يلقى باللباب بعد ذلك ، أو كان يسلق أو يشوى . واستخدم الجزء الصلب من الجذر وقوداً أو فى صناعة الأثاث أو الأدوات ، أما الألياف التى كانت متخلفة عن لحاء النبات بعد إزالته فى أثناء عملية صناعة الورق فقد استخدمت فى أغراض متعددة بعد حياكتها مثل استخدامها فى صناعة السلال ، وفى المراتب وفى الوسائد والأغطية وأشرعة السفن والحبال وفتيل مصابيح الإضاءة ، وأيضا فى صناعة الثياب والصنادل وبخاصة تلك الصنادل الأنيقة التى تم العثور عليها فى المقابر المصرية .

(*) عن صناعة الورق من نبات البردى راجع : عبد اللطيف أحمد على ، مصادر التاريخ الرومانى ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٥١ – ١٦٤ . (المترجمة)

ويبدو أن جني محصول البردى كان ممكنا طوال العام . فقد منح حق جمعه فى إحدى الوثائق فى الفترة من يناير حتى أغسطس ، وفى وثيقة أخرى من الفيوم سجل دفع مبلغ ٢٠٠٠٠ دراخمة فى ٩ نوفمبر عام ١٧٤ م نظير جنى نبات البردى . وهناك عقد يرجع إلى عهد أغسطس تم فيه تأجير حق جنى نبات البردى فى منطقة الدلتا وحصاده يوميا لمدة ستة أشهر ابتداء من أواخر يونيو حتى أواخر نوفمبر . ويعطينا هذا العقد صورة عن عدد أعواد النبات التى كان يمكن الحصول عليها من زراعة واحدة . هذا الرقم يتراجع فى خيالنا إذا أدركنا أن مصر كانت تمد جميع أنحاء عالم البحر المتوسط فى العصور القديمة بمادة الكتابة . وقام مستأجرو الزراعة باقتراض مبلغ ٢٠٠دراخمة ، وهو مبلغ كانت فائدته العادية تصل إلى ٢ دراخمة فى الشهر، وفى نظير ذلك وافق المستدينون على أن يقوموا ببيع كمية من المحصول اليومى تصل فى إجمالها إلى ٢٠٠٠٠ حمولة ذراع واحدة ، و٣٣٠٠ حمولة ستة أذرع من سيقان البردى للدائن بسعر أقل من سعر السوق نظير عدم دفع فائدة عن قرضهم[٢٨] .

وفى عام ٢ ق.م. تم تأجير زراعة بردى أخرى فى منطقة الدلتا لمدة سنتين، وظهرت فى هذه الوثيقة ذروة فترة حصاد البردى التى كانت تبدأ منذ شهر مارس حتى نهاية شهر أغسطس ، وبلغ الإيجار الذى دفع عن هذه الفترة أكثر من ضعف الإيجار الذى تم دفعه فى شهور السنة الأخرى ، ووافق المستأجرون على أول شرط من شروط العقد العديدة ، وهو أن يتعهدوا بعدم دفع أجور لليد العاملة أكثر من مستوى الأجور المعروفة فى المنطقة، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأنه كان يوجد اتحاد لمنتجى زراعة البردى للمحافظة على أرباحهم المرتفعة عن طريق عدم الدخول فى مزايدات للحصول على العمال الذين يحتاجون إليهم [٢٩] .

الحيوانات الأليفة

قام المصريون بتربية بعض الحيوانات للحصول على قوة محركة للعمليات الزراعية، وتربية حيوانات أخرى لتمدهم بمصدر غذائى وذلك للحصول على البروتين والدهن للغذاء الذى كان يعتمد فى أساسه على الكربوهيدرات . وأدت بعض الحيوانات

الهدفين السابقين معا، كما استخدم روث الحيوانات سماداً عضويا له قيمته بالإضافة إلى غرين النيل فى تخصيب الأراضى الزراعية .

ويعد الحمار حيوان الحمل الرئيسى فى مصر القديمة ، ويليه فى الأهمية الجمل . وحملت هذه الحيوانات على ظهورها كل ما يحتاجه العمل فى الأرض أو تنتجه، مثل آلات الفلاحة ، والطمى ، وأجولة البذور والمحاصيل ، وجرار النبيذ والزيت ، بالإضافة إلى حملها الأفراد فى أثناء ذهابهم وإيابهم من أماكن عملهم .

ولدينا نحو ستين وثيقة عن الحمير فى القرون الثلاثة الأولى من العصر الرومانى ، ونحو نصف عددها عن الجمال. ومنها نعلم أن ثمن الحمار فى القرن الثانى (الذى ترجع إليه أغلب الوثائق التى لدينا) كان يتفاوت حسب عمره ونوعه وحالته العامة ، بين ٣٥٠ و ٥٠٠ دراخمة ، وتراوح ثمن الجمل بين ٢٠٠ و ٨٠٠ دراخمة . وأقل سعر من الأسعار السابقة كان يمثل أجرة العامل الزراعى فى فترة تتراوح بين شهرين وأربعة أشهر ، أو ثمن ٦ – ٧ أرادب قمح ، وهى كمية كانت تكفى لإطعام عائلة لفترة تتراوح بين شهرين وأربعة أشهر . وعلى الرغم من ذلك كان وجود حيوانات الحمل أمرا ضروريا للفلاح حتى لزراعة مساحة صغيرة من الأرض . وقام صغار الفلاحين بتدبير الأموال من القليل الذى يمتلكونه حتى يمكنهم امتلاك حيوان واحد على الأقل أو اثنين . أما المعدمون من المزارعين من الذين كانوا لا يستطيعون توفير ثمن شرائه ، فكانوا يقومون باستئجار الحيوانات التى يحتاجون إليها من الإصطبلات التجارية ، أو يتفقون مع بعض ملاك الحمير لتأجيرها لهم ، ولم يكن من بين هؤلاء ملاك الأراضى التى يعملون بها .

وجاء استخدام الخيول الرئيسى فى امتطاء الفرسان لها . وقلة قليلة من كبار الملاك من امتلكوها كنوع من أنواع الترف الذى كان يمارسه الأثرياء والذى يتمثل فى التمتع برياضتها .

كذلك استخدمت حيوانات الحمل لأغراض الجر ، وحملت الثيران أثقل الأحمال سواء أكانت فردية أم زوجية ، فالثور كان يجر المحراث ، ويدير عجلة المياه (الساقية) ، وينقل مواد البناء .

وإلى جانب الثيران هناك من الماشية الضخمة الأبقار والجاموس واستخدمت الأخيرة للحمل والجر . ومثل هذه الحيوانات كانت تحتاج إلى إصطبل بطبيعة الحال. واستخدمت الأبقار والعجول الصغيرة كى تقدم أضاحى تنحر للذبح فى الأعياد الكبيرة (أما الأعياد الصغيرة فاستخدمت الحيوانات الصغيرة فى أضاحيها). وجرت العادة على حرق جزء صغير من الذبيحة وتقديمه إلى الآلهة ، أما الجزء الباقى فيستهلكه الأفراد بعد الاحتفال . واستخدم لبن الأبقار فى أغلب الأحيان طازجا ، وكان ينظر إليه على أنه أدنى درجة من لبن الماعز والأغنام فى صناعة الجبن . وهى نظرة الإغريق نفسها إليه كما نقرأ فى كتب أرسطو .. ولكن الرومان هم الذين صنعوا الجبن من لبن الأبقار وجعلوا أهميتها الغذائية تفوق الجميع [٣٠] .

أما الحيوانات الصغيرة فتمثلت فى الخراف والماعز والخنازير . واستخدمت الخنازير فى البداية للسير على بذور الحبوب بعد بذرها لغرسها فى التربة ، كما استخدمت لدك الغلال فى الصوامع . وكان تناول لحومها ممنوعا طبقًا للعقيدة المصرية واليهودية ، وكان محظورا حتى أواخر القرن الثالث استخدام الخنازير فى الأضاحى الدينية . ولكن لحمها كان هو المفضل عند كل من الإغريق والرومان ، لذلك أصدر الإمبراطور كاراكالا مرسومه عام ٢١٥ م بطرد المصريين غير المقيمين أصلا من الإسكندرية ، واستثنى تجار الخنازير من بين المطرودين (الفصل العاشر) . ومع مرور الوقت ظهر أثر وجود الرومان كما توقعنا على المصريين ، الذين بدأوا فى تناول لحم الخنزير بالتدريج . وكما هو الحال بالنسبة إلى موضوع الأبقار ، ليست لدينا بيانات عن عدد الخنازير التى كانت تربى أو أهميتها فى مجال الطعام .

وعلى أية حال فإن كل ما نعرفه أنه خلال القرنين الثالث والرابع أصبح للحوم أهميتها الواضحة فى الطعام خصوصا بالنسبة إلى قوات الجيش الرومانى .

ولدينا بعض الأرقام التى تم تسجيلها فى سجلات الضياع عن الخراف والماعز ، وكذلك فى تقارير أصحابها الذين كانوا يقومون بملئها سنويا لدفع الضرائب عنها . ولا شك فى أن بعض النماذج القليلة منها تكفى لكى تعطينا صورة عامة عنها .

ففى عـام ٨ ق . م. قدم أحد الرجال تقريرا عن ملكيته لعدد ٥٦٦ رأسا من الأغنام ، و٢٥ رأسا من الماعز كانت مقسمة إلى خمسة قطعان لكل منها راعيها. وفى عام ١١٨م امتلك أحد الأشخاص عدد ٥٥٩ رأسا من الخراف و ٢٠٩ شياه و ١٠ رءوس من الماعز وكبشا واحدا ، قسمت إلى عدد من القطعان ، وفصلت إناث الحيوانات على حدة تحت إشـراف أحـد الرعـاة . وامتلك سيرابيون الثرى الذى سبـق أن تعرفنا عليه من قبل (ص ١٠٦ - ص ١٠٧) عدة آلاف من رءوس الخراف والماعز . ومن إحصـاء لإحدى القرى يتضح لنا أنه كان يوجد بها ٤٢٤١ رأسا من الخراف و ٣٣٦ رأسا من الماعز . وفى إحصاء آخر بلغ العدد ٨٢٩ رأسا من الأغنام ، و٢٨ رأسا من الماعز [٣١] .

وذكرت الوثائق أنه كانت توجد فى مصر عدة سلالات من الأغنام ذكرت بأسمائها مثل المصرية ، والعربية ، والحبشية ، واليوبية Euboean (*) ، والميليسية Milesian وأكسويتك Xoitic ، وعرف لديهم نوع مميز من الخراف كان يسمى "المغطى بالجلد" ، ولم يكن سلالة بذاتـه ، ولكنـه كان نوعـا ممـتازا يتـم تغطيتـه بجلود الحيـوانات فى أثنـاء فترة نمـو صـوفه ، ويرجـع أصـل هـذه الطـريقـة إلى آسيا الصـغرى ، ثم استـخدمت فى كل من بلاد اليونان وإيطاليا ، وكانوا يعتقدون أن هـذه الطريقـة تحافظ على أن يظل صـوف الأغنـام لينا وناعمـا . وتنتج هـذه الأغنام صـوفا مرتـين فى العـام فى ينـايـر أو فبراير والأخرى فى سبتمبر ، وكان الطلب كبيرا على الصوف فى فـترة الصيف ، ولا نستطيع أن نحدد بالتـأكيد ما إذا كـان ذلك يرجع إلى ارتفاع جودته وصغر حجم الكميـة المنتجة منه ، أم إلى الحـاجة لإعداد الصـوف لفـترة الشتـاء . وسبق الحديث عن أهمية لبن الخـراف والماعـز فى صناعـة الجـبن . ونقرأ فى عدد من الوثائق البردية عن "الجبن الكـبير" وهـذا يدل بطبيعة الحـال على وجود الجبن الصـغير ، وكذلك عـن " الجبن الجاف" وهـو يـعنى الذى يوجد بـه قليل مـن المـاء ، ولكن أغلب الإشارات التى لدينا تشير إلى الجـبن دون توصيف .

(*) نسبة إلى جزيرة يوبويا التى تقع فى شرقى شبه جزيرة بلاد اليونان . (المترجمة)

وتؤدى الحيوانات خدمة أخيرة بعد ذبحها ، حيث كان يتم دبغ جلودها لتستخدم فى عدة صناعات ، وجاء أشهرها فى صناعة أوعية السوائل ، بحياكة قطعتين من قطع الجلود أو أكثر معا ، وتفضل جلود الماعز فى ذلك ، كما استخدمت فيها أيضا جلود الأغنام والخنازير .

توافر وجود الدجاج في مصر بأعداد كبيرة ، وجاء ذكر الدجاج والبط والحمام ، ولكن لم يذكر عنها سوى تفصيلات قليلة . ويتضح لنا مما نشاهده من رسوم المقابر المصرية فى العصر الفرعونى أن الإوز كان طعامًا مفضلا لدى المصريين ، وقاموا بإطعامه لتسمينه طوال العصور القديمة . وظهر مربو الإوز من خلال البردى الخاص بالعصر الرومانى فى إقليمين على الأقل من الأقاليم المصرية حيث سمى أحد الأحياء في كل منها باسم حى مربى الإوز . أما فيما يخص الدجاج والديوك فكل ما نستطيع أن نقوله أنها كانت منتشرة - كما هو الحال اليوم - فى كل مكان .

واشتهرت السلالة المصرية من الحمام فى العصور القديمة لأنها كانت سلالة منتجة وخصبة ، وعثر فى بعض الأحيان على أبراج الحمام فى الحفائر الأثرية ، وورد ذكرها فى عدد من الوثائق الخاصة بالقرون الميلادية الثلاثة الأولى ، وحققت بعض أبراج الحمام دخلا له وزنه . وشيدت الأبراج الصغيرة داخل المنازل . ويعد سماد الحمام من أجود أنواع المخصبات ، واستخدم فى تسميد حدائق الفاكهة . واشترطت بعض عقود تأجير أراضى الكروم أن يتم تخصيبها بمخلفات الحمام .

وهكذا كانت الزراعة قاعدة النشاط الاقتصادى المصرى ، ومصدرا لحياة الغالبية العظمى من سكان مصر ، ولكن المصريين مارسوا إلى جانبها أعمالا أخرى هى موضوع الفصل التالى .

الهوامش

(١) أوضح كل من كاتون تومبسون C.Gaton Thompson وجاردنر E. W. Gardner في تقارير حفائرهما The desert Fayum, London 1934, P.141 ، كيف يمكن للرمال التي تحركها الرياح أن تطمس بسرعة جهد الرجال بصورة مفاجئة حيث قالا :" لقد أصبح واضحا أننا وجدنا نظاما قديما للري حيث قامت الرمال بملء القنوات ... واندمجت اندماجا كاملاً مع سطح الصحراء . وقد أمضيا ثلاثة أشهر ونصف في حفر خمسة وعشرين كيلو مترا لتعميق القنوات" ، وواصل المتحدث قوله بأنه: " وبعد مضى ثلاث ... سنوات ... انتهزت الفرصة لكي أحلق فوق المنطقة ... ولكن كانت كلها صحراء عارية ، ولم يكن في الإمكان رؤية شيء سواء بالعين المجردة أو بالصور الفوتوجرافية " . وعن هجرة المزارعين لأراضيهم راجع ٢٧٣ وما يليها .

(٢) Herodotus, Histories, Book 2, Ch. 34. وقد ذكرت النظريات بالتفصيل في الفصول ٢٠/٢٦ . أما الإشارات الأخرى فقد وردت لدى يوربيديس . Euripides frag. 228 in A. Nauck's Collection of fragments of lost tragedies 2nd 1889) ; Diodoros, Historical library , Book I, ' 38 ' and Pliny, natural History , Book 5, sect. 51. وقد كتب " أنتيس " في مؤلفه التالي · J. Antes, Observation on the Manners and Customs of Egyptians, Doublin, 1881, PP. 103 -4. باعتداد قائلا " لم يعد السبب في الفيضان السنوى للنهر لغزا الآن ؛ كما أننا لا نريد أن نضحك على أنفسنا بأساطير القدماء السخيفة ، ذلك لأن ارتفاع النهر يحدث نتيجة لهطول الأمطار على الحبشة حيث ينبع النهر ... وهذا أمر مقنع لتلك الظاهرة . وعلى أية حال فبعد عشر سنوات بعد ذلك ، قام أحد أعضاء اللجنة السياسية والاقتصادية في معهد القاهرة العلمي الجديد الذى أنشأه نابليون بقراءة بحث يدعو فيه لضرورة الكشف عن منابع النيل" .

(٣) الاقتباس من : Seneca, " Natural Questions Book 4. no.2 . وقد ذكر أنتيس J.Antes, op. cit., p. 86 في أواخر القرن الثامن عشر " إنه عندما يصل النهر إلى أقصى ارتفاع له ، فإن القرى التي تتم في العادة إحاطتها بأشجار النخيل ، وأشجار الفاكهة الأخرى تبدو كما لو كانت جزرا في بحر هائل ، وتتسع في بعض الأماكن بحيث لا تستطيع العين أن تصل إليها . إنه لمنظر رائع حقا " .

(٤) Pliny, Natural History ,Book 5, sect. 58; Pliny the younger, Panegyric ,sect. 31. إن ارتباط فيضان النيل بقلة المحصول أمر لاشك فيه كما يتدخل في ذلك أيضًا انخفاض عدد السكان الذى تم وصفه في ص ١٦٨ ؛ ص ٢٤٢ - ص ٢٤٣ .

(٥) SB. 8392 = IGRR. I, 1290 لقد تم حديثا اكتشاف مقياس النيل الثاني في إلفنتين Elephantine راجع الفصل الخامس ملحوظة رقم (١٢) .

(٦) Histories ,Book 2 , Ch. 14 ،

(٧) P. Oxy. 1409 = Select Papyri 278, and. 3264. لقـد ذُكـر الغـش والمحـابـاة فى تعـيين العمـل فى الجسور فى الوثائق التى اقتبست أدناه وذكر أن نابليون قد بذل جهداً كبيراً فى الحفاظ على إصلاح وسائل الرى ، وقد قال عن ذلك " لا توجد حكومة لأى دولة فى العالم لها مثل ذلك الأثر الكبير على الرخاء العام . فليس للحكومة أى تأثير على الأمطار أو الثلوج التى تسقط على بوسى Beauce أو بريى Brie . ولكن الحكومة فى مصر لها أثر مباشر على مياه الفيضان والاستفادة منها ، وهذا هو وجه الخلاف بين إدارة البطالمة لمصر ، وهذا التدهور الذى حدث فى العصر الرومانى ، ثم فى النهاية ذلك الانهيار الذى حدث فى العصر التركى" .

تم اقتباس النص من . F. Charles - Roux, Bonaparte Governer of Egypt, London 1937, PP. 113 - 4.

(٨) ورد ذكر العمال الذين يعهد إليهم بالعمل فى مناطق بعيدة فى الوثائق التالية : - P.Fay. 79; P . Grenf. II 53 d; P . Mich. 381 ;SB-5124.

(٩) SB. 9567 كان يتم تجهيز هذه الإيصالات على نطاق واسع مقدما ، وكان يترك مكان اسم الشخص فارغا على يسار الإيصال . وحددت إيصالات القرن الثانى الشهر واليوم الذى يتم فيه تأدية العمل .

(١٠) وردت الإشارة فى : - Diodrus, Historical Library, Book I, Ch 34 ;Strabo, Geography, Book 17 Ch. I, sect. 30. وفى البردية الآتية التى تم نشرها حديثا: - Scritti ... Montevecchi, Bologna , 1981,P.318. وفيها اشتكى كاتبها لرئيس البوليس فى قريته " أن جاره قام بكسر القاعدة التى تسند دعامة محور آلة الرى الخاصة بأخيه الذى توفى حديثا : لذلك أصبح من غير الممكن سحب المياه لتغذية حدائق الكروم بالدلو ... ولهذا أصبحت حدائق الكروم عطشى وجافة ، وترتب على ذلك خسائر غير قليلة " .

(١١) الوثيقة من المجموعة البردية التالية P. Brem. 36 أما ترجمة المنشور فموجودة فى : L- R. II, PP. 396-7.

(١٢) P.Amh. 91. ورد ذكر حظر زراعة القرطم فى عدد من عقود الإيجار ، ولكن دون تفسير السبب وراء ذلك لأن المتعاقدين كانوا يعرفونه جيدا . وعلى أية حال فإن علينا أن نبحث عن السبب وراء هذا الحظر ، والأمر الذى يثير حيرتنا أننا نعرف أن القرطم كانت تتم زراعته وله قيمته الزيتية (الفصل السادس). ولقد قدمت هذه المشكلة لأحد كبار المتخصصين وهو جلاستون Galston من جامعة ييل Yale ، وقد اقترح الآتى : "إن الافتراض الذى يبدو أكثر احتمالا هو أنه حيث إن القرطم من النباتات الشوكية ، لذلك فقد كانت تفرز من جذوره وأوراقه المتساقطة مركبات كيميائية تمنع نمو النباتات الأخرى وتعرف مثل هذه المركبات اصطلاحا باسم Allelopathic Substances والتى كثيراً ما استخدمتها النباتات فى "حربها الكيميائية" ضد جيرانها للصراع من أجل البقاء فى المحيط الصعب . وإذا كان يجب علىَّ أن أقوم بالافتراض ، فإننى أختار هذا السبب ، ولكننى برغم هذا غير متأكد " .

(١٣) P. Oxy. 1024

(١٤) P. Alex. Giss. 25

(١٥) P.Oxy. Hels. 41 أما الشرط الخاص بالمساحات التى لم تصلها مياه الفيضان فهى لم تكن تنطبق مع السنة الجارية ، لأن العقد قد تم عندما كان النيل قد ارتفع وفاض على الأرض موضوع العقد .

(١٦) P. Amb. 104 = Select papyri, 73.

(١٧) P. Ryl. 147 وهناك مثال آخر موجود أدناه ، وكلاهما من الأرشيف الذى تم وصفه أعلاه .

(١٨) P. Oxy. 2704

(١٩) وعن إيطاليا وصقلية راجع: G. Rickman, The Corn supply of Ancient Rome, PP. 103-104; Marmarica P. Vat, 11 recto : Negev : P.Ness. 82 وما زال مستخدما حتى الآن تقدير جونسون الذى قدمه فى كتابه . A.C. Johnson, Roman Egypt, P. 59 منذ خمسين عامًا على محاصيل الأرض من الغلال وهو على النحو التالى . – (من ٥ ، ٤ إلى ١٠ أرادب) للقمح ' من ٧ إلى ١٢ أردبا للشعير . انظر على سبيل المثال D. Bonneau , Publ. De la Sorbonne : " Serie etudes, " 14 (1979) , 65. ولكن البيانات التى ذكرت فى هذه الفقرة توضح أن هناك حاجة لمراجعة الأرقام السابقة . وقد اعتبر فورابوشى D. Foraboschi فى Scritt ... Montevecchi, Bo- lognia , 1981, PP. 155 - 6 أن غلة الأرادب العشرة كانت أمرًا عاديا ، كما كانت هناك محاصيل أعلى من ذلك لأنواع عديدة من الزراعة الكثيفة ، وعلى سبيل المثال زراعة محصولين فى العام . كما عثر على إنتاج محصول بلغ ستة عشر أردبا فى الوثيقة التالية : P. Teb. 375.

(٢٠) P. Oxy. 1049.

(٢١) P. Ryl. 90

(٢٢) P. Oxy. 519

(٢٣) لقد ذكر لنا بلينى فى تاريخه الطبيعى Pliny, N. H. Book : 15. sect. 16 أن أفضل وقت لجمع المحصول من ناحية الكم والمذاق ، هو عندما يصبح الزيتون أسود اللون .

(٢٤) Pliny ,op. cit., Book 13 ,sect. 56 ; Book 15, sect. 68 - 71

وفيها يتحدث بلينى "عن التين المصرى المدهش" حيث ذكر لنا حلاوته ، وعدم وجود بذور فيه وإنتاجه الوفير . وفى وصفه عن أنواعه المختلفة المبكرة والمتأخرة كتب يقول إن آخر إنتاج له يأتى قبل فصل الشتاء . وأكثر من ذلك فإن هناك أنواعا تنضج مبكرة وأخرى تنضج متأخرة ، لنوعين من المحاصيل الأبيض والأسود والتى كان يتم نضجها مع محصول الغلال والعنب .

(٢٥) P. Oxy. 1631 = Select Papyri , 18 . وهى وثيقة مشابهة لما تقدم (ولكنها أقل فى تفصيلها منها) ، وترجع لعام ٢٥٢ م. P. Berl. Leihg. 23 حيث يذكر فيها أن زراعة الكروم الجديدة ، كان يتم غرسها ثلاث مرات فى أثناء فصل النمو .

(٢٦) BGU. 241 ;P.Ryl. 138. وعن الوثيقة الأخيرة راجع حاشية رقم (١٧) أعلاه .

(٢٧) T. Heyerdal , The Ra Expedition, New York, 1971

(٢٨) P. Med. 6; P. Teb. 308 ; BGU. 1180

(٢٩) وعن التفاصيل الخاصة بالعقد الذى يرجع لعام ٥ ق . م. راجع :

BGU. 1121 = Select Papyri, 41 وهى موجودة أيضًا فى N. Lewis, Papyrus in classical Antiquity, Oxford, 1974, PP. 109 - 13

(٣٠) Aristotle, History of Animals, 522,C 26 ; Varro on agriculture, Book 2,Ch. 11.

(٣١) P. Lond. 1171 ; P. Strassb. 24 ; P.Oxy. 807 ; P.Hamb. 34.

الفصل السابع

التجارة والحرف ، إنتاج البضائع والخدمات

نتناول فى هذا الفصل الحديث عن الحرف التى تحتاج إلى تخصص والتى كانت لها أهميتها الكبرى فى الحياة اليومية فى مصر خلال العصر الرومانى .

وكما لاحظنا فى الفصل السابق فإن إنتاج الغذاء كان لا يحتاج إلا إلى القليل من التخصص ، وعلى أية حال فإن أى مجتمع زراعى بدائى سرعان ما تنمو احتياجاته ويصبح فى حاجة إلى الخدمات الإضافية ، وفى خلال حقبة ما قبل التاريخ كانت بعض الحضارات (إن لم تكن جميعهـــا) فى حاجة إلى صناعة الفخار والسلال لـدها بما تحتاج إليه فى تخزين المحاصيل وحملها ، وكانت صناعتها تحتاج إلى العمال المتخصصين، وكانت الخطوة التالية بعد ذلك سريعة وسهلة نسبيا حينما تم التطور من جدل السلال إلى غزل النسيج لصناعة الملابس وكل أنواع الأغطية .

ولاحظنا خلال الفصل السابق أن مصر اشتهرت بصناعتين مهمتين وهما صناعة الكتان وأوراق البردى، واستجابة للطلبات الخارجية فى القرن الثالث توسعت فى إنتاج الزجاج، وأصبحت هى وسوريا مصدرين كبيرين لتصدير هذه الصناعة، ولكن لا توجد لدينا إلا معلومات قليلة عن العاملين فى صناعتى الزجاج والبردى ، ويرجع ذلك إلى أن منطقة الدلتا التى كانت تعد قاعدة هاتين الصناعتين لم يتبق من سجلاتها إلا القليل بسبب رطوبة التربة، وفى الجانب الآخر فإن لدينا مصادر عديدة عن صناعة النسيج(*)، لأنها بالرغم من وجود عدد كبير من المصانع ذات الإنتاج الكبير ، فقد ظلت فى أساسها "صناعة منزلية" تمارس فى طول البلاد وعرضها، وتمدنا آلاف الوثائق البردية التى عثر عليها بين خرائب مدن مصر العليا وقراها بمعلومات وافرة عنها .

(*) عن صناعة النسيج وأهميتها فى مصر خلال العصر الرومانى راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، صـ ٢٢٥ وما يليها ، وكذلك المرجع المهم التالى :- Wipszycha (Ewa) , L' Industrie Textile dans l' Egypte Romaine , Wraclaw, 1965. (المترجمة)

كان العاملون فى ميدان نسج الكتان يمثلون أرستقراطية صناعية ، حيث كانوا يتوارثون المهنة جيلاً بعد جيل ، وتعاون النساجون فى تدريب أبناء بعضهم بعضاً، كما كانوا يدربون الصبية والفتيات من الأسر الأخرى ، الأحرار منهم والعبيد ، على تلك الصناعة . ويبدأ التدريب بين العاشرة والثالثة عشرة من العمر ، وتراوحت فترة التدريب من سنة إلى ثلاث سنوات ، وكان يمكن أن تطول الفترة لمدة سنة أخرى أو سنتين . والعقد التالى المؤرخ بأواخر القرن الثانى الميلادى يعد نموذجاً للعديد من العقود التى وصلت إلينا :

«اتفقت بلاتونيس Platonis التى تسمى أوفيليا Ophelia بنت هوريون Horion من البهنسا ومعها أخوها بلاتون Platon الممثل القانونى لها على التعاقد مع كل من لوكيوس بن أسيون Lucius Son of Asion وتيساس Tisais النساجين من أفروديسيون Aphrodiseion فى الواحة الصغيرة . فقد وافقت بلاتونيس المدعوة أوفيليا على أن تقوم بتدريب أمتها الأنثى ثيرموثيون Thermouthion الصغيرة لدى لوكيوس لمدة أربع سنوات ابتداء من أول شهر طوبة التالى فى السنة الجارية لكى تتعلم حرفة النسيج طبقاً للشروط التالية : أنها سوف تقوم بإطعام الفتاة وكسائها وأن تتعهد بإبقائها تحت إمرة مدربها منذ شروق الشمس إلى غروبها ، وعليها أن تطيع أوامر مدربها فى هذه الحرفة ، نظير أجرة تبلغ ثمانى دراخمات شهريا فى السنة الأولى ، و١٢ دراخمة شهريا فى السنة الثانية ، وست عشرة دراخمة شهريا فى السنة الثالثة، وعشرون دراخمة شهرياً فى السنة الرابعة ، وتحصل الفتاة على ١٨ يوماً إجازة كل عام للاحتفال بالأعياد . وإذا تغيبت الفتاة عن أى يوم عمل ، أو إذا أصابها المرض فعليها أن تقوم بتعويض الأيام التى تغيب فيها عن العمل بعد انتهاء فترة العقد . ويقع على عاتق المدرب دفع ضرائب الخدمة والتدريب ، ولوكيوس ....» .

وفُقد الجزء الأخير من البردية ، لكننا نعرف من مثل هذه العقود أن العقد كان يلزم لوكيوس بأن يقوم بأداء مهمة التدريب "طبقاً لما يعرفه عن الحرفة "كما كان يتم وضع عقوبة على كل من الطرفين فى حالة عدم التزامهما بتنفيذ شروط العقد (١) .

حفظت أوراق البردى عقوداً لتدريب عمال البناء ، وصناع النحاس، وصناعة الحصير والسامير والمزامير وتمشيط الصوف وجزّه ، وبالإضافة إلى هذه النماذج

الباقية كان يتم تعلم أى حرفة أو مهارة أخرى من خلال التدريب . فمن بين العديد من العبيد الذين كان يمتلكهم أحد كبار أثرياء مدينة الإسكندرية ، كان يوجد لديه ستة من العبيد المدربين على الاختزال ، واثنان على أعمال النسخ أو السكرتارية ، وكاتب وطاهٍ ، وحلاق ، ومرمم ، ولدينا عقد تدريب أحد العبيد على الاختزال على النحو التالى :

« من بانيخوتيس Panechotes المعروف باسم باناريس Panares المشرف السابق على التعليم فى الجمنازيوم ex-exgetes لمدينة البهنسا ، الذى يمثله صديقه جميللوس Gemellus إلى أبوللونيوس Apollonios كاتب الاختزال، تحياتى.. لقد... عبدى خيرامون Chairemon لكى تقوم بتعليمه العلامات التى يعرفها ابنك ديونيسيوس Dionysios لمدة سنتين باستثناء أيام الأعياد ، ابتداء من شهر برمهات Phamenoth الحالى للسنة الجارية ، الثامنة عشرة من حكم مولانا أنطونينوس قيصر Antoninius Caeser ، نظير الأجر الذى تم الاتفاق عليه بيننا وهو ١٢٠ دراخمة ، وقد تم استلامك مبلغ أربعين دراخمة قيمة القسط الأول ، وسوف يتم استلامك للقسط الثانى الذى يبلغ أربعين دراخمة عندما يتمكن الصبى من إتقان كل رموز المقاطع، أما القسط الأخير الذى يبلغ أربعين دراخمة فسوف تتسلمه فى نهاية المدة ، عندما يجيد الصبى قراءة أى نص من النصوص دون الوقوع فى أخطاء ، أما إذا استطعت أن تجعله يجيد (الكتابة) فى فترة أقل من التى تم الاتفاق عليها فسوف أعطيها لك دون انتظار انتهاء مدة العقد. كما أنه ليس من حقى أخذ الصبى فى أثناء هذه الفترة ، كما أنه سيظل معك بعد المدة لأى عدد من الأيام أو الأشهر ما دام لا يقوم بعمل [التاريخ ١ مارس سنة ١٥٥]» (٢) .

أما الصناع الذين كثيراً ما ظهروا على أوراق البردى المؤرخة بالعصر الرومانى فهم : البناء ون ، وقاطعو الأحجار ، وصانعو الطوب ، والنجارون ، وصانعو الفخار والأدوات المعدنية ، والخبازون ، والصباغون ، وصابغو الأقمشة ، والمطرزون الذين كانوا يرفعون من أسعار إنتاج النسيج ، يأتى بعد ذلك التجار والمشرفون على المخازن وكان أغلبهم يتعامل مع نوع واحد من الإنتاج ، فهذا يبيع الزيوت ، وثان يبيع الخضراوات ، وثالث يبيع الصوف ، ورابع يبيع الفاكهة ، وهكذا. وبالإضافة

إلى ذلك يمكننا أن نرى هنا وهناك الأسواق الجامعة (أو كما يسميها الإغريق اليوم الأسواق الشعبية الجامعة Pantopoleion) وهى تلك التى تسمى فى الولايات المتحدة وكندا المخازن الكبرى . وتضمنت قائمة مبيعات يوم واحد فى أحد هذه الأسواق البضائع التالية : السمك المدخن (وكان أكثرها شهرة) ، والحبال ، والوسائد ، والدقيق ، والحديد المصنع ، وأرجل أحد الأسرة ، وصبغة أرجوانية ، وسلال للسمك ، وفتيل للمصابيح [٢] .

غطى رجال هذه الصناعات والحرف أهم الاحتياجات الضرورية لاستمرار الحياة اليومية ، ومن الحرف التى لم تكن تبور تجارتها نجد الحانوتية ومحنطى الجثث وحفارى المقابر .

ولنقم الآن بإلقاء نظرة عن قرب لحرفة البناء . لقد شيدت المنشآت العادية – كما سبق أن رأينا فى الفصلين الثالث والرابع – من الطوب اللبن المجفف ، وأنتج الطوب المحروق لسد احتياجات معينة ، لكى يستخدم على سبيل المثال بطانة حتى لا ينفذ الماء من البناء ، أما المنشآت العامة الفاخرة مثل المعابد والمسارح فقد شيدت كلها أو واجهاتها (فى العادة) من الحجر. وكان إنتاج هذه المواد فى حاجة إلى المتخصصين فى صناعتها وبنائها .

إن الكلمة الإغريقية التى تطلق على صانع الآجر من الناحية اللغوية تعنى "ساحب الطوب" (وهو المعنى نفسه فى اللغة الألمانية Ziegelstreicher) وهى كلمة كافية لوصف العملية الرئيسية لصناعة الطوف المجفف فى الشمس ، الذى كان يتم خلطه بالقش أو ما يشبهه ليجعله أكثر صلابة ، ويعد الوصول إلى درجة الخلط الصحيحة خطوة مهمة تحتاج إلى مهارة وخبرة . أما عملية صب وكبس الخليط فى قوالب فلم تكن بحاجة إلى خبرة كبيرة ، ونقرأ فى أحد الوثائق أن "المساحة التى كانت بين القرية والطريق المؤدى إلى عاصمة الإقليم " كانت منطقة مخصصة لصناعة الطوب على مساحة بلغت $\frac{١}{٤}$ ٢ أرورا ، وهذا يعنى أن مساحتها بلغت ٦٠٠٠ متر مربع ، وتم حساب ثمن الطوب وحمله وإنزاله بوحدة عشرة الآلاف . وفى حساب خاص بأحد

البنائين بلغ متوسط ما استخدمه في اليوم ٢٢٠٠ قطعة آجر تم تسليمها وإنزالها ، ولكننا لا نعرف لسوء الحظ كم كان عدد الرجال الذين قاموا بهذه العملية [٤] .

وفر النيل الطمي فى كل مكان لصناعة الطوب اللبن أو المحروق ، أما الأحجار فكان يجب قطعها من المحاجر التى تقع أغلبها فى مصر العليا والوسطى وفى الصحراء فى المنطقة الواقعة بين النيل والبحر الأحمر . إن هذه المنطقة المهجورة من الأرض قد كافأتها الطبيعة بوجود المعادن فيها والأحجار الكريمة ونصف الكريمة ، والجرانيت (الأحمر والرمادى والأسود) والبورفير. وبعد عدة قرون من استخدام محاجر الرخام بطريقة اقتصادية معقولة فإنها ظلت حتى أواخر العصور القديمة مصدراً للرخام الأرجوانى الإمبراطورى الذى كان يفضل فى إقامة الأعمدة والتماثيل وفى أغراض الزخرفة الأخرى . أما المرمر الذى كان وجوده قليلاً فى مصر ، ومع كميته القليلة فقد كان مختلفًا فى نوعه إذا ما قمنا بمقارنته بالمرمر الإغريقى الذى نحت منه الإغريق روائع العالم الإيجى ، ولكن إغريق المدن المصرية ومقلديهم من إغريق عواصم الأقاليم لم يأسفوا أسفًا كبيراً لعدم وجود مصدر محلى للمرمر ؛ لأنهم كان باستطاعتهم أن يقوموا باستيراده عندما يحتاجون إليه، مما يعطيهم الإحساس بدوام الروابط بينهم وبين وطنهم الأم . وحصلت الإسكندرية على الأحجار العادية لرصف الشوارع من محاجر أكوريس Akoris جنوبى البهنسا، وينبغى أن نضيف أن هذه المحاجر كانت تعد من أملاك الدولة [٥] .

وكانت عملية الحفر الدقيق فى محاجر الصخور ومناجم الذهب عملاً غير مرغوب فيه ؛ فالشمس تكون متوهجة فى أثناء النهار يعقبها جو قارس البرودة فى أثناء الليل فى فصل الشتاء فى الصحراء ، إضافة إلى ذلك فقد كانت المحاجر تقع فى مناطق معزولة على الحدود بعيدة عن "العمران " لذلك كان يتم الحصول على العاملين الذين يعملون تحت هذه الظروف عن طريقين : إما أن تقوم الحكومة بتأجير العمل لمتعاقدين يقومون بإغراء العمال للعمل معهم نظير أجور مجزية ، أو عن طريق استخدام المذنبين الذين صدرت ضدهم أحكام قانونية . وقد استثنيت الطبقة الأرستقراطية من أن يحكم

على أحد من أفرادها بالعمل فى المناجم والمحاجر ، وكان الإذلال والعقوبة القاسية من نصيب الطبقات الدنيا والعبيد فقط ، مع ملاحظة أنه كان يعمل فى المناجم والمحاجر بعض الأسرى من ثوار اليهود ثم المسيحيين فيما بعد، ويقوم بحراسة كل منجم أو محجر وحدة من الجنود تحت قيادة ضابط يحمل فى العادة رتبة قائد مائة Centurion:

« من سوباتيانوس أكويللا Subatianus Aquella [والى مصر] إلى ثيون theon مدير إقليم الفيوم .. تحياتى : لقد أنهى العبد بابيريوس Papirius مدة عقوبته التى بلغت خمس سنوات التى قضاها فى العمل فى منجم الرخام [الألبستر] والتى أصدرها ضده مولانا كلوديوس جوليانوسClaudius Julianus، لذلك قمت بإطلاق سراحه ، وإلى اللقاء [توقيع بتسلم الإيصال . التاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ٢٠٩ م]» .

وعثر على بقايا معمارية ، وسجلات دُوِّن أغلبها على قطع الأوستراكا فى عدد من المراكز الصحراوية ، وهى تعطينا لمحة واضحة عن ظروف الحياة التى كانت تعيش فيها قوات هذه المراكز والرجال المدنيين الذين كانوا يمرون عليها لقضاء أعمالهم ، ولدينا خطاب مملوء بالشجن لجندى ، يتطلع إلى الحصول على تصريح للقيام بإجازة قبل أن يواصل الإقامة فى المكان الموحش والمنعزل نفسه لمدة ثمانية عشر شهراً أخرى ، وهى رسالة صغيرة ولكن لها قيمتها الكبيرة : « أى أموناس ، لقد حصلت على تصريح بإجازة لمدة عشرة أيام ، كما حصلت على يومين إضافيين للعودة » (٦) .

ولكن اهتمامنا فى هذا الفصل لا ينصب على العمل فى المحاجر بقدر ما ينصب على إنتاجها .

وكان يتم حمل الصخور التى قطعت برا حتى النيل ، حيث توضع فى مراكب صنعت خصيصًا لحمل الأحجار أو تم اختيارها لذلك ، وبعد أن تحمل فى النيل يتم إنزالها مرة أخرى فى أقرب ميناء فى النهر لمكان العمل . وكانت المسلات والقطع الحجرية الضخمة - التى لم تكن تنتج كل يوم لحسن الحظ - تمثل مشكلة عند القيام بنقلها . وكتب بلينى عن قطعة حجر يبلغ طولها ٨٠ ذراعًا (الذراع ٤٢ بوصة) قائلاً : "ولذلك كانت مشكلتها الرئيسية فى نقلها وتركيبها فى المكان المخصص لذلك ، وليس فى قطعها من المحجر " (٧) .

قدمت لنا الوثائق تفصيلات كثيرة عن العاملين فى مجال الأحجار ، وعن الأغراض التى استخدمت فيها ، ومن بينها حسابات عن الإصلاحات التى تم إجراؤها فى بعض المعابد ، وتأتى أهمية هذه الحسابات من التفاصيل الكثيرة التى ذكرت فيها. ولا شك فى أن بعض النماذج منها تكفى لإعطاء صورة عنها لتوضيحها :

- أجرة عامل البناء لتركيب الأحجار فى الركن الذى يلى الأساس : (٦) دراخمات .

- أجرة قاطع الأحجار ، لقطع (١٠٠) قطعة حجرية لوضعها فى أركان مدخل الأعمدة : (١٠) دراخمات و (٣) أوبلات .

- أجرة خمس دواب من الحمير لحمل الجير من ميناء أبى صير إلى المدينة : (٩ دراخمات) .

- ثمن الحصى وحمله من الميناء إلى القمينة : (؟) دراخمة .

- أجرة وقّاد القمينة لإعداد النيران ثم تنظيف القمينة من بقايا الملاط والحصى .

- أجرة نقل الحصى المشتعل من القمينة إلى مكان العمل .

- أجرة شحن الزورق المحمل بالرمال لخلطها مع الجير : (٢) دراخمة .

- أجرة حمل الرمل من الميناء إلى مكان العمل : (٢) دراخمة .

- أجرة عمال البياض وثمن المصيص : (١٦) دراخمة .

- ثمن الخشب الذى أحضرته الحكومة لصناعة أبواب معبد الربة إيزيس : (٥٠) دراخمة .

- ثمن الخشب الذى استخدمه النجار فى لصق باب المدخل الذى بلغ وزنه ٣ وربع مينا Minae : (١٩) دراخمة و(٤) أوبلات [٨] .

كانت الأخشاب فى مصر نادرة، ويظهر هذا جليا فى ارتفاع ثمنها كما هو واضح من النص السابق . واستخدمت أخشاب شجر الدَّغَل - الأجَمَة cheparrals والسنط والجميز والتين وشجر النبل الطرفاء tamarisk فى صناعة الزوارق ، كما كانت صالحة لصناعة الأبواب والنوافذ ، وكذلك أخشاب الفاكهة التى جفت أو ماتت ثمارها ، أما جذوع أشجار النخيل فيتم نشرها وتقطيعها إلى ألواح لتستخدم فى صناعة أسقف

المنازل بوجه خاص ، حيث اعتبرت خفة وزنها ميزة لها ، أما الكتل الخشبية الثقيلة فكان يتم استيرادها من الخارج. ويبدو أن المحاولة التى قام بها البطالمة الأوائل لأقلمة زراعة شجر الشربين (الموسكى) فى مصر لم يقدر لها النجاح فى خلق مصدر محلى للأخشاب . أما أخشاب الصنوبر والشربين التى استخدمت فى إعادة بناء جمنازيوم مدينة أنتينوبوليس عام ٢٦٣ م ، فقد تم استيرادها دون شك من سوريا أو آسيا الصغرى[٩] .

سوف نعود الآن إلى الحديث عن النقل ووسائله . واعتبرت الحمير والجمال بمثابة عربات للنقل البرى ، وعلى الرغم من أن سائقيها لم يكونوا من ذوى المهارة الكبيرة فقد كان لهم دور مهم فى المجال الاقتصادى . والحمال المثالى هو الذى يمتلك الحيوان الذى يقوده أو الحيوانات التى يربطها معا ويقودها ، وقد عمل بعضهم لدى أصحاب الحظائر الكبيرة ، وتركز الطلب على خدماتهم لعدة أشهر كل عام لنقل محاصيل الحصاد من الحقول إلى الأجران، ثم من الحقول والأجران إلى الموانئ النهرية ، ليتم نقلها بالمراكب ، أما بقية العام فكان يمكن تأجير الحيوانات للاستخدام الخاص ، أما العربات ذات العجلات فكانت تُحمل عليها الأثقال التى كان من الصعب أن تحملها ظهور الحيوانات .

فرضت المكوس على مرور البضائع فى كل الاتجاهات ، ويتم تسجيل دفع الضريبة على شريحة من البردى ، ولدينا نماذج عديدة تبلغ ثلاثمائة إيصال من أكثر من اثنى عشر مركزاً من التى نعرفها. وقد صدر الإيصالين التاليين من قرى الفيوم التى يبدأ منها الطريق الصحراوى إلى ممفيس :

«تم الدفع فى بوابة المكوس فى قرية سنكوبايونيسوس نظير المكوس التى بلغت ١٪ و ١,٥ ٪ ضريبةً على البضائع ، وقد قام سارابيون بتصدير حبوب الخضراوات على جمل واحد ، بلغت حمولته ستة أرادب دفع عنها (٥) دراخمات ، وحمولة (١٢) أردب قمح على جمل واحد وحمارين ودفع عنها ثلاث دراخمات [التاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٦٢ م] » .

« قام ديوجنيس Diogenes بتصدير بلح طازج حمولة حمار واحد، وحمولة حمار واحد من القمح ، ودفع عنها ضريبة خفر الصحراء فى مركز مكوس قرية فيلادلفيا Philadelphia [التاريخ ١٦ سبتمبر عام ١٤٧ م] » (١٠) .

تمثل بعض الطرق الصحراوية شرايين رئيسية بالنسبة إلى المواصلات ، وخصوصًا تلك التى كانت تصل بين قفط Coptus فى مصر العليا وبين ميناء ميوس هيرموس Myos Hermos ، وبيرنيكى Berenike (الذى سُمى باسم ملكة بطلمية) على البحر الأحمر حيث كانت تعبر تجارة الهند وبلاد العرب وشرق أفريقيا، ويلغ طول الطريق الأول ١٥٠كم، أما الثانى فكان أكثرمن ضعف هذه المسافة . وزودت الطريق الصحراوية بمحطات للمياه وخانات لنزول القوافل على مسافات مناسبة، ومن حسن الحظ أن الصحراء كانت مزودة بمصدر للمياه العذبة على مسافة غير بعيدة من سطح الأرض . وقد سجل افتتاح أحد هذه الطرق فى نقش يؤرخ بعام ١١٧ م :

« قام الإمبراطور قيصر تراجان هادريان أغسطس (وصاحب الألقاب الأخرى) بافتتاح طريق هادريان الطولى الآمن والممهد من برنيس [= برنيقى] إلى أنتينوبوليس وزود الطريق بمحطات المياه الوفيرة ، ومحطات الاستراحة ومراكز الحراسة على طوله » (١١) .

ومما لا شك فيه أن المكوس التى كان يتم تحصيلها كانت تنفق – جزء منها على الأقل – على الخدمات ، وأهمها حرس الصحراء على وجه الخصوص ، حيث كانوا يقومون بحماية المسافرين والقوافل التجارية من عصابات اللصوص ، ولدينا تعريفة لبعض الرسوم فى مركز ضرائب بوابة قفط عام ٩٠ م، وهى على النحو التالى :

ضريبة مرور ربان السفية فى البحر الأحمر	٨ دراخمات
للحارس	١٠ دراخمات
للنجار	٥ دراخمات
لصاحب المهنة (الحرفى)	٨ دراخمات
لبائعات الهوى	١٠٨ دراخمات
لزوجة النجار	٢٠ دراخمة
لزوجة الجندى	٢٠ دراخمة
إذن مرور الجمل	١ أوبل
للختم على التصريح	٢ أوبل
للحمار	٢ أوبل
للعربة المغطاة	٤ دراخمات
للعربة الجنائزية رحلة دائرية	١ دراخمة، و٤ أوبلات(١٢)

أما البضائع التى كان يتم حملها بالزوارق ففرضت عليها المكوس فى عدة نقاط على طول النهر أو فى مراسى المراكب فى النهر ، وكان من حق محصلى المكوس والضرائب أن يقوموا بالتفتيش عن البضائع الممنوعة ، وعلى أى حال فهو عمل كان يمكن انتهاكه وخصوصًا فى الأماكن المتطرفة ؛ لذلك قام والى مصر (فقد اسمه فى المنشور) بملاحظة هذه المشكلة وأصدر مرسومه التالى :

« بلغنى أن محصلى الضرائب استخدموا حيلاً ماكرة ضد المسافرين عبر البلاد ، بالإضافة إلى ما قاموا به من احتيال وطالبوا المسافرين بدفع رسوم غير مستحقة

عليهم كما أنهم تعمدوا تعطيل المسافرين الذين كانوا على عجلة من أمرهم حتى يضطروا إلى الحصول عن طريق الشراء على تصاريح بزعم أنها تتيح لهم سرعة الرحيل ، لذلك أمرتهم بأن يتوقفوا عن جشعهم ... » (فقد باقى البردية) .

وعن التفتيش على البضائع ، لدينا هذا الجزء من إحدى الوثائق جاء فيها الآتى :

« إذا طلب محصل ضرائب تفريغ حمولة السفينة ، فعلى التاجر أن يقوم بذلك . وإذا تم العثور على شىء لم يثبته التاجر فى الإقرار ، يتم مصادرته، أما إذا لم يعثر على شىء ، فإن على محصل الضرائب أن يعيد للتاجر نفقات تفريغ الشحنة ، ثم يحصل التاجر على شهادة مكتوبة من محصل الضرائب حتى لا يقوم أحد بإزعاجه مرة أخرى ...» (فقد باقى الوثيقة) .

ولدينا وثيقة أخرى لم يعثر عليها فى مصر ، ولكنها كانت تطبق فى دائرة الإمبراطورية وهى كالآتى :

« من حق محصل الضرائب أن يقوم بالتفتيش، وتصادر البضائع التى لم يقدم تقرير عنها ، وليس من حق أى أحد أن يقوم بتفتيش أى فرد يخضع لحماية سيد رومانى » [(١٢)] .

وكان النقل البرى مرحلة يتبعها النقل المائى، وتضمنت التجارة المنقولة على الماء فى مصر كلا من النقل النهرى والبحرى، وحيث إن النقل البحرى فى كل من البحر المتوسط والبحر الأحمر كان يتعلق بعدد محدود من السكان ، لذلك سينصب حديثنا على النقل النهرى الذى ينعكس انعكاساً مباشراً على حياة جميع السكان فى مصر .

كانت حركة السفن النهرية التى تفوق سواها فى الغالب الأعم تتجه إلى الإسكندرية ، تحمل إليها القمح الذى كان يتم تصدير أغلبه إلى روما ، وكذلك المواد الغذائية والوقود لتغطية احتياجات جيش الاحتلال تطغى على غيرها ، وقد امتلكت الدولة أسطولاً للشحن يعمل فيها ملاحون تم تأجيرهم ، أو جنود تم إلحاقهم بالخدمة

العسكرية فيه ، وكان هذا الأسطول يمثل نواة أسطول الغلال على نهر النيل ، ولكن الجانب الأكبر من حمولة هذه المواد كان يتم نقله عن طريق السفن الخاصة بأفراد، حيث كان مديرو الأقاليم يطلبون من أصحابها القيام بهذا العمل عندما تحتاج الدولة إلى خدماتهم .

وكان المرور النهرى – نتيجة لطبيعة النهر – أكثر تعقيداً من المرور البرى. حقيقة كان يمكن للسفينة أن تحمل عشرات الأحمال التى تحملها مئات الحمير والجمال ، ولكنها وحتى الزوارق الصغيرة منها كانت تحتاج إلى تدريب ومهارة لتشغيلها، ويضاف إلى ذلك وجود سلسلة من محطات التوقف البرية ، وكان لابد من إجراء بعض التسهيلات لتأمين سلامة المرور النهرى . ويتراوح حجم السفن النهرية بين قارب طويل ضيق مسطح القاع مربع الطرفين يسير عادة بمجداف يضرب به قاع النهر مصنوع من جذور نبات البردى التى تم ربطها معا ، والمراكب التى تصل حمولتها إلى ١٨٠٠٠ أردب من الغلال (أى حوالى ٥٠٠ طن) ، وكانت للسفن الكبيرة منها أشرعة مربعة لكى تساعدها فى أثناء قيامها بشق طريقها عبر النهر ، كما استخدمت فيها أيضًا مجاديف لاستعمالها فى الإبحار ضد التيار لتتمكن السفينة من أن تنطلق بسرعة فى رحلتها البحرية ، وطبقًا لأحد المصادر فإن الرياح الموسمية التى تهب من الشمال كانت تمكِّن السفينة المحملة من أن تقطع رحلتها بسرعة ٤٠ كيلو متراً يوميا فى اتجاه الجنوب ضد التيار ، وكانت القاعدة فى صناعة السفن أن جهاز تشغيل التروس فى السفن الصغيرة يماثل نظيره فى السفن الكبيرة فى ذلك الوقت . وفى أحد العقود التى أبرمت عام ٢١٢ قام المالك بتأجير سفينته لمدة طويلة، وكانت على النحو التالى :

« إن السفينة [التى يمتلكها]، ذات طراز إغريقى، وتبلغ حمولتها حوالى ٤٠٠ أردب أقل أو أكثر ، لها سقف كامل ، ومزودة بمراتب ولها فناء كامل ، وشراع من الكتان ، وحبال وصهاريج ، وأجراس ومجموعة من البكر ، ومجدافان لهما قضيب على ذراع الدفة ، وستارة مثلثة الشكل ، وأربعة مجاديف وخمسة أعمدة صوارى لها طرف من الحديد ، وسلم يصل ظهر السفينة بالحجرات ، ولوح خشبى للإنزال ، ورافعة ،

وهلبان من الحديد لهما كتلة معدنية ، ولكل واحدة منهما هلب خطاف وحبال من الليف ، وحبل مزدوج ، وحبل مرساة ، وثلاثة أنابيب لتفريغ الحمولة ، ومكيال ، وميزان، وقماش للأشرعة، وزورق صغير بمجدافين ، وجميع علب التروس والمسامير حديدية » [١٤] .

ومن الواضح أن الفرد يجب أن يكون صاحب ثروة طائلة حتى يتمكن من امتلاك سفينة نقل بضائع حتى ولو كانت صغيرة الحجم ، بدلاً من أن يكون مالكًا لحمار أو لجمل ، ولهذا السبب فإن عدد الربابنة الذين كانوا يمتلكون سفنا ويقومون بتشغيلها كان قليلاً ، وجرت العادة على أن يمتلك مثل هذه السفينة أحد الأثرياء ، وكان دائمًا أحد مواطنى عواصم الأقاليم من الإغريق أو الرومان ، وكان يقوم بشرائها كنوع من أنواع الاستثمار، ويقوم بتأجير ربان لها لتشغيلها، وفى الوقت نفسه ليعمل على العثور على الشحنات لينقلها عليها واختيار الطاقم الذى يعمل عليها ويحتاج إليه . وفى المثال التالى المؤرخ بعام ٢٢١ م نجد فيه اثنين من البهنسا يمتلكان سفينة وقاما بتشغيلها، وفيما يلى عقد اشتراكهما فى تأجيرها :

«إن سفينة الشحن [التى يملكانها] يبلغ طولها ١٥ ذراعًا ومجهزة بجميع الأدوات ، ويعمل عليها عدد كاف للقيام برحلة نهرية إلى تيبنوتيس Tebennouthis ومنها إلى البهنسا ، ويبلغ سعر الشحنة ذهابًا وإيابًا ٥٠٠ دراخمة فضية ، ومكيالا واحداً من النبيذ وعشرة صناديق (؟) من لحم البتلو ، وعشرة مكاييل من زيت الزيتون ، وثلاثة مكاييل من زيت الفجل ، وقد أقر المالكان بتسلمهما مبلغ (١٠٠) دراخمة الآن ، ويتم تسيلمهما باقى الثمن بعد تفريغ الشحنة فى البهنسا فى طريق عودتهم من تبنوتيس Tebennouthis . وعلى مالكى السفينة القيام بتجهيزها لتحميلها فى الثانى من شهر بابة Phaophi .. وأن يسيرا بها بحذر كامل ، وألا يبحرا بها فى أثناء الليل أو فى أثناء العواصف ، وأن يقوما بإنزال الهلب كل يوم فى أكثر المناطق أمنا ... وعلى المالكين القيام بتسليم الشحنة دون خسائر أو تلفيات تحدث لها فى أثناء الرحلة .. وسوف ينتظر المالكان فى تيبنوتيس لمدة عشرة أيام طبقًا للعقد حتى العاشر من بابة الحالى ثم يبحران بعد ذلك كما سبق وورد ذكره سالفًا ويعد هذا الصك قانونيا . (اتفاق مشترك، التاريخ) ، يقوم المالكان بدفع أجرة أربعة من المسافرين [التوقيع]»[١٥] .

لم يرد ذكر للجسور فى مصر إلا فى مرات قليلة، على الرغم من أن الرومان قاموا بدون شك ببناء بعضها أو أعادوا بناءها لتسهيل حركة قواتهم العسكرية . أما انتقال الأفراد والبضائع فكان يتم عبر النيل وفى قنوات الرى الكبرى بالزوارق بصفة أساسية ، وبرا عبر الوادى خلال وقت الفيضان، وليس لدينا أى تفاصيل بخصوص القوارب التى كانت تستخدم لتأدية هذا الغرض ، ولكن يبدو أنها كانت صغيرة الحجم وذات قاع غير عميق ، وأغلب الظن أن ملاكها هم الذين كانوا يقومون بتشغيلها ، وكانوا يحصلون على تصريح يسمح لهم بالتردد على الموانئ النهرية نظير دفع رسم للرخصة أو ضريبة إيراد .

انضم العاملون فى بعض الحرف فى نقابات تشبه الاتحادات ، وتحدثنا الوثائق البردية عن وجود نقابة لسائقى الحمير (الحمارين) وقصابى الأقمشة وصبّاغيها، والنساجين ، وصانعى الفخار ، وصانعى الزجاج ، ونقاشى الخط الهيروغليفى ، وبحارة النهر ، وملاحى البحر ، وصناع الأحذية ، وتجار الملح ، وآخرين ممن لم تذكر الوثائقُ المرتبطة بهذا الموضوع المهنَ التى يعملون فيها ، وجاء ذكر لنقابات الخبازين ولحّامى البرونز ، وتجار البيرة وتجار الزيت وغيرهم فى وثائق القرن الرابع الميلادى والفترة التى تليه .

مما لا شك فيه أن بعض هذه النقابات لم تكن جديدة فى نشأتها فى القرن الرابع (أثناء فترة سياسة الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى) ، ومما لا شك فيه أيضًا أن بعض هذه النقابات أنشئت قبل ذلك. ولدينا عدد من أوراق البردى يرجع تاريخها إلى القرن الأول ، توضح لنا بعض نظم هذه النقابات ولوائحها؛ فقد كانت لها لائحة مكتوبة، وهى تشبه بصفة عامة النقابات الخاصة بالحرفيين العاملين فى جماعات دفن الموتى (Collegia) التى انتشرت فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية كافة . حددت اللائحة واجبات الأعضاء ووضعت تقويمًا للأيام التى تقام فيها المآدب ، وحددت الغرامة التى يدفعها العضو عن أنواع المخالفات التى يرتكبها ، ومن بينها عدم حضور الاجتماعات المحددة للنقابة . وحرصت بعض النقابات على مصلحة أفرادها الاقتصادية فحددت

أسعار السلع التى يقومون بإنتاجها ، وكذلك المواد الأولية التى تسهم فى حرفهم. وللنقابة مهام أخرى ، فقد قامت بمساعدة أعضائها عند الحاجة ، منها إجراءات الطقوس الجنائزية عند وفاة أحد أعضائها ، وكذلك قامت بعض النقابات - إن لم تكن جميعها - بالاحتفال بانضمام الفرد للعضوية ، وكان العضو يحتفل بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً مثل احتفاله بزواجه أو بميلاد أحد أبنائه ، ولذلك كانت النقابة تشاركه من ميزانيتها في نفقات الاحتفال [١٦] .

وعلى أية حال اختلفت نقابات العصر الرومانى عن نقابات العصور الوسطى التى تجمع أفرادها معا بكامل رغبتهم لحماية مصالحهم الخاصة ، أما نقابات مصر فى العصر الرومانى فقد تم إنشاؤها لخدمة مصلحة إدارة الولاية فى التعامل مع الأفراد الذين يعملون فى مختلف المهن والأعمال ، وعلى سبيل المثال عندما ترغب الحكومة فى إعداد ملابس وأغطية للجنود كانت تحتاج فقط أن تتصل بنقيب نقابة النساجين فى المنطقة بدلاً من أن تتصل بعشرات النساجين كل على حدة ، كما أدى إنشاء النقابات إلى تسهيل مهمة إدارة الولاية لكى يحمل أفراد النقابة المسئولية المشتركة لتنفيذ أوامرها ، كما أنهم يعدون متضامنين فى حالة وقوع أى تقصير [١٧] .

هناك نوعان من العمل يرتبطان بالجنس : المرضعات وبائعات الهوى ، وقد ورد ذكر الأخيرات مرتين فى الخطابات الخاصة ، وكان الأخير خاصا بتعريفة الضرائب فقط (ص ٢١٦) أما الخطاب الثانى فسوف يظهر فى الفقرة التالية ، كما أننا سنتحدث عنهما فى الفصل الثامن من هذا الكتاب. وعندما اكتشف النقش الذى ورد فيه عن تقنين أجورهن عام ١٨٩٤ تعجل البعض واستنتجوا أن فرض ضرائب بهذا المعدل العالى على العاهرات إنما يرجع إلى أن الحكومة كانت ترغب فى القضاء على هذه الحرفة التى تعتبر من أقدم الحرف فى العالم ، ولكن يطرأ على هذه الفكرة الأخلاقية فكرة أخرى لتذكرنا بأن القاعدة الأساسية لسياسة الحكومة الضريبية لم يكن فيها ذلك الجانب الأخلاقى . إذن إلى ماذا تشير هذه الضريبة ؟ إن هذه الضريبة التى كانت تفرض على بائعات الهوى اللاتى عبرن عبر بوابة قفط كانت مرتفعة ارتفاعًا

كبيراً ولكنها تعكس أن هذا العمل كان مربحا فى تلك المنطقة التى ينكب فيها الرجال على العمل وحراسة الطرق الصحراوية ، وكان عدد قليل منهم هو الذى يصطحب زوجته معه ، لذلك تعطش بعضهم لصحبة الأنثى .

وحتى هؤلاء المغلوبات على أمرهن كان يجب أن يكن فاتنات ، فالمعروف أن المرأة لا تدخل فى هذا المجال إلا إذا كانت لديها ظروف قاهرة ساقتها إلى هذا النوع من الحياة . وقد سجلت حادثة من القرن الرابع تعطينا صورة عن هذا الموضوع وهى تمثل ما كان يحدث فى كل العصور، فقد قدم أحد السكندريين ويدعى ديوديموس Diodemos بتهمة قتله لإحدى بائعات الهوى العامة ، اللاتى كثيرا ما كان يتردد عليهن، وقبل أن تعلن المحكمة حكمها بإدانته أو إطلاق سراحه قامت ثيودورا Theodoraالمرأة الضعيفة والدة المجنى عليها وطالبت بأن يحدد لها ديوديموس مصدراً تتعيش منه ليكون بمثابة تعويض بسيط عن فقدها لابنتها وقالت : " إنه من أجل ذلك السبب وافقت على إعطاء ابنتى للقائم على المأجورة ، حتى يكون لدى مصدر للرزق أتعيش منه ، والآن وبعد أن ماتت ابنتى فإنى فقدت مصدر إعاشتى؛ ولذلك فإننى أطالب بأن يعطى لى أنا المرأة الفقيرة مصدراً بسيطًا أتعيش منه " (١٨) .

أما العمل الثانى المرتبط بالجنس فيتمثل فى عمل المرضع ، فمع انتشار وفيات الأطفال لم يكن هناك نقص فى السيدات اللاتى لديهن لبن لإرضاع الأطفال ولكنهن غير محتاجات إليه ، وتقوم المُرضع بإرضاع أطفال الرومان والسكندريين ، حيث كانت أمهاتهن يخشين أن تهدد الرضاعة قوامهن أو مكانتهن الاجتماعية ، وأيضًا لإرضاع من توفيت أمه ، أو التى جف لبنها وكانت فى حاجة إلى مرضعة . وقدمت لنا الوثائق بعض نماذج لقيام المرضعات بإرضاع لقطاء ليصبح بعد ذلك عبداً لمن عثر عليه. وسواء أكانت المرضع أمة أم حرة فيبدو أن هذا الموضوع لم يكن بذى أهمية وكانت المصلحة لها الاعتبار الأول . ووجدنا مرضعات من الإماء قمن بإرضاع أبناء الأحرار ، كما قامت سيدات من الأحرار بإرضاع عبيد . وتراوحت الفترة التى يتم فيها تأجير مرضعة للطفل بين ستة أشهر و ثلاث سنوات، وفى العادة سنة (وهى فترة طويلة

بمقاييسنا الحالية ، ولكنها ما زالت شائعة فى بعض أجزاء من العالم الثالث) . وعلى أية حال فإن كتابة العقود كانت لها صياغة موحدة خاصة بها مع بعض الاختلافات الفردية .

كانت المرضع تأخذ الطفل إلى منزلها فى أثناء مدة العقد ، وتتعهد بتقديم الغذاء والكساء له وكل ما هو ضرورى لكى ينمو فى صحة جيدة ، أما إذا مات الطفل قبل انتهاء مدة العقد فتأخذ المرضعة بدلاً منه طفلاً آخر بدون أى أجر إضافى حتى انتهاء مدة العقد الأصلى ، وفى بعض الأحيان كانت هناك بعض الأشياء التى تلتزم بها المرضعة فى أثناء فترة العقد، فحتى لا يفسد لبنها " كان ينبغى عليها ألا تقيم علاقة جنسية مع أى رجل، وألا تحمل ، وألا تقوم بإرضاع طفل آخر ". وكانت أجرتها تساوى أجر العامل غير الماهر ، ويدفع لها جزء من أجرتها نقداً (جزء صغير منه مقدماً) أما الباقى فيدفع على أقساط شهرية نقداً كما كانت تحصل على زيت الزيتون (لحماية الطفل على ما يبدو من أى قرح أو طفح جلدى) .

وخلال ممارسة جميع أوجه الأنشطة الاقتصادية كان يتم فى العادة دفع مبلغ نقدى "من يد ليد" وهى العبارة التى شاع استخدامها فى عديد من العقود والمعاملات ، أما الجزء الأكبر من المبلغ فيتم دفعه عن طريق أحد البنوك التى كان يوجد العديد منها فى المدن الكبرى والعواصم، كما أنها وجدت أيضاً فى القرى الكبيرة. ويتمثل عمل "البنوك العامة" بداية فى إيداعات وتحويلات ضرائب الدخل، أما من الناحية العملية فتمت كل المعاملات الخاصة وأيضاً بعض الأعمال العامة من خلال البنوك الخاصة التى امتلكها الأفراد . وعلى الرغم من أن معاملات البنوك لم تتطور كنظيرتها فى العصر الحديث كما نفترض، فقد كانت تقوم بالإضافة إلى وضع الودائع الصغيرة وسحبها بالدفع لأطراف ثالثة ، وتحول أموالاً لها حجمها لبنوك أخرى استناداً إلى أمر كتابى بسيط، وإذا سميت هذه الأعمال "تحويل عملة" أو خدمة بنكية أو "تسجيلات بنكية" فهى تشير إلى الأنشطة التى يقوم البنك بها ولكنها لا تمنع من القيام بأنواع المعاملات الأخرى. وعلى ذلك فإذا قام الفرد بتأجير قطعة أرض لمدة خمس سنوات ، وقام بدفع

إيجار مدة العقد بأكملها عن طريق أحد بنوك الصرافة ، فإن هذا يشبه إلى حد كبير ما نسميه اليوم "الخصم والتخفيض المصرفى" . وفى مثال آخر قام أحد البنوك بتأدية خدمة مصرفية لحفظ سجل فى عملية شراء منزل (١٩) .

إن المعلومات التى كشفها لنا هذا الموضوع لا تثير دهشة المرء بالتأكيد ، فقد كان رجال البنوك بصفة عامة من الأثرياء ، ويمثلون الطبقة العليا فى المجتمع ، وحمل أغلبهم أسماء إغريقية مع وجود رجل رومانى هنا وهناك فى بعض الأحيان، وحمل قليل منهم أسماء مصرية فى بنوك القرى ، كان أغلبهم يمثلون أرستقراطية مواطنهم المحلية، وقليل منهم كانوا رجالاً لهم وضع مميز مثل تيبيريوس كلوديوس ديمتريوس ابن بيون Tiberius Claudius Demetrius Son of Bion الذى تم انتخابه مديراً لمعهد التربية فى مدينته، وكوفئ بالحصول على الجنسية الرومانية، وحصل على منصب رئيس الكهنة وتشرف بالحصول على عضوية المجمع العلمى القديم (الموسيون) بالإسكندرية ، وقد التقينا به فى الإيصال الذى أصدره عام ٥٠ م ومعه أخيه إزيدوروس Isidoros لإعادة دفع مبلغ كبير بلغ ثلاث عشرة تالنت Talent (٧٨٠٠٠ دراخمة) وهو مبلغ كان خايريمون Chariremon قد قام بدفعه بنفسه ومع آخرين بواسطة حوالة سابقة أصدرها على بنك صرافة ناركيسوس بن أرخياس Narcissus Son of Archias ثم حولت بعد ذلك عن طريق حوالة على بنك صرافة ديمتريوس وإزيدوروس أنفسهم . وعن طريق الحوالة الأخيرة يتم دفع المبلغ لبنك صرافة ناركيسوس المذكور سالفًا (٢٠) . لقد كانت صرافة البنوك نوعًا من أنواع الأعمال التجارية التى يبدأ فيها الفرد ثريا وينتهى أكثر ثراء .

وكان الثراء والحصول على الامتيازات من نصيب الفنانين وأبطال الرياضة الفائزين بالجوائز والذين كانت لهم شهرتهم فى مدن وعواصم مصر ، وحق لنجومهم أن يتجولوا فى أكبر مدن العالم الرومانى ، حيث استقبلوا هناك استقبالاً حافلاً .

كان ممثلو المسرح أو كما كان يطلق عليهم "فنانو ديونيسيوس " عندما يصبحون مرموقين فى عملهم يتم انتخابهم فى عضوية نقاباتهم المحلية ، وهى عبارة عن فروع من الجمعية المقدسة للسفر حول العالم للأبطال الفائزين فى الألعاب المقدسة المكرسة

للإله ديونيسيوس ذو التاج الذهبى وراعى الفنانين ومولانا ... (اسم الإمبراطور الحاكم) وكانت هذه الجمعية - وهى ذات الاسم الأنيق الذى كتب بطرق متعددة كما يظهر الآن - لها مركز رئيسى ومقر للعبادة فى روما ، وهناك ثلاث وثائق من القرن الثالث : الأولى فى برلين ، والاثنتان الأخريان فى أكسفورد ذكرت فيهما الامتيازات الهائلة التى منحها أغسطس وباقى الأباطرة لأعضاء الجمعية ، فقد أصدر الإمبراطور هادريان على سبيل المثال مرسوما يؤكدها وهو على النحو التالى :

« إن الامتيازات التى منحت لأعضاء الجمعية لا ينبغى أن يمسها أى فرد ، وهى تتمثل فى الجلوس فى المقاعد الأمامية [فى المسارح وغيرها] والإعفاء من الخدمة العسكرية ، والاستثناء من أى أعمال للخدمات الإلزامية العامة [الفصل الثامن] ، وعدم تحصيل ضرائب عن كل دخل يحصلون عليه من الألعاب والعروض الأخرى ، كما أنهم فى حلٍّ من تقديم الضمانات لإعفائهم من ضرائب الأضاحى العامة ، ولهم الحق فى أن لا يرغموا على إيواء الغرباء ، أو أن يتم حبسهم والضغط عليهم تحت أى ظرف ... وإلا يتعرض من يخالف ذلك لعقوبة الموت » .

وأكد كل من الإمبراطور سبتموس سيفروس Septimus Severus وكاراكالا على هذه الامتيازات ، كما صدر لها تأكيد آخر فى عهد الإمبراطور سيفروس الإسكندر Severus Alexander ، وبعد تلاوة المنحة الإمبراطورية تقوم الجمعية بمنح شهادة عضويتها . وعلى العكس من عبارات الأباطرة الموجزة والروتينية فى مراسلاتهم كان أسلوب الجمعية حافلاً بالرياء ومسهبا ، والمثال التالى يحمل التاريخ المصرى الذى يعادل ١٠ فبراير من عام ٢٦٤ م :

«جمعية الفنانين العالمية المكرسة للإله ديونيسيوس والإمبراطور بوبليوس ليكيتيوس جالينوس ماكسيموس التقى ذى الحظ السعيد أغسطس ديونيسيوس الجديد .. إلى أعضائها من الفنانين المكرسين للإله ديونيسيوس ، والفائزين فى الألعاب المقدسة والمتوجين بتيجان الذهب ، وإلى (غير الأعضاء) من المتنافسين تحية وسلامة .. ليكن معروفًا أن ماركوس أوريليوس سيرنيوس بن سيرنيوس Marcus Aurelius Serenus son

of Serenus من البهنسا قد انضم إلى جمعية الفنانين العالمية المقدسة حول العالم لعشيرة جالينوس العظيم كاهناً أعظم فى الاحتفال رقم ١٣٥ وهو الاحتفال الأولمبى المقدس للألعاب فى المهرجان العظيم المخصص لأنتينوس ، وقد قام بدفع رسوم التسجيل طبقًا للقانون الإمبراطورى وهى ٢٥٠ دراخمة أتيكية وكل الرسوم المقررة لعبادة الأباطرة ، وقمنا بكتابة ذلك لكى نحيطك علماً به وإلى اللقاء » (٢١) .

يقوم كل موظف فى النقابة بالتوقيع على التقرير ، وغالباً ما يكرر كل فرد أسلوب الخطاب نفسه الذى يوقع عليه ، ويقومون أخيراً بإرسال رسالة الجمعية إلى مجلس البهنسا ليخبرهم بأن ماركوس أوريليوس سيرنيوس أصبح عضواً فى الجمعية وله الحق فى التمتع بالامتيازات المذكورة (٢٢) .

أما فيما يخص أبطال الرياضة فكان لهم تنظيم مماثل ، وهى جمعية هادريان أنطونيوس سبتموس لأبطال الرياضة المتجولين المكرسة لهراكليس . وتأكدت امتيازات هذه الجمعية فى عهد الأباطرة كلوديوس وفسباسيان وسبتموس سيفروس وهم الأباطرة الذين حملت الجمعية أسماءهم فيما يبدو. وكانت مهنة الرياضة يمكن أن تؤدى – كما هو الحال اليوم – إلى تحقيق شهرة أكبر وثروة أضخم من التى تحققها مهنة الفن. وقد كوفئ الفائزون من الرياضيين بجوائز مالية كبيرة ، وتمتعوا بحقوق المواطنة الشرفية ، ودخلٍ مدى الحياة، بالإضافة إلى امتيازات أخرى لها قيمتها مثل الإعفاء من الضرائب والخدمات الإلزامية . ولدينا من خارج مصر أول نموذج لأحد أبطال المركبات وكان يبلغ من العمر ٢٤ عاماً وحصل على جائزة نقدية بلغت مليون ونصف مليون دراخمة، وهناك بطل ملاكمة لم يهزم بعد أكثر من مائة مباراة اشترك فيها، لذلك منح عضوية أكثر من ١٤ مدينة مختلفة من أنحاء العالم الرومانى ، وكانت الإسكندرية وأنتينوبوليس من بينها (٢٣) .

ويمدنا البردى كما هى العادة بتفاصيل عديدة عن مصر ، فلدينا وثيقة مؤرخة بعام ١٩٤ م تشبه تلك التى سبق تقديمها عن فنانى ديونيسيوس، وتتضمن مذكرة إلى أعضاء الجمعية بأن: "هيرميناس Herminus المدعو موروس Moros بطل الملاكمة أصبح

عضواً فى جمعيتنا وقام بدفع الرسوم المذكورة كاملة وهى (١٠٠) دينار (٤٠٠ دراخمة)" ! ولدينا أيضاً طلب من هيرموبوليس قدمه أحد أبطال الرياضة لفوزه مرتين: "الأولى فى ألعاب النصر المقدسة (فى هرموبوليس) .. والثانية لفوزه بالتاج فى بطولة ألعاب النصر العالمية، وهى فى مرتبة الألعاب الأولبية نفسها التى عقدت فى مدينة صور"[٢٤] . وينبغى أن نلاحظ أننا إذا قمنا بعقد مقارنة بين هذه المكافأة، ومرتب العامل الماهر فى القرن الثالث والجندى العامل فى الفرقة الرومانية حتى بعد الزيادة التى بلغت ٥٠٪ التى منحها لهم الإمبراطور كاراكالا، نجد أن كلا من العامل والجندى السابق ذكرهم يحصلون على حوالى ٦٠٠ دراخمة شهريا [٢٥] .

وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه الامتيازات لم تكن تمنح للفائز مدى الحياة فحسب ، بل إنها لم يكن لها حد زمنى فى بعض الأحيان ، حيث امتدت إلى ورثته بعد وفاته فى بعض الحالات .

وأخيراً فإن الحاصلين على الامتيازات من أبطال الرياضة كان مثلهم مثل المناصب الكهنوتية والمناصب الأخرى التى كان يمكن شراؤها وبيعها ، فمما لا شك فيه أن هؤلاء الأبطال الرياضيين الذين أغرقوا بالحوافز والأموال لتكرار انتصاراتهم وجدوا أنه من الأفضل لهم أن يستبدلوا المال ببعض امتيازاتهم المكررة ، كما هو الحال فى المثال التالى المؤرخ فى ١٨ أبريل سنة ٢١٢ م :

«برجاء أن يحول من حساب يوديمون Eudaimon المدعو نيلوس Nilos وهيراكيون المدعو أنوبيون Anoubion مبلغ (١٠٠٠) دراخمة فضية [التاريخ] عن طريق بنك أنوبيون بن أمونيوس Anoubion s. of Ammonios [المواطن] من قبيلة ماتيديان Matidian فى حى كاليتنكيان Kallitenkian فى مدينة أنتينويوليس .. إلى [حساب] توربون ابن أبو للونيوس بن أمونيوس Tourbon of Appollonios s. of Ammonios من قبيلة أغسطس حى ديوسكوريون Dioskourion الفائز فى الألعاب المقدسة، والمعفى من الضرائب. ولقد أقر توربون Tourbon بأنه تسلم من هراكيون Hierakion المدعو أثينادوروس Athenadoros نظير حقوقه التى حصل عليها ، وأولها هو حق تناول

الطعام على نفقة الدولة ، وهو الحق الذى قام ببيعه لأبناء هيراكيون السابق ذكره ، وثانيهما الحق الذى حصل عليه بفوزه فى ملاكمة الرجال التى جرت فى أنتينوبوليس فى العام الواحد والثلاثين من حكم المؤله كومودوس والسنة الثانية والثلاثين فى المباريات الكبرى المقدسة التى أقيمت على شرف ذكرى أنتينوس ، وتبلغ قيمة الجائزة النقدية التى حصل عليها والتى تم الاتفاق بشأنها ألف دراخمة فضية (١٠٠٠ دراخمة فضية) مع كل الحقوق المترتبة على ذلك فى السجل الرسمى للسجلات العامة ، (تمت قراءة هذا الإيصال بصوت واضح لتوربون ، حيث دونت موافقة بتسليم الإيصال نيابة عنه لأنه لا يعرف الكتابة) [توقيع ثلاثة من الشهود ، ثم يتبع ذلك توقيع المشترى] » .

ولكى نختتم هذا الفصل نتناول أصحاب المهن من المتعلمين . إن أول الفئات التى تكرر ذكرها فى أوراق البردى هى فئة الأطباء ، ولكننا قلما نقابلهم فى أثناء ممارستهم لمهنتهم ، ففى أغلب الحالات التى لدينا جاء ذكرهم فى النصوص الخاصة بامتلاكهم لأملاك ، أو دفع أموال ، وهكذا ، وبالرغم من ذلك فما زالت لدينا عدة لمحات عن أعمالهم.

ففى نهاية الفصل الخامس قدمنا مثالاً لطبيب قام بتقرير رسمى عن حادثة وفاة ، أما المثال الثانى فهو خاص بقيام طبيب رومانى الجنسية مقيم فى قرية بكتابة تقرير عن حادثة هجوم أحد الأفراد ، ومما لا شك فيه أنه كان جنديا مسرَّحًا حيث كان يعمل فى الوحدات الطبية طوال سنوات خدمته العسكرية :

« نسخة من تقرير بروتارخوس Portarchos مدير إقليم الفيوم قسم هيراكليس، من جايوس منيكيوس ڤاليريانوس Gaius Minicius Valerianus الذى يمارس الطب فى قرية كرانيس ، ومن فائيسيس بن ديناس Phaesis son of Zenas ومن سوريس بن كاستور Esouris son of Kastor شيوخ القرية... بخصوص حالة ميثاريون بن كاميس Mystharion son of Kames ، فبعد القيام بزيارته فى حضور أخيه بيتوسوخوس Petesouchos نرفع إليك التقرير التالى: نقسم بحياة مولانا جلالة الإمبراطور قيصر تراجان هادريان أغسطس وبحظه السعيد أنه فى اليوم الخامس من ضربه خلف المعبد فوق صدغه

الأيسر من جانب الرأس قمت أنا جايوس منيكيوس ڤاليريانوس بعلاجه من جرح نافذ، حيث وجدت فيه قطعة صغيرة من الحجر ؛ وقمنا نحن إيسوريس وفائيسيس بمشاهدة الجرح المذكور ، وإذا ثبت عدم صدقنا نكون معرضين للعقاب ؛ للحنث بالقسم [التوقيع، التاريخ ١٢ أغسطس ١٣٠] » .

وفى خطاب مؤرخ فى ٢٩ أغسطس عام ٥٨ ومرسل من أحد الأشخاص إلى صديقه الطبيب يذكر فيه الكاتب بعد الافتتاحية العادية الخاصة بأطيب الأمنيات الآتى: « قمت بإرسال وصفتين : الأولى خاصة بتذكرة أرخاجاثوس Archagathos والثانية خاصة بالضمادة الكاوية، الوصفة الأولى جيدة ولكن الضمادة [اللزقة] الكاوية تفقد مفعولها مع الراتنج . إننى أريد أن تذكر لى [وصفة] لمادة كاوية قوية لا يمثل استخدامها خطورة على المسام ، لإننى فى أمس الحاجة إلى واحدة منها ، حيث إن الضمادة الجافة التى كتبت لى عنها نوعان ، أرجو أن ترسل لى وصفة من النوع الذى يؤدى إلى الشعور بالراحة »(٢٦) .

وعلى الرغم من أن القابلة لم تذكر إلا مرة واحدة بين آلاف الوثائق البردية التى تم نشرها حتى الآن، فإن ذكرها يذكرنا بأن الفلاحين المصريين – مثلهم مثل كل المجتمعات الزراعية فى كل زمان ومكان – كانوا يدبرون أمورهم لسد احتياجاتهم الصحية بأنفسهم ؛ لأن الرعاية الصحية كانت فى المقام الأول من حظ المدن والعواصم، أما القرويون فاعتمدوا فى أمراضهم العادية على دستور الأدوية المحلية البسيطة والمجهولة الهوية ، الذى تطور من خلال التجربة والخطأ عبر القرون ، وعثر على أكثر من مائة وصفة طبية مسجلة على برديات من العصر الرومانى ، وكانت تعالج كل شيء ابتداء من أمراض الجوف إلى الأمراض المعدية ، عن طريق الأعشاب ، وهو أمر متوقع من مجتمع زراعي ، لسهولة الحصول عليها من مملكة النبات فيه .

وبلغ عدد هذا النوع من الدواء أكثر من ثلاثة أمثال الأدوية المستمدة من الحيوان أو ذات الأصل المعدنى ، وهى تتفاوت فى نوعها من المنتجات مثل النبيذ إلى الأعشاب النادرة مثل الشيح ، والأسفنتين absinthe ، والبرواق aspholdel ، وقد تم خلط بعض

الوصفات بطريقة غامضة أو بطريقة السحرة الأفارقة ، وذلك فى الإرشادات الخاصة باستخدامها ، ولكن أغلبها جاء بطريقة مباشرة ليس فيها أى التباس ، وبعضها وهو القليل منها كان يعكس معلومات طبية صحيحة من التى عرفها العصر ، فعلاج سقوط الشعر على سبيل المثال والذى عثر عليه فى أكثر من نسخة ، تم نشر واحدة منها منذ أكثر من خمسين عامًا ، بدأ ينظر إليها الآن على أنها الوصفة نفسها التى وجدت فى أعمال جالينوس أكبر أطباء الإمبراطورية الرومانية ، حيث نقرأ فيها الآتى :

« لوقف سقوط الشعر »

بعد وضع صبغة الأفيون فى النبيذ غير المخمر ، أضف زيت الريحان الشامى بالتعاقب مع النبيذ ، حتى يصبح الخليط فى قوام العسل ، ثم امسح به الرأس قبل الحمام وبعده . ومن الأفضل إضافة بعض من نبات سرخس "كسبرة البئر"، الذى يسميه البعض أديانوم adianum ، وتستخدم نصف كمية صبغة الأفيون بالتعاقب مع الزيت أو مع زيت الريحان الشامى أو مع الناردين »(*) (٢٧) .

كذلك وردت كلمة طبيب بيطرى veterinary (طبيب للخيول فى اللغة الإغريقية) مرتين أو ثلاثًا ، وأيضًا اصطلاح "طبيب الفرقة " ولكن وجودهم كان تعبيرًا بسيطًا فى نصوص لا علاقة لها بعمل أصحاب هذه المهنة ، كما أنه ليس لدينا أى معلومات عن تدريب الأطباء، ونحن نعرف أنه لم يكن هناك فى أى فترة من العصور القديمة امتحان رسمى لإجازة الطب أو شهادة رسمية يحصل عليها الطبيب قبل أن يقوم بممارسته مهنة الطب ، ولكن مما لا شك فيه أنه كان يتم التدريب الأولى على العلاج فى أثناء فترة التعليم التى يحتاج إليها العمل الطبى . ولم يتوافر التدريب الطبى فى المدن الكبرى والمراكز الطبية الشهيرة فحسب ، ولكن كان يوجد طبيب محلى لديه الرغبة

(*) عن الناردين راجع تعليق المترجمة على حاشية رقم ٢٧ ، ص ٢٢٧

في أن يعلم طريقته الخاصة في العلاج لصغار المزاولين للطب . ويتضح لنا مدى انتشار الكتب الطبية من خلال أوراق البردي التي تم العثور عليها ، ففي مصر الوسطى عثر بين خرائب مدينة أنتينوبوليس وفي عاصمة هرموبوليس والبهنسا ، وأيضًا في بعض القرى على أوراق بردية تضم من بينها تعليقات على مقالة جالينوس في الطب وعشرات الشذرات من أعمال هيبوقراط Hippocrates ، وأكثر من خمسين قطعة بردية صغيرة لأعمال طبية غير معروفة لنا حتى الآن ، كما نجد صدى أعمال كتاب الطب الإغريق قد انعكست في عديد من الوصفات الطبية التي تم العثور عليها مثل النموذج الذي سبق تقديمه توا . وبالإضافة إلى ما تقدم فقد كان لدى المصريين تقاليد طبية مثيرة خاصة بهم ، سجلت في البردي الهيروغليفي والتي ترجع إلى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد. إن ممارسي مهنة الطب في مصر في العصر الروماني كانوا أمام مدرستين ليقوموا بوصف دوائهم منهما، لذلك كان لا بد من الترجمة من كليهما . ولدينا مثال جيد على هذا المزج بين الطريقتين يمكننا أن نراه في وثيقة نشرت حديثًا من بين ملف بردي ڤيينا، وهو عبارة عن كتاب طبي مكتوب بالديموطيقية في أواخر القرن الثاني الميلادي ، وكان يعد أحد المراجع المهمة في مكتبة معبد سوخوس Souchos إله التمساح في الفيوم ، وقد تم تأليف نص هذا الكتاب من مصدر خارجي ، وتحمل بعض ملامحه خصائص الكتابات المصرية في العصر الفرعوني ، كما يتضح من بعض وصفاته أنها ذات أصل إغريقي، أما الشيء الذي أثار دهشة الجميع فهو أن أغلب الوصفات فيه تتكون من كلمات إغريقية ترجمت إلى المصرية (٢٨) .

ولدينا وثيقة أخرى مثيرة تعطينا لمحة جانبية عن إعداد طبيب القرية ، وهي تثير اهتمامنا للوهلة الأولى ، على الرغم من الغموض الذي يكتنف بعض جوانبها غير الواضحة . الوثيقة عبارة عن إقرار خاص بإحصاء عام ١١٨ م حيث سجل أحدُ القرويين أحدَ أفراد أسرته وهو ابنه الذي يبلغ السابعة عشرة من العمر ، وذكر إلى جانبه أنه يعمل في مهنة اختصارها يتفق مع الكلمة الإغريقية التي تعني "متعلق بالطب" وهي physi ، هل نحن الآن أمام شاب يبلغ سن السابعة عشرة من العمر

ويعمل فى مجال التدريب الطبى (وهو الاقتراح الذى قدم منذ سبعين عاماً عندما نشرت هذه الوثيقة) ؟ ففى ميدان الحرف اليومية ، كما سبق أن شاهدنا فى بداية هذا الفصل كانت فترة التدريب تنتهى عادة فى سن أقل من السن المذكورة فى هذه الوثيقة فهل هذا ينطبق أيضًا على التدريب في مجال الطب ؟ حقيقة إن الشباب فى المناطق الحارة ينضجون بطريقة أسرع من نظائرهم لدينا (*) ، ولكن هل هذه الحقيقة يمكن أن تكون أساسًا كافيًا لكى نفترض أن القرويين كان يمكن أن يلجأوا بشكواهم الطبية إلى شخص صغير السن ؟ لا شك فى أن مثل هذا الشاب سيكون الوحيد الذى يمارس الطب فى هذه المنطقة، أو ربما يكون حاز شهرة واسعة فى مجال العلاج تناقلتها الألسنة ، أو يكون متمتعًا بموهبة خاصة وقدرة ربانية . وانتشرت مثل هذه الممارسات وتلك المعتقدات فى الشرق القديم . وقام والده بكتابة الإقرار (وذكر أنه كان يعمل كاتبًا) فهل قصد والده بأن الشاب الصغير كان يعمل مساعد طبيب ، أو طبيبًا تحت التمرين ؟ أو كان طبيبًا للعلاج الطبيعى ؟ نحن نتطلع إلى الكيفية التى سيتم بها حل هذا اللغز ، فربما تظهر لنا معلومات جديدة بخصوص هذا الموضوع (٢٩) .

ليس لدينا معلومات عما إذا كانت رسوم الأطباء مرتفعة أو منخفضة حيث لم تَرِدْ علينا أى حالة منها، وينطبق الشىء نفسه على المحامين الذين لا نعرف عنهم إلا معلومات أقل مما نعرفه عن الأطباء ، وظهروا كثيراً فى أثناء وجودهم فى قاعات المحكمة عندما كانوا يتحدثون عن وكلائهم ، ولكن ليس لدينا معلومات عن طريقة إعدادهم إعداداً قانونيا أو للوقوف أمام المحكمة، وما أمكن أن توضحه لنا أوراق البردى المتزايدة التى تم العثور عليها هو أن القانون الذى كان يمارسه المحامون لم يكن قانونًا رومانيا، ولا إغريقيا ، ولا مصريا ولكن كان خليطا من القانون الإغريقى والمصرى وكان للقواعد القانونية الرومانية وإجراءاتها أثرها على ممارسة القانون ، ذلك الأثر الذى يبدو أنه أخذ يتزايد خلال العصر الرومانى . وقد نما هذا التطور بوضوح

(*) أى فى أوروبا . (المترجمة)

بعد عام ٢١٢ م عندما منح الإمبراطور كاراكالا الجنسية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الرومانية . والمثالان التاليان كافيان لتوضيح مدى انتشار القانون الروماني ، وأثره في مجال القانون ، فعندما يصل الشاب في مصر سن الرابعة عشرة كان يخضع طبقًا لقانون الولاية لدفع ضريبة الرأس ، ولكن ارتفعت السن بالنسبة إلى الرومان منذ منتصف القرن الثالث إلى سن الخامسة والعشرين . وهناك بردية أخرى نشرت حديثًا ترجع إلى عام ٢٦٠/٢٦١م وهي خاصة بإعادة الدوطة بعد فسخ عقد الزواج ، يتضح منها مدى اتباعها للإجراءات القانونية الرومانية، وهي حالة لم يوجد لها نظير في إجراءات الوثائق المشابهة لها في الولاية والتي تؤرخ بفترات زمنية أسبق منها (٣٠).

وعلى عكس المدونات الرومانية نجد أنه لا يوجد في مصر مدونة للقوانين المحلية التي كانت تنمو نتيجةً لتراكم التشريعات والقواعد القانونية ، ولذلك فإن تدريب المحامين تحت هذه الظروف كان يتطلب دراسة واسعة للقضايا وسوابقها كما كان الحال في التقاليد الإنجليزية والأمريكية .

الهوامش

(١) يتم التدريب فى السنة الأولى دون أجر . وفى العقد الذى تم اقتباسه هنا P. oxy. 1647 بلغ الأجر فى السنة الأخيرة من التدريب ما يقارب العامل غير الماهر انظر الملحق .

(٢) P. Oxy. 724 = W. Chr. 40 = Select Parpyri, 15.

(٣) P. Oxy. 520 (AD. 143)

(٤) P. Hamb. 12 ; p. Teb. 402

(٥) SB. 4639

(٦) P. Mich. 203 ; P. Flor.I

(٧) Pliny, Natural History, Book 36 ; sect. 67.

(٨) P. Oxy. 2272

(٩) P. Koln : 53

(١٠) P. Ryl.197 a; P.Grenf. II, 50c. = Select Papyri 382, 383.

(١١) OGIS 701 = IGRR. I,1142 وقد عَدَّد لنا بلينى ثمانى محطات فى طريق قفط - برنيس ويبدو أنه كان يوجد هناك أكثر من ذلك : Pliny, N. H. Book 6, sects 102-3.

(١٢) OGIS 674 = IGRR. I, 1188 وتم ترجمة النص كاملا فى : L-R, II,pp. 147-8. بلغ رسم مرور الجمل الذى يحمل حمولة كبيرة نصف قيمة رسم حمولة الحمار ، ويمكننا أن نفسر ذلك فى ضوء حقيقة أن الجمل يستهلك مياها أقل من الحمار على طول الطريق .

(١٣) P. Princ . 20 = SB, 80272 ; P . Oxy. 36 = W. Chr. 273;PS- Quintilian, Declamations 359.

(١٤) أربعين كيلو متراً يوميا P. Lond. 1164 h = Select Papyri 38., Pliny, V. H. Book 6, sect. 102. وعن التفصيلات الفنية راجع : L. Casson, Ships and seamanship in the ancient world, priceton, 1971 ,esp. p. 164 .

(١٥) تم نشر الوثيقة البردية الآتية P. Lond. Inv. 6164 + 245 Zeitschrift für Papyrologie und Epigraphik, 20 (1975), 162-6.

(١٦) راجع على وجه الخصوص الوثيقة التالية . P. Mich. 243 - 5

(١٧) وهناك مثال جيد ظهر فى الفصل السابع أعلاه .

(١٨) BGU. 1024. VII.

(١٩) الأمثلة المذكورة مستمدة من P. Oxy 2584 , P Strassb. 34

(٢٠) وعلى أية حال فقد تأثر بعض رجال البنوك تأثراً سيئا نتيجة لزيادة التضخم انظر P.Oxy. 22471 المثال المذكور فى P.Oxy. 1411 = Select Papyri, 230

(٢١) إن الوثائق التى تم الاقتباس منها هى BGU. 1074; P Oxy. 2476, P.oxy. Hels .25 وهى متعلقة بثلاثة أشخاص من ذوى المكانة الرفيعة (وكان ماركوس أوريليوس سيرنيوس Marcus Aurelius Serenus موضوع الوثيقة الثالثة)

(٢٢) Corp. Inscr. Lat. VI . 10048 = Inscr. Lat. Select. 5287; IGRR IV. 1519 = Sardis VII 79 .

(٢٣) الوثائق المذكورة هى P. Lond. 1178 = W. Chr. 156; St Pal. V, 52 - 6 = Select papyri 306

(٢٤) وعن امتداد المنحة للحفيد راجع الوثيقة التالية Sr. Pal. V 119 - Verso iii = W. Chr. 158 = Select Papyri, 217 وقد تم ترجمتها والتعليق عليها فى L-R. II, P.237

(٢٥) P.Lond. 1164 = Jur. Pap. 13 كانت ماتيديا Matidia هى ابنة أخ أو أخت الإمبراطور تراجان ووالدة زوجة الإمبراطور هادريان ، الذى أنشأ مدينة أنتينوبوليس . أما لقب Kalliteknian والدة الأبناء " ذوى الطلعة البهية " فلم يكن المقصود به مدح ماتيديا ولكنه كان إطراء لمدينة أنتينوبوليس .

(٢٦) BGU. 647 ; P. Mert. 12 كان أرخاجاثوس طبيبا إغريقيا فى القرن الثالث قبل الميلاد وقد أخبرانا كل من بلينى الكبير Pliny والطبيب والكاتب الرومانى كيلسوس Celsus ، بالإضافة إلى ما ورد فى الوثيقة أخبرانا عن شهرته العريضة . مازالت مشكلة مرض تصلب باطن القدم متوطنة فى المناطق التى يسير فيها الأفراد حفاة الأقدام فى أغلب الوقت . [راجع أيضاً ص ١١٠ . المترجمة] .

(٢٧) وعن تحديد النص راجع M. H. Marganne, Papyrologica Florenina , VII, (1980), PP. 179 - 83.(*)

(٢٨) E.A.E Reymond, A medical Book From Crocodiloplois, Mitteil. Paprussamml. Oesterr. Nationalbibl. 10, 1976.

(٢٩) والوثيقة التى تمت مناقشتها هى . P. Giss. 43 = SB. 10630 ; Physicians, لطبيب يبلغ من العمر أقل من عشرين عاماً فى آسيا الصغرى . راجع Phoenix, 36 (1982), 271.

(٣٠) ولقد قمت (المؤلف) بمناقشة التأثير الرومانى فى هاتين النقطتين فى - BASP, 18 (1981), P. 73 4 ; H.J. Wolf in Zeitsch. Savigny - Stift. 96 (1979). PP. 258 - 68.

(*) الناردين أو سنبلة الطيب نبات ينمو طوال العام فى جبال الهملايا ، له قوام زيتى استخدم فى صناعة المراهم والعطور فى العصر القديم . راجع : كرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ / ١٢٩ .

الفصل الثامن

التعداد ، والضرائب ، والخدمات الإلزامية
أو "هدايا قيصر"

تعداد السكان ومسح الأراضى الزراعية

وحدث أن أصدر قيصر أغسطس فى يوم من تلك الأيام قراراً بخضوع جميع أنحاء العالم للضرائب ... على أن يقوم كل فرد بدفع الضرائب فى مدينته" . إن القصة الشهيرة الخاصة بميلاد المسيح والتى ذكرت لنا فى الفصل الثانى من إنجيل لوقا تبدأ بالإشارة إلى التنظيم الشامل للحياة فى الإمبراطورية الرومانية عن طريق التعداد ، ومصر هى المنطقة الوحيدة التى تقدم لنا معلومات تفصيلية - عن التعداد - بفضل ما حفظته لنا أوراق البردى من معلومات ، أمكننا من خلالها أن نعرف مراحله وخطواته ، وإجراءاته البيروقراطية ، والموظفين المسئولين عنه .

ففى أثناء العصر البطلمى كان يتم تسجيل جميع سكان مصر سنويا . ولكن أغسطس ألغى هذا النظام واستبدل به التعداد الذى كان يتم كل أربعة عشر عاما ، وهى السن التى يُسجل فيها الصبى لدفع ضريبة الرأس ، بعد أن يكون قد ترك مرحلة الطفولة . وتبدأ عملية التعداد بالإعلان الرسمى عن ذلك ، كما هو الحال فى المثال التالى الذى يرجع إلى عام ١٠٣ م :

« يعلن والى مصر جايوس فيبيوس ماكسيموس **Vibius Maximus** الآتى : حيث إنه قد بدأ الآن التعداد المنزلى ، لذلك فمن الضرورى أن يبادر جميع الأفراد المتغيبين أو الموجودين خارج محالٍّ إقامتهم لأى سبب من الأسباب بالعودة إليه على جناح السرعة ليتمكنوا من استكمال الإجراءات الرسمية المعتادة . وعلى أية حال فإن مدينتنا (الإسكندرية) لا تحتاج إلى بعض القادمين إليها من الريف ، لذا فإننى أرجو من جميع الأفراد الذين لديهم أسباب مقنعة للبقاء فيها أن يقوموا بتسجيل أنفسهم مع فوليوس فيستوس **Volusius Festus** القائد الإقليمى الذى عهدت إليه بالقيام بهذه المهمة ، وسوف يحصل هؤلاء الذين يرون أن وجودهم ضرورى على تصريح موقع منه بمقتضى

هـذا المرســـوم ، وذلك فى مدة أقصاها الثلاثين مـــن شهـــر أبيب Epeiph الحالى .
أمــا الآخرون فعليهــم أن يعــودوا خلال ثلاثين يوما . وفى حالة ضبط أى فرد منهــم لا يحمل تصريحا فسوف يعاقب دون هوادة . كما أننى أعلم تمام العلم ...» (فقدت الأسطر القليلة المتبقية من الوثيقة) .

بعد ذلك يتم توزيع أوامر مشابهة فى جميع أنحاء الولاية . وقد فرضت عقوبات شديدة على من يهمل القيام بالإحصاء ، كما هو واضح فى القواعد الإمبراطورية الخاصة بمدير الحاسب الخاص Idios Logos للإمبراطور :

فقرة ٥٨ : (يعاقب) الأفراد الذين لا يقومون بتسجيل أنفسهم والأفراد الآخرون الذين يجب تسجيلهم فى الإحصاء المنزلى بمصادرة ربع أملاكهم . أما إذا اكتشف أنهم لم يقوموا بالتسجيل على مدى دورتين متتالين فسيتم مصادرة ربع آخر من أملاكهم .

فقرة ٦٠ : فى حالة عدم تقديم إقرار عن العبد يتم مصادرة العبد فقط .

فقرة ٦٣ : أما الأفراد الذين تقدموا بطلب لعدم قيامهم بتقديم البيانات المطلوبة فى الإحصاء السابق فيتم العفو عنهم إذا قاموا بتقديم البيانات خلال فترة ثلاث سنوات[١] .

ولا نعرف بالضبط عدد المرات التى كان يمكن أن يتم فيها التجاوز عن السنوات الثلاثة . وفى الحالات العادية كان يمكن تقديم البيانات حتى نهاية العام الذى يلى عام التعداد ، والمعروف أنه كان هناك خمس حالات من كل ست يتمهل أصحابها حتى اقتراب الموعد النهائى للتعداد ليقوموا بتقديم ما تحتاجه الجهات الرسمية من بيانات ، كما هو الحال اليوم . كان على كل شاغل منزل سواء أكان مالكا أم مستأجرا له ، أو كان يقيم – أو تقيم – فيه أن يعد تقريرا رسميا يذكر فيه اسم وسن من يقيم معه أو يقيم معها . أما إذا كان المنزل خاليا من السكان فيجب على المالك أن يقدم للدولة تقريرا عن حالته. لقد بدأ "تقديم بيانات التسجيل المنزلى" كما كانت تسمى من الناحية الرسمية منذ إحصاء عام ٦٢/٦١ م . أما قبل ذلك فقد كانت تسمى باسم "تسجيل الهويات" identity registeration ، ويقدم البيان إلى مدير الإقليم أو الكاتب

الملكى . وفى مكتب مـدير الإقليم يعطى لكل بيـان رقم على أعـلاه ، ثم يلصق الطرف الشمـالى منه على الطرف الأيمن للرقـم السـابق ، وهـكذا يصبح لدينا "ملفًا" ملصـقا كما كانوا يطلقون عليه ، يعطى بدوره رقم فى الفهرس ، ثم يُصفُّ مع غيره من الملفات .

لدينا حـتى الآن ٣٠٠ بيـان من بيانات التـعداد ، ومما لاشك فيه أن مـجمـوعات البردى العالمية تتضـمن عددًا آخر من بيانات التعداد التى لم يتم نشرها بعد . وترجع أقدم البيانات التى لدينا إلى عام ١٩/٢٠م ، وآخرها إلى عام ٢٤٣ / ٢٤٤م. أما المثال التالى فهو يرجع إلى عام ١٧٣/١٧٤ م وهو يعطينا صورة عن كيفية صياغتها :

« إلى أبيون Appion السكرتير الملكى لإقليم بروستيس Prosopite من بانتبيوس ابـن بيـتـيس Pantbeus Son of Petos و [إخـوتـه] تيـثـيـونيـسـيس Tithoennesis وهـارونيسيس Haronhnesis وفلاكريس Phalakres وجميع الإخوة الأربعة [من قرية] ثيلبوثيون سيفتا Thelbothon Siphtha .. لقد قمنا بالتسـجيل إلحاقا لأوامر فخامة الوالى كـالفيـسيوس سـتاتيـانوس Calvisius Statiannus الخـاصـة بالإحصـاء المنزلى والتى تبدأ من الآن . وتتكون أملاكنا فى القرية من منزل وأماكن أخرى شاغرة خاصة بكل مـن بانتبيوس وتيثيونيسيس وفـلاكريس وهارونيسيس وجميعـهـم أبنـاء بيتـوس ابن بنيفيروس Petos son of Pnepheros»(يلى ذلك ذكر لشاغلى المنازل كل على حدة).

إن السكان الذين ذكروا فى القائمة هم أربعة من الإخوة ، ولدوا فى فترة زمنية امـتدت على مـدى ٢٨ عـامـا ، وكـان مع كل منهم زوجـتـه ، بالإضـافـة إلى تسـعـة من الأطفال كانوا جميعا يعيشون فى منزل واحـد . كما كان هناك طفلان من الأطفال التسـعة لاثنين من هؤلاء الإخوة من زواج سابق ، وتزوج اثنان من الإخوة بأخواتهن . وبلغ الأخ الأكبر من العمر ٤٩ عاما ، وكان له ثلاثة من الأبناء من زوجته الثانية التى تبلغ الآن الواحد والعشرين من العمر ، وذكرت أسمـاء ست من هؤلاء الأطفال ، سموا على أسمـاء أجدادهم كما هى عـادة المصريين . وكانت هناك طفلة حملت اسم عمتها التى يبدو أنها ماتت قبل فترة قصـيرة مـن ميلادها . وكذلك ذكرت العلامات الخلقية أو المميزة للذكور الذين وصف أحدهم على سبيل المثال بأنه فاقد لإحدى عينيه (أعور) ، وكانت هـذه العـلامات تستخدم فى تحقيـق شخصية الأفـراد لدفع ضريبة الرأس ،

ولما كانت النساء لا يخضعن لدفع ضريبة الرأس ، لذلك فقد ذكرن بأسمائهن مع ذكر صلة قرابتهن وأعمارهن[٢] .

بعد ذلك يقوم مكتب مدير الإقليم أو الكاتب الملكى بإرسال نسخة من بيانات الإحصاء لكاتب التسجيل فى القرية ، والمدنية ، وأحياء المدينة . وكانت توجد فى هذه الإدارات المحلية سجلات فرعية منسقة وخصصت إحداها للذين سوف يخضعون لضريبة الرأس عندما يصلون سن الرابعة عشرة(*) .

وعلى الرغم من أن أوراق البردى تكشف لنا عن تفصيلات كثيرة خاصة بالتعداد فى ست من الأقاليم المصرية ، فإنها لا تعطينا بيانات كلية عن تلك الأقاليم أو حتى عن الولاية بأكملها . وقد ذكر اثنان من الكتاب القدامى العدد الكلى لسكان مصر ، ولكن الأرقام التى ذكروها فى حاجة إلى مناقشة لإثبات صحتها . إذ بلغ عدد سكان مصر فى أوائل العصر الرومانى طبقا لما ذكره ثيودور الصقلى سبعة ملايين نسمة. وبعد مائة عام ذكر الكاتب يوسيفوس أن عددهم بلغ سبعة ملايين ونصف، ولكن الإسكندرية لم تكن من بينها ، وهى التى كان يبلغ عدد سكانها نصف مليون آخر (الفصل الثانى)[٣] .

كان تعداد السكان يُعدَّل سنويا ليضم أحدث الإحصاءات والبيانات وذلك على يد كاتب القرية والمدينة ، وهو الشىء نفسه الذى حدث بالنسبة إلى الأراضى الزراعية(**) حيث كانت بياناتها تمد الإدارة بالمعلومات الضرورية لفرض الضرائب على الأراضى ومنتجاتها . وقد نُظم مسح الأراضى على يد الجهات المحلية وإداراتها الفرعية . وكان يتم تسجيل إحصاء كل قطعة أرض قائمة بذاتها ، ثم توضع فى قوائم مع ذكر بياناتها الطبوغرافية ، ويتم مع ذكر كل مساحة من الأرض (مع بعض الاختلافات المحلية) تسجيل معدل ضرائبها ، ودافعها (سواء أكان المالك أم المستأجر) ، ونوع المحصول الذى ينمو فيها ، وكيف ومتى تصل إليها مياه الفيضان (سواء بطريقة طبيعية أو عن

(*) عن بيانات التعداد المنزلى راجع : آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠ (المترجمة)

(**) عن مسح الأراضى وأهميتها راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٢٠-٢٢١ ؛ وأيضاً Deleage (A), Les Cadastres Antiques Jusqua Diocletien", Etud. Pap. VII, (1934), pp. 111 - 147.

طريق ضخ المياه إليها) ومساحة سطحها طبقا لسجلات الأراضي الرسمية ، كما كان يتم ذكر أى تغيير يحدث في ملكيتها ، إذ كان يجب أن تذكر الحالة التى وجدت عليها الأراضى ، وكان يحدث فى بعض الأحيان تغيير في معدل ضرائبها من سنة إلى أخرى نتيجة لمستوى منسوب النيل . لذلك كان على المزارع الذى تتأثر محاصيله نتيجة لهذا أن يسلم للدولة تقريرا عن مدى الأضرار التى أصابته مطالبا بتخفيض الضرائب المقررة عليه ، وعندما يصل هذا التقرير إلى الدولة يقوم فريق من المفتشين بالانتقال إلى مكان الأرض مصطحبين معهم أحد المساحين للقيام بقياس الأرض التى أصابها الضرر . وسواء تم تقديم هذا الطلب بعد الفيضان مباشرة أو بعد عدة أشهر عند اقتراب موعد الحصاد ، فقد كان يمكن للمفتشين بسهولة أن يتأكدوا من أن الأرض أصيبت بفيضان مرتفع أو أنها تركت عطشى(*) .

(*) كان فيضان النيل يغير فى بعض ذبذباته الجامحة من ملامح الأراضى الزراعية كل عام ، إذ كان يطيح بالجسور التى تقع فى وسطه ، ويغرق أخرى ويغطيها تماما بالمياه فيحولها إلى أراض غير صالحة للزراعة ، كما كان يضن على غيرها بالمياه فلا تصل إليها ويتركها عطشى طوال العام وأحيانا كان يعطى المياه ولكن بدون سخاء للأراضى مما يضعف إنتاجها الزراعى ، لذلك كان لابد من إجراء مسح للأراضى لضبطها كل عام anametresis ، حتى يمكن تقدير ضرائبها النقدية والعينية . واحتفظ موظفو الإدارة بسجلات كاملة عن حالة الأراضى كل عام .

ويختلف فحص الأرض episkepis عن مسحها حيث كان فى وسع أى فرد أن يتقدم للإدارة بطلب تخفيض الضرائب ، إما لعدم وصول الفيضان إلى أرضه أو لنقص المياه أو زيادتها مما يؤدى إلى تغطية الأراضى بطبقة من الأملاح التى تقلل من خصوبتها أو تؤدى لتغطيتها بالرمال خصوصاً تلك الأراضى الواقعة على الأطراف بالقرب من الصحراء . وبعد تقديم هذه الإقرارات يقوم كاتب القرية بعملية فحص أولية تراجعها اللجان التى تتكون بعد ذلك والتى لم يكن يشترك فيها بطبيعة الحال . وكان المدير يصدر تعليمات وأوامر فى حالات الفيضان الاستثنائية لكى يساعد لجان الفحص فى تأدية أعمالها .

ولضمان حياد لجان الفحص كان يتم اختيار أعضائها فى بعض الأحيان من قرى أخرى وكان يصاحبها مساحون ليقوموا بمسح الأراضى . وكثيرا ما أثبت الفحص عدم صحة ما جاء فى الالتماس ، كأن تكون المعلومات التى وردت مبالغ فيها وخصوصاً بالنسبة للأراضى المرتفعة الضرائب. وليس معنى ذلك أن عمل هذه اللجان كان بالغ الدقة ، فقد اتهم مرسومُ الوالى تيبريوس يوليوس الإسكندر القائمين على أمرها قبل توليه الحكم بأنهم فرضوا الضرائب دون مراعاة لحالة الفيضان . وبعد أن تنتهى هذه اللجان من تأدية أعمالها ترسل نسخا من نتائج فحصها لكاتب القرية ليصحح كشوفه على ضوئها ، ونسخا أخرى لمدير الإقليم والكاتب الملكى ، كما ترسل ملخصا عنها إلى الإدارة المركزية على الإسكندرية لتحديد الضرائب ، وكثيرا ما اعتمد كاتب القرية على مجهوده الشخصى فى استكمال كشوفه فيما يختص بتغيير الملكيات وحيازة الأراضى . وكان يقوم بإحصاء المبانى المقامة على الأراضى الزراعية ، ويخدم بهذا إجراءات التعداد المنزلى . وكان يجرى من حين لآخر فحص للمنشآت التى كانت تقام على الأراضى الزراعية . (المترجمة)

لم يكن لدى أى حكومة من حكومات العصر القديم ، وقليل من حكومات العصر الحديث ، جهاز ضريبى يناظر فى تعقيده ذلك الذى كان لدى مصر فى العصر الرومانى . حيث تواجه بكم مذهل من الضرائب والرسوم الإضافية التى فرضت على الفرد ، والأراضى ، والوظائف ، والخدمات ، والمبيعات ، والنقل ، وحركة البضائع والأفراد ، والأملاك العينية والشخصية . لقد كان هذا النظام مذهلا للأسس الضريبية القديمة المتراكمة . وإذا أضفنا إلى ذلك الضرائب والمكوس الدائمة والمتغيرة ، فبإمكاننا أن نقول إنه كان هناك ما يربو على مائة ضريبة خلال العصر الرومانى .

وعلى الرغم من ذلك فإن الحكم الرومانى قد أظهر فى البداية للسكان أنه لا يهدف إلى زيادة عدد الضرائب التى كانت موجودة من قبل ، ولكنه يهدف إلى زيادة كفاءة تحصيلها بالمقارنة بالأوضاع المتراخية التى حدثت فى أواخر العصر البطلمى . ولوحظ هذا الاتجاه فى عهد الإمبراطور تيبريوس خليفة أغسطس فى الحكم عندما عنف والى مصر لإرساله ضرائب أكثر من المقررة عليها وقال له : "إننى أرغب فى أن تجز صوف أغنامى لا أن تسلخها" . إن جشع حكام الولايات ومحصلى ضرائبها كان موضع شكوى مزمنة لأهالى الولايات فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، ولكن إصرار الإمبراطور تيبريوس على محاسبة موظفيه كان بمثابة فترة لالتقاط الأنفاس بالنسبة إلى شعوب الولايات . وفى عام ٢٢ أو ٢٣ من حكمه قامت إحدى القرى المصرية بتسجيل اعترافها بفضله فى هذا النقش التكريمى :

«[التاريخ] قرر جميع سكان قرية بوزيريس **Bousiris** فى إقليم ليتوبوليس **Letopolite** بالإجماع ما يلى :

حيث إن مدير إقليمنا جنايوس بومبيوس سابينوس **Gnaius Pompeius Sabinus** لا يغالى فى استخدام سلطته ويولى شعب الإقليم رعايته ، ويعمل دائما من أجل صالح سكان هذه القرية ، وينشر العدل فى مجلسه القضائى ، ويعمل بأمانة ودون رشوة ، وفقا لرغبة فخامة حاكم الولاية جايوس جاليريوس **Gaius Galerius** ويقوم بصيانة جسور الرى باهتمام شديد فى الوقت المناسب بالليل والنهار– بدون كلل –

حتى يتم إنجاز العمل ، ما يترتب عليه من رى جميع الحقول ، وبالتالى يصبح الإنتاج وفيرا . كما أنه يعمل على حماية أولئك الذين يعملون فى جسور القرية من الغش والتلاعب حتى لا تهمل المحاصيل الزراعية ، بالإضافة إلى ذلك فإنه يقوم بالإشراف على بيع الأراضى العامة بحياد تام دون إجبار أو إساءة إلى أى فرد مما يعد ركيزة مهمة فى ازدهار القرى واستقرارها ، كما أنه يقوم بتسليم مستحقات القرية إلى الجهات الإدارية الأخرى بطريقة عادلة حاميا بذلك المزارعين من سوء المعاملة أو التعرض لفرض العقوبات عليهم. من أجل ذلك أصبح لدينا رغبة عارمة فى تكريمه ، لذلك قررنا أن نقوم بتكريم جنايوس بومبيوس سابينوس السابق الذكر بتشييد نصب تذكارى حجرى يتضمن هذا القرار على أن يتم تنصيبه فى مكان دائم فى القرية . وسوف نقوم بإهدائه نسخة أصلية منه موقعة من أكبر عدد ممكن من الأفراد»[٤] .

اعتادت التصريحات الرسمية فى العصر الرومانى - كما كان الحال فى العصر البطلمى - أن تظهر مدى اهتمام الحاكم بمصلحة الخاضعين له ومدى الفضل الذى يسبغه عليهم (انظر الفصل العاشر) ، ولكن فى الواقع إن هذه التصريحات عن تلك الأريحية لم تكن تغير شيئا ذا بال ، فمن بين العوامل الكثيرة التى أدت إلى عكسها أن نظام الضرائب سمح بأكبر قدر من الرشوة . لقد نما هذا النظام منذ فترة مبكرة ، ولم يقم الأباطرة بتعديله من الناحية العملية لمدة مائة عام على الأقل من الحكم الرومانى. وكان هذا النظام بمثابة دعوة مفتوحة للفساد ، فطالما قبلت الرشوة ، وتعاقد محصل الضرائب على أن يدفع مبلغًا إجماليا مقدمًا ، يصبح الهدف الأول له والغاية الكبرى منه أن يحقق الربح لمشروعه ، بل لم يقتنع أكثر من واحد من جامعى الضرائب بهذا الهدف المتواضع ، بل كان شغلهم الشاغل هو الحصول على عقد التزام الضرائب لأنه يرى أنه وسيلة للإثراء الشريف ، وطالما ضمن العقد فى يده ، فلم يكن يتردد فى استخدام أى وسيلة قانونية أو غير قانونية لكى يضاعف من أرباحه : بالإكراه وسلب أموال ضحاياه الذين لا حول لهم ولا قوة ، ومما ساعد على ذلك الجبروت ودفع إلى تلك القسوة أن محصلى الضرائب كانوا كثيرا ما يصاحبهم جنود وحرس مسلحون لحمايتهم ، لذلك كان يمكنهم استخدامهم فى إرهاب دافعى الضرائب وإساءة معاملتهم . وأصبح محصلو الضرائب أو الملتزمون نموذجا للجشع وسوء الحكم فى

الولايات ، وصاحبتهم هذه السمعة السيئة خلال القرن الأول الميلادى، حتى لقد زاوجوا بين ملتزمى الضرائب والمجرمين "فى إنجيل متى ٩ : ١٠، ومرقس ٢ : ١٦، ولوقا ٥: ٣٠ و ٧ : ٣٤ ، وفى قصة لوقا ٣ : ١٢ - ١٤ :

«وحتى عندما كان يأتى إليه محصلو الضرائب لتعميدهم كانوا يسألونه "ماذا يجب علينا يا سيدى أن نفعل ؟" فكان يرد عليهم قائلا : "بالضبط ليس أكثر مما هو مطلوب منكم" ، وحتى الجنود كانوا يسألونه : "ماذا ينبغى علينا أن نفعله ؟" ، فكان يجيبهم بأنه : "لا ينبغى عليكم أن تقوموا بابتزاز الأموال عن طريق الترويع والإرهاب ، أو بإلقاء التهم جزافا ضد أى فرد ، وعليكم أن تقنعوا بأجوركم ».

وقدم لنا فيلو Philo اليهودى الإسكندرى الذى توفى فى وقت ما بعد عام ٤٠ م فى كتاباته تقريرا حيا عن إحدى غارات محصلى الضرائب حيث قال :

« لقد تم حديثا تعيين أحد محصلى الضرائب الجدد فى منطقتنا . كان هناك بعض الأفراد الذين تأخروا فى تسديد الضرائب نظرا لفقرهم ، ومن ثم فقد فروا خوفا من أن تنزل بهم عقوبة صارمة ، لذلك قام محصل الضرائب بوضع يده بقسوة على زوجاتهم وأطفالهم وجميع أقاربهم ، وقام بضربهم وركلهم بالأقدام ومارس كل أنواع العنف والإساءة ضدهم حتى يرغمهم إما بالإبلاغ عن الفارين أو بالقيام بدفع متأخراتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الأولى لعدم علمهم بمكانهم ، وكذلك الثانية لأنهم كانوا لا يقلون فقرا عن الفارين . ولكن محصل الضرائب لم يكن ليتركهم قبل أن يمزق أجسادهم بالضرب والتعذيب أو قتلهم بما تفتق عنه ذهنه من طرق حديثة للموت . وعندما لم يبق على أحد من أقاربهم كان يصب جام غضبه على جيرانهم ، وفى بعض الأحيان على كل سكان القرية أو المدينة ، التى كانت تغدو بعد ذلك مهجورة خالية من سكانها الذين يفرون من منازلهم وينتشرون فى الأماكن التى يظنون أنهم يمكنهم أن يأمنوا على أنفسهم فيها . وهو أمر مثير للدهشة حيث إنه من أجل تحصيل الضرائب يقوم رجال قساة بطبيعتهم ، ليس لديهم أى قدر من التحضر ، بطاعة سادتهم وتنفيذ أوامرهم للحصول على الضرائب السنوية ، ليس من دخل الأفراد فحسب ولكن من أجسادهم ، وبلغ الاستهتار بحياة الأفراد حداً جعلهم يستبدلون حياة أفراد بحياة أفراد آخرين»(٥)

إن غضب فيلون وثورته التى يصرخ بها عالية وواضحة فى كل كلمة ذكرها فى تقريره قد قام بصياغتها فى قالب بلاغى فيه مبالغة ، ولكنه اعتمد على أساس من الحقيقة ، وقد تأكد لنا ذلك من خلال كثير من الوثائق التى ترجع إلى جميع فترات الحكم الرومانى . ولدينا هنا شكوى تقدم بها مزارع يقول فيها :

«إلى أمونيوس باترنوس Ammonios Paternus قائد المائة ، من سيروس ابن سيريون Syros Son of Syrion المدعو بيتيكاس Petekas من عاصمة الإقليم [الفيوم] . لقد قمت وأخى بتسليم تسعة أرادب من الغلال من عشرة أرادب مستحقة من ضرائبَ مفروضة علينا فى قرية كرانيس فى شهر بئونة ، وعلى ذلك تبقى من حسابنا أردب غلال واحد من العوائد ، وبالرغم من ذلك قام محصلو ضرائب الغلال وهم بيتيسوس بن تيكلو Peteesos son of Teklo وسارابيون بن مارون Sarapion son of Maron ومعهم كاتبهم بطلميوس Ptolemaios ومساعدهم أمونيوس Ammonios بمهاجمة منزلى أثناء وجودى فى الحقل ومزقوا عباءة والدتى وطرحوها أرضا . ونتيجة لهذا [العدوان] أصبحت طريحة الفراش غير قادرة [على الحركة]. ولذلك فإننى أطالب باستدعائهم أمامك حتى يمكننى أن أحصل على حقى منهم على يديك [التوقيع والتاريخ]».(٦)

ولتجنب مثل هذا العنف لجأ من لا حول له ولا قوة إلى وسيلة الرشوة والبقشيش التى وصلت فى بعض الأحيان إلى دفع مبالغ كبيرة ، وأطلق عليها كما يسميها الأمريكيون اليوم عبارة "الحماية" . وسجل أحد الأفراد ما قدمه من رشوة فى عبارة مخففة خفية عن آل منزله وبعيدا عن سجلاته كما هو الحال فى الحساب التالى :

لرجل شرطة	٢ دراخمة وواحد أوبل
هدية	٢٤٠ دراخمة
لمرتش	٢٤ دراخمة
للحارس	٢٠ دراخمة
للابتزاز	٢٢٠٠ دراخمة

لاثنين من رجال الشرطة	١٠٠ دراخمة
لهرمياس Hermias وكيل البوليس	١٠٠ دراخمة
"الجزء الثانى من السنة" لأحد الجنود بناء على طلبه	٥٠٠ دراخمة
[تبع ذلك ذكر لعدة مشتريات]	
لأحد الجنود بناء على طلبه	٤٠٠ دراخمة (٧)

إن الصورة التى قدمها فيلون عن انحراف محصلى الضرائب وتجاوزاتهم وفرار الأفراد ، أدت إلى نقص فى عدد السكان ، تأكد من خلال كثير من الوثائق. لقد كان القرار آخر وسيلة يلجأ إليها المزارعون المصريون عندما تسوء الأوضاع وتصبح الظروف غير محتملة ، وجرت العادة قبل العصر الرومانى على أن الفرار كان يتم باللجوء إلى المعابد، حيث كان يتم دعوة الفارين للعودة إلى ديارهم وعملهم عندما تزول أو تخف الظروف التى أدت إلى هروبهم .. ولكن حدث تغييران مهمان خلال العصر الرومانى ، الأول : أن لجوء الأفراد إلى أسلوب الهروب أدى إلى إشاعة اليأس بين أفراد المجتمع بوجه عام مما دفع مواطنين آخرين من غير المزارعين إلى الفرار ، والثانى : أن غياب هؤلاء الفارين قد أصبح أطول مدى أو غدا بصفة دائمة .

لقد كان من بين الأسئلة التى كانت توجه لمركز النبوءات السؤال التالى : هل سأصبح من الفارين ؟ (الفصل الخامس) ولجأ بعض الفارين إلى المدن ، وخصوصا مدينة الإسكندرية التى كانوا يأملون أن يجدوا فيها - كما يذكر فيلون - مكانا للذوبان فى بوتقتها. وأشار أمر الطرد الذى أصدره الإمبراطور كاراكالا عام ٢١٥ "إلى أهالى القرى الذين فروا إلى الإسكندرية من المناطق الأخرى" ، كما انضم البعض منهم إلى العصابات أو كونوا من أنفسهم عصابات للسطو المسلح ، والتى تكونت من الخارجين على القانون، ليقوموا بمهاجمة القرى ونهب المسافرين ، وأصبحت عمليات السطو التى يقومون بها تمثل شوكة دائمة فى جانب الإدارة الرومانية (راجع ملحوظة ٢٦ فيما بعد)

وجرت العادة على أن تقوم الإدارة الرومانية قبل بداية التعداد بإصدار عفو عن الضرائب كوسيلة لإعادة الفارين إلى ديارهم ، ولكن مثل هذه الوسائل لم تكن إلا علاجا مؤقتا لهذه المشكلة المزمنة .

وعندما يتم فرار أى فرد يقوم أقرب من يمت إليه بصلة أو من يهمه أمره بالإبلاغ عنه ، وعادة ما يؤكدون على أنه لم يترك خلفه أية أملاك ؛ أملا منهم فى إبعاد محصلى الضرائب عنهم . ولدينا عديد من هذه البلاغات منذ النصف الأول من القرن الأول ، أى فى الوقت الذى كان يكتب فيه فيلون :

إلى أبوللونيوس Apollonios وديديموس Didymos الكتبة الرسميين لقرى مدينة البهنسا من هيراكس Hierax وميناندروس Menandros وكليهما أبناء هاربيخيس Harbichis .. نفيدكم بأن أورسينوفيس بن منخيس Orsenouphis son of Menches عامل النّحاس الذى سجل فى تعداد السكان على أنه يقيم فى المنزل الذى آلت إلينا ملكيته عن طريق والدتنا والذى يقع فى زقاق مربى الإوز ، قد ترك منزلنا الذى يعيش فيه منذ فترة مضت ، ولم يترك وراءه أى أملاك . ونقسم بحياة جلالة الإمبراطور تيبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس على أن أورسينوفيس قد لاذ بالفرار وأنه ليس لديه أى ممتلكات وأنه لم يلتحق بالجيش [وإذا سمعنا أنه] التحق بالجيش [فسوف نقدم إخطارا] بذلك . وإذا كان قسمنا صادقا سيكون الخير من نصيبنا والعكس إذا لم يكن الأمر كذلك ... [فقد باقى الوثيقة]» .

وفى العادة كانت الإقرارات المشابهة الأخرى تختتم بالمطالبة بأن يدرج اسمه فى قائمة المعدمين ابتداء من العام الجارى . وكان كتبة المدن والقرى يمدون محصلى الضرائب بالقوائم التى تضم أسماء الرجال المعدمين الذين فروا إلى أماكن غير معروفة . ويتم إعداد هذه القوائم سنويا ولكنها كانت تتزايد بسرعة عندما يكون محصول الحصاد ضعيفا والظروف الاقتصادية عسيرة . وتوضح لنا سجلات قرية فيلادلفيا فى الفيوم - والتى مازالت موجودة لدينا - ما حدث فى السنة الأولى من حكم الإمبراطور نيرون، ففى صيف عام ٥٥ م كان لدينا ٤٣ رجلا فى قائمة "الفارين الذين لم يتركوا أملاكًا" ، ثم بلغ عددهم بعد مضى اثنى عشر شهرا أكثر من مائة هارب ، ويبدو أن العدد وصل إلى قمته برقم ١٥٢ فردا، ثم نجح الإعفاء الضريبى فى إغراء ٤٧ فرداً

بالعـودة إلى مـوطنهم ، وفى خـريف عـام ٥٧ بلـغ عـدد الذين فـقـدوا ولم يقـومـوا بدفـع الضرائب ١٠٥ أفراد .

تشـير هـذه الأرقـام المستقاة من بيانات تعداد القرية إلى أنه من بين كل ثمانية أو سبعة رجال من فيلادلفيا كان يوجد أحد الفارين فى أثناء التعداد طوال هذه السنوات أو خلال بعض منها . وكان النقص حادا فى عدد السكان ؛ مما دفع محصلى ضريبة الرأس فى فـيلادلفـيا وفى خمس قرى مجـاورة إلى أن يقدمـوا طلبًا إلى والى مـصـر يلتمسون فيه تعديل عقد التزامهم ، وذكروا الآتى لتبرير طلبهم :

«انخـفض عدد سكان القرى المذكـورة سابقا إلى أدنى معـدل له عمـا كـان عليـه الحـال من قبـل ، حيث فر بعض الرجال دون ترك ثروة وراءهم ، ومـات آخرون دون أن يخلفوا ذرية من بعدهم .. لذلك فنحن نواجه خطر العدول عن مهمة التحصيل ؛ بسبب نقص مصادر التمويل».

ومما لا شك فيه أن هؤلاء المحصلين كانوا يبالغون فى وصف الحالة ، فى محاولة منهم للتخلص من مهمتهم. وقام أحد كتبة القرى بعد قرن من الزمان بتسجيل العدد الكلى لمن هربوا دون دفع ضريبة الرأس فى اثنين من الكفور وأن :

عدد الذكور انخفض من بين سكان الكفـر الأول من ٢٧ فـرداً إلى ثـلاثـة أفـراد ، أمـا الكفر الثانـى فقد تدنى معدل الـذكور فـيـه مـن ٥٤ فرداً إلى أربعـة أفـراد فـقـط ثـم وصل فى نهاية الأمر إلى نسبة صفر فى كلا المثالين(٨) .

وعلى ذلك فإنه حتى بدون وقوع معاملة غير قانونية أو اللجوء إلى الابتزاز كان على المزارع أن يكافح كفاحا مستمرا لمواجهة التزاماته الضريبية . وسجلت الوثائق متأخرات ضرائب لسنة ولعدة سنوات ، وسجلت دفع المستحقات فى موعدها . والواقع أن السبب الذى كان يزيد من عبء الضـرائب لم يكن يتـمـثل فى حـجـمـها فـقـط ، ولكن أيضـا فى تعدد أنواعها. وليس هناك مجال لأن نقوم بذكر كل مجموعة منها لتوضيح ذلك، ولكن يكفى أن نقدم نموذجا منها لنقرب إلى الأذهان الطريقة التى كانت تتم بها .

إن الدور الذى حدده أغسطس لمصـر بعـد أن ألحقها بالإمبراطورية الرومانيـة هـو أنه يقع على كاهلها إطعـام مدينة رومـا؛ لذلك كان يسـتورد من مـصـر بحـراً ثلث

احتياجات مدينة روما من الغلال سنويا ، بمتوسط سنوى بلغ ستة ملايين من الأرادب أى حوالى ١٣٥٠٠٠ طن [٩] علاوة على كمية أخرى إضافية لا نعرف على وجه التحديد مقدارها كانت تظل فى الولاية لإطعام قوات الاحتلال(*). ولا شك فى أن دافع الضريبة لم يكن يهتم إلا قليلا بهذه الأرقام الفلكية حتى ولو علم شيئا عنها ، فقد تركز اهتمامه المباشر على كمية القمح التى يلتزم بتسليمها للدولة والضرائب النقدية التى كان عليه أن يقوم بدفعها .

وقدرت ضريبة محاصيل الغلال بأردب واحد على كل أرورا من الأراضى الملكية بصفة عامة ، ولكننا نعرف من خلال الوثائق التى لدينا أنها بلغت أكثر من ضعف هذا المقدار، حيث إنها بلغت عند تسليم المحصول حوالى ثلثه (الفصل السادس)، أما المزارع الذى يقوم بزراعة أراض من الضياع الإمبراطورية ، التى كانت من أجود أنواع الأراضى فى الولاية ، فكان يقوم بدفع عوائد تتراوح بين خمس وثمانى أرادب عن كل أرورا، وفى أحد النماذج الفريدة التى لدينا وصلت العوائد إلى $\frac{1}{2}$ ١٤ أردب . وبين هذين المثالين النقيضين تراوحت عوائد مختلف أنواع الأراضى . وعلى سبيل المثال بلغت ضرائب مساحة من الأرض فى (ضيعة خاصة) مقدار $\frac{1}{2}$ ٣ أردب. وكقاعدة عامة كانت الأراضى التى تعتمد على الرى الصناعى تدفع نصف معدل ضريبة الأراضى التى تروى بمياه الفيضان ، هذا بالإضافة إلى عوائد أخرى إضافية فرضت على جميع أنواع الأراضى المزروعة بالغلال وكانت تتراوح بين ٥ و١٠٪ من المحصول . وعلاوة على ذلك هناك قروض الغلال التى سبق للمزارع أن اقترضها من صومعة غلال الدولة ، فكان عليه أن يقوم بردها . ماذا يتبقى للمزارع بعد دفع جميع هذه العوائد من إنتاج محصول أرضه ؟ فى الواقع ليس لدينا إجابة شافية عن هذا السؤال ، ولكن كل ما نستطيع أن نقوله إن ما كان يتبقى له كان يختلف اختلافًا متباينا طبقًا للظروف .

وكان اهتمام الحكومة منصبا على الحصول على أكبر قدر من إنتاج محصول الأراضى ، أما الأراضى البور التى لا تغل محصولا فلم تكن بالتالى تقدم دخلا للدولة . ولم يكن باستطاعة الدولة أن تصدر أوامرها للأراضى التى لم تصلها المياه بأن تغل

(*) عن قمح مصر وإطعام الشعب الرومانى راجع : Hohlwein (N.) "Le d' Egypte", Etud.de pap. vol. 4. 1939, PP. 33-114 . (المترجمة)

محصولا لأنها كانت فى مستوى أعلى من أن تصلها مياه الرى عن طريق القنوات أو عن طريق الضخ بأدوات الرى ، كذلك ما الفائدة التى كانت ترجى من الأراضى التى هرب أصحابها أو تلك التى لم يتقدم أحد بطلب تأجيرها والعمل فيها ؟ لقد أجابت الحكومة ببساطة عن هذا السؤال : حيث كانت تقوم بفرض زراعتها ، إما بإلحاقها إلى ملاك الأراضى المجاورين لها أو بإضافة زراعتها على القرية كلها التى تقع فيها(*) ، حيث يقوم الكتبة وشيوخ القرى بمهمة تقسيمها إلى أنصبة وتوزيعها على المزارعين المحليين لزراعتها . هكذا قامت الدولة – بجرة قلم – بإيجاد دافعين لضرائب الأراضى التى لا يرغب أحد فيها . ولما كانت هذه الأراضى غير خصبة أو أنها كانت تكتنفها المشاكل، لذلك يمكننا أن نتصور بسهولة مدى رغبة الفلاحين الجدد عن إضافتها إليهم. لذلك أصبح التأكيد على أن الأراضى خالية من هذه العوائق غير المرغوب فيها عنصرا متكررا فى عقود بيع الأراضى الزراعية وشرائها(**) .

لم يكن الفلاح مطالبا بأن يقوم بدرس القمح وذره فقط ، ولكن كان عليه أن يقوم بتسليمه لصومعة الدولة فى منطقته نظير أن يدفع لها مقابل ذلك(***) ، وهناك يحصل

(*) استخدم اصطلاحا Epimerismos ، و Epibolé للإشارة إلى فرض الزراعة بالإلزام . وكان معروفا من قبل أن الاصطلاح الأول معناه أن ترغم قرية من القرى على زراعة الأراضى التى لم يتقدم أحد لإيجارها فى قرية أخرى وتوزع مسئولية زراعتها بالقرعة بين السكان . أما اصطلاح Epibolé فهو يعنى أن تلحق قطعة من الأراضى التى تمتلكها الدولة بكافة شرائحها على الأراضى الخاصة ، ويرغم أصحاب الأخيرة على زراعة الأولى . وأثبتت المترجمة فى دراستها عن كرانيس أن وثائق القرية استخدمت الاصطلاح الثانى فى كلتا الحالتين، أما فى القرن الرابع فقد استخدمت وثائق إزيدوروس الاصطلاح الأول بدلاً من الثانى، راجع: آمال الروبى، كرانيس، ص ١٤٨، P.Cairo Isidoros, 12 (A.D313-4).

ولدينا مثال واضح على زراعة الإلزام عندما قامت الدولة فى عام ١٦٧ م بترحيل حوالى خمسين مزارعا من مزارعى الدولة فى كرانيس للقيام بزراعة مساحة ٨٥٩ أرورا من الأراضى فى قرية بطلمية الجديدة Ptolemea Nea القريبة منها . وحدث الشيء نفسه مع مزارعى الدولة فى قرية ثيادلفيا Theadelphia حين قاموا بزراعة أراضى الدولة عام ١٦٦ / ١٦٧ م فى قرية بوليديوكيا (حبالا) وقرية فيلاجريس Philargris. راجع : P. Bouriant, No. 42 (A.D.167) ; Johnson (A.ch.); The Epibolé of Land in Raman Egypt "Aegptus , 32 (1952) , pp.66 ff . (المترجمة)

(**) عن أراضى الضياع الإمبراطورية راجع آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ١٥٦ – ١٦٦ . (المترجمة)

(***) عن صوامع الغلال وتسليم محصول الدولة راجع : – Husselman (Elinor M.) ; The Graneries of Karanis" TAPA , 83 (1972) pp. 56 - 73.

وأيضاً آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ٢٢٩ – ٢٣٢ . (المترجمة)

على إيصال عن كل مقدار من الغلال سلمه لها . ولما كان هذا الإيصال سنده على قيامه بتسليم الغلال فقد كان يجب أن يحافظ عليه . وقد تم العثور على مئات من هذه الإيصالات التى سجل أغلبها على أوراق البردى ، وقليل منها على قطع الأوستراكا . ومن هذا المنطلق يمكننا أن نقترض أنه كان على دافع الضريبة أن يدفع ثمن المادة التى يسجل له الإيصال عليها ، وعلى الرغم من أن أسعار الورق كانت تعد فى متناول الجميع ، فإن بعض الأفراد من المقتصدين كانوا يقومون بتكسير أجزاء من بقايا الفخار الموجودة فى الأكوام ، هنا نتذكر أكوام مونت تستاسيو Monte Testaccio فى روما ، التى كانت فى متناول الجميع بأعداد كبيرة ، وبلا مقابل .

يتم فى كل موسم حصاد تعيين مجموعة من المحصلين (محصلى ضرائب الغلال) لكل صومعة غلال عن طريق الخدمة الإلزامية الدورية كل عام من بين أفقر سكان المنطقة للعمل فيها دون أجر ، ولذلك كانوا يقومون بالإنفاق على أنفسهم من مواردهم الخاصة وذلك طبقا لنظام الخدمات الإلزامية الذى سوف نقوم بوصفه فى الجزء الثانى من هذا الفصل .. ويعد محصلو الغلال مسئولين عن كم القمح ونوعه منذ لحظة تسلُّمه فى صومعة القرية إلى لحظة تسليمه لمخزن الغلال الكبير فى نيابوليس Neapolis خارج مدينة الإسكندرية ، أو تسليمه لمعسكرات الجيش المنتشرة فى الطريق طبقا لأوامر التسليم الصادرة إليهم . وبعد وصول الغلال إلى نيابوليس من جميع أنحاء مصر كانت توضع تحت إشراف المشرف المالى الرومانى procurator ، الذى يقوم بدوره بمهمة الإشراف على شحنها إلى روما .

ويبدأ محصلو ضرائب الغلال sitologoi بتسلُّم الجزء الأكبر من مدفوعات الضرائب خلال الشهور القليلة التى تعقب موسم الحصاد مباشرة ، أما المتأخرات الضريبية فكثيرا ما كان يتم ترحيلها لسنتين أو أكثر ، بعد ذلك يتم شحن الغلال من الإسكندرية على مدار العام ، حتى يتم الانتهاء من جميع الغلال التى تم جمعها . وكان يسمح للمحصلين بإعادة كمية قليلة من القمح إلى الصومعة مرة ثانية استعداداً لاستخدامها فى قروض غلال الموسم التالى . وتبدأ المرحلة الأولى من الشحن بقيام محصلى الغلال بتحريك الشحنة من الصومعة إلى الميناء النهرى المخصص لها لتحمل فى زوارق صغيرة مصفوفة أو مسحوبة على جانب قنوات الرى الكبيرة ، أما الجزء

الأكبر منه فيتم حمله برا على ظهور الحمير والجمال ، وبلغ معدل حمولة كل حمار ثلاثة أرادب ، أما الجمل فيحمل ضعفي أو ثلاثة أضعاف هذه الكمية . ويتضح من أحد سجلات حسابات التسليم الخاصة بالزوارق التي كانت ترسو في ميناء البهنسا في الفترة من ٦ إلى ١٤ ديسمبر لعام ١٢٧ م وصول القمح إلى الميناء في قوافل تكونت من ستة إلى أربعين حمارا ، تراوحت حمولتها بين ٤٢٤ و ١٣١٤ أردب غلال(١٠) .

وعندما كان يفرغ القمح في الزورق الراسي في الميناء النهري يقوم ربانه بكتابة إيصال لمحصل الضرائب بتسلُّم القمح لشحنه .

«من أوريليوس أمونيوس بن أمونيوس Aurelius Ammonios s.of Ammonios الملاح في ميناء نيابوليس Neapolis المشرف على شحن حمولة ١٥٠٠ أردب غلال في ثلاثة مراكب ، إلى أوريليوس سارابيون Aurelius Sarapion في ناحية سكو Sko في المنطقة العلوية .. تحياتي : لقد تسلمت وقمت بوزن كمية الغلال التي عهد إليَّ بتسلُّمها من أوريليوس هاربوكراتيون Aurelius Harpokration مدير الإقليم ومن ديونيسيوس Dionysios الكاتب الملكي، وتحت إشراف مراقبي الشحن وبعض المسئولين الآخرين ، من الصومعة العامة للمنطقة التي سبق ذكرها من ميناء ساتيروس Satyros على النهر العظيم ، من غلال محصول حصاد السنة الثالثة الماضية ، نظيفا غير مغشوش ، خاليا من التراب والشعير . وتم كيله بمكيال نصف الأردب المخصص لذلك . وبلغت الكمية ٧٧ أردبا مضافا إليها الكمية الإضافية ومقدارها (٧٧ أردبا) ، وسوف أقوم بشحنه إلى الإسكندرية وأقوم بتسليم الشحنه لإدارة نيابوليس دون أي تلفيات . ويعتبر هذا الإيصال قانونيا، وأصدرته من ثلاث نسخ، واحدة لك أنت محصل الغلال واثنتان للمدير. وقمت بتوقيع الإيصال السابق لاستخدامه رسميا [التوقيع والتاريخ عام ٢٢١م]» .

وجرت العادة على أن يصطحب كل سفينة أو قافلة غلال واحد أو أكثر من المشرفين . وتمثلت مهمته في التأكد من الكمية المشحونة ، ومراقبة عدم التلاعب فيها على طول الطريق en routé ، وفي بادئ الأمر كان يعهد إلى الجنود بهذه المهمة ، ثم تحولت في أثناء القرن الثاني إلى نوع من الخدمة الإلزامية التي فرض أداؤها على المواطنين المدنيين . ويحمل المشرف على الشحنة عينة أو عينات منها مختومة ، ليتم مقارنتها بالشحنة على يد الموظفين الذين يقومون بتسلُّمها في نيابوليس .

وفى حالة العثور على قمح فاسد فإن المسئولية هنا تقع على محصلى الضرائب الذين جاءت الشحنة من عندهم ، كما حدث فى المثال التالى :

«من أنطونيوس أيليانوس Antonius Aelianus (مشرف الغلال فى نيابوليس) إلى مدير إقليم ديوسبوليس فى إقليم طيبة .. تحياتى .. حيث إن الشحنة التى تم إرسالها مع باؤسيس بن سيبوس Pausis s.of Sipos وبحارته من الإقليم المذكور سابقا... إلخ التى تبلغ حمولتها ٢٠٠٠ أردب قمح ، لقد اكتشف عند فحص عيناتها أنها مغشوشة . وعندما أمرت بفحص نصف أردب منها ثبت أنه يوجد به شعير ونفايات بنسبة ٢ ٪ شعير و $\frac{١}{٢}$ ٪ نفايات . لذلك فإن مسئولية تحصيل باقى الكمية التى نتجت من تقصير محصلى الغلال الذين قاموا بإرسال الشحنة تقع عليك وتبلغ $\frac{٣}{٤}$ ٥٠ أردب بالإضافة إلى الرسوم والنفقات الإضافية . وأرجو إخبارى عندما تقوم بتسديد هذه الكمية لإدارتى [التاريخ ٢٨ أكتوبر ١٨٨]»[١١] .

هكذا كان نظام فرض ضريبة الغلال وتحصيلها وشحنها ، تلك الضريبة الأساسية والشاملة التى كانت تشحن لملء البطون الجائعة فى روما ، ولسنا فى حاجة إلى القول بأنه طبقا لذلك فرضت الضرائب على جميع المنتجات الزراعية الأخرى ، ويأتى فى مقدمتها ضرائب الكروم (وهى تشمل الخل) ، والزيت والخضراوات . ولما كانت روما تحصل على احتياجاتها من هذه المحاصيل من إنتاج إيطاليا والولايات القريبة منها ، فلذلك فرضت عليها ضرائب نقدية فيما عدا تلك الكميات النوعية منها التى كانت تسلم للقوات العسكرية الموجودة فى مصر . كذلك كانت "ضريبة مسح الأراضى" من بين الضرائب الأساسية الأخرى ، فقد سبق أن شاهدنا الدور الرئيسى الذى يلعبه المسح فى قياس مساحة الأراضى التى تنتج محاصيل أو تلك التى لا تغل أى إنتاج. وفرضت هذه الضريبة بصورة واسعة على حدائق الكروم بمعدل ٤٠ دراخمة عن كل أرورا (ووصل معدلها فى بعض الحالات النادرة إلى ٣٥٠ دراخمة عن كل أرورا) ، وتراوح معدلها على حدائق النخيل والفاكهة بين ٢٠ و ٣٠ دراخمة عن كل أرورا . وعلى أراضى الخضراوات من ٢٠ إلى ٢٥ دراخمة عن كل أرورا . كما كانت هناك ضريبة أخرى تسمى "ضريبة الدخل" وكانت تتراوح ما بين $\frac{١}{١٠}$ و $\frac{١}{١٦}$ من المحصول فى العصر البطلمى . وعلى الرغم من أن الإدارة الرومانية أبقت على اسم الضريبة فقد

حصلتها نقداً ، وفرضتها فى البداية بمعدل ٥ دراخمات على أراضى الخضراوات ، و١٠ دراخمات على حدائق الكروم ، ولكنها ارتفعت فى أثناء فترة التضخم الاقتصادى فى القرن الثالث لتصل إلى ١٢½ دراخمة على الجميع ، وما زالت لدينا فئة أخرى من الضرائب تمثلت فى الضرائب التى فرضت على حيوانات الفلاح الأليفة سواء على ملكيته لها ، أو نظير استخدامه للمراعى التى تمتلكها الدولة، وذلك على كل رأس منها. من أجل ذلك كان الفلاح يقوم كل عام بتقديم تقرير عما يمتلكه من قطعان ليثبت لمحصلى الضرائب أن الضريبة السنوية الخاضع لها تشمل الزيادة السنوية فى عدد القطيع .

وبالإضافة إلى الضرائب التى فرضت على مختلف الأنشطة الزراعية فرضت ضرائب على الحرف الأخرى وعلى الفرد . وتنتمى إلى هذه الفئة ضريبة "تسجيل السكان" Laographia ، أى ضريبة الرأس التى كانت أكثر الضرائب انتشاراً . وتم استثناء الفئات الممتازة منها وهى على وجه التحديد : الرومان ، ومواطنو المدن الإغريقية ، واليهود(*) ، وأعضاء المعهد العلمى للإسكندرية ، وبعض كهنة المعابد الكبيرة ، وبعض كبار الموظفين من غير الرومان أثناء شغلهم لمناصبهم . وخضع جميع الذكور من سكان مصر لهذه الضريبة من سن الرابعة عشرة (وهى السن التى ينهى فيها الصبى فترة الصبا ويبدأ فى طور الشباب) وذلك حتى سن الستين . وكان كتبة المدن والقرى يعلمون من سجلات التعداد متى يصل الصبى لهذه السن فى مناطقهم ليصبح مكلفا بدفع الضريبة . كما أنهم كانوا يقومون بإسقاط الموتى والذين وصلوا سن الشيخوخة من سجلاتهم . لذلك كانوا يقومون بإعداد بيانات جديدة لدافعى الضرائب كل عام . وفى أحد هذه البيانات قام الكاتب بعد أن ذكر قائمة بأسماء دافعى ضريبة الرأس الذى تضمنتهم قائمته فى نهاية العام ، دونهم على النحو التالى :

«الذين سجلوا لدفع ضريبة [هذا] العام :

الرجال الخاضعون لدفع ضريبة الرأس : ٦٢٩ .

(*) لم يتم استثناء اليهود من هذه الضريبة ، بل لقد عوملوا معاملة المصريين وانطبقت عليهم مثلهم . عن هذا الموضوع راجع : أمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ص ٢٣٦ ، وراجع أيضاً الدراسة التفصيلية التالية :مصطفى كمال عبد العليم ؛ اليهود فى مصر فى عصر البطالمة والرومان ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٥٠ وما يليها . (المترجمة)

الذين تجاوزوا السن المحددة وهى سن الواحد والستين فى [هذا] العام : ٥ .

الذين توفوا: ٢ .

المجموع : ٦٣٦» [١٢] .

واختلف معدل ضريبة الرأس من إقليم إلى إقليم ، وتمتع مواطنو عواصم الأقاليم بدفعها بمعدل منخفض . وتوافرت لدينا مئات من الإيصالات - التى كثيرا ما سجلت على الأوستراكا أكثر من تسجيلها على أوراق البردى - التى أصدرت لدافعيها ، وبالرغم من ذلك فلا يمكننا أن نقرر معدلها السنوى على نحو محدد ، لسبب بسيط يتمثل فى أن أغلب دافعيها كانوا يقومون بأدائها على أقساط بدلاً من دفعها مرة واحدة فى العام . وحتى بالنسبة إلى أغلب النماذج التى لدينا من الأقاليم التى توجد بيانات عنها فإننا لا نستطيع أن نحصل منها على معدلها السنوى . ويبدو أن معدل ١٦ دراخمة سنويا كان المعدل الأكثر شيوعًا، حيث كان مواطنو عواصم الأقاليم يقومون بدفعها بمعدل ٨ دراخمات ، أو ١٢ دراخمة سنويا ، ونقابل فى بعض أجزاء إقليم طيبة معدل ٢٤ دراخمة ومعدل ١٠ دراخمات . كما نعرف أن المعدل الذى دفع به مواطنو عواصم الأقاليم فى إقليمى هرموبوليس ماجنا والبهنسا بلغ ما بين ٨ دراخمات ، و ١٢ دراخمة على التوالى ، لذلك فنحن نعتقد أن معدلها الكامل فى الإقليمين على التوالى بلغ ١٢ و١٦ دراخمة . أما الإقليم الذى لدينا منه دليل مؤكد على كل من المعدلين فهو إقليم الفيوم ، حيث بلغ معدلها الكامل ٤٠ دراخمة ، ودفعها مواطنو عواصم الأقاليم بمعدل ٢٠ دراخمة ، وكان هذا المعدل هو أعلى المعدلات فى مصر كلها ، حيث بلغ أكثر من ضعف معدلها فى المناطق الأخرى . ويمكننا أن نفترض أن السبب فى ذلك يرجع إلى استفادة الفيوم من جهود إصلاح نظام الرى الشامل والمعقد فى الولاية . إن مثل هذا التفسير المغرى لا يعد أكثر من كونه استنتاجا منطقيا فى حاجة إلى تدعيمه بأدلة قاطعة(*) .

(*) نظرًا لثقل أعباء هذه الضريبة سمحت إدارة الولاية بدفعها على أقساط سنوية ، ويبدو أنه لم يكن هناك شهر معين للدفع ، وكان العبد يتبع وضع سيده بخصوصها . وظل المصريون يدفعونها منذ الفتح الرومانى وحتى عام ٢١٢ عندما منح الإمبراطور كاركالا المصريين الجنسية الرومانية. راجع : آمال الروبى، المرجع السابق ، ص ٢٣٦ . (المترجمة)

وإلى جانب ضريبة الرأس قام جميع الذكور البالغين فى مصر بدفع ضريبة الجسور النقدية التى بلغت $\frac{٢}{٣}$ ٦ دراخمة (وكانت هذه الضريبة النقدية هى الضريبة الموحدة فى جميع أنحاء الولاية)(*) ومبلغ دراخمتان ضريبةً للخنازير . وخُصص دخل الضريبة الأولى للإنفاق - فيما يبدو - على معدات وأدوات صيانة جسور نظام الرى ، والشىء الواضح من كل النماذج الخاصة بها أنه كان يتم دفعها بالإضافة إلى - وليس بديلاً عن - عمل الفلاحين فى صيانة الجسور عند الحاجة (كما سبق أن رأينا فى الفصل السادس) . أما فيما يخص ضريبة الخنازير فيمكننا أن نفترض أنها خصصت لإمداد المعابد اليونانية بحيوانات الأضاحى ، كذلك يبدو أن هٰذه الضريبة كانت حافزًا للفلاحين المصريين على تربية هذا الحيوان الذى كان محرما عليهم من الناحية الدينية .

وتعددت الضرائب النقدية الأخرى وتنوعت ، وكان أكثرها انتشارًا ضريبة الحرف اليدوية ، التى فرضت على كل شخص من الذكور والإناث العاملين فى أى مهنة يحصلون على أجر أو دخل منها ، وشملت الذين يتدربون على الحرف ممن بلغوا سن الرابعة عشرة وما فوقها . وكان يتم تحصيل ضريبة كل حرفة على حدة ، كما كان يتم دفعها هى الأخرى على أقساط شهرية فى العادة . ونتيجة للكم الهائل من الإيصالات التى لدينا ، ومن الكم الهائل من الأرقام المذكورة فيها يصبح من المستحيل أن نعرف المعدل السنوى الذى فرضت به الضريبة على الفرد فى كل مهنة . وبالإضافة إلى ذلك اختلفت المعدلات باختلاف الأماكن ، ولكن يتضح منها أن أعلى معدلاتها كانت فى إقليم الفيوم مرة أخرى .

كان الحرفى مطالبًا ، وفى فترة التدريب كان على مدربه ، أن يُطلع الجهات المسئولة عند قيامه باحتراف الحرفة ، لكى يُدرج اسمه فى سجل الخاضعين لضريبة حرفته . كذلك كان يجب عليه أن يخطرها عندما يقوم بتغيير حرفته أو عند تركه لها سواء أكان بصورة دائمة أم بصورة مؤقتة ؛ حتى يعفى من مسئولية دفع ضريبتها .

(*) يرى المؤلف أنها كانت الضريبة النقدية الوحيدة التى تم توحيدها بمعدل $\frac{٢}{٣}$ ٦ دراخمة سنويا فى جميع أنحاء مصر . ولكنى أرى أنه بالرغم من أنها فرضت على جميع الذكور البالغين فإنها لم تفرض بمعدل واحد ، حيث بلغ معدلها فى كرانيس ٧ دراخمات ، و٤ أوبلات ، و٢ خالكى . راجع :آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .(المترجمة)

وقد سُنَّت تلك القاعدة بعد تلك القضية التى ظهرت فى منتصف القرن الثانى ، عندما رفض أحد الحرفيين دفع ضريبة حرفته عن المدة التى تحول فيها إلى نشاط آخر (الذى يبدو أنه كان أحد الأعمال الإلزامية) ، وعرضت قضيته أمام محكمة الوالى الذى قرر "أنه فى حالة عدم ممارسة الحرفة ، فلا ينبغى رفع دعوى على الحرفى لعدم قيامه بدفع ضرائبها" (١٣) .

وكان على الرحالة والعابرين والمسافرين الذين يرغبون فى التوقف والعمل لبعض الوقت فى أى قرية أو مدينة أن يحصلوا على تصاريح مؤقتة من محصل الضرائب المحلى من أجل ممارسة العمل . ويلغ من انتشار هذه القيود على هذه الأعمال المؤقتة أن وجدنا تصاريح عمل لمدة يوم واحد تسمح لبائعات الهوى (وإحداهن تسمى أفروديتى) بمزاولة مهنتهن. وأصدر التصريح محصل الضرائب الخاص بهن ، ودون به "أنه يسمح لهن بممارسة الهوى مع من يردن فى تاريخ هذا اليوم" ، وذلك حتى تتم محاسبتهن على الضريبة التى لم يحدد مقدارها (١٤).

ومن بين الضرائب التى فرضت على الأفراد كان هناك نوعان متميزان فرضا تعويضا للدولة عن تقصير المعوزين والفارين فى دفع الضرائب . ولقد سبق أن شاهدنا فى هذا الفصل ظاهرة فرار دافعى الضرائب نتيجة لسوء أوضاعهم الاقتصادية ، وترك كل هارب خلفه فجوة فى تحصيل ضريبة الرأس ، وكما شاهدنا لم يترك أغلبهم وراءهم شيئا يمكن أن يقدر بأى ثمن .. فأى ضريبة إذن يمكن تحصيلها من المعدمين ؟

كيف كان يمكن إذن تعويض العجز الذى حدث فى تحصيل ضريبة الرأس والضرائب الأخرى التى كانت ترتبط بها والتى كانت تفرض على الرأس أيضاً ؟ لقد لجأت الحكومة إلى حل بسيط مثله فى ذلك مثل ذلك الحل الذى لجأت إليه بالنسبة إلى الأراضى التى لم يتقدم أحد لاستئجارها ، حيث قامت بفرض المبالغ الناقصة على باقى الأفراد الخاضعين للضريبة . واختلف حجم هذه الضريبة من سنة إلى أخرى ، كما اختلف فى عدد الأفراد الذين كانت تُقَسم فيما بينهم . وبلغ أقصى مبلغ فرض "لضريبة الهاربين" فى القرن الثانى الذى تتوافر لدينا بياناته مبلغ ثمانى دراخمات ،

أما أدنى معدل فبلغ ثلاث أوبلات أو نصف دراخمة . وجاء هذا المعدل المنخفض فى السنة التالية للتعداد حيث أغرى قرار العفو الذى أصدره الوالى فى منشور التعداد عددا كبيرا من الفارين بالعودة إلى ديارهم .

وخضعت ممارسة الأعمال لنوع آخر من الضرائب والرسوم التى فرضت على تسجيل الوثائق فى دار الوثائق العامة . وعلى سبيل المثال ضريبة ١٠ ٪ على الريع الحقيقى للأملاك والعبيد ، وضريبة ٢ ٪ على رهن الأملاك ، وفرضت مبالغ مختلفة على حيوانات الأضاحى الدينية ، وتم تحصيل الضريبة الأخيرة فى عدة مراكز لها . أيضا فرضت رسوم على تسجيل الحُجج والوثائق الأخرى ، وحفظ الطلبات ، وجميع الأوراق الرسمية المشابهة نظير الخدمة التى تقدم .

وسبق أن ذكرنا ضمن ضرائب الدخل ما خصص للإنفاق على جيش الاحتلال الرومانى فى الولاية . وحيث إن هذه المخصصات كانت لمدِّه بما يحتاج إليه من غذاء وعلف للحيوانات ، فكان من حق قوات الجيش أن تطالب بإمدادات إضافية من الغذاء والخدمات إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك . وتماثل الشرق والغرب من الناحية التاريخية فى إجبار الأهالى على تقديم لوازم الجيش ، الأمر الذى كان بمثابة دعوة لإطلاق الشهوات والابتزاز من قبل أولئك الذين يفترض فيهم الدفاع عن الشعب وحمايته. وكان من السهل أن ينزلق الجنود ويصبحون السادة الذين لا يرد لهم مطلب . وتمثل انتهاكهم فى مصر فى العصر الرومانى فى طلبهم الإيواء ووسائل الانتقال دون مقابل ، وعلى الرغم من أن هذا الطلب غير شرعى فقد أصبح حقا راسخا لهم ، وتمسكوا به ليس فى مصر فقط ولكن فى جميع أنحاء الإمبراطورية – على الرغم من تكرار "النهى عن القيام به" فى الأوامر الصادرة من حكام الولايات ، بل الأباطرة أنفسهم . وأول المنشورات التى نعرفها من مصر ذلك الذى أصدره جرمانيكوس المشهور بشعبيته ابن شقيق الإمبراطور تيبريوس المشهور وولى عهده فى عام ١٩ م ، عندما كان فى الإسكندرية فى أثناء رحلته من روما لزيارة الولايات الشرقية :

«يصرح جرمانيكوس قيصر ابن (تيبريوس) أغسطس ، وحفيد المؤله أغسطس نائب القنصل بالآتى : علمت أنه فى أثناء القيام باتخاذ الترتيبات الخاصة بزيارتى

تم ترويع الأهالى للحصول على السفن ودواب النقل وإيواء الجنود بالقوة . ولذلك قررت أن أوضح أننى لا أرغب فى أن تؤخذ أى سفنية أو أى دابة نقل من أى فرد فيما عدا المصرح بها من قبل صديقى وسكرتيرى بايبيوس Baebius ، وكذلك يجب عدم انتهاك المساكن ، أما إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك فسوف يقوم بايبيوس بتحديد المساكن التى يتم الإسكان فيها بالعدل والقسطاس . وفيما يخص طلب السفن والحيوانات فقد أصدرت الأوامر بتأجيرها طبقا لبرامجى ، أما هؤلاء الذين يعترضون على رغبتى فسوف يتم إحضارهم إما للمثول أمام سكرتيرى الذى سيقوم بنفسه بمنع الضرر عن المدنيين أو أن يقوم بتحويل الأمر إلىّ . وعلى ذلك فإنه يمنع جمع حيوانات النقل بالقهر والقوة أثناء عبورها المدينة ، وسوف يعد القيام بمثل هذا العمل ليس إلا من قبيل أعمال اللصوصية » .

وقام والى مصر فى عام ٤٢ م بإصدار منشور مماثل لما تقدم ، وكذلك أصدر الإمبراطور كلوديوس عام ٤٩ منشورا ثالثا ، عاقب فيه هؤلاء "النفر من المستهترين" لاستمرارهم فى انتهاكهم لأوامره التى أصدرها ، بالرغم من "التعويض الكافى" الذى قدم لهم .

أما دواب النقل الخاصة بالضياع الإمبراطورية فتمت حمايتها ضد طلبها للخدمة عن طريق بطاقات تميزها تربط حول رقبة كل منها . ونقش على واحد من هذه البطاقات البرونزية والذى عثر عليه فى مصر الآتى :

«ملك مزرعة أجريبا روتيليوس Agrippa Rutilius الخاصة بمولانا الإمبراطور وغير خاضع للضرائب أو للطلب» .

ولدينا بعد ذلك أمر إمبراطورى صدر عام ٩٠ دوّن على أحد النقوش التى عثر عليها فى سوريا منذ خمسة وعشرين عاما مضت وهو على النحو التالى :

«من أوامر الإمبراطور دوميتان قيصر أغسطس بن فسباسيانوس أغسطس إلى كلوديوس أثينيدوروس Claudius Athenodoros المشرف المالى procurator : إن من بين المشاكل التى أعلم إنها تحتاج إلى جهد كبير لحلها والتى سبق أن وجه إليها والدى فسباسيان قيصر المؤله عنايته من أجل صالح المدن ، والتى تهدف إلى ألا تعانى

أقاليم الولايات من إرغام سكانها على تأجير حيوانات النقل، أو إسكان الجنود بالقوة . وحيث إنه قد تمت مخالفة هذا الأمر عمدا أو ... ولذلك أصدرت أمرى لك لتتأكد مما إذا كان أحد قد أرغم أحداً على تأجير دابة بالقوة ، إلا إذا كنت قد أصدرت إليه أمراً بذلك ، فمن الظلم أن يقوم أى موظف من أى درجة أو مكانة بإجبار الأهالى ، حيث إن أحداً غيرى لا يملك هذا الحق. ولذا فيجب ألا يُرتكب شيء مخالف لأوامرى أو يعوق تحقيق هدفى . حتى يمكن مد يد العون للولايات المستنزفة ، التى لا تكاد تكفى احتياجاتها اليومية الضرورية . وعلى هذا فينبغى ألا يتحدى أحد رغبتى ويجبر الأهالى ما لم يكن هناك تصريح منى بذلك ، لأنه إذا استمر استنزاف الفلاحين فلن تجد الأرض من يقوم بزراعتها... [فقد باقى النقش] » .

وعن هذا الموضوع نفسه لدينا منشور أصدره والى مصر عام ١٣٥ م ، وآخر أصدره حاكم سوريا عام ١٨٥ م. ولكن أنى لأى عدد من هذه الإنذارات أو التهديدات يمكن معه إيقاف تلك المباراة غير المتكافئة بين السكان المدنيين الذين لا حول لهم ولا قوة فى التصدى لإيواء الجنود المتسامحين حينا أو المشاغبين مرارا؟ إن انتهاك الجنود لمساكن السكان ظل مرضا متفشيا لا يمكن استئصاله : وذكر لنا المؤرخ ديوكاسيوس أنه حدث عندما تم إيواء قوات الإمبراطور كاراكالا فى خريف عام ٢١٦/٢١٧ م وكان إيواء شرعيا هذه المرة[١٥] : «أن استخدم الجنود جميع ممتلكات المضيفين كما لو كانت أملاكهم الخاصة» .

سوف نرى الآن الوجه الآخر المخالف لذلك ، وكيف كان ينفذ الأمر الإجبارى عند صدوره . وكمثال أول على هذا نجد أن الأمر يصدر لأحد البنوك بدفع أموال لعدد من الرجال الذين تم اختيارهم للقيام بالعمل الإلزامى لجمع الملابس والأغطية التى فرض على السكان منحها للدولة :

«ادفع مقدما المبالغ المذكورة لكل من هيراكليس بن هوريجاس Herakleides s. of Horigas وهيرون Heron عبد بوبليوس مايفوس Publius Maevius ، وديوسكوروس Dioskoros عبد الإله سارابيس العظيم المحرر، وهم نساجون من قرية فيلادلفيا Phil-adelphia ولعدد آخر يبلغ ٨١ نساجًا من القرية السالفة الذكر وتحت مسئوليتهم

المشتركة وذلك مقابل الأردية التى أصدر فخامة الوالى أفيديوس هليودوروس Avidius Heliodoros أوامره بصنعها وهى على النحو التالى :

(أ) لسد حاجة الجنود فى كبادوكيا Cappadocia ... إلخ :

رداء واحد أبيض بحزام طوله ٣ أذرع ، وعرضه ٣ أذرع وأربعة أصابع ، زنته مينا Mina ثمنه ٢٤ دراخمة ، و٤ عباءات سورية بيضاء اللون يبلغ طول كل منها ٦ أذرع وعرضها ٤ أذرع ، تزن ٣ ٣/٤ مينا ، ويبلغ ثمن كل منها ٢٤ دراخمة إجمالى قيمتها = ٩٦ دراخمة والمبلغ الإجمالى ١٢٠ دراخمة .

(ب) ملاءة بيضاء اللون طولها ٦ أذرع ، ويبلغ عرضها ٤ أذرع وتزن ٤ مينا بمبلغ ٢٨ دراخمة لاستخدامها فى المستشفى العسكرى فى معسكر الإمبراطور . وهكذا يكون إجمالى المبلغ ١٤٨ دراخمة فضية ، يخصم من القطعة الأخيرة ٦ دراخمات لصالح الخزانة .

(جـ) يشترط أن تصنع الطلبات السابقة من الصوف الجيد السخى النقى غير المصبوغ ، وأن يتم نسجها بدقة ، وأن تكون حوافها جيدة الصنع ، جميلة فى منظرها دون أى عيوب ، وأن تتناسب مع الثمن الذى دفع فيها مقدما . وإذا رفضت أى قطعة فيها عند تسليمها أو ثبت أنها أقل من الجودة المطلوبة فعليهم أن يقوموا برد ثمنها ، (بالإضافة إلى الضرائب والنفقات) وكذلك القطعة التى يثبت أنها أقل من المستوى المطلوب . ويجب عليهم أن يسلموا القطع المطلوبة دون تأخير طبقًا للمقاييس والأوزان المطلوبة ، بخلاف أى ملابس عامة مستحقة عليهم [التاريخ ٩ سبتمبر ١٣٨ م] ».(١٦) .

وبالمثل طلب تقديم غلال للقوات العسكرية :

«إلى داماريون Damarion مدير إقليم هرموبوليس من أنطونيوس جستينوس الجندى صاحب المرتبة المتميزة ، ومبعوث ڤاليريوس فرونتينوس Valerius Frontinus قائد فرقة هرقل [المتمركزة] فى قفط Coptus لقد تسلمت من شيوخ قرية تيرتون إبا Terton Epa التى تقع فى مركز باتيميتى الأعلى Patemite Toparchy الحصة المفروضة على هذه القرية من كمية الغلال التى تبلغ ٢٠٠٠٠ أردب من الشعير التى أمر فخامة والى مصر لونجيوس روفوس Longaeus Rufus بشرائها من محصول السنة السابقة،

الرابعة والعشرين لسد احتياجات الفرقة التى سبق ذكرها ، إلخ . وتبلغ هذه الحصة مائة أردب من الشعير تم وزنها عند التسلُّم بالمكيال العمومى المذكور وهى (= ١٠٠ أردب من الشعير) ، وذلك بموجب ما تم فرضه من قبل موظفى الإقليم . وقد أصدرت هذا الخطاب من أربع نسخ [التاريخ يونيو عام ١٨٥ ، والتوقيع]»(١٧) .

وذكر فى هذا الطلب أنه تم شراء الغلال "وفقا لسعر السوق" ، وهناك من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن الحكومة فى كثير من الأحيان أو فى كل الأحيان كانت تقوم بشرائه بسعر أقل من سعر السوق الحقيقى . وحتى لو قامت الحكومة بدفع ثمنه كاملا فقد وجد فيه القرويون ما يضايقهم ، ذلك لأنه على الرغم من أن الهدف الأساسى من فرض الإلزام بالبيع كان يتمثل فى تخفيف العجز المؤقت ، فقد أصبح إلزاما مستمرا تقريبا منذ منتصف القرن الثانى تقريبا . وذكرت لنا إحدى البرديات ، أن إحدى الوحدات العسكرية قامت بجمع الغلال على أقساط شهرية طوال السنة ، وليس هناك ما يدعونا إلى افتراض أن ما قامت به هذه الوحدة العسكرية كان شيئا فريدا . بل أكثر من هذا ، فإن القرويين لم يكن يمكنهم بأى حال أن يعرفوا عندما يتم تأجيل التسليم أو عندما يتم إلغاؤه .

ولم يكن هذا كل شىء ، إذ فرضت من حين إلى آخر إمدادات إضافية من الغذاء والأدوات ووسائل النقل لمساعدة الإمبراطور فى حروبه الخارجية ، وكثيرا ما تم فرضها لاستضافة كبار الزوار والترحيب بهم وبحاشيتهم . ويدخل فى نطاق الأخيرة دورة الحاكم السنوية لعقد المحاكم والإشراف على الولاية ، وكذلك فى أثناء جولات الأباطرة وأفراد الأسرة الإمبراطورية فى مصر . وفى أحد التقارير التى ترجع إلى عام ٢١٦ يذكر لنا أحد سكان قرية سكنوپايو نيسوس Soknopaiou Nesos أنه طلب منه خلال هذا العام أن يعير جملين بمناسبة زيارة الإمبراطور كاراكالا للبلاد ، وبعد أن أعادوا له الجملين ، تم طلبهم مرة أخرى، ولكن المسئولين رفضوا واحداً منهما لأنه لم يكن فى حالة جيدة ، أما الآخر فقد قاده أوريليوس كالڤيسيوس ماكسيموس Aurelius Calvisius Maximus قائد المائة الذى أرسل فى مهمة وفقًا للأمر الرسمى الذى أصدره والينا الشهير ڤاليريوس داتوس Valerius Datus للخدمة فى الجيش الإمبراطورى الجَسور فى سوريا لاستخدامه فى حرب كاراكالا على الجبهة الشرقية(١٨) .

أما المعلومات الخاصة بجولات والى مصر للإشراف الإدارى فلدينا عنها كثير من التفصيلات(١٩) . وتم تحصيل الالتزامات التى فرضت على كل فرد من دافعى الضرائب نقداً ، وجرت العادة على أن يتم ذلك على يد مجموعة خاصة يجرى اختيارها ، بحيث يتم تعيين محصل لكل محصول (أو مجموعة من المحاصيل) أو خدمة ينبغى أداؤها . وتذكر لنا الوثائق الخاصة بهذا الموضوع أكثر من اثنتى عشرة لجنة مختلفة كلفت واحدة منها بالإشراف على المرور على مقر إدارة الوالى ، وثانية بالنظر فى مظاهر الحفاوة ، وثالثة للإشراف على الوقود والإضاءة ، وهناك لجنة أخرى كلفت بالإشراف على دواب النقل والعربات . وذكرت المواد التالية للتموين بالطعام : الخبز ، والشعير ، والجبن ، والدجاج ، والإوز ، وصغار الخنازير ، والعجول ، وغذاء دواب النقل . وكل عضو من أعضاء اللجنة كان يتولى منصبه بالالتزام والتناوب مع أفراد طبقته الاجتماعية والاقتصادية . لقد سميت هذه الخدمات : الأعباء ، وسبق أن عددنا كثيرا منها فيما سبق ، وحان الوقت الآن لكى نقوم بالنظر فى تفصيلاتها .

الأعباء الإلزامية Liturgies

سخرت جهود شعوب ممالك الشرق القديم لخدمة احتياجات حكامهم وأهوائهم وانتصاراتهم ، وكان من نتاج هذه الجهود بناء الأهرامات العظيمة والهياكل الكبيرة ، وتزيين القصور الملكية ومدها بالطعام . أما فكرة أن توجه جهود الشعب فى المقام الأول من أجل الصالح العام فهى فكرة نبعت من ديمقراطية الإغريق القديمة التى نلاحظها بوضوح (طبقا للمعلومات التى لدينا) فى ديمقراطية أثينا. وقد أطلق الإغريق على هذه الجهود اصطلاح الأعباء الإلزامية Leitourgia "أى الأعمال التى يقوم بها الشعب" ، حيث كان ينبغى على كل أسرة من أسر الأثرياء فى أثينا خلال القرنين الخامس والرابع أن تقوم كل واحدة فى دورها بالإنفاق لمدة عام من مواردها الخاصة على خدمة من الخدمات العديدة من أجل الدولة . وارتبطت بعض هذه الخدمات بالنواحى الدينية ، وأخرى بالأعمال العامة ، أما أكثرها نفقات وأهمها من الناحية التشريفية فتمثل فى بناء وتجهيز سفن الأسطول ذات الصفوف الثلاثة من المجاديف

Trireme ، وإعداد فريق الممثلين لتقديم العروض المسرحية السنوية . وظل نظام الأعباء الإلزامية راسخا فى جهاز المدن الإغريقية خلال العصرين الهللينستى والرومانى (ومن اصطلاح خدمة الشعب أو الجماعة استخدمت الكلمة للإشارة إلى خدمة الإله وهو المعنى المقصود الآن بكلمة التزام liturgy) .

تبنى الرومان منذ فترة مبكرة من تاريخهم مفهوما أكثر اتساعا عن الأعباء munera ، واعتبروها نوعا من الواجبات العامة ، التى كان يرفضها كبار الأثرياء وأصحاب المراكز العليا . أما فى مصر فقد قام الأباطرة بالمزج بين التقاليد الإغريقية القائمة فى شرقى البحر المتوسط وطعموها ببعض العناصر الرومانية ، واستخرجوا منها نظاما فريدا للالتزامات لا يمكن أن يقارن بأى نظير له فى العالم القديم ، حيث وصل إلى كل قرية نائية ، وأرغمت فيه جميع فئات وطبقات السكان على القيام به .

وتم استثناء فئات معينة من تأدية الالتزامات ، كما هو الحال بالنسبة إلى الضرائب ، وحافظ جميع الأباطرة على تحديد هذه الفئات رغم مضى الوقت ، وأعفى منها كل من : المواطنين الرومان ومواطنى المدن الإغريقية وأبطال الرياضة الفائزين وأصحاب المهن التعليمية والآباء الذين لديهم خمسة أطفال والعاملين فى بعض الأعمال المهمة (على سبيل المثال إمدادات الجيش الرومانى) ، كما تم التغاضى عن أن يقوم أفراد الأسرة الواحدة بتأدية الالتزام فى الوقت نفسه ، وكان يتم إعفاء النساء والجنود المسرحين من الجيش الرومانى وبعض رجال الدين والمسنين إذا كان الالتزام فى حاجة إلى جهد بدنى . وبمعنى آخر كان هناك التزامات لذوى الياقات الزرقاء ، وأخرى لأصحاب الياقات البيضاء ، أو كما كان الرومان يطلقون عليهم : الخدمات الجسدية (لذوى الأيدى الخشنة) أو الخدمات الشرفية (لأصحاب الأعمال المكتبية) .

وتعكس لنا بعضُ الوثائق المتفرقة التى ترجع لفترة مبكرة الإحساس بأنه كان هناك ثمة مشروع لنظام الأعباء بدأ يتشكل منذ منتصف القرن الأول الميلادى ، ثم أخذ هذا النظام ينمو بسرعة فى نهاية هذا القرن ، ثم بلغ تمام نضجه قبل انصرام القرن الثانى . وواصل الرومان إنشاء مناصب إلزامية جديدة حتى نهاية فترة حكمهم ، ونضج هذا النظام قبل انتهاء فترة حكم تراجان عام ١١٧ م ، وكان هو نفسه بدون

شك الذى وضع الخطوة الأساسية فيه عندما نقل جباية جميع الضرائب النقدية إلى أفراد يتولون مناصبهم بالإلزام بدلاً من المحصلين الذين كان يتم تعيينهم من قبل الدولة . وفى الحقيقة قضى هذا الإجراء - إلى حد ما - على تسلط محصلى الضرائب واستبدادهم بالمزارعين من دافعى الضرائب .

نحن نعرف حتى الآن ما يقرب من مائة نوع من أنواع الالتزامات ، بعضها يضم عددا كبيرا أو صغيرا من الفروع ، وفى بعض الأحيان كان يعين فرد أو لجنة للقيام بتأديته، وكان هؤلاء على النحو التالى: شيوخ القرى ، وكاتبو القرية والمدينة والبوليس ، ومحصلو ضرائب الغلال والضرائب النقدية ، والحمالون الذين يحملون القمح من الصومعة إلى الميناء النهرى ، ومن الميناء النهرى إلى الإسكندرية ، أو إلى معسكر القوات الرومانية، ومراقبو فيضان النيل الذين يتأكدون من وصوله أو عدمه إلى الحقول، والمشرفون على بذر الحبوب والحصاد ، ومشرفو العمل فى الجسور وعلى الأعمال العامة ، ومحصلو الضرائب ، والمشرفون على استقبال كبار الزوار وتموينهم ، ورجال البنوك الذين يتداولون الأموال العامة ، والأوصياء على القُصَّر ، ووضع البيان الشامل لخدمة أعضاء مجلس عاصمة الإقليم والحكام . كل هذه الخدمات السابقة وأكثر منها كانت تُشغل جميعها بالإلزام فى فترة تكافل النظام فى القرن الثالث . وبلغت مدة شغل كل منصب منها إما لمدة سنة أو لثلاث سنوات ، وكان من المفروض عدم استدعاء أى فرد سبق أن شغل أيا من المناصب السابقة لفترة تبلغ عدة سنوات ، ولكن حدث العكس من الناحية العملية حيث تغافل الموظفون الذين يقومون بالتعيين عن هذا الأمر عندما كانوا يواجهون بنقص فى عدد المرشحين اللائقين لشغل جميع مناصب الالتزام التى كان عليهم أن يقوموا بملئها .

وإذا كان منصب محصل الضرائب قد بدأ يختفى من على المسرح ، فلم يكن ذلك يرجع إلى أن الحكومة الرومانية بدأت فى تغليب العامل الأخلاقى وأنها أصبحت لديها الرغبة فى تجفيف مستنقع الفساد ، ولكن لأنها وجدت أنه يمكنها أن تحصل على الهدف الرئيسى من المنصب عن طريق استبدال الالتزام به ، ولكن بصورة أكثر شمولا . فشاغلُ منصب الالتزام لم يكن مطالبا فقط بالإنفاق على حاجات منصبه ، ولكن حيث إنه كان مسئولا عن تحصيل الضرائب فإنه يصبح مسئولا مسئولية

شخصية عن تسليم الضرائب كاملة للدولة ، وهذا يعنى أنه كان يجب عليه أن يقوم بتغطية أى عجز فيها من موارده الخاصة ، الأمر الذى يوضح لنا السبب فى أنه كان يشترط على شاغل كل منصب من المناصب الإلزامية أن يكون لديه حد أدنى من الأملاك ، بلغت فى أعلى معدلها ٣ تالنتات (١٨٠٠٠ دراخمة) أو أكثر بالنسبة إلى صاحب البنك الذى كان يخدم الإقليم mome بأكمله ، ووصل الحد الأدنى مبلغ ٢٠٠ دراخمة لمنصب حارس القرية . وهكذا يتضح لنا أن المناصب الإلزامية جرفت الجميع وأحاطتهم بسياج من البلاء .

وفور أن يتم تحديد الالتزام ويتم اختيار مرشحه ، كانت أملاك المرشح توضع تحت أنظار الدولة ، كما كان على المرشح أن يسلم قسما للدولة يتعهد فيه بالقيام بتأدية الالتزام بأمانة وإخلاص . ومع ذلك فإن الحكومة الرومانية لم تكتف بالاعتماد على أملاك المرشح لضمان قيامه بتأدية العمل ، حيث عرف نظام الأعباء شبكة من المرشحين الأوائل والمسئولين عنه يليهم مرشحو الدرجة الثانية . وكان يقع على عاتق موظف الدولة المسئول عن الترشيح لشغل مناصب الالتزام فى المدينة أو القرية ، التأكد من أن كل مرشح من المرشحين صالح ولائق لتأدية العمل ، كما كان يقع على مسئوليته ضمان قيام المرشح بتأدية العمل بالفعل ، وفى بعض الأحيان كان يجب على المرشح بمضى الوقت أن يقدم ضمانا يؤكد موافقته على شغل المنصب ، ثم أضافت القواعد التنظيمية قاعدة أخرى تقضى بأنه لما كان المرشحون للمناصب يؤدون عملهم بموافقة المجتمع ، فإن حدوث أى تقصير من قبلهم تقع مسئوليته تبعا لذلك وأوتوماتيكيا على كل أفراد المنطقة .

كان الترشيح يتم محليا بالنسبة إلى مختلف مناصب الالتزام المحلية بمختلف أهدافها وأغراضها ، ثم تعرض الإجراءات بعد ذلك على مدير الإقليم الذى يقوم بإضفاء الشكل الرسمى على المرشحين بالموافقة على تعيينهم ويعلن رسميا بدء قيامهم بمهامهم. وعلى أية حال كانت هناك إجراءات مختلفة لشغل منصب محصلى الضرائب، كان الهدف منها منع التواطؤ والمحاباة . وكان لابد من تقديم اسمين أو ثلاثة من المرشحين اللائقين لشغل هذا المنصب ، ثم يقوم مدير الإقليم (الذى كان يعرف شخصيا واحدا أو أكثر منهم بوصفه المدير المحلى) بإرسال القائمة كاملة إلى المدير

العام epstrategos (الذى كان يقيم فى منطقة بعيدة) ، وكان رومانى الجنسية (وليس له مصلحة فى التعيين) ، حيث يقوم باختيار المرشحين عن طريق إجراء القرعة . ولقد استقينا تفاصيل هذه الإجراءات من خلال الوثائق الخاصة بالترشيح :

«إلى أبولونيوس Apollonios مدير إقليم أرسينوى [الفيوم] ، قسم هيراكليوس Herakleides من بيتاوس Petaus كاتب قرية بطلمية هرموس Ptolemais Hermous والقرى الأخرى .. بخصوص استبدال كل من مارون بن سابينيوس Maron s. of Sabinus وإيسخرون بن ماسيس Ischyrion S. of Phasis وهيرون بن هاتريس Heron s. of Hatres محصلى الضرائب النقدية الثلاثة لقرية بطلمية هرموس ، ومحصلى الضرائب النقدية الست من قرية سينون Synon [أسماء أفراد] ، ومحصلى الضرائب النقدية الأربع [أسماء أفراد] من قرية كركيسوخا أوروس Kerkesoucha Oros ، لقد أكمل ثلاثة العشر محصلاً فترة ثلاث السنوات لمنصبهم وطبقاً لذلك وعلى مسئوليتى بالاشتراك مع السكان الذين يعيشون فى القرى ويقومون بالزراعة فى أنحائها ، وهم مسئولون عن ترشيح المرشحين كما جرت عليه العادة ، فإننى أقوم بترشيح الآتية أسماؤهم لتوافر الثروة الكافية والمناسبة لديهم ، وسوف ترسل أسماؤهم إلى المدير العام الذى يجرى القرعة عليها وهم على النحو التالى :

لقرية بطلمية هرموس : بيثيوس بن أيسخرون Petheus s.of Ischyrion وثاوبستيس Thaubastis ويملكان ثروة تقدر بـ ٧٠٠ دراخمة . وديوس بن بابنتوس Dios s. of Papontos وثاوباس Thaubas ٦٠٠ دراخمة ...» .

يلى ذلك أسماء ٢٤ آخرين من القرى الثلاث ، ويكون الإجمالى ٢٦ مرشحا يتم اختيار ١٣ منهم عن طريق إجراء القرعة وتراوحت ثرواتهم ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ و ٨٠٠ دراخمة لكل منهم(٢٠) .

ونتساءل الآن ماذا كان يحدث – وقد حدث فى بعض الأحيان – إذا وقع خطأ وتم تعيين شخص كان قد تم إعفاؤه من تولى المناصب الإلزامية ؟ أو لم يكن يتوافر لديه النصاب المالى المطلوب ؟ سيحاول الموظف الذى قام بالترشيح إصلاح الخطأ إذا كان لا يزال هناك وقت لديه عن طريق ترشيح شخص آخر ، أما لو كان الأمر غير ذلك فسيضطر إلى أن يتولى المنصب بنفسه طبقا لمسئوليته عن الترشيح . وطبقت هذه

القاعدة منذ منتصف القرن الأول : " إذا قام كاتب إحدى القرى بتعيين زراعة التزام على بعض النساجين منتهكا بذلك القواعد السابقة فسيقع عليه شخصيا القيام بتأدية الالتزام أو يقوم بتحويله لآخرين على مسئوليته الشخصية" . وحدث موقف مشابه لذلك عام ٢٤٤ م بخصوص أخوين كانا مواطنين من مدينة أنتينوبوليس ، ولذلك تم إعفاؤهما من تأدية الالتزام ، وعندما تم ترشيحهما لتأدية خدمة إلزامية فى البهنسا حيث كانا يملكان أملاكا هناك ، قدما اعتراضا على ذلك ، وأجاب كاتب المدينة الذى قام بترشيحهما على المدير قائلا : "لقد وجدت بعد إجراء البحث أنه [تم إعفاؤهما] ، وعلى ذلك سوف أحل مكانهما فى القيام بالالتزام"(٢١) .

أما إذا أساء الموظف الذى يقوم بالترشيح التصرف فى أثناء الاضطلاع بمهام وظيفته ، فكان عليه أن يقوم بدفع ثمن الأضرار التى تسبب فيها. ولذلك أصدر والى مصر فى ١١ فبراير ١٤٣ م الحكم التالى على كاتب القرية عند النظر فى هذا الموضوع :

«ماذا كنت تتوقع عندما قمت بترشيح شخص لا يملك النصاب المالى الكافى ليقوم بشغل منصب الالتزام ؟ لقد تسببت فى فراره ، ونتج عن ذلك بيع ممتلكاته [لكى يتم الإسهام بثمنها فى تغطية نفقات الالتزام] ، ولذلك فإنك تستحق العقاب التالى : يجب أن تقوم بدفع أربعة أمثال قيمة ما تم بيعه من ممتلكاته»(٢٢) .

ويمكننا أن نتفهم السبب الذى كان يدفع أغلب الأفراد لتحاشى قبول تولى مناصب الالتزام ، لذلك كان يمكن دفع رشوة لكاتب الترشيح حتى يتغاضى عن وضع اسم أحد الأفراد فى قائمة المرشحين ، كما كان بإمكانه أن يقوم بحذف اسم أحد أصدقائه منها . ومن الواضح أن أى عدد من القواعد التنظيمية لم يكن فى إمكانها أن تمنع منعا كاملا استغلال النفوذ والمحاباة ، وقد حاولت الحكومة أن تتدخل فى بعض الأحيان ، وتضع المحاذير والضوابط بأن تصدر أوامرها لكتبة القرى وهم أنفسهم تولوا مناصبهم بالالتزام بأن يقوموا باختيار المرشحين للمناصب الإلزامية من قرى أخرى غير التى يعملون بها . كذلك تمكن بعض الأفراد من أن يتم استثناؤهم من شغل المناصب الإلزامية باستخدام طرق غير مشروعة ، وعادة ما كان كاتب القرية يستطيع أن يجد وسيلة للنظر (كما كانوا يقولون حينئذ) فى أمر بعض الأفراد الذين كانوا

يصرحون علنا بأنهم سيقومون بالثأر منه فى حالة عدم إبعاد أسمائهم عن قوائم الترشيح ، كما أنهم كانوا يقومون فى الوقت نفسه بتهديد ضحاياهم الضعفاء المغلوبين على أمرهم من الذين يتم اختيارهم ليحلوا محل أولئك الأوغاد ، وانتابت الشجاعة أحيانا بعض هؤلاء الضحايا وقاموا بتقديم شكاواهم إلى الجهات العليا ، وكان ينتج عن ذلك التوقف لفترة قصيرة عن مثل تلك الانتهاكات ، ونحن نعرف أنه صدر مرسوم إمبراطورى ضد شراء "الحماية" من تولى مناصب الالتزام فى عام ٤٨ م ، وبعد مضى تسعين عاما على هذا المنشور نجد والى مصر يحقق فى قضية عن الموضوع نفسه ، وفى شهر أكتوبر من عام ٢٠٧ م قامت لجنة مكونة من خمسة وعشرين رجلا للدفاع عن سكان قرية سكنوبايو نيسوس Soknopaiou Nesos ، وأرسلت هذه الشكوى لمدير الإقليم :

«لقد أرغمنا على العمل ، وقام كل واحد منا فى حدود قدرته بالعمل فى الأراضى التى تقع على الشاطئ والتى انحسرت عنها مياه الفيضان ، ولكن هناك شخصاً يدعى أورسيوس ، وهو شخص عدوانى عنيد ، قام بمهاجمتنا ومعه إخوته الأربعة ، ومنعونا من القيام بالعمل وبذر الحبوب وهددونا لدرجة أننا سنضطر إلى الفرار من منازلنا كما حدث من قبل ، وذكروا أنهم يطالبوننا بالأرض ؛ ولذلك قمنا بإرسال هذه الشكوى إليك لنوضح لك عدم شرعية ما قاموا به ، بالإضافة إلى أنهم لا يقومون بدفع نصيبهم من الحصة الشهرية للضرائب النقدية والغلال ، .. وهم لم يقوموا بتأدية أى عمل من أعمال الالتزام ؛ لأنهم يلجأون إلى إرهاب كتبة القرى المتتابعين . لذلك ألجأتنا الحاجة إلى طلب الحماية منك ، ونرجو من فخامتك أن تتفضل وتأمر باستدعائهم أمامك لتستمع لشكوانا منهم وأن تقوم بالتحقيق فيها ، حتى يمكننا أن نتفرغ للعمل فى الأراضى والقيام بالالتزام الملقى على كواهلنا . كذلك يجب على أورسيوس وإخوته أن يشاركوا بنصيبهم فى دفع الضرائب العامة وأن يتولوا مناصب الالتزام ، وعلى ذلك تكون المسئولية ملقاة على عاتقنا جميعا بالتساوى لبذر الحبوب فى الأرض موضع القضية ، حتى نتمكن من أن نحافظ على قريتنا .. مع شكرنا لفخامتك والسلام»[٢٣] .

يأتى فى الجانب الآخر من المشهد الاجتماعى، وجوه المجتمع المحلى الذين دفعتهم روح الشهامة noblesse oblige أو المصلحة العامة للمجتمع pro bono publico إلى أن

يتقدموا عن طيب خاطر لشغل المناصب الإلزامية التى كان قد تم استثناؤهم منها من الناحية القانونية . وندم هؤلاء السمرائيون Samaritans الخيرين على ما قدموه من إيثار عندما قرروا إرضاء السلطات ؛ لأنهم وجدوا أن مجتمعاتهم اعتبرت كرمهم حقا دائمًا لهم لا تفضلا منهم . ففى إحدى الحالات نجد طبيبا يقدم طلبا لوالى مصر كى يأمر بإعفائه من منصبه ، ونعلم من قضية أخرى أن إحدى السيدات من اللاتى يملكن أملاكًا فرض عليها زراعة أرض مهجورة بالالتزام ، وقامت بتقديم طلب لإعفائها من هذا العمل نظرا لكونها سيدة ، وظلت حوالى سنتين تتقاذفها أجهزة الإدارة البيروقراطية حتى تمكنت من التخلص من هذا العبء(٢٤) .

فى أثناء فترة الركود الاقتصادى فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث ارتفعت الضرائب وازداد التشديد فى تحصيلها نتيجة للمطالب التى فرضت من أجل المساهمة فى الصراع المرير على تولى عرش الإمبراطورية ، ولحروب الأباطرة على الحدود ، ونتج عن ذلك كله ضياع ثروات كثير من الأثرياء. وعندما نستعرض حياة مواطنى عواصم الأقاليم فى تلك الفترة نلاحظ جهودهم التى بذلوها لمحاولة التنصل من شغل المناصب الإلزامية فى هذه الظروف الصعبة ، أو محاولاتهم على الأقل الحصول على شركاء ليسهموا معهم فى سد نفقاتها . ولما فشلت جميع الجهود بدأنا نرى بعض الذين تم استدعاؤهم للقيام بتولى المناصب الإلزامية يفضلون التنازل عن جميع ممتلكاتهم لمن قاموا بترشيحهم لشغل هذه المناصب ؛ لأن ذلك جزء من المسئولية الشخصية التى تقع على عاتق من يقوم بالترشيح ، ويبدو أن المتنازل عن أملاكه كان يسترد جزءا قليلا منها بعد ذلك . حقيقة لم تذكر الوثائق هذه التفصيلات بالتحديد ولكن مما لا شك فيه أن التنازل عن الأملاك كان يتم بالفعل ، بل وصل الأمر بموظفى الإدارة المحلية إلى ضرب بعض هؤلاء الأفراد ، ووضعهم فى السجن لكى يرغموا على إلغاء التنازل وقبول الالتزام . ولذلك أصدر الإمبراطور سبتيموس سيفروس أوامره التى تنهى عن هذه المعاملة السيئة ، وعدم المساس بمنزلة هؤلاء الرجال الاجتماعية أو بامتيازاتهم المسموح لهم بالتمتع بها . ولدينا أدلة واضحة على ما تقدم فى عدة حالات ، سوف نذكر واحدة منها هنا والأخرى فى ص٢٨٦ من الكتاب نفسه :

«إلى أوريليوس ليونيداس مدير إقليم البهنسا من إيميليوس ستيفانوس بن هاتريس وتاسورابيس من قرية سينكيفا : علمت من أوريليوس أمونيس بن باتاس وديمتريوس من القرية نفسها أنه قام بترشيحي خلفا له في السنة الجارية لمنصب محصل الضرائب النقدية المستحقة على القرويين في القرية المذكورة سابقا، وحيث إنني لا أملك النصاب المالي الكافي ؛ لذلك فإنني أعد غير أهل لهذا المنصب ، كما أن الترشيح لا يتفق مع المنطق ، أو مبدأ المشاركة في تحمل الالتزام [عن حق] لذلك فإنني أتنازل عن كل ممتلكاتي له وفقا لتعليمات مولانا [الإمبراطور] الحاكم ، وأقر بأن أملاكي العقارية ... » فقد باقي النص ، سنة ٢٣٦ م(٢٥) .

ولما زاد ثقل أعباء الضرائب والالتزامات وأصبحت فوق الاحتمال كان الملاذ الأخير لدافع الضرائب هو أن يشمر عن ساقيه ويختفي . وحدث الشيء نفسه نتيجة لنظام الخدمات الإلزامية التي أدت بدورها إلى خلق مشكلة الهاربين من ديارهم ، حيث إن بعض المرشحين لم ينتظروا أن يتم تعيينهم ، لكن بمجرد أن يعلم الواحد منهم أو يساوره الشك في أنه تم تعيينه في إحدى الخدمات الإلزامية كان يسارع بالفرار . وأصدر والي مصر منشورا بمناسبة رأس السنة المصرية الثامنة عشرة لحكم الإمبراطور أنطونينوس بيوس ٢٩ أغسطس سنة ١٥٤ ، لم يلجأ فيه إلى إخفاء الحقيقة عند حديثه عن "هؤلاء الفارين الذين فروا من القيام بشغل بعض مناصب الالتزام بسبب الفقر الذي أصابهم جميعا في ذلك الوقت والذين ما زالوا يعيشون بعيدا عن ديارهم في خوف من اعتبارهم خارجين على القانون" ، بل قام بإعطائهم فرصة بإصدار عفو عام عنهم إذا عادوا إلى ديارهم خلال ثلاثة أشهر(٢٦) .

ومما لا شك فيه أن بعض هؤلاء الفارين انتهزوا الفرصة للعودة إلى ديارهم دون أن ينالهم عقاب ، ولكن دورة الفساد ستعود لتعمل من جديد لتشمل الجميع . حقيقة إن العفو يلغي الديون والأخطاء ، ولكنه لا يؤمِّن لهم شيئا في المستقبل ، بل على العكس من ذلك ، فقد تميزت مجريات أحداث التاريخ الروماني بعد إصدار المنشور الأخير بزيادة في الحروب على الحدود ، وتدني الاستقرار السياسي وذبول الاقتصاد ، وهذا يعني عدم تخفيض الضرائب والالتزامات ، بل يعني أنها ستصبح أكثر عبئا بمضي

الوقت ، ولم يكن باستطاعة حكام مصر أن يحلوا هذه المشاكل الواضحة ، ولكن كل ما كان فى استطاعتهم عمله هو التغاضى عن الضرائب ، وإصدار عفو عام عندما يزداد التمزق الذى يترتب على هروب الأفراد وهنا تصل الأزمة إلى قمتها . إن أفضل القرارات لم يكن ليحقق سوى نتائج مؤقتة . ولا شك فى وجود المشاكل خلال قرون الحكم الرومانى ، ولكنها تفاقمت الآن دون شك فى أثناء القرن الثالث ، واستمر فرار الرجال من ديارهم عندما ازدادت الأعباء المالية وبلغت أقصى حدها ، وواصلت الحكومة سياستها فى اعتصار بذورها فأدى ذلك إلى : فقدان القوة البشرية ، وانهيار مصادر الدخل ، ورفع درجة الاستنفار العسكرى لمواجهة عصابات اللصوص وقُطّاع الطرق التى ابتلعت الفارين بصفة نهائية .

الهوامش

(١) P. Lond. 904 = Select Papyri, 220; BGU 1210 ؛ راجع أيضاً ٢٨٦

(٢) P. Lugd. Bat. V, col x = SB. 7460 = P. Brux. 10. وظهر عدد كبير من آل المنزل في ص ١١٢ وعن زواج الأخت من أخيها راجع الفصل الرابع حاشية ٩ و ١٠.

(٣) Diodorus, Historical Library, Book I, Ch 31 ; Josephus, The Jewish war, Book 2, sect . 385.

(٤) SB. 7738 = SEG. VIII, no. 527. وسبق ذكر مثال عن الخداع والغش في توزيع العمل في الجسور في الفصل الثامن حاشية رقم (٢١) . أما اعتراض تيريريوس الذى سبق اقتباسه في هذه الفقرة فهو مذكور لدى ديوكاسيوس Dio Cassius, Roman History , Book 57 , ch. 10

(٥) Philo, On Special Laws, Book 3, Ch.30 من الصعوبة بمكان أن نضيف أن الأعمال التى سبق تقديمها كانت قانونية ؛ لأن الأقارب والأصدقاء كانوا غير مسئولين عن ضرائب الفارين ، لذلك وجد الإمبراطور سبتيموس سيفروس Septimus Severus أنه من الضرورى أن يكرر في عام ٢٠٠م " حيث إن كثيراً من الأفراد مازالوا يقدمون التماساتهم حتى لا يتم إرغامهم على دفع ضرائب الآخرين كما لو كانوا شركاء متضامنين معهم ، على الرغم من المنشورات التى سبق إصدارها ، لذلك فإننى أرى من الضرورى أن أؤكد المنشور الذى سبق أن قمت بإعلانه بخصوص هذا الموضوع ، من أنه لا ينبغى أن يرغم أى فرد على أن يقوم بدفع ضرائب شخص آخر ، ولا أب عن ابنه ، ولا ابن عن والده ، ولا أى فرد عن فرد آخر . وكذلك لا يستبدل تحصيلها تحت أى مسمى آخر" P. Mich. 529 verso وقد تم مراجعتها في : - Chronique d'Egypte, 50 (1975), 202-6.

(٦) BGU. 515 = Select Papyri, 286. وعن وثائق أخرى خاصة بالزوارق الصغيرة .

(٧) وراجع أيضا SB. 9207. وأيضاً ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٨) تم الاقتباس من الوثائق التالية : P. Oxy. 2669 ; P. Ryl. 595 ; SB ; 7462 ; Psl 101 , 102.

(٩) Josephus, Jewish war, Book 2, sec. 386; Aurelius Victor, The Caesars, ch.I

(١٠) P. Oxy. 2670.

(١١) P. Oxy. 2125, and 708 = W. Chr. 432

(١٢) P. Lond. 259 = W. Chr. 63 (A.D. 94).

(١٣) See Seritti ..... Montevecchi, Bologna, 1981, PP. 196 - 7.

(١٤) WO. 1157.

(١٥) الوثائق التى تم الاقتباس منها على النحو التالى :

Select papyri, 211 ; P. Lond. 1171 verso = W. Chr. 439 ; Insc. Lat. Selectae 214 :: SB. 4226 ' Revue int. droits des l' antiquité, 15 (1968), 137 ; PSI 446 = Select Papyri 221 ; OGIS . 609, and Dio Cassius, Roman History, Book 79, (78), ch. 3 ; See àlso L-R. II. Pp. 399-403/

(١٦) BGU. 1564 = Select Papyri, 395. سبق شرح " عبد سيرابيس المحرر " فى ص ٩٢ .

(١٧) P. Amh . 107 = W. Chr. 417 أما هذه النسخ الأربعة فكانت على النحو التالى : نسخة لمدير الإقليم وهى تلك التى أرسلت إليه ، والثانية لشيوخ القرية ، ويبدو أن الثالثة كانت لموظفى الإقليم الذين ذكروا فى آخر الوثيقة (ومن المحتمل أنه السكرتير الملكى) ، أما الرابعة فكانت للموظف الذى أصدر الإيصال ، يحتفظ بها فى الإدارة المحلية .

(١٨) BGU. 266 = W. Chr. 245.

(١٩) أما تقويم الأعياد الذى تم اقتباسه سابقا فهو يدخل ضمن تاريخ ٢٠ برمودة (١٦ مارس) " بمناسبة زيارة فخامة والينا المعظم سبتيموس هيراكليتوس Septimus Heraclitus : تزين جميع [الآثار] فى المعبد بعقود الزهور ؛ [ودفع مبالغ نقدية] لشراء أعواد الصنوبر والمواد العطرية الأخرى ، وأجر الحدادين الذين يقومون بطلاء التماثيل بالزيت ، والعمال الذى يحملون تمثال الإله لاستقبال الوالى [عند وصوله] وعقود الزهور للتمثال المذكور ، والخطيب العام الذى سيقوم بإلقاء خطبة الترحيب لفخامة الوالى سبتيموس هيراكليتوس بمناسبة قيامه بإهداء تمثال النصر وهدايا أخرى للمعبد".

(٢٠) P. Petaus, 65 (A.D. 185)

(٢١) P. Phil .I ; P. Oxy. 1119 = W. Chr. 397.

(٢٢) P. Wisc .81 وعن الهروب بسبب الأعباء راجع ص ٢٧٣ وما يليها .

(٢٣) SB. 4284 أما المنشور والمصادر الأخرى الخاصة بهذه الفقرة فهى موجودة فى : Hibis I = OGIS .665 ; PSI. 1406.

(٢٤) P. Oxy. 899 = W. Chr. 361. والتماس الطبيب موجود فى الوثيقة التالية : P. Fay. 106 = W. Chr. 395 = Select Papyri 283

(٢٥) P. Oxy. 1405

(٢٦) BGU. 372 = W. Ch. 19. وهناك ترجمة فى : L- R. II, PP. 374 - 5 وعن الخارجين عن القانون وقطاع الطرق راجع ص ٢٧٤ .

الفصل التاسع

« الجهل بالقانون »

Insciam Legum

أو « إدارة التشريع »

" أمةٌ جاهلة بالقوانين " ، حتى المؤرخ تاكيتوس Tacitus، وهو المؤرخ الذكى الذى يتصف عمومًا بالدقة والحصافة قد تأثر فى نقده للشعب المصرى بما أبداه الرومان نحوهم من ازدراء ، أما ديودور الصقلى الإغريقى ، الذى كتب قبل تاكيتوس بمائة عام فهو يخالف تاكيتوس فى رأيه على خط مستقيم ، حيث لاحظ تأصل عادات المصريين وقوانينهم ، وامتدح الأسس التى يقيمون عليها العدالة . وتذكر الأساطير أن القانون المصرى كان هدية من الإله توت (الذى تم تشبيهه بالإله هرميس واهب القانون فى الأسطورة الإغريقية) للفرعون مينا الذى وحد بين جنوب مصر وشمالها وكون الأسرة المصرية الأولى حوالى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد ، وحتى إذا غضضنا النظر عن مجموعة نصوص قانون الملك مينا باعتبارها حكاية أسطورية ، فهناك دليل تاريخى واضح على أن قواعد العدالة تكونت من مجموعة القوانين المسجلة ، وأنه كان يوجد فى مصر نظام للمجالس القضائية نما وتطور قبل أن يبدأ الرومان تاريخهم بحوالى ألفى عام [١] .

ولما كان الإمبراطور الرومانى يمثل أعلى سلطة قضائية فيها ، أصبح حاكم الولاية بالتالى يمثل قمة السلطة القضائية فيها . وكان من حق المواطن الرومانى فى أى مكان يحل فيه فى الإمبراطورية أن يستأنف قضاياه أمام الإمبراطور فى حالة القضايا العظمى ، كما أتيحت له الفرصة نفسها فى الدعاوى المدنية نظير رسم مالى. أما باقى سكان الإمبراطورية فتمثل منفذهم - مع ندرة فى الاستثناء - فى جهاز القضاء الخاص بكل ولاية من الولايات العديدة عندما يقرر حاكمها نفسه أن يقوم بإرسال بعض القضايا إلى روما عندما يرى أنها فى حاجة إلى قرار من الإمبراطور شخصيا .

وبالإضافة إلى الوالى الذى تم تعيينه لحكم الولاية ، كان يوجد عدد من كبار الموظفين الإداريين الرومان فى مصر يمارسون التشريع فى القضايا المدنية فقط ، وحملوا الألقاب التالية : الناطق بالأحكام juridcus، وكبير القضاة archidikastes ، ومفسر القانون exegetes ، ومدير الحساب الخاص idios Logos ، ومراجع الحسابات dioiketes، ولما كانت الإشارة إليهم فى مصادرنا جاءت متفرقة ، لذلك فهى تتركنا دون أن تزودنا بفكرة واضحة عن دور كل منهم واختصاصه من الناحية القضائية . وجرت العادة على أن يصاحب واحد أو اثنان منهم حاكم الولاية عند عقده لمجالسه السنوية للإشراف على إدارة الإقليم ، ولعقد المجالس القضائية فيه . ونلاحظ أن الوالى كان نادرا ما يتجه جنوب ممفيس أو الفيوم لعقد مثل هذه الجولات (وكان على موظفى الأقاليم ، التى تقع جنوب ممفيس ، أن يبحروا إليه ليعرضوا عليه تقاريرهم)، كما أنه نادرا ما كان ينظر فى قضايا غير تلك التى أرسلت إليه لإبداء الرأى فيها عن طريق المحاكم الأدنى درجة ، ولم يكن ينظر سوى فى قضايا مختارة منها فقط كما سنرى الآن . ومعنى ذلك أن شريحة صغيرة جدا من أفراد المجتمع كان لها اتصال بالسلطة التشريعية العليا فى الولاية ، أما بالنسبة إلى باقى أفراد الشعب ، فكان الذهاب للمحكمة معناه المثول أمام مدير الإقليم . وحتى تلك الشكاوى التى كانت ترسل إلى السلطة العليا كان يتم إعادتها للمدير – فى أغلب الأحيان – للنظر فيها .

إن القانون والإجراءات القضائية التى سادت مصر فى العصر الرومانى كانت مزيجا من تجارب الماضى والحاضر . وكانت كلمة مصريين تعنى فى العصر الرومانى – كما سبق أن لاحظنا أكثر من مرة – كل سكان الولاية فيما عدا الرومان ومواطنى المدن الإغريقية واليهود (*).

وتمتعت كل مجموعة من المجموعات المستثناة بحق ممارسة حياتها وفقًا لقانونها ونظمها . أما ما أطلقت عليه الإدارة الرومانية اسم " قوانين المصريين " فى أثناء الغزو الرومانى فكانت عبارة عن مجموعة مختلطة من القوانين الإجرائية والأعراف والعادات ،

(*) عن اليهود راجع الحاشية المذكورة فى ص ٢٥٦ من الكتاب . (المترجمة)

بعضها مصرى وأغلبها له أساس إغريقى . ومع تقادم قرون الحكم الرومانى تحتم على تلك المبادئ والأعراف أن تتكيف بالتدريج كى تتوافق مع القانون الرومانى ، وسبق أن ذكرنا بعضا من نماذج هذا التطور فى الفصل السابع .

أقام أول حكام البطالمة محاكم مدنية منفصلة لكل من الشعبين المصرى والإغريقى فكانت الإجراءات تتم أمام " قضاة الشعب " باللغة المصرية ووفقًا للقانون المصرى ، أما الإجراءات الخاصة بالإغريق فقد استخدمت اللغة اليونانية فى " دوائر القضاة " الذين كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر حيث يقيم الإغريق . وعلى أية حال فلم يحدد للأفراد نوع التشريع الذى يجب عليهم أن يتعاملوا به ، وكان من حق أى فرد سواء أكان إغريقيا أم مصريا أن يختار المحكمة التى تقوم بالنظر فى قضيته. وكان المترجمون متوافرين عندما تبرز مشكلة عدم معرفة اللغة ، وحدث الشىء نفسه بالنسبة إلى القضايا أو العقود التى كانت تصاغ باللغة المصرية وتقدم أمام المحاكم الوطنية وكان الإغريق طرفا فيها . واستمرت ثنائية تنظيم المحاكم لفترة من الوقت خلال الحكم الرومانى ثم بدأ التخلى عنها منذ منتصف القرن الأول الميلادى ، حيث اعتاد المصريون على تصريف أمورهم (أو أنه ربما تمت صياغتها لهم) باللغة اليونانية التى أصبحت لغة شبه عالمية **Lingua Franca** وكانت تصرف بها الأعمال وتدار بها الحكومة آنذاك .

كان لإدارة الولاية طريقتها فى إقامة الادعاء العام ، فعندما تكون القضية خاصة بأحد الأفراد فيرجع له تحديد الإجراءات ، إما بنفسه أو عن طريق وكيل له . وتبدأ الخطوة الأولى بكتابة الشكوى وتقديمها إلى الجهة المسئولة ، وهو المدير أو المدير العام فى أغلب الأحيان، حيث كان لكل منهما سلطته القضائية الخاصة بالأفراد فى المشاكل المالية. وطلبت منهما بعض الشكاوى أن يخففا عنهم أو ينصفاهم فى قضاياهم، وطلبت أخرى منهما أن يرفعا مظلمتهم إلى والى مصر فى الجلسة القضائية العليا القادمة . أما المجموعة الأخيرة من الالتماسات فهى تذكرنا بالحقيقة الأزلية التى مر بها الشاعر الإنجليزى ألكسندر بوب **Alexander Pope** وهى تتمثل فى تمسك الإنسان الدائم بحبال الأمل الذى يجيش فى صدره فى أحلك الظروف . ولما كان الوالى لا يطلع إلا على قضايا الجرائم والموضوعات الكبرى حيث يصدر حكمه فيها دون أن يوضح الإجراءات

التى سبقتها ، فإن أغلب القضايا - كما سنرى فيما بعد - لم تكن تصله مباشرة ، ولكن كان يتم إرسالها إليه بطريقة روتينية إذ يبعثها مرءوسوه إلى مدير الإقليم أو إلى أى محكمة أخرى أدنى درجة .

ولدينا التماس من هذا النوع قدمه ستة من كهنة تيبتونس عام ١٧٧م لمدير الإقليم حيث قالوا فيه :

« نتقدم إليك بشكوانا ضد كرونيون بن سابينوس Kronion s. oF Sabinus لقيامه بالاعتداء علينا ، وهو أمر سنقوم بتوضيح تفصيلاته فى الموعد المحدد ، ونرجو منك أن تستدعيه عن طريق أحد مرءوسيك للمثول أمام المحكمة العليا التى سوف يعقدها فخامة والينا باكتوميوس المعظم Pactumeius Magnus » [٢] .

ويحتاج المدعى عليه الذى ينتظر المحاكمة إلى ضامنين يتمكنون من العمل على حضوره المحكمة عند استدعائه لنظر القضية ، وهو يشبه الكفالة فى عصرنا الحديث . وفى حالة عدم وجود الضامن حتى فى أكثر القضايا وضوحا يظل المتهم تحت الحراسة فى الحجز حتى يوم المحاكمة ، وعندما يستعد المدير للنظر فى القضية يصدر هو أو أحد مساعديه أمرا بالحضور والمثول أمام المحكمة . والشىء المثير للاهتمام أننا لدينا حتى الآن ما يقرب من مائة أمر بالاستدعاء ، ولكنها لا تشير مباشرة إلى الحضور للمحاكمة أو إلى الدفاع أو إلى المتهمين ، ولكن هذه الأوامر كانت ترسل إلى موظفى البوليس المحلى ، الذين يستخدمون عبارات رسمية محددة مع اختلافات طفيفة ، وتشير باختصار إلى السبب فى الاستدعاء :

« إلى رئيس بوليس تايمبيتى Taempetei ، أرسل كلا من هاتريس بن هارسؤريس Hatres S. of Harsouris وهوروس بن بيللى Horos s. of Belle وبسينامونيس ابن باوزيريس Psenamounis s. of Pausiris ، وجميعهم مقيمون فى سوفو Sopho بخصوص الالتماس المقدم من فيللينوس Phillinos . ١٨ مسرى ٣٠ » [٣] .

أما المحاكمة التى يعلن أن المدير سيقوم بفحصها فى دورة فحص الحكام القضائية فكثيرا ما كانت الشهادة الشفهية تنتهى بطلب تقديم الشهادات المكتوبة ،

والوثائق الخاصة بالموضوع ، كما كانت تسجل فيها القوانين والإجراءات ، وفى النهاية وبعد الاستماع يقوم المدير بإصدار قراراه . وهذه الإجراءات تناظر - كما سنرى - تلك التى كانت متبعة فى المحاكمات التى يرأسها والى مصر .

أما عندما يصدر المدير حكمه بأن القضية المعروضة لا تدخل فى نطاق اختصاصه ، فيقوم بتحويلها إلى المدير العام ، وفى بعض الأحيان إلى الوالى مباشرة . وفى إحدى القضايا نجد الفقرة التالية التى اختتم بها المدير حكمه : « وإذا كان الحال كما زعمت فإن جناب المدير العام قد أصدر حكمًا فى قضية مشابهة فسوف أقوم بإحالة هذه القضية إليه ليتخذ قرارا فيها » . وفى ختام قضية أخرى أصدر المدير أوامره لمدير البوليس فى القرية بأن « يتعهد [المجنى عليهما] بالحضور معك للمثول أمام فخامة المدير العام عند قيامه بالنظر فى القضية ». وكان يمكن الاستئناف والتظلم من الأحكام التى يصدرها المديرون إذا وقع فيها خطأ قانونى ، ولكننا لا نعرف شيئًا عن الشروط والقواعد التى كانت تتبع لاتخاذ فى مثل هذا الإجراء . أما إذا اتهم المدير بإساءة استخدام السلطة أو التحيز فى معاملة المتقاضيين فمن الواضح أنه كان يتم رفع القضية إلى سلطة أعلى للنظر فيها (٤) .

على الرغم من أن سلطة المدير العام **epistretegos** التشريعية كانت أعلى من سلطة مدير الإقليم **strategos** فقد كانت محدودة ، فالقضايا التى تقع فى نطاق اختصاصه كانت تتم إحالتها إلى الوالى أو إلى مسئول آخر أعلى منه سلطة :

« من مضبطة جلسة فخامة ڤيديوس فاوستوس **Vedius Faustus** المدير العام بعد قيام فاوستوس باستجواب المتهمين والتشاور مع مساعديه الموجودين على المنصة قال لهرياكراتيون **Harpakration** مدير قسمى بوليمون **Polemon** وثيمستيس **Themistes** [فى إقليم الفيوم] " إنه وفقًا للتحرى الذى قمت به وأوامر جناب الوالى فالأمر متروك لفخامته كى يقوم هو باتخاذ القرار ، كما أننى سأشرح له تفصيلا كل الخطوات التى قمت باتخاذها " » (٥) .

ولكن هل كان هناك ما يؤكد أنه عند عرض الشكوى أمام المحكمة العليا سيتم سماعها أو على الأقل إصدار الحكم فيها من قبل الوالى نفسه ؟ والإجابة المختصرة

هى بالنفى ، حيث كان فى استطاعة أحد الأفراد أن يعرض قضيته قبل قضية شخص آخر ويضيع عليه الفرصة . ولكن مجرد وصول القضية إلى المحكمة العليا كان يعد فرصة فى حد ذاته تم الحصول عليها ، ولكن حيث إن الشخص يتكبد نفقات الرحلة إلى الإسكندرية وكذلك نفقات وكيله لعدة أيام غير محددة ، فإن النظر فى قضيته كان أمرا محتما لأنه خصص لكل إقليم يوم أو عدة أيام خلال الدورة القضائية . وقد سجل أحد الأفراد نقشا يرجع لأواخر القرن الأول عن كيفية " وصوله إلى الوالى ماركوس ميتيوس روفوس **Marcus Mettius Rufus** حيث سلمه التماسا أثناء مروره ... وقبل الوالى الالتماس وسلمه لكلوديوس جمنوس **Claudius Geminus** مدير الحساب الخاص لبحثه" ، واستمع الأخير للقضية وأصدر حكمه فيها . كذلك تطلعنا إحدى البرديات التى ترجع لأواخر القرن الثالث كيف أن وكيل أحد الأفراد من البهنسا ويدعى نميزيانوس **Nemesianus** انتظر الوالى أسبوعًا قبل عقد المحاكمات التى من بينها محكمة البهنسا ، وفى المحاولة الأولى قبل نميزيانوس أن يعود مرة أخرى إلى جلسة الاستماع « ولما عاد فى ذلك اليوم اتضح أنه يوم عطلة ولذلك لم يتم عقد الجلسة ، وعندما عاد فى اليوم التالى إلى قاعة الجلسة أعلن الوالى أنه خصص جلسة ذلك اليوم لمعالجة أمور معينة [ليست من بينها قضيته] . ثم نجح فى المحاولة الرابعة فى الاقتراب من الوالى فى الحديقة الخلفية للقصر ، حيث طلب الوالى منه أن يقدم له الالتماس مكتوباً وهو ما قام به ، وأدرجت قضيته فى الملف ١ ص ٨١ وتم تقديمها فى موعدها » (٦) .

أما الشخص المغمور ، وخصوصا إذا كان يعيش فى جنوب الوادى ، فلم تكن تتاح له مثل هذه الفرصة ، ولذا كان عليه الانتظار حتى تعقد محكمة إقليمية ، وهذا يعنى الانتظار لعدة أشهر وربما تطول المدة لتصبح سنة . واعتاد الوالى أن يأتى كل عام إلى ممفيس أو الفيوم (وفى بعض الأحيان يختار مدينة أخرى مثل قفط) فى أواخر يناير أو أوائل فبراير ، ويمكث عادة حوالى شهرين أو ثلاثة حتى يستطيع أن يقوم بمراجعة الحسابات المالية ويعالج المشاكل الإدارية الخاصة بتلك الأقاليم التى تمتد من ممفيس حتى حدود مصر الجنوبية، وكذلك النظر فى القضايا التى تراكمت طوال العام. ولم يكن الوالى يطيل إقامته فى صيف مصر الحار الذى يبدأ بعد ذلك فى الاقتراب ،

إضافة إلى أنه لم يكن مستعداً لخرق التقاليد ، وهو يمثل الحاكم ، بالإبحار فى النيل المقدس فى فترة الفيضان (من يونيو إلى أكتوبر) ، ولذا خصص لكل إقليم عدة أيام فى تقديم المحكمة العليا للنظر فى قضاياه . وفى ختام الدورة يصبح مجلد العمل الذى تم إنجازه ضخماً . وقد حمل أحد الالتماسات التى قدمها أحد سكان البهنسا فى المحكمة العليا رقم ١٠٠٩ ، كما تحدثنا وثيقة من مجموعة جامعة ييل Yale أنه فى مارس من عام ٢٠٩م عندما كان الوالى يقيم فى الفيوم وصله ١٨٠٤ التماسات فى مدة يومين ، وهذا يعنى ما بين ٧٠٠ إلى ٧٥٠ التماسا يوميا ، وإذا وضعنا فى اعتبارنا أن مكتب الوالى يعمل لمدة عشر ساعات يوميا ، وهو الحد الأقصى المسموح به لعمل المحاكم فى اليوم كما هو الحال فى البلديات الرومانية ، فإن فمعنى هذا أن هذه الالتماسات التى قدمت لن تستغرق سوى دقيقة خلال فترة الساعات العشرة . ولا يحتاج الأمر إلى خيال عريض لكى نتصور أصحاب الالتماسات وهم يقفون فى طابور طويل قبل شروق الشمس وينتظرون فى نظام لكى يعرضوا ورقتهم التى كانت زاخرة بكثير من الآمال ومحفوفة بكثير من المخاوف (٧) .

ومن الواضح أن الالتماسات ذات الطابع الروتينى – وهى تمثل أغلبها – لم تكن أبدا تصل إلى مكتب الوالى ، حيث تقوم سكرتارية المدير ومساعدوه بالنظر فيها . أما الوالى فكان ينظر فقط فى الالتماسات التى يرى فيها مرءوسوه أن لها خطورتها أو أن لها وضعا استثنائيا . وفى أغلب الحالات يقوم الوالى بإحالة أغلبها إلى موظفين أدنى درجة ، أو إلى القضاة المؤقتين الذين أنشئت مناصبهم لتأدية مهام محددة . أما إذا كان الجنود يمثلون أحد أطراف القضية ، فيتم إحالتها إلى ضابط عسكرى . ثم يبقى الوالى فى النهاية لنفسه عدداً قليلا من تلك القضايا التى يرى أنها تعد قضايا جديدة غير عادية أو أن لها أهميتها ، بحيث تتطلب أن ينظر فيها الحاكم شخصيا . أما تلك الالتماسات التى بلغ عددها ١٨٠٤ التماسات التى سبق ذكرها فى الفقرة السابقة فنحن نعرف أنها جمعت وأرسلت إلى الإسكندرية وقام مكتب الوالى بالرد عليها بعد حوالى شهرين من تاريخ إرسالها .

وتشـير عدة وثائق بردية إلى إجـراء التحـقيق المبدئى الذى كـان يجـرى أمـام الوالى ، كما حفظت لنا بعض العبارات من مضبطة جلسـة التحقيق الابتدائى ، ومنها يتضح لنا أن القاعدة الرئيسية التى كان الوالى يختار على أساسـها القضـايا التى تحتـاج إلى رأيه الشـخصى ، هى تلك المشـاكل الخاصـة بالجيش والجنود المسرحين ، والضـرائب والنواحى المالية ، والإعفـاء من الالتـزامات ، وحقـوق المـلكية ، والأعـمال العامة ، وجرائم العنف والاحتيال .

وتتكون أطول مضبطة جلسـة حـفظت لنا من لفـافـة بردية توجـد فـى المكتبـة البريطانية ولكنها غير كاملة ، ومـن سـوء الحظ أنها عبارة عن شـذرات ، وتـتـكون من خمـسة أعمدة تضم ١١٤ سطرا مكتوبًا ، اسـتـخرجت عدة عبارات من مـحضـر جلسـة سنة ٢٥٠م ، سبق ذكرها فى الفصـل الرابع من هذا الكتـاب . وسنقـدم الآن عدة نماذج أخرى تم اسـتخراجها من ذلك المحضـر :

« (مـحكمـة) الوالى ديكيمـوس فيـتوريوس مـاكرينوس Decimus Veturius Macrinus ١٨١ / ١٨٣م سـأل الوالى مـاكريـنـوس بسـائيس Psais هـل سـجلت نـفـسك فى التعداد ؟ ورد عليه عن طريق المترجم : لا لم أقـم بـذلك . فـسـأله ماكريـنـوس إذن أين سـجلت اسمك ؟ فـأقـر بالآتى ، وقـال : تـــوفي والـدى عـنـــدمـا كـنت صـغـيـرًا ولم يقـوموا بتسـجيلى. وبعـد تبادل آخر الحديث قـال ماكريـنـوس : إن هذا أمر خطـير. وبعد أن درس الأمر مع مجلس مستشـاريه أمـر بإلقاء القبض على بسـائيس ... [فقدت باقى الوثيـقـة] » .

« (محكمة) الوالى سيرفيوس سولبيكوس سيميليس Servius Sulpicius Similis السنة الخامسة عشرة من حكم المؤله تراجان ، ٢٥ برمـودة Phamenoth [٢١ مارس سنة ١١٢] فى نقراطيس .

تقدم ديوسكوروس بن ديونيسـيوس Dioskoros s. of Dionysios إلى [المنصـة] وقـال : " إننا أخوان فرضت علينا الأعباء الإلزامية ، لذلك فإننى أطالب بأن يعفى أحد منا منها ليقوم بالإشراف على زراعتـنا " ، فقـال سـولبيكوس سـيميليس : هـل والـدك مـا زال على قيد الحياة ؟ وعندمـا أجابه بالنفى حكم سولبيكوس سيميليس بأنه يجب أن يتم إعفاء واحد منهما » .

« من مضبطة جلسة فلافيوس تيتيانوس Flavius TiTianus الوالى السابق السنة الثانية عشرة من حكم هادريان المؤله ، ٨ بئونة [٢ يونيو ١٢٨] فى المحكمة التى عقدت فى السوق :

– تم مثول أنطونيوس بن أبوللونيوس [أمام المحكمة] وقرر عن طريق محامية إيسيدوروس Isidoros الصغير أن سميرونيوس Semperonius والد زوجته تحرش به واختلق مشاجرة وأخذ ابنته رغما عنها . لذا مرضت وأصابها الحزن وتعاطف معه باسوس Bassus المدير العام وأصدر حكمه بأنه يجب عدم منع أنطونيوس [من الاحتفاظ بها فى عصمته] إذا رغبا كلاهما فى أن يعيشا معا . ولكن هذا الأمر لم يُجْدِ مع سميرونيوس الذى تجاهله . ثم تقدم بالتماس إلى الوالى يتهم فيه أنطونيوس بالاعتداء عليه ، وأفلح فى تسلُّم خطاب صدر فيه الأمر باستدعاء جميع الأطراف للمثول أمام المحكمة ولذلك فإن أنطونيوس يلتمس من الوالى ، إذا شاء ، ألا يتم طلاقه من زوجته التى يحبها . وهنا اعترض ديديموس Didymos محامى الخصم قائلا بأن ما قام به سميرونيوس لم يكن بدون سبب : وذلك لأن أنطونيوس قام بتهديد سميرونيوس واتهمه بأنه يرتكب زنا المحارم مع ابنته ، وقد رفض سميرونيوس أن يتحمل هذه الإهانة واستخدم الحق الذى منحه له القانون ، وقام باتخاذ هذا الإجراء ضد أنطونيوس ، ثم أضاف بروباتيانوس ، أنه فى حالة ما إذا لم يتم حل مشاكل الزواج فإن الوالد ليس له الحق فى الدوطة أو فى الأطفال الذين أنجبوا عن طريق هذا الزواج . وأجاب تيتيانوس Titianus قائلا : إن العامل الرئيسى الذى يفصل فى الموضوع هو مع من ترغب المرأة المتزوجة أن تعيش . لقد قرأت ذلك ووقعته » .

« من مضبطة جلسة موناتيوس فيلكس Munatius Felix السنة الثالثة عشرة من حكم المؤله أيليوس أنطونيوس Aelius Antoninus ٢٢ برمودة [١٧ أبريل سنة ١٥٠م] :

تم مثول كل من جليكون بن ديونيسيوس Glykon s. of Dionysios وأبوللونيوس ابن جليكون Apollonios s. of Glykon أمام المحكمة ، وبعد عدة ملاحظات أبداها أرخيلاوس Archelaos المحامى قال : " إن جليكون لا يملك الموارد [للقيام بالالتزام] وتنازل عن أملاكه " . وأجاب موناتيوس : إنه سيتم فحص أملاكه والتحقق من قوله ،

وهناك قاعدة سبق أن طبقتها مرارا – ويبدو لى أنها عادلة – أنه فى حالة الأشخاص الذين يتنازلون عن أمـلاكهم بغـرض التحـايل عـلى دائنيهم فإن هذا العمل يعد غير قانونى » [٨] .

ومما لا شـك فـيه أن قلة فـقـط مـن أصـحـاب الالتـمـاسـات والمنازعات كـانوا محظوظين لأنهم يحصلون على فرصة عرض قـضاياهم أمام الوالى ؛ لأنـه بمجـرد أن يقوم الوالى بإصدار حكمه فى القضية ، يوضع حد للموضوع ويغلق ملف القضـية res juducata. أما تلك الشكاوى التى لم تعرض على الوالى فإن الإجراءات القضائية كانت تمتد وتستـغرق وقتا طويلاً ، وهى تبدأ بانتظار انعقاد المحكمة العليا التالية ، وهى مدة تطول لتصل إلى عشرة أشهر . وبعد انعقاد المحكمة العليا كان يمكن للقضية أن تأخذ عدة أشهر أخرى ، كما حدث بالنسبة للالتماسات ١٨٠٤ السابق ذكرها التى احتاجت إلى فـترة قبـل أن يتم البـت فيهـا . وحتى بعـد ذلك فكثيرا ما كانت الإجابة تتم على النحـو التـالى : « سيتولى المدير النظر فى فحوى قضـيتك بدون تحـيز » ، أو «إذا كـان لديك أى دليل فـعليك أن تقوم بتقديمه إلى المدير الذى سيـتـخذ الإجراء اللازم» ، أو ما شـابه ذلك . وفى بعض الأحيان تصدر الأوامر للمدير بألا يقوم بإصدار الحكم بنفسه ، ولكن بأن يقوم بعملية التحقيق والفحص للموضـوع (وهـو عمل كان يعهـد به دائما إلى الكاتب الملكى للإقليم) ثم يقـدم تقـريره بعـد ذلك للـمدير العام أو الوالى ، كل هذه الإجراءات تؤدى إلى تأخر نظر القضية [٩].

كان الوالى يخصص بعض القضايا " للأصدقاء " ، كما يطلق على القضاة الذين تم تعيينهم للتحقيق فى قضايا معينة . هؤلاء القضاة معروفون شخصيا للوالى أو أنهم تمت تزكيتهم له ، ومما لا شك فيه أنهم كانوا عادة ما يساعدون فى سرعة الإجراءات ، ولكن ذلك لم يكن يتم فى كل الأحوال والظروف . ففى ختام جلسة المحكمة العليا التى عقدت عام ١١١ م – على سبيل المثال – علم الوالى أنهم لم ينتـهـوا من الفصل فى قضايا عديدة ، لذلك أعلن أنه : «إذا كان القضاة الذين قمت بتعيينهم هم السبب فى ذلك التأخير ، فسوف أتركهم هنا حتى ينتهوا من القضايا الموكلة إليهم » [١٠] .

فى بعض الأحيان كان التأخير يرجع إلى الأطراف المتنازعين أنفسهم، إما بسبب تعمدهم التهرب ، أو بسبب طلبهم التأجيل لسبب مشروع (مثل الحاجة إلى القيام بحصاد محصولهم، أو ببساطة لعدم استطاعتهم الحضور عند نظر القضية) ، أدى عدم حضور أطراف القضية عند استدعائهم جلسة ٣ أغسطس سنة ٨٩م إلى أن أصدر الوالى ماركوس ميتيوس روفوس Marcus Mettius Rufus أوامره للحاجب، لإصدار حكم جديد :

« نسخة من محضر الجلسة [التاريخ] نتيجة لعدم حضور أطراف القضية عند استدعائهم ، فقد أصدر ميتيوس روفوس أمره للحاجب بأن يعلن أن الأفراد الذين تدرج أسماؤهم للمثول أمام جلستى القضائية ، ولم يتمكنوا من الحضور ، فسوف يعلنون من الآن بأنه سيتم استدعاؤهم مرة أخرى ، أما إذا لم يحضروا بعد ذلك فسيتم النظر فى قضيتهم غيابيا in absentia » .

ومن الواضح أن مشكلة إزعاج المتقاضين للإدارة قد استمرت مما أثار سخطها ، لذلك أصدر الوالى تيتوس باكتوميوس ماجنوس Titus Pactumius Magnus المنشور التالى بخصوص الموضوع نفسه بعد مائة عام من منشور روفوس :

« على أصحاب الالتماسات الذين قاموا بتسليمها ، أو الذين وصلتهم بعد ذلك التعليمات والردود الخاصة بطلب حضورهم أمام محكمتى ، والذين أدرجت أسماؤهم فى قائمة قضايا الجلسة ، فى حالة عدم حضورهم خلال عشرة أيام من تسلم هذه التعليمات وعدم ردهم عليها فلن ينظر فى أى التماس يتقدمون به بصدد أية إجراءات قانونية أو حكم قضائى ... أما إذا اتبعوا هذه التعليمات وقاموا بالتسجيل لدى [كاتب الجلسة] خلال الأيام العشرة فسوف أقوم بالنظر فى قضيتهم ... [باقى الوثيقة عبارة عن شذرات] » .

وتتضمن مضبطة جلسة المحكمة الابتدائية (جلسة الاستماع) التى عقدت عام ٢٥٠م هذه الملحوظة : « لقد عرضت القضية أمام المدير العام وتم الحكم ضدهم غيابيا بعد أن تم استدعاؤهم ثلاث مرات ولم يتم حضورهم » (١١) .

أما مديرو الأقاليم والمسئولون الآخرون ، والآخرون من الذين كانت القضايا تحال إليهم فكانوا يبادرون بتنفيذ أوامر الوالى ، ولا غرو ، فالوالى هو صاحب السلطة العليا كما أنهم يشغلون مناصبهم وفق إرادته . أما صاحب القضية التى كان يتمكن من الفوز بها بعد انتهاء التحقيق فيها أمام محكمة المدير فكان لا يزال أمامه معركة أخرى تمثل الموجة الأخيرة من تعطيل الإجراءات ، وذلك بسبب العوائق التى يضعها أمامه عادة الموظفون المحليون المسئولون عن وضع حكم المدير موضع التنفيذ . وكان كتبة المدن والقرى هم سادة الماضى فى وضع تلك العراقيل حتى لا يتم تنفيذ الأحكام الصادرة والتى تمثل تهديداً لمواردهم المالية . وعلى سبيل المثال فى حين يضطرون إلى إيجاد بديل لشخص سبق أن قاموا بترشيحه لتولى أحد مناصب الإلزام ، ثم يصدر الحكم القضائى ببطلان هذا الترشيح لأنه يخالف حقوق المرشح له . ونذكر كأحد الأمثلة ذلك الحكم الذى أصدره الوالى لصالح إحدى السيدات ، وبعد عامين من صدور الحكم ، كانت هذه السيدة لا تزال تلتمس من المدير أن يلزم كاتب القرية بتنفيذ حكمه . ولدينا قضية أخرى خاصة بنزاع حول أملاك عرضت على المدير العام ، الذى أحالها بدوره إلى الوالى نظرا لتعقيد إجراءاتها إذ وجهت تهمة القتل إلى والدة المدعى عليه، الذى توفى ، وصدرت الأوامر للمدعى عليها بالحضور إلى الإسكندرية حيث تجمدت قدماها هناك من طول انتظار عرض قضيتها ، ولما ضاع الوقت سدى عادت مرة أخرى تلتمس من الوالى أن يسمح لها بالعودة إلى البهنسا ، ومنحها الوالى الإذن مع إصدار تعليماته بأن تضع السيدة الأمر برمته بين يدى المدير العام الحالى . ثم مرت الشهور ، وربما السنوات ، ثم عادت القضية مرة أخرى من حيث بدأت (١٢) .

والأمر الذى يثير دهشتنا أنه بالرغم من مئات ومئات الوثائق التى لدينا والتى ترتبط بموضوع المنازعات والجنح بمختلف أنواعها نجد ذلك القدر الضئيل الذى لدينا عن العقوبات . فالشكاوى تحتاج مثل اليوم لتحقيق وإعادة الفحص ، والاستئناف يقدم لطلب عدالة أو رحمة أو عطف القاضى الذى أرسلت إليه القضية (وخصوصا إذا كان الوالى) ، أما إصدار الحكم فى الالتماس المقدم فقد كان يتم صياغته بعبارات عامة دون استخدام عبارات محددة مثل : « يخضع للعقاب المناسب » أو « يتعرض للعقوبة المفروضة » أو ما شابه ذلك . أما فيما يخص الجرائم الكبرى ، مثل جرائم العبيد

والأحرار من الطبقة الدنيا فكانوا يعاقبون بالأشغال الشاقة فى أحد معسكرات الجيش أو المناجم أو المحاجر . ونسمع عن وجود أحد السجون ، وعن قيام أحد الحراس بحراسته ، وكان يتولى عمله بالإلزام ، ولكن لا توجد لدينا معلومات عن نزلائه . وهناك عدة إشارات قليلة عن صدور أوامر بالضرب لخرق قوانين المحكمة ، أما أغلب العقوبات فكانت غرامات مالية بصفة عامة . وأغلب القضايا التى نقرأ عنها فى أوراق البردى والتى لها صلة بالمنازعات الخاصة حكم فيها بدفع تعويض مالى عند الاعتداء على أحد الأفراد ، أو تعويض عن إتلاف ممتلكات . كذلك صدر حكم بالغرامة المالية فى الحالات القليلة التى لدينا من قضايا الاحتيال أو الغش ضد الإدارة الحكومية ، تلك الجريمة التى كان من الصعب على الرجل المدنى أو العسكرى مقاومة إغرائها . وكان مرتكب مثل هذه الجرائم يعاقب بدفع غرامة ، أما المُبلِّغ الذى يقوم بالإرشاد عنه فكان يتقاضى مكافأة للإرشاد عنها . ففى عام ١٣٩ قام أحد كهنة سكنوبايو نيسوس بتولى الإشراف على أحد مراكز تحصيل الضرائب ، وقدم أحد الأفراد شكوى ضده للمدير العام واتهمه بالاختلاس المنتظم على مدى أربع سنوات ، وذكر مقدم الشكوى فى ختامها "أنه قام بتسليم هذا التقرير أملا فى الحصول على المكافأة المقررة " ، ومنها يتضح أن المكافأة كانت تدفع نظير ما قام به المبلِّغ(١٣) .

إن التباطؤ فى تصريف العدالة ، يجعلها عدالة مرفوضة ، فبالإضافة إلى الأعباء الضريبية كان يوجد ضغط قانونى على الأفراد . فالمنازعات القانونية سمة من سمات الحياة فى مصر خلال العصر الرومانى ، وربما كان الفشل الذى واجهه العديد من الأفراد فى الحصول على علاج سريع فى المحاكم بمثابة القشة الأخيرة التى قصمت ظهر البعير ، والتى أحالت حياة الفرد إلى حد غير محتمل . لقد عانى المصريون فى صمت فى أغلب الأحيان، وانعكس صدى ذلك الصمت على حكومة غافلة عديمة المبالاة، ولكن الغضب والشعور بالاستياء كانا موجودين ، ويتفاعلان تحت السطح ، وسوف يبدآن الآن بالانفجار على شكل موجات ويقذفان بالعنف الفردى أو الثورة الجماعية . وهى القصة التى سنعالجها فى الفصل العاشر من هذا الكتاب .

الهوامش

(١) Tacitus, Histories, Book I, ch. 11; Diodorus, Historical Library, Book I, ch. 93-94.
وعن تطـور القواعد القانونية وإدارة العدل فى مصر فى عصورها المبكرة ، فـإن المرء لا يـزال يقـرأ ويسـتفيد فى الفصـول الخاصـة بهذا الموضوع فى المؤلف التالى :

J. Pirenne, Histoire des istitution et du droit privé de l'ancienne Egypte, 3 vols, Brussels, 1932-5. أما الإجراءات القانونية فى العصر الرومانى فقد قام كولز بتحليلها فى الكتاب التالى :
R. A. Coles, Reports of Proceedings in Papyrologica Bruxellensia 4, 1966

(٢) P. Teb. 303 = Select Papyri. 248.

(٣) P. Oxy. 3190 إن حـرف Xs الذى وضع فى النهـاية ، والذى يظهـر فـى أوامـر أخـرى ، يبـدو أنه قـد وضـع فى هذا المكان لمنع التغيير فى الأمر بإضـافة تعديل أو حذف أو أى إضافة باطلة .

(٤) الوثائق المقتبسة هى : P. Oslo .17. ; SB. 7601 أما عن الشـهادة الخطية التى تتهم المدير بإسـاءة استخدام السلطة فقد ذكرت فى ص ٤٤ .

(٥) PSI. 1100.

(٦) SEG. XVIII, 646 ; P. Oxy. 2343.

(٧) أما الوثائق المذكورة فهى على النحو التالى : P. Oxy. 2131 ; P. Yale 61.

(٨) PSI. 1320, SB. 9050 ii, f OXY. 237 vii, P. Ryl. 75 = Select Papyri 258 وعـن سـلطة الأب فى أن يبـعد ابنته عن زوجـها ويقوم بتطليقـها منه راجع ص ٨٩ ، وعن مـصـادرة أمـلاك لتـحاشى الالتزام راجع ص ٢٧٣ .

(٩) تم الاقتباس من P. Oxy. 2131 ; Wursb. A. وهذان مثالان فقط من أمثلة عديدة .

(١٠) P. Oxy. 2754.

(١١) P. Hamb. 29 = Jur. Pap. 85 ; Oxy. 3017 ; SB. 7696 (lines 35-6).

(١٢) P. Oxy. 899 and 486 = W. Chr. 361 and M. Chr. 59.

(١٣) P. Amh. 77 = W. Chr. 277.

الفصل العاشر

" الثورة والتغيير "

Discordem et Mobilem

أو " فوهات براكين فى السلام الرومانى "

اقتبسنا عنوان هذا الفصل من كتاب "التاريخ" Histories لتاكيتوس ، كما فعلنا فى فصول أخرى سابقة من الكتاب نفسه ، وهذا الكتاب يعد أحد المؤلفات الأدبية الكلاسيكية التى تعبر عن احتقار الرومان لسكان مصر كما لو كانوا شعبا أدنى درجة منهم ، وتردد هذا الرأى على مدى العصور ، وأصبح من البديهيات لكثرة تكراره . وكان الشاعر الرومانى جوفينال أعلى صوت حمل هـذا اللواء ودوى بهـذا الهجاء (كما سبق أن رأينا). أما معاصره "صاحب الصوت الذهبى" ديون من البروسى Dio of Prusa، ففى رسالته التى وجهها إلى مدينة الإسكندرية يغلف مديحه لنشاطها التجارى ، وإشادته بعظمتها الثقافية ، بستار من التشهير انتشرت خيوطه بين ثنايا الحديث مشيراً إلى عبث سكانها وطيشهم، ومنازعاتهم التى لا حد لها ، وطموحهم اللانهائى ، وإسرافهم ، وتقلب أهوائهم ، وسلاطة لسانهم ، وميلهم للفوضى ، وضوضائهم ، وعنفهم الجسمانى، وولعهم بوسائل اللهو ، وتفاهتهم ، وافتقارهم إلى الجدية ، وسخافاتهم ، ورعونتهم ، وقسوتهم ، وسوء سلوكهم . ثم أضاف قائلا : "وليس من الغريب أنكم موضع ازدراء حكامكم" . أما ديون كاسيوس فقد سار هو الآخر – فى مجلداته الضخمة التى كتبها فى التاريخ إبان القرن الثالث – على المنوال نفسه ، إذ اتهم المصريين وخصوصًا غوغاء الإسكندرية بتقلب أهوائهم ، وهياجهم ، وتخريبهم ، واعتقادهم بالخرافات ، وحماقاتهم ، وعدم احترامهم للسلطة ، هـذا بالرغم من أنه لم يقم بزيارة مصر ! وقد اعتاد كتاب العصر الحديث على الاستمرار فى تبنى تلك الأوصاف وتكرارها فى مؤلفاتهم (١) .

أما فرجيل Virgil "شاعر الدولة" فى العصر الجديد الذى أُنشئ فيه منصب المواطن الأول Principate فهو الذى حدد الإطار الكلاسيكى لرسالة روما التاريخية التى اختارتها لها الآلهة بزعامة أغسطس ، فقد قدر لروما فى عهد أغسطس أن تحكم

شعوب العالم لخير الجميع ، وأن تقوم بنشر السلام، والصفح عن المقهورين ، وقهر المتجبرين، وكانت الأداة المختارة لتحقيق هذا الهدف المقدس هو الإمبراطور نفسه بطبيعة الحال . وابتداء من الإمبراطور أغسطس وهو أحد موسسى فن الدعاية السياسية فى التاريخ ، وعن طريق العملة الإمبراطورية ، والمنشورات الإمبراطورية ، والمراسيم الإمبراطورية ، ومراسيم الولايات ، والمهرجانات السنوية واحتفالات النصر ، كان الجميع يعزفون باستمرار على نغمة أن الإمبراطور - وهذا هو الخط الرسمى للدولة كما نقول اليوم - هو الراعى الصالح للجميع ، وحامى سلام الإمبراطورية وأمنها ، لخير الجميع ورفاهيتهم ، وهو الذى يؤمِّن لهم بوجه خاص موارد الغذاء ، وهو الشيء الذى يهم الجميع . وأمكن للإمبراطور أن يهب كل هذه النعم بفضل إلهام الله وبالتحام جميع الأفراد وجميع المبادئ النفسية والسياسية الفاضلة وأهمها : الشجاعة، والرحمة ، والحرية ، والإنسانية ، والعدل ، والإخلاص فى العمل ، والرؤية الثاقبة الحكيمة لرفاهية رعاياه ، ولا شك فى أن القارئ سوف يستعيد واحدة أو أكثر من هذه الأفكار فى الوثائق التى سبق لنا اقتباسها فى الفصول السابقة (٢) .

وتقبل سكان مصر كما هو الحال فى بقية الولايات وتحملوا الخضوع للسيادة الرومانية ؛ لعجزهم عن التخلص منها . ولكن جمرات جديدة من الغضب والكراهية كانت تلتهب تحت السطح الهادئ للسلام الرومانى المزدهر ، وواصلت هذه الكراهية استمرارها وغذاها فى أغلب الولايات قسوة الضرائب ، واحتقار الحكام للمحكومين الذين نفسوا عن ذلك بكلمات الاعتراض ، وهمهمة مشاعر الإحباط . وقد لاحظ سينيكا Seneca الفيلسوف ورجل الدولة ، الذى بدأ أولى علاقاته بمصر بامتلاك مزرعة هناك، أن الولاية تتمتع بذكاء إيجابى خارق فى أسلوب سخريتها من حكامها الرومان . وكان شعب الإسكندرية ، الذى يعيش الحاكم الرومانى بينه ، قائداً فى حلبة لعبة التشهير واستخدام الألفاظ المثيرة ، ولكنهم مع ذلك كانوا يعرفون الحدود التى لا ينبغى تخطيها حتى لا يتعرضوا للعقوبات القاسية (٣) .

وبمضى الوقت أفسح التلاعب بالألفاظ الطريق أمام العمل الفعلى ، وكثيراً ما تسبب فى الاندفاع والقيام بالثورة إما لسبب جاد مثل ضغط مجاعة ، أو قد يكون سببا جزئيا مثل جرح الكبرياء . وأفضل المعلومات التى نعرفها عن تحدى الرومان

تتمثل فى ثورات اليهود، ولكن ثوراتهم كانت لها جذور نفسية ودينية مختلفة مما تجعلنا نضعها في جانب منفصل . وقد سبق مناقشتها فى الفصل الثانى . أما فى هذا الفصل فسنركز دائرة اهتمامنا على كل من الإغريق والمصريين الذين أثاروا العداء ضد الرومان . وكان لعداء كل منهم أسباب منفصلة عن الآخر ، وكذلك وسائل تعبير مختلفة فى أغلب الأحيان ، ولكنهما كانا يلتقيان معا عندما يصلان إلى مرحلة الانطلاق للثورة والتمرد .

ولنبدأ الآن بالجانب الإغريقى ، فالإسكندرية لم تخف شعورها بالعداء تجاه أوكتافيانوس ، حتى بعد انتصاره على أنطونيوس وكليوباترا الذى انتهى بانتحارهما ، وبادلها أوكتافيانوس الشعور بالامتعاض ، واستنَّ سابقة استمرت سائدة لدى خلفائه من الأباطرة لفترة تربو على مائتى عام ، وكانت تقضى برفض التماس السكندريين المتكرر الذى كانوا يهدفون منه الحصول على مجلس نيابى منتخب على غرار مجالسهم الديمقراطية فى دويلات وطنهم الأم ، ومما أهان كبرياءهم وفخرهم فى الصميم وضاعف من سخطهم على الرومان أن مدينتين بغير شك أو ربما ثلاث مدن إغريقية فى مصر سمح لها بميزة أن تحظى بحكم ذاتى محلى ، مما جعل الحقد يتضاعف فى نفوسهم جيلا بعد جيل .

وازدهرت الإسكندرية إبان الحكم الرومانى باعتبارها ملتقى للطرق التجارية بين الغرب والشرق . ولكن بالنسبة إلى المنزلة السياسية أصبحت الإسكندرية – وهى التى كانت قبلا ملكة مدن البحر المتوسط – مجرد مدينة فى ولاية رومانية . وكان هناك فى هذه المدن ، ونعنى بها عواصم الأقاليم ، غضب يغلى ويفور فى النفوس بين طبقة الإغريق من سكان المدن الذين اعتبروا أنفسهم رغم كونهم من سلالة أسلافهم الهيللينيين وحملة لواء الثقافة اليونانية مهضومى الحق ، لأنهم كانوا يعاملون من قبل الحكومة الرومانية على أنهم شرذمة مثل باقى سكان مصر من المصريين المستضعفين. حقا إنهم كانوا مميزين إلى حد ما ، لكنهم مع ذلك اعتبروا مثل سائر المصريين .

وعانى السكندريون من عامل آخر، حيث لم يعد هناك أدنى شك الآن فى أن مدينة روما احتلت المكانة الأولى فى ميدان حوض البحر المتوسط من الناحية الحضارية ، أما الإسكندرية التى سبق أن جذبت من قبل جميع الأنظار إليها فقد أصبحت مدينة

من الدرجة الثانية . وبالإضافة إلى ذلك كان هناك عامل آخر أثار حقدهم ويتمثل فى وجود اليهود الذين كانوا يقيمون بينهم ويتمتعون – لمدة مائة عام من الحكم الرومانى – بالتأييد الإمبراطورى ، الأمر الذى كان يرفضه السكندريون . وتجمعت جميع هذه الأسباب السابقة سواء أكانت حقيقة أم خيالا ، وأدت إلى خلق دائرة من الأدب السرى ، مازال لدينا منه حوالى اثنتى عشرة رسالة أو أكثر . ومنذ ظهور هذا النوع من الأدب من بين ما عثر عليه من أوراق البردى ، عرف باسم مثير للانتباه وهو : أعمال الشهداء الوثنيين The Acts of the Pagan Martyrs .

إن عمليات الاستشهاد هنا لها نفس شكل وقالب الحقيقة المزعومة ، وكل نص منه عبارة عن تسجيل لكل كلمة قالها فرد أو جماعة من السكندريين فى أثناء مثولهم أمام الإمبراطور لعرض قضية أو للدفاع عن الاتهامات الخطيرة التى ألقيت عليهم ، وكانت فى العادة تهمة الخيانة العظمى lèse - Majesté وفيها جميعا – وبلا استثناء – كان صوت الأبطال السكندريين يدوى فى أثناء دفاعهم ، ويلقى بألفاظ السباب والاستخفاف على حاكم الإمبراطورية ، أقوى شخصية فى العالم . إن التواريخ الدرامية لهذه المَرْويِّات تمتد من عهد أغسطس وحتى كومودوس Commodus وربما كاراكالا ، وهى من كلمات كاتب واحد للموضوع نفسه ، " وقليل من أباطرة القرنين الأول والثانى هم الذين نجوا من حملة التشهير ... فى هذه النصوص المهربة والممنوعة " (٤). كذلك ينبغى أن نلاحظ أنه بالرغم من أن أبطال هذا الأدب هم السكندريون ، فقد عثر على جميع أوراق البردى التى دونت عليها هذه النصوص فى مصر العليا ، مما يشير إلى مدى اتساع دائرة شهرتها وعلى استمرار هذه الأعمال بين المنتسبين إلى الثقافة الهللينية فى عواصم الأقاليم والقرى .

ويكشف تحليل محتويات أعمال الشهداء martyrdoms عن ملامح وشواهد متكررة مثل الكبرياء الوطنى ومعاداة السامية، ولكن أكثر ما تؤكده هو العداء للرومان. واستخدم التكرار فى النصوص لإقناع القارئ ، سواء أكان ذلك حقيقة أم انتحالا ، للتأكيد على جشع وظلم الحكومة الرومانية ، وعلى طغيان الأباطرة وولاة مصر وفسادهم . ومن أفضل القطع المحفوظة لدينا النص التالى (وتاريخه الروائى يرجع إلى منتصف القرن الأول) حيث يقول :

« تم استدعاء بعثة السكندريين للحضور ، ولكن الإمبراطور أجل سماع قضيتهم لليوم التالى ... وفى اليوم التالى ٦ من بشنس Pachon، استمع الإمبراطور كلوديوس قيصر لقضية إزيدوروس Isidoros مدير معهد التربية لمدينة الإسكندرية ، ضد [ملك اليهود] أجريبا Agrippa فى حدائق لوكوليوس Lucullius فى [روما] ، وكان يجلس معه عشرون عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، وستة عشر قنصلا ، وبعض سيدات البلاط من اللاتى حضرن محاكمة إزيدوروس . ابتدأ إزيدوروس قائلا : مولاى قيصر ، إننى أتوسل إليك وأجثو عند ركبتيك كى تصغى إلى معاناة شعب مدينتى .

الإمبراطور : سوف أخصص لك هذا اليوم . وأشار جميع أعضاء السناتو الحاضرين بموافقتهم ....

كلوديوس قيصر : لقد تسببت فى موت أصدقاء لى يا إزيدوروس .

إزيدوروس : لقد أطعت أوامر الإمبراطور [كاليجولا] الذى أصدر إلىَّ أوامره بذلك . إنك إذا أمرتنى الآن أن أقوم بتوجيه الاتهام إلى أى فرد فسوف أفعل ذلك .

كلوديوس قيصر : هل أنت حقيقة ابن ممثلة يا إزيدوروس ؟

إزيدوروس : إننى لست عبدا ولا ابن ممثلة ، ولكننى مدير لمعهد التربية لمدينة الإسكندرية الشهيرة ، لكنك أنت ابن غير شرعى لسالومى اليهودية .

لامبون [سكندرى آخر] قائلا لإزيدوروس : ماذا يمكننا أن نفعل غير أن نسلم لملك مجنون ؟

كلوديوس قيصر : هؤلاء الذين أمرتهم من قبل بإعدام إزيدوروس ولامبوز [سيقومون الآن بتنفيذ الحكم] ... » (فقد باقى النص) (٥) .

أما القطعة التالية التى تم اختيارها فهى للإمبراطور كومودوس Commodus، وتدور أحداثها عام ١٩٠ م :

« وبينما كانوا يقتادون أبيان Appian بعيدا، استدار، رأى هليودوروس Heliodoros فقال له : هليودوروس .. ألا تريد أن تقول شيئًا وأنا فى طريقى إلى تنفيذ الإعدام ؟

قال هليودوروس : إلى من نستطيع أن نتحدث عندما لا يوجد شخص يستمع إلينا ؟ اذهب يا بُنى لتلقى حتفك . يكفيك عظمة وافتخاراً أنك تموت من أجل شعب مدينتك الغالية . لا تأسف .... فسوف ألحق بك . ونادى الإمبراطور على أبيان . قال الإمبراطور : إننى أفترض أنك تعلم إلى من تتحدث !

أبيان : أعلم .إن أبيان يتحدث إلى طاغية .

الإمبراطور : لا بل إلى الحاكم .

أبيان : لا تقل ذلك .. إن المؤله والدك ماركوس [أوريليوس] ، كان جديرا بأن يكون إمبراطورا . انظر أنت ! فلقد كان فى المقام الأول فيلسوفا ، ثانيا : لم يكن مولعا بحب المال ، ثالثا : كان محبا لخير الجميع . أما أنت فعلى عكسه تماما فى هذه الخصال .. طاغية ، غير أمين ، فظ ، خشن الطباع .

وأمر قيصر باقتياده لتنفيذ حكم الإعدام فيه . وعندما كان فى طريقه قال أبيان : أرجو أن تمنحنى هذا المعروف سيدى قيصر .

الإمبراطور : ما هو ؟

أبيان : أصدر أوامرك بتنفيذ حكم الإعدام فىَّ وأنا أرتدى شارات نبالتى .

الإمبراطور : يمنح ذلك .

أخذ أبيان وشاحه ووضعه فوق رأسه ، وانتعل الحذاء الأبيض فى قدميه وصاح فى وسط مدينة روما : احضروا بسرعة أيها الرومان ، إنكم سوف تشاهدون للمرة الوحيدة فى حياتكم تنفيذ حكم الإعدام فى مدير معهد التربية وسفير السكندريين » (٦).

ويمكننا أن نحس من تلك النماذج التى قدمناها من أدب الشهداء أنه كان أدبا سليطا أكثر منه أدبا هداما . فهو لم يتضمن دعوة للقيام بعمل ما ، كما أنه لم ينخرط - مثل كتابات اليهود والمسيحيين والمصريين السرية - فى طلب الثأر وتوقيع العقوبة

القاسية على الحاكم الظالم . ويمكننا أن نتخيل بسهولة المثقفين السكندريين وأثرياءهم ومواطنى عواصم الأقاليم وهم يضمدون جراح طبقتهم السياسية بتصفح هذه الكتب فى خلوة فى مكتباتهم الخاصة ، أو قراءتها بصوت مرتفع فى أثناء جلسات الأصدقاء . فعلى الرغم من أنهم كانوا يبعثون فى بعض الأحيان ببعض الزعماء الوطنيين فى سفارات إلى روما فقد كانوا يعبرون عن إحباطهم بالكلمات أكثر من تعبيرهم بالأفعال. ولكن غوغاء الإسكندرية لم يكونوا كذلك ، إذ إنهم اكتسبوا سمعة بأنهم متمردون ، متقلبون ، سريعو الغضب .

ففى خلال القرن الأول من الحكم الرومانى ركز السكندريون عداءهم ضد مجتمع اليهود القائم بينهم نتيجة للامتيازات التى سمح الرومان لليهود بالتمتع بها بينما حرموا منها السكندريين وكانت عاملاً مثيراً لهم . وحدثت بعض الصدامات الطفيفة بين الجماعتين مرارا ومن حين إلى آخر ، وتطورت هذه الصدامات إلى هياج قاتل ، مثل تلك التى نلاحظها بشكل واضح والتى وقعت أحداثها فى عام ٣٨م ، ثم تلك التى وقعت بعد عشرين عاما وبعد ثلاثين عاما . ولكن بعد ثورة اليهود عام ١١٥/١١٧م قل عددهم ، وتقلصت امتيازاتهم وأصبحوا عنصرا مهملاً ، عندئذ بدأ السكندريون يوجهون كامل عدائهم ضد الحكومة الرومانية مباشرة ، وبوضوح سافر فى المركز الرئيسى لحكمهم فى قلب المدينة . فكثيراً ما نظموا المظاهرات العامة فى الشوارع ، وفى المسرح ضد حاكم الولاية ، بل حتى ضد زيارة الإمبراطور . كما أن ظهور ثورة فى أى مكان آخر فى الولاية كان سرعان ما يجد لديهم استجابة سريعة وعونا منهم . وكذلك كان المطالبون بالعرش من الذين ثاروا ضد الأباطرة منذ عهد دوميتيوس دوميتيانوس Domitius Domitianus عام ١٧٥م ، وحتى أواخر القرن الثالث كانوا فى العادة يضعون فى اعتبارهم إمكانية حصولهم على مساعدة السكندريين . ولهذا التحول أكثر من معنى سياسى : حيث كان بوسعهم منع سفن القمح من الإبحار إلى روما، مما يهدد العاصمة فى تموين طعامها . كما أن العقوبات التى تلى قمع المقاومة كانت تزيد مشاعر كراهية السكندريين للحكام الرومان . أما الانتقام الدموى الذى صبه كاراكالا عام ٢١٥م عليهم فيقص علينا قصته اثنان من المؤرخين المعاصرين ، وكلاهما كان معادياً لكاراكالا وهما : ديوكاسيوس وهيروديان Herodian وقد أخبرنا

كل منهما بعيداً عن الآخر وأكدا على تطرف كاراكالا . وقد جاهر السكندريون باستهزائهم بالإمبراطور فى ادعاءاته بخلود شهرته، كما سخروا منه علنا عندما أصدر بيانا رسميا أعلن فيه أن قتله لأخيه غير الشقيق جيتا Geta كان من قبيل الدفاع عن النفس. وكان كاراكالا يستعد فى ذلك الوقت لإعلان الحرب على فارس ، لذا يبدو أنه كان يضع فى اعتباره أن حدوث أى هياج فى الإسكندرية سيهدد خطوط تموين جيشه الغازى ، وكان رد فعله على الموقف سريا وسريعًا وقاسيًا ، فعند اقترابه من الإسكندرية خرج إليه الزعماء الوطنيون كما هى العادة لتحيته ، فاستقبلهم بالترحيب وبذراعين مفتوحتين ، ثم أمر بقتلهم جميعا فى المكان نفسه ، وأطلق العنان لقواته كى تعيث فساداً فى المدينة ، مع السماح لهم بالسلب والذبح كما يشاءون . وبعد عدة أيام أصدر أوامره بوقف المذبحة ، وفى خطابه الذى ألقاه أمام السناتو(*) فى روما ذكر أنه لم يكن يعرف كم بلغ عدد الذين قتلوا من السكندريين ، لأنهم جميعا يستحقون الموت ، ثم أصدر بعد ذلك عدة أوامر ، حفظ لنا واحد منها كامل فى النص التالى :

« يتم طرد جميع المصريين الذين يقيمون فى الإسكندرية ، بكل الوسائل ، خصوصا القرويين الذين هربوا إليها من أماكن أخرى وأمكن التعرف عليهم . ويستثنى من ذلك باعة الخنازير ، وعمال القوارب النهرية ، والقائمون على إحضار القش لتدفئة الحمامات ، وفيما عدا هؤلاء فسيتم طرد الجميع ، حيث إنهم يعكرون صفو المدينة بأعدادهم الكبيرة وبطالتهم . وقد بلغنى أن المصريين يقومون خلال الاحتفال بعيد سيرابيس ، وفى بعض الأعياد الأخرى – وبالمثل فى أيام أخرى – بجلب الثيران وبعض الحيوانات الأخرى للأضاحى الدينية ، لذلك فلا يمنعون من الحضور لهذا الغرض ، أما الذين يتحتم منعهم فهم الذين فروا من أنحاء الريف الذى ينتمون إليه هربا من العمل الزراعى . وهؤلاء الأفراد الذين يحضرون إلى الإسكندرية بهدف رؤية المدينة العظيمة ، أو الذين يأتون إلى هنا سعيا وراء متعة ثقافية ، أو لأداء بعض الأعمال العارضة فلن يتم سريان قرار المنع عليهم .

(*) عن مجلس السناتو الرومانى راجع : آمال الروبى ، نظم الحكم ، ص ٧٥ – ٨٣ . (المترجمة)

وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإنه يمكن بسهولة تمييز نساجى الكتان ذوى الأصل المصرى من حديثهم ، حيث إنهم يحاكون الآخرين بمظهرهم وملابسهم ، بالإضافة إلى أن طريقة معيشتهم وعاداتهم تختلف عن أهل المدينة مما يكشف عن أصولهم المصرية» (٧) .

لقد كنا حتى الآن نتحسس مشاعر الإغريق - إغريق مصر - العدائية وأفعالهم ضد الرومان ، ويذكرنا أمر كاراكالا بالطرد السابق ذكره أن نقوم الآن بإلقاء نظرة للتعرف على مشاعر الجماهير المطحونة من الشعب المصرى تجاه الحكام الرومان .

من هم هؤلاء " المخالفون للقانون " الذين أعلن كاراكالا أنهم يزعجون أمن الإسكندرية ؟ لا يوجد شك لدينا فى أنهم يضمون عددا من الذين جرفهم التيار - ولا حيلة لهم ، والكثير منهم أو ربما معظمهم - من أهل البلاد الذين هربوا من الريف إلى المدينة ، ووصف كاراكالا هروبهم بأنه جاء نتيجة لتهربهم من العمل الزراعى وأغمض عينيه عن الحقيقة . والمعروف أنه على مر العصور فإن أغلب الأفراد وخصوصا من الشعوب الزراعية كانوا قانعين بوجه عام بالبقاء فى موطنهم الأصلى ، حيث يشعرون بوجودهم فى مكان ينتمون إليه ما دام يمكنهم تحمل ظروف الحياة فيه ، وأثبت الفلاحون المصريون طوال قرون ، بل آلاف السنين ، مدى ارتباطهم بالأرض ، بالرغم من أنها كانت تمدهم فى أغلب الأحيان بالقليل ، إلا أنه كان بالنسبة إليهم أكثر من المطلوب لحد البقاء . أما الفرار وهجر المنزل - حتى ولو كان شديد التواضع - بلا أمل فى العودة ، فهو قرار اليائس ، وهو الحل الأخير الذى لجأ إليه الناس ، كما سبق أن شاهدنا فى الفصل الثامن ، ولم يكن ذلك يحدث إلا عندما يفقدون آخر أمل لهم فى مواجهة مطالب الإدارة المالية التى كانت لا ترحم ، الممثلة فى الضرائب والخدمات الإلزامية .

اتخذ بعض الفارين طريقهم إلى الإسكندرية ، وإلى بعض المراكز السكنية الكبيرة الأخرى ، أملا منهم فى الاختفاء دون عقاب والانصهار فى بوتقتها . ووجد آخرون فى الصحراء ملاذا لهم حيث كونوا أو انضموا إلى عصابات قطع الطرق كما سبق أن رأينا فى الفصل السابع . ولذلك كان يتم دائما تأمين القوافل التجارية التى تعبر

الصحراء بحرس مسلح من البوليس والجنود ضد هجمات الخارجين على القانون . وقد أصدر الأباطرة والحكام أوامرهم تباعًا بخصوص هذا الموضوع ، بالوعيد مرة ، وبالتهديد مرة ثانية ، وبالترويض مرة ثالثة ، وكانت تلك التصريحات وخصوصًا تلك التى يتم فيها إصدار العفو والتنازل عن الضرائب بمناسبة قرب إجراء التعداد السكانى تأتى بنتيجة مؤقتة من حيث انخفاض عدد قطاع الطرق المتنقلين من مكان إلى آخر . وعلى سبيل المثال بدأ ملتزمو الأراضى من فلاحى قرية سكنوبايو نيسوس الذين سبق أن قرأنا التماسهم فى ص ٢٧١ بدأوا هذا الالتماس بالآتى : -

« كان من النعم الكثيرة التى منحها حكامنا وأباطرتنا على الدوام سيفروس [وكاراكالا] عندما حلوا ضيوفا على أرض بلدهم مصر ، هو رغبتهم فى أن يعود كل الأفراد الذين يقيمون فى مناطق أخرى إلى ديارهم بالرغم مما قاموا به من أعمال عنف أو خروج على القوانين ، ولذلك عدنا طبقًا لأوامرهم السامية » (٨) .

بالإضافة إلى الأسباب التى سبق توضيحها والتى أدت إلى فرار الرجال ظلت أعمال اللصوصية متوطنة فى مصر خلال العصر الرومانى ، ومتمكنة لدرجة لا يمكن استئصالها فى فترات الرخاء ، أما فى أوقات الشدة فكانت تتفاقم لتصبح أقرب ما يكون إلى الكارثة . فبعد عدة سنوات من إصدار الأمر الإمبراطورى الذى استفاد منه مزارعو قرية سكنوبايو نيسوس وعادوا بمقتضاه إلى ديارهم ، أرسل والى مصر الخطاب التالى إلى مدير إقليم هيبتانوميا **Heptanomia** وإقليم الفيوم يقول فيه :

« سبق أن أصدرت أمرى فى الخطاب السابق بشن حملة مركزة للبحث عن قطاع الطرق ، وسبق تحذيرك من إهمال هذا الموضوع . ولقد قررت الآن أن أصدر منشورا لتأكيد اهتمامى بالموضوع حتى يعلم جميع الموجودين فى مصر أننى لا أعتبر هذا العمل من الدرجة الثانية ، كما أننى سأقدم مكافآت لهؤلاء المتعاونين معكم ، وأتوعد بالعقاب أى فرد يخاطر بعدم طاعة هذا الأمر . وعليه فيجب أن يتم إعلان منشورى على الملأ فى عواصم الأقاليم ، وفى أكثر المناطق وضوحا فى أقاليمكم . وسوف تعرضون أنفسكم للعقاب والمخاطرة [بالطرد] من مناصبكم إذا ارتكب أى مجرم عملا إجراميا وترك من دون أن يكتشف أمره . ولكم تحياتى » .

لكن المشكلة – كما رأينا – كانت مشكلة مزمنة كما أن القيام "بالبحث والتخريب" لم يكن شيئًا جديدا . وعندما أعلن الوالى فى عام ١٥٤ م إعطاء مهلة الشهور الثلاثة التى كان يمكن فيها للفارِّ أن يعود إلى موطنه دون عقاب ، قام بتهديد المعارض له والمتردد فى تنفيذ أوامره على النحو التالى :

« ينبغى عليهم أن يعرفوا أننى أصدرت أوامرى لأصحاب المعالى مديرى العموم ، والمديرين والجنود بتأمين وسلامة جميع أنحاء البلاد ، وأن يقوموا بإخماد الغارات طبقًا لخطة وموعد محكم حتى يتمكنوا من شن هجوم مباغت أثناء ارتكاب اللصوص لجرمهم . وأن يتعاملوا مع المتورطين من الذين يتم القبض عليهم بطريقة لا تختلف عن أولئك الذين يقومون بأعمال اللصوصية فعلا » (٩) .

ولا ينبغى علينا بأى حال أن نترك أسلوب الوالى البليغ أو حالة الطوارئ يفسدان إحساسنا بالمنظر العام ، فعلى الرغم من أن الحكومة لم يقدر لها أبدا النجاح الكامل فى استئصال شأفة اللصوصية ، فإن عدد قطاع الطرق كان قليلا بالمقارنة بالعدد الكلى لسكان الولاية حتى فى أسوأ الظروف . فلكى يختار الفرد أن يكون خارجا على القانون ، فإن ذلك يتطلب منه جرأة أكبر لا تتيسر للفرد العادى ، لأن ذلك يعنى الانفصال الدائم عن المنزل وعن الذين يحبهم ، كما أن إلقاء القبض عليه يعنى الموت المحقق . وقد ذكر فيلوستراتوس Philostratos، وهو أحد كتاب القرن الثالث قصة تبدو كما لو كانت عابرة وتتلخص في أن عدة أشخاص اتهموا بالقيام بأعمال اللصوصية ، وتم الطواف بهم فى موكب سار فى شوارع الإسكندرية حتى وصل بهم إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام فيهم بضرب العنق (*) .

ومن الواضح أن القاعدة الشعبية العريضة من السكان كانت ببساطة لا تزال باقية فى مكانها تمارس أعمالها ، ولكن ما الطريقة التى كانت تعبر بها عن

(*) كان القانون الإنجليزى يعاقب بالإعدام شنقا وعلنا من يقوم بالنشل ومداهمة المنازل وعرقلة رجال الأمن عن تأدية واجباتهم حتى القرن الثانى عشر . ثم عدلت الحكومة عن هذه العقوبة تحت ضغط الرأى العام وتطور علوم الجريمة ، ولجأت إلى وسائل أخرى منها نفى المجرمين ، وبعد اكتشاف العالم الجديد ، اعتادت الحكومة البريطانية إرسال أفواج المخالفين للقانون إلى هناك تخلصا منهم . (المترجمة)

سخطها ؟ لقد طالت معاناتها ، ولكنها كانت هادئة فى أغلب الوقت ، فبالرغم من صبرها فقد كان يمكن أن تتحرك نتيجة لنقص فى مصادر الغذاء أو بسبب الضرائب والالتزامات الإجبارية التى لا نهاية لها . واشتعلت بالفعل بعض الثوارت التى عبرت عن اعتراضهم، ولكن السلطات المحلية تمكنت من إخمادها عن طريق القوات العسكرية التى انتشرت معسكراتها فى الولاية . كما تطورت بعض مظاهر الاحتجاج الأخرى بسرعة لتصبح أكثر أو أقل من ثورات عامة وسعدت عصابات اللصوص من قطاع الطرق بالانضمام إليها بطبيعة الحال . ومن بين تلك الاضطرابات الكبيرة ذلك التمرد الذى انفجر عام ١٥٢ م ذلك الذى استمر قرابة العام ، ولم يسجل لنا عنه إلا تفاصيل قليلة ، منها أنه هدد تموين روما بالغلال ، الأمر الذى نتج عنه أن دفع الوالى حياته ثمنًا له ، ويبدو أنها احتاجت تدخل الإمبراطور شخصيا قبل أن يتم القضاء عليها ، أما الثورة التى اندلعت عام ١٧٢/١٧٣م فكانت أكثر خطورة ، حيث تمركزت فى أحراش مستنقعات دلتا النيل ، وهنا أيضا صمتت المصادر القديمة عن ذكر السبب أو الأسباب التى أدت إلى اندلاعها ، ولكن حقيقة كون قائدها كان كاهنا مصريا يجعلنا نفترض أنها كانت ثورة قومية . ومما لا شك فيه أن وباء الطاعون الذى اكتسح الإمبراطورية الرومانية فى ذلك الوقت أخرْ فى إمكانية تمكن السلطة من إخضاعها ، كما كشف عن عجزها وقلة حيلتها فى تقديم المساعدة . ويبدو أن هناك عاملا آخر شجع على القيام بهذه الثورة تمثل فى سحب إحدى الفرقتين الرومانيتين اللتين كانتا تتمركزان فى مصر منها حديثا لكى تشارك فى الحرب ضد القبائل الجرمانية التى كانت تضغط على حدود الإمبراطورية من ناحية جبهة الدانوب . وتمكن الفلاحون المصريون الذين سلّحوا عشوائيا من قهر بعض وحدات القوات الرومانية بالفعل ، وأوشكت هذه القوات أن تقوم بالاستيلاء على الإسكندرية . لذلك تم استدعاء حاكم سوريا من الولاية المجاورة ، وأسندت إليه قيادة أقوى القوات التى كانت متمركزة فى النصف الشرقى من الإمبراطورية لكى يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى مصر ، وبالرغم من أنه لم يقم إلا بشن هجمات قليلة فى مواجهة قوات الثوار ، فقد نجح فى زرع بذور الشقاق والفرقة بين صفوفهم (١٠).

عبر المصريون كالإغريق عن كراهيتهم للرومان بالقلم كما عبروا عنه بالسيف . فمن بين الكتابات التى كشفت عنها أوراق البردى ، هناك كتابات كتبت باليونانية لتصل إلى أكبر عدد من المستمعين ، إلا أنه يتضح أنها ذات أصل مصرى ، ويمكن مقارنتها بأدب الشهداء الإغريق . وصفحات هذه الكتابات المصرية لها طبيعة الحلم (الرؤيا) الذى يتنبأ بالتغيير ، عندما يسقط سادتهم عديمو الرحمة والمبادئ ، وبعدها لن يصبح المصريون مقهورين أو مظلومين ، وسوف ينعمون بعد ذلك بعصر ذهبى . وأطول الأجزاء التى حفظت من هذا العمل تسمى قصة (أو نبوءة) صانع الفخار ، التى استُمد جزء منها من الأسطورة المصرية ، التى قام فيها الإله خنوم Khnum الخالق (الكبش) ، بتشكيل الجنس البشرى مستعينا بعجلته الفخارية . ونما الحلم من الناحية الأدبية بالتكرار والإضافات الخارجية إليه ، بحيث أصبح لدى الحلم الحرية فى أن يدمج داخله خيالا وأفكاراً وصيغا من ثقافات أخرى ، بحيث أصبحت تكون جميعها قطعا وأجزاء متجانسة لتوصيل رسالتها العاطفية وغايتها فى الخلاص . وتشكلت نبوءة الفخرانى من هذا كله ، ولكنها ظلت فى أغلبها عملا مصريا فرعونيا عتيقًا ، كما يتضح من ترجمتها اليونانية الباقية لدينا والتى ظلت تنسخ ويعاد نسخها مرات ومرات حتى أواخر القرن الثالث الميلادى على الأقل . إنها كانت تضم بعض عناصر من الأسطورة والتاريخ اليونانى ، وربما أيضا بعض عناصر أخرى فارسية وعبرانية ، ونسجت هذه العناصر جميعًا فى نسيج القصة دون أن يقلل ذلك أو ينتقص من شخصيتها المصرية لرؤية منذ آلاف السنين عادت مرة أخرى وتنبأت بسقوط حكام الحاضر الحتمى . والأجزاء الثلاثة الباقية التالية ، والتى تم العثور عليها فى البهنسا ، هى أطولها وأفضلها حفظا حيث يقول الفخرانى :

« أما بالنسبة إلى الكفرة والمارقين ، فإن ملكا من سوريا سوف يحكمهم ، وسوف يزول الحظ السعيد من حياة هؤلاء القوم ، ويستعبد نسلهم ، وتضطرب أرضهم اضطرابا كبيرا ، وتصبح أقل فى مساحتها مما كانت عليه من قبل ... وسيلاقى كل فرد المصير نفسه من أجل مصلحة أحد .... وسوف يحصر الموت

الكثيـرين [أثناء الاضطراب] فى الأماكن المرتفعة ، وستهجًر مدينة المتمنطقين بالأحزمة من سكانها ، وسيتم تحرير العبيد ، ويموت سادتهم وستهلك بناتهم العذارى ، وسيخصى الآباء أزواج بناتهم ، ويمارسون زنا المحارم مع أمهاتهم ، ويرغمون على التضحية بالذكور من أبنائهم وبأنفسهم ... وسيهجر الإله الحارس مدينتهم تاركا إياها مقفرة وسوف يرحل إلى ممفيس واهبة الأرباب ، وسيكون فى ذلك نهاية كربنا ، وعندما ... تصبح مدينة الذين يرتدون الأحزمة مهجورة مثل موقدى بسبب الأفعال غير القانونية التى ارتكبوها .... ستعود [العدالة] مرة أخرى إلى مصر ، وسيكون هناك مكان للصيادين فى المدينة التى تقع على البحر ليقوموا بتجفيف الأسماك التى اصطادوها ، لأن كنفيس Knephis الرب الحارس سيتوجه إلى منف ، وسيقول عابرو السبيل "إن هذه هى المدينة التى ترعى الجميع ، حيث يعيش فيها كل أجناس البشر"، عندئذ سوف تنمو مصر ، عندما ... وموزع الخير والهبات يأتى من لون الشمس ويقيم هناك على يد الربة [إيزيس] المعظمة . عندئذ سيصلى كل من ظل على قيد الحياة ، وسوف يبعث الموتى ليشاركوا فى الهبات بعد أن زال كربنا » (١١) .

لم يسمع إدوارد جيبون Edward Gibbon إطلاقا عن نبوءة الفخرانى ، لقد توفى قبل أن تُعرف هذه الشذرات من الصفحات المصرية بتسعة وتسعين عاما ، وبالإضافة إلى ذلك فإن جيبون ركز أنظاره على قوى الحكم فى الإمبراطورية ، ودخلت مصر دائرة رؤيته عندما فقدها الرومان واستولى عليها العرب ، وقبل أن يلقى نظرة على عمله الأساسى عن سقوط روما ، الذى صور فيه بطريقة مسرحية عكس ما تقدم من عوامل الانحلال التى أدت إلى سقوطها ، فإن مؤلفه يعتبر أنشودة للتغنى بالإمبراطورية عندما كانت فى أوج عظمتها حيث يقول :

« إذا طلبت من أى فرد أن يحدد أفضل عصر فى تاريخ العالم عاش فيه الجنس البشرى فى سعادة وازدهار ، فسوف يجيب دون تردد بأنها تلك الحقبة التى أعقبت موت دومتيان Domitian واستمرت حتى تولى الإمبراطور كومودوس Commodus العرش ، فقد حكُمت الإمبراطورية على امتدادها الشامل عن طريق الحكم الفردى

المطلق الذى ظُلِّل بالفضيلة والحكمة . وقام الأباطرة الأربعة المتعاقبون ، الذين كانت خصالهم وسلطاتهم تدعو إلى الاحترام والتقدير بكبح جماح الجيوش العسكرية ، ولكن بيد من حديد . كما حافظ كل من نيرفا وتراجان وهادريان والأباطرة الأنطونيين على الجهاز الإدارى المدنى بدقة ، وكانوا سعداء بانتشار الحرية حيث كانوا يعتبرون أنفسهم بمثابة حماة القانون والمسئولين عنه . ولاشك فى أن جهود أولئك الملوك كللت بالنجاح الباهر الذى لاقوه ، وأنهم كانوا يشعرون بالانتشاء لمشاهدة السعادة العامة التى كانوا هم مبعثها » (١٢) .

وبعد .. لقد كانت مصر وبالتحديد خلال سنوات الازدهار فى عهد هؤلاء " الأباطرة الصالحين " تعانى من اضطرابات حادة : ثورات اليهود فى عهد تراجان وهادريان ، وثورات المصريين فى عهد أنطونينوس Antoninus الذى لقب بالورِع ، وأثناء حكم الفيلسوف ماركوس أوريليوس . ومن حقنا أن نتساءل كم فردا من سكان مصر كانوا يعتبرون أن تلك الكلمات التى وصف بها جيبون تمثل العالم الذى كانوا يعيشون فيه ؟

الهوامش

(١) عن تاكيتوس راجع : Tacitus, vii and esp. 185; For Juvenal, pp. 84 and 90 ; for Dio Chrysostom, Oration 32, sect. 31 and passim. وهناك مثال لكاتب حديث ظهر فى الفصل الرابع حاشية رقم ١٤ .

(٢) راجع إشارة الشاعر فرجيل فى الإنيادة Book 6 verses 851-3. ولقد تمت دراسة منصب الإمبراطور وفضائله وأفضاله فى كثير من الدراسات ، وعن أحدث دراسة عن هذا الموضوع راجع : - A. Wallace - Hadrill, Historia, 30 (1981), pp. 298-323

(٣) وردت إشارة سينيكا Seneca فى Consolation Addressed, to Helvia, ch. 19.

(٤) C.H. Roberts, Journal of Roman Studies, 39 (1949), 79.

(٥) W. Chr. 14 = Musurillo (see note 6), Text IV A.

(٦) P. Yale inv. 1536 (published in Trans Amer Philol. Assn. 67 (1936), P. Oxy. 33 ; Musarillo, The Acts of the pagan Martyrs, Oxford, 1954 and Acta Alecandrinorum, Leipzig, 1961

(٧) P. Giss. 40 ii = Select papyri, 215.

(٨) SB. 4284.

(٩) P. Oxy. 1404 = Select Papyri, 244 and BGU. 372 = W. Chr. 19

(١٠) Philostratos, Life of Apollonios of Tyana Book 5, ch. 24.

(١١) لقد كانت نبوءة " الفخرانى " مثل الأدب القبطى فى العصور المتأخرة دليلا واضحا - كما قال موميليانو A. Momigliano فى عبارته الحصيفة - على " حيوية جذور هذه الحضارة العميقة " . (Alien Wisdom, p. 4

(١٢) The decline and fall of the Roman Empire. ch. 3.

الملاحق

أسعار البضائع والخدمات

إن أفضل طريقة لفهم المبالغ النقدية التى تذكر فى الوثيقة تتم عن طريق مقارنتها بأسعار السلع الأساسية ، مثلما يحدث اليوم عند القيام بعمل قائمة بالأسعار للمستهلك . وقد ذكرنا فى القائمة التالية الأسعار التى نعرفها ، أما أعلى الأسعار فهى تعكس دون شك فى بعض الظروف الموسمية عامل الذروة ، وعوامل أخرى مشابهة ، كذلك يعكس عدد من أرقام القرن الثالث التضخم المالى آنذاك . وسوف نقوم بذكر الأسعار بوحدة الدراخمة :

	القرن الأول	القرن الثانى	القرن الثالث
أردب القمح	٣ – ١١	٥ ١/٢ – ٢٠	٨ – ٢٠
المتوسط	(٧)	(٨)	(١٥)
أردب الشعير	٣ – ٤	٤ ١/٣ – ١١	٥ – ٢٠
المتوسط	(٣ ١/٢)	(١٥)	(١٤)
جرة النبيذ	١/٢ – ٧	١ ١/٢ – ٢٤	٩ – ٥٢
المتوسط	(٥)	(١١)	(١٢)
أجرة العمال اليومية خلال موسم الحصاد*	١/٣ – ١/٢	٥/٦ – ٢	٢ – ٢ ١/٢
المتوسط	(١/٣)	(١ ١/٢)	(٢ ١/٦)
أعمال زراعية أخرى	١/٣ – ١ ١/٢	١/٣ – ٢	١/٣ – ٦

(*) ليس من بينها : (أ) الإمداد بالطعام خصوصاً لعامل الزراعة ، (ب) الصبى الذى كان يحصل على أجر منخفض . وعن أجور عمال الزراعة راجع : آمال الروبى ، مصر فى عصر الرومان ، ص ١٧٢وما يليها . (المترجمة)

المتوسط	(٢/٣)	(٥/٦)	(٢)
صناعة منزلية	١/٢ - ١ ١/٣	١/٢ - ١ ٢/٣	٩ ٢/٣
المتوسط	(٢/٣)	(١)	(٤)
ملاحظ العمال ، المدير ، إلخ	١	١ - ٣	٢
مرتب جندى الفرقة فى اليوم	١/٢ ٢- ١/٣ ٣	١/٦ ٤- ١/٥ ٥	١/٣ ٨
	القرن الأول	**القرن الثانى**	**القرن الثالث**
ثمن المنزل	١٨٠ ١٥٠٠	١٢٠ ٦٤٠٠	١٢٥ ٢٥٠٠٠
المتوسط	(٦٠٠)	(٦٥٠)	(١٤٠٠)
سعر فدان الأرض الزراعية بالأوروا	١٢ ٤٩٥	٢٠ ٦٣٦	٢٠ ١٢٠٠
المتوسط	(١/٢ ٩٧١)	(١٦٠)	(٢/٣ ٢٦٦)
ثمن العبد (الذكر)	لا توجد بيانات	٢٠٠ ٢٨٠٠	١٦٠٠ ١٢٠٠٠
المتوسط		(١٢٠٠)	(١٩٦٠)
ثمن الأمة	٦٠٠ ٢٠٠٠	٧٠٠ ١٥٠٠	٢٢٠٠ ٤٨٠٠
المتوسط	(٩٥٠)	(١٢٠٠)	(٣٠٠٠)
ثمن العبد (الطفل)	٦٤٠	٣٠٠ ٢٦٠٠	١٦٠٠ ٥٠٠٠
المتوسط		٧٠٠	٢,٦٠٠

الكشــاف

Aroura الأرورا: اصطلاح إغريقي الأصل ويعني حرث الأرض. واستخدم فى العصرين اليونانى والرومانى وحدةً لقياس الأرض ، وهى تساوى ٢٩٨٢٥ قدماً مربعاً، أو ٦٨ من الفدان الإنجليزى أو ٢٧٥ من الهكتار.

Arisnoite nome : إقليم أرسينوى، راجع الفيوم **Fayyum** .

Artaba أردب : مكيال للحبوب، استخدم لكيل القمح والحاصلات الجافة الأخرى . كانت هناك عدة مكاييل للأردب تبدأ من ٢٤ إلى ٤٢ خوينيكس **choinikes** . أما وحدة المكيال الذى شاع استخدامه فى كيل مستحقات الضرائب العينية فقد بلغ ١,٥ بوشل **Bushel** (*) .

وعن أحدث دراسة عن نظام المكاييل المعقد انظر : **Zeitschrift für Papyrologie and Epigraphik, 42 (1981) . 101.**

Aurelius (أوريليوس) : ومؤنثها أوريليدس **Marcus Aurelius** (١٦١ - ١٨٠ م) . وتم اختيار الاسم دليلا على الخلافة الشرعية لتولى العرش ، واستخدم اسما شخصيا لعدد من الأباطرة الذين خلفوه فى الحكم ومن بينهم كاراكالا . وورثت جميع الولايات الرومانية التى حصلت على الجنسية الرومانية الاسم بمقتضى منحة كاراكالا عام ٢١٢ م .

choinix خوينكس ، الجمع خوينيكس **choinikes** : مكيال لوزن الحبوب وهو يساوى حوالى لتر .

chous خوؤس ، الجمع **choues** خوئيس: مكيال للسوائل يزن حوالى ١ ½ لتر .

(*) البوشل ، مكيال إنجليزى للحبوب يساوى ٨ جالونات . (المترجمة)

dekaprotos ديكابروتوس : لقب محصل ضرائب الغلال في المركز Toparchy (انظر أدناه) خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي .

Demotic (جمع) ؛ (أي شعبي) : هو الاصطلاح الحديث للكتابة العامية التي كتبت بها اللغة المصرية منذ القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي . ثم تبنى المصريون بعد ذلك حروف الكتابة اليونانية وأضافوا إليها بعض الحروف غير اليونانية لاستخدامها لسد احتياجات لغتهم الوطنية . وعرفت اللغة المصرية على هذا النحو باسم القبطية .

drachma دراخمة : (١) مثقال يساوي ٣,٥ جرام ، (٢) وحدة التعامل الأساسية في العملة اليونانية التي ظلت تستخدم في شرقي البحر المتوسط خلال العصر الروماني ، وهي في أصلها عملة فضية ، وأخذت قيمة الدراخمة تنخفض انخفاضا سريعا أو بمعنى آخر تلاعب بها الأباطرة الرومان الذين كانوا يبحثون عن تحقيق مصالحهم المالية . وتمت مساواة الدينار الروماني denarius بالعملة النقدية من فئة الدراخمات الأربع tetradrachm الفضية .

elder الشيوخ : وهم مجموعة من القرويين الذي كانوا يشغلون مناصبهم عن طريق الالتزام ، وهو يعني الرؤساء الذين تقع عليهم مسئولية بعض أعمال البوليس وفرض الضرائب . وسريعا ما فقد اللقب مفهوم السن وأصبح يتم فيه تعيين رجال في سن العشرين .

epikrisis الإحصاء : وهو عملية كانت تتم لتحديد حصول الفرد على وضع مميز عسكريا كان أو مدنيا .

epistrategos المدير العام : وهو روماني من طبقة الفرسان أسند إليه تولي أحد المناصب الثلاثة الإدارية لإدارة عدد من الأقاليم nomes في مصر . وتسمى وحدته الإدارية باسم إبستراتيجيا epistrategia (وجمعها Epistrategiai) ، وهي من الشمال إلى الجنوب على النحو التالي : الدلتا ، وهيبتانوميا Heptanomia والفيوم Arsinoite ، وطيبة .

Fayyum الفيوم : الاسم الحالى للمنطقة الجغرافية التى يغذيها نهر النيل جنوب شرق القاهرة ، وهذه المنطقة كانت تشمل إقليم الفيوم فى العصرين البطلمى والرومانى .

Heptanomia هيبتانوميا : (منطقة الأقاليم السبعة) ؛ انظر الفيوم .

keramion : كيراميون، جرة ، هو مكيال النبيذ ، والزيت والسوائل الأخرى ، وسعة أحد أنواعه ستة خوئيس Choes ، وآخر منه ثمانية (= ١٢,٩ لتر) . وسمى هذا المكيال أيضاً باسم المكيال المترى .

kotyle كوتيلى : مكيال للسوائل يساوى ثمن جالون (أو ٠,٢٥ لتر) .

liturgy ليتورجيا : هى ترجمة للحروف اليونانية Leiturgia إلى اللغة الإنجليزية ، وهى اصطلاح تضمن جميع الأعمال العامة الإلزامية والمناصب التى فرضت على الذكور المصريين – حتى أكثر الأفراد فقراً – للقيام بشغل المناصب بالتعاقب .

medimnos : مكيال للحبوب سعته ٢ أردب . انظر كلمة أردب Artaba .

metretes : راجع كيراميون .

metron : (مكيال) يبدو أنه كان اسما آخر لمكيال السوائل الذى يسع ١,٥ لتر .

metropolis : عاصمة الإقليم ، ولا يعنى الاصطلاح كما هو بالنسبة إلينا الآن مركزا عالميا، ولكنه كان أقرب ما يكون إلى حاضرة الإقليم .

mina : وزن ، (١) يبدو أنه كان مثقال ٦٠ دراخمة ، أقل من ستة كيلو جرامات ، (٢) وحدة عملة تساوى ١٠٠ دراخمة .

nome : هى الترجمة الإنجليزية لحروف الكلمة الإغريقية nomos والجمع nomoi ومعناها إقليم أو وحدة إدارية فى مصر . وكان يوجد مدير Strategos على رأس كل إقليم من أقاليم مصر الثلاثين .

obol أوبل : وهى تساوى فى الأصل $\frac{1}{6}$ من قطعة الدراخمة . وقد تغيرت قيمة هذه العملة نتيجة لسياسة الأباطرة المالية .

prefect : (١) الوالى praefectus Aegypti ، حاكم مصر ، يقوم الإمبراطور بتعيينه ويعد نائبا عنه وممثلا له .

praefectus militaris : (٢) هو ضابط رومانى أسندت إليه مهمة الإشراف على قسم من القوات المسلحة .

sitologos : محصل ضرائب الغلال ، وجمعها sitologoi وهو عمل إلزامى لإدارة صومعة الغلال . راجع Liturgy .

stater : مثقال يساوى ٣٥٠ جراماً .

strategos : الجمع strategoi ، وهو لقب المسئول الأول فى الإقليم ، ويمارس سلطة تشريعية وإدارية ، وليس له أى اختصاص عسكرى ولا يقود أى قوات عسكرية .

talent : (١) مثقال يساوى ٤٤ كيلو جراما، (٢) وحدة عملة تساوى ٦٠٠ دراخمة .

Thebaid : راجع epistrategos .

toparch : (المركز) قسم إدارى فى الإقليم ، يخدم أساساً مهام تحصيل الضرائب .

الوثائق البردية

جـرى العرف على أن يشـار إلى البردى بحرف P ، وقطع الأوستراكا بحرف O ، ثم يتبع ذلك اسم المجموعة ، وهـو عادة اسم المكان الذى عثر فـيه على أوراق البـردى أو قطـع الفـخار مثـل بـردى البهنسا P. Oxyrhynchus ، أو المكان الذى توجد فيه الآن أوراق البردى مـثل مجموعة بردى ميتشيجان P. Michigan وتتمثل الاستثناءات من هذه القاعدة فى المجموعات الآتية :

BGU = The Berlin Egyptian Museum Greek " Urkunden" (documentary papyri) ,

وأغلب أوراق هذه المجموعة فى برلين التى كانت تطلق عليها الشرقية سابقًا قبل توحيد ألمانيا ، وهـى الوثائق التى نشرت أو أعيد نشرها = = M. Chr., W. Chr على يد كل من :

L. Mitteis, U. Wilcken Chrestomathei . Leipzig - Berlin فى ليبزج وبرلين عام ١٩١٢ .

S. B= Sammelbuch الكتـاب الجامع وهـو سلسلة مـتصلة حتى الآن من المجلدات التى يتم فـيـهـا عـادة نشـر الوثائق التى تم نشـرها فى الدوريات أو التـى نشـرت فى أجـزاء صدرت لمناسبات خاصة . وجميع قوائم المجموعات الرئيسية التى صدرت حتى اليوم متوفرة مع اختصاراتها فى المؤلفات التالية :

J.F Oates et al., Checklist of Editions of Greek Papyri and Ostraca, Bulletin of the American Society of Papyrologists, Supplement I, 1978, With addendum to 30 June 1981.

E. G. Turner, Greek papyri , An Introduction , Oxford , 1968, second.

edition (paper back) 1980, pp. 156-171 .

راجع ص ٣٣٥ من الكتاب حيث قمت بوضع ملحق لأحدث قائمة لمجموعات البردى والأوستراكا العالمية . (المترجمة)

النقوش

IGRR = Inscriptiones Graecae ad Res Romans perinentes, 3 vols., Paris 1906 - 27 , reprinted Chicago, 1975.

OGIS = Orintis Graecae Inscriptiones Selectae, 2 vols, Leipzig, 1903 -5, re-printed Hildeshein 1960 .

SEG = Supplementum Epigraphicum Graecarum. Leiden, 1923 .

L. R. - N. Lewis and M. Reinhold, Roman Civilization, 2 vols, New York, 1951-5.

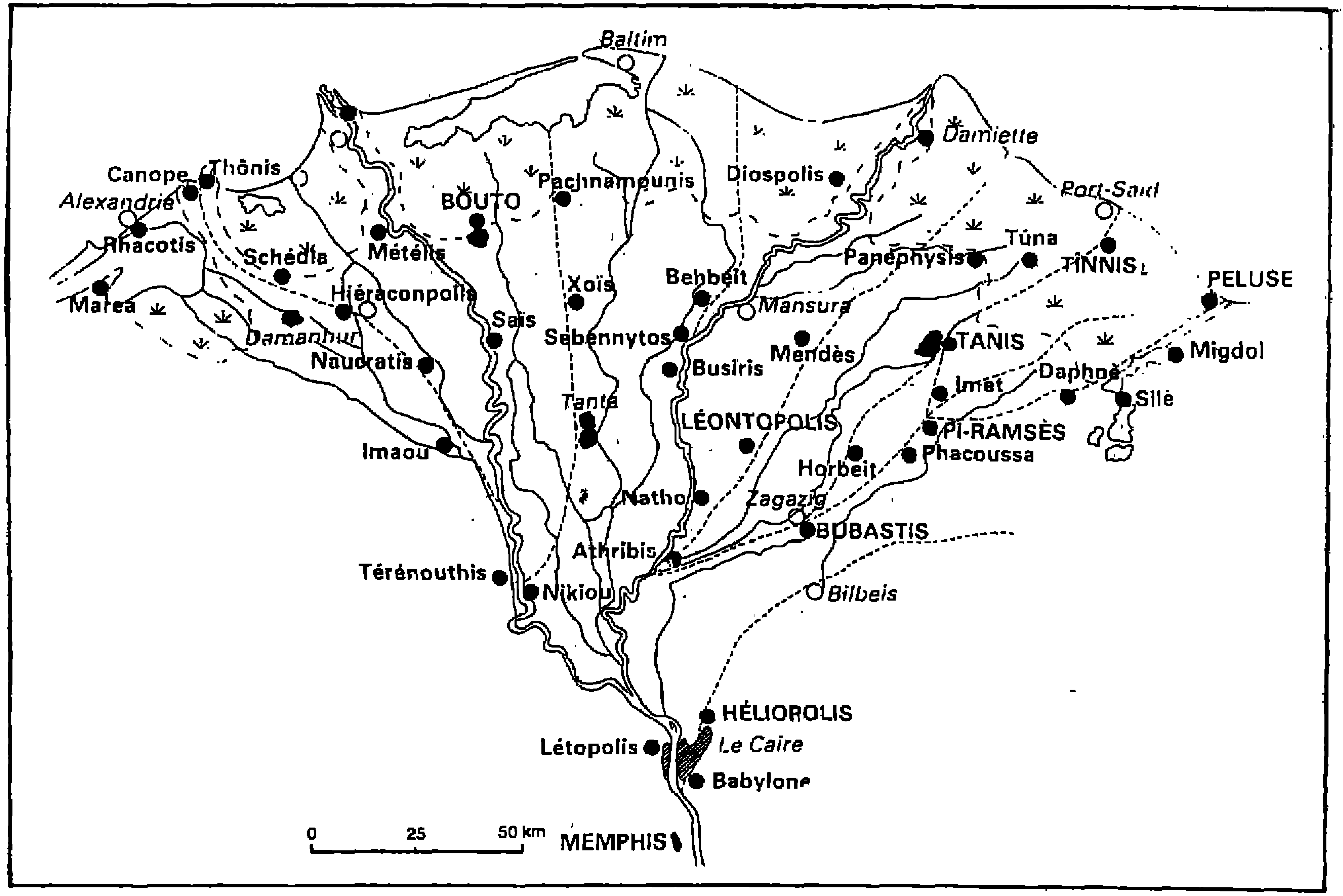

Baltim
Canope
Thônis
Alexandrie
Rhacotis
Marea
Schédia
Métélis
BOUTO
Pachnamounis
Diospolis
Damiette
Port-Saïd
Hiéraconpolis
Damanhur
Naucratis
Saïs
Xoïs
Sebennytos
Behbeit
Mansura
Busiris
Mendès
Panéphysis
Tûna
TINNIS
PELUSE
Migdol
TANIS
Imet
Daphné
Silé
PI-RAMSÈS
Phacoussa
Tanta
LÉONTOPOLIS
Horbeit
Imaou
Natho
Zagazig
BUBASTIS
Athribis
Térénouthis
Nikiou
Bilbeis
HÉLIOPOLIS
Létopolis
Le Caire
Babylone
0
25
50 km
MEMPHIS

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	چون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	چورج چيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوڤا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إڤيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	ڤيسواڤا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديڤيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	چون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	چون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	چيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	چان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديڤيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روچر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريچيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنچامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وچون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيتل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورب ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	چى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البريرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	چانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز چاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديڤ روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ووليرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورچ مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	چين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى سپيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤى برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوچين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارڤن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠- أنثروبولوچيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٢٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وألن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- ملحمة السيِّد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨- الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	ڤيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥- اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠- فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديسًا (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧- سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	آرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠- الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣- الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤- الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥- موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧- أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧- الحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن ڤان لون	حمدي الجابري
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	على عبد الرءوف البمبي
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر في عهد محمد على	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الاحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	چوناثان ميلر وبورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا تعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣- سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤- الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥- الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦- امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧- محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨- الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩- الملف (مسرحية)	تادوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠- محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١- ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢- أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣- أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حائيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤- أقدم لك: دريدا	چيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥- أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وچودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦- أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧- أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وچودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨- أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩- أقدم لك: التحليل النفسى	إيڤان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠- الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١- الذاكرة والحداثة	وليم رود ڤيڤيان	منى البرنس
٧٠٢- مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	چوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤- فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥- فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦- الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	چونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧- أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨- فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩- معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠- الأطفال والتكنولوچيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١- درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢- الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣- الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤- حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥- سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦- جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧- جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨- جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩- مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠- مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام چونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤- اليسار الفرويدى	پول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥- الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثاليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧- حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨- العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١- النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥- فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨- دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورج	محمد عواد
٧٣٩- دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورج	محمد عواد
٧٤٠- خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١- الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢- أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣- الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥- المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما	تريڤور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨- تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩- إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠- الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣- التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤- الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥- تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦- ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧- تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨- الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تيرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجونذو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	جون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورج وپول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧-	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩-	سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠-	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢-	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣-	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس پاترسون	عزة الخميسى
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرڤيه-ليجيه وچان پول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥-	من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦-	الطبقة العليا المصرية	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وچوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١٠-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وچوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١١-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢-	تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣-	لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤-	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى

يقدم هذا الكتاب صورة شاملة عن "الأغلبية الصامتة" من الشعب المصرى فى العصر الرومانى من خلال مئات الآلاف من أوراق البردى المكتوبة باللغة اليونانية . لقد وصلتنا هذه الأوراق بحالتها الأصلية . غير مزيفة ودون وساطة من أحد من الكتاب القدامى . مما جعل الصلة مباشرة ووثيقة مع المكان والسكان . لذلك سوف يقابلهم القارئ ليس من خلال كتاب أو مسرحية أو قصائد منظومة مثل قصائد الشاعر الرومانى جوفينال تصورهم بشخصية معينة ، ولكن من خلال طريقتهم الخاصة التى يريدون هم الظهور بها وجها لوجه ، أفرادا وجماعات فى حياتهم الخاصة والعامة ، ويرى الطريقة التى كانوا يفكرون بها ، وكيف كانوا يقومون بممارسة أعمالهم ، ويحضر معهم أفراحهم ويشاركهم أتراحهم ، ويتتبع علاقاتهم مع إدارة بلادهم ومنها يضع يده على أسباب شكواهم ويسمع أنينهم .

الغلاف / أنجى جوج

Bibliotheca Alexandrina
0639905

الحياه اليوميه في مصر الرومانيه_مان
Price: 18.00 L.E.